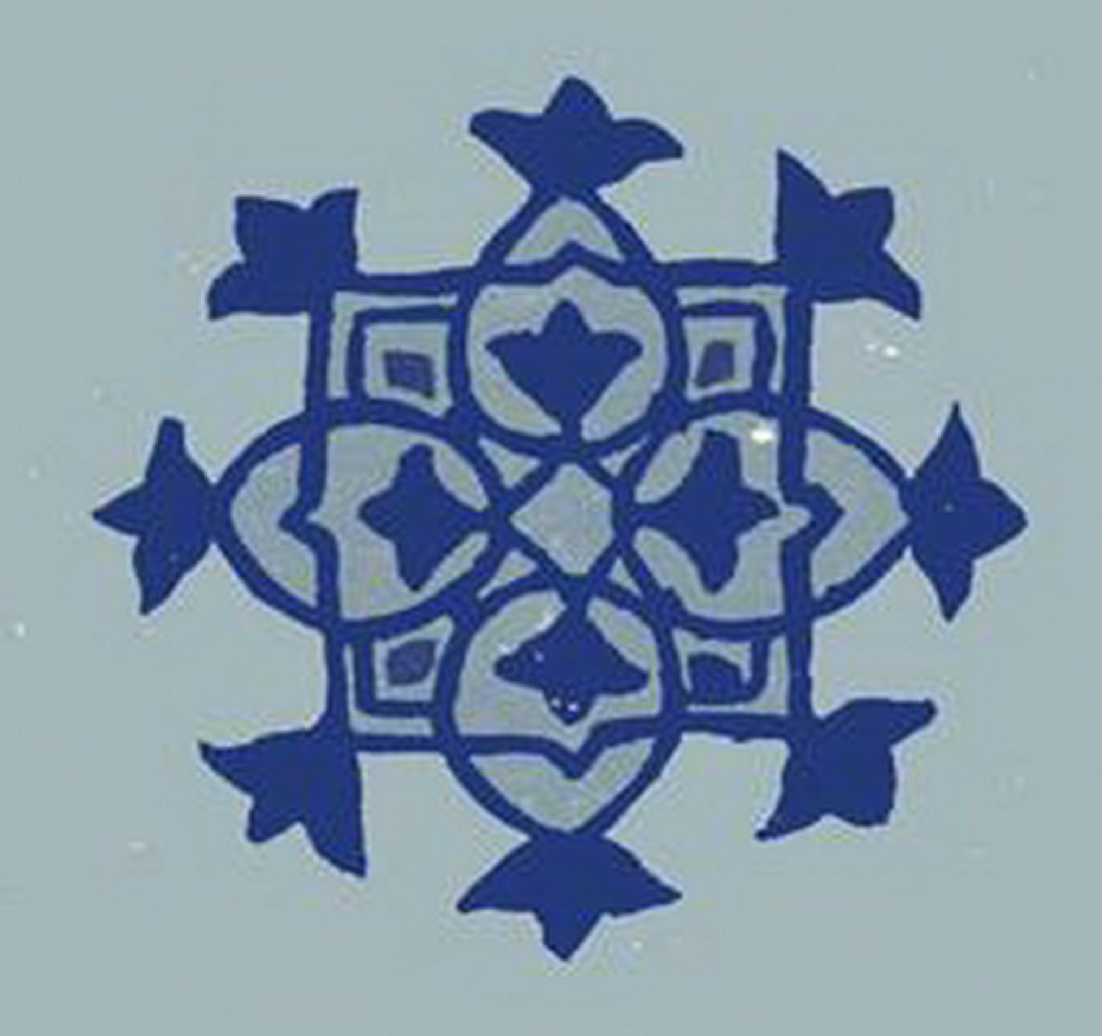
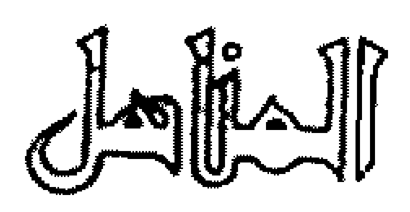
المناهل



3



المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثالث
السنة الثانية

جمادى الثانية 1395
يونيه 1975

نظم مثلث قطرب وشرحه

عبد الله كنون

هناك الفاظ تشتبه حروفها ، ويختلف شكل اولها باختلاف المعنى ، فالمفتوح له معنى غير معنى المكسور ، والمضموم كذلك معناه غير معنى هذين ، وهى المعروفة بالمثلثات ، واحدها مثلث . وقد كان اول من اثارت انتباهه ، هو اللغوى الكبير المشهور بقطرب ، واسمه محمد بن المستنير ، تلميذ سيبويه ، وهو الذى اطلق عليه لقب قطرب ، تشبيها له بهذه الدويبة التى تسمى بذلك الاسم لحركتها الدائبة ، وجمع صاحبنا هذه الالفاظ فى كتاب صغير يعرف بمثلث قطرب اعتنى به الناس كثيرا ، والف فى موضوعه بعده غير واحد من اهل العلم كابن السيد البطليوسى وابن مالك صاحب الالفية والفيروزبادى صاحب القاموس . وآخر من

علمت انه الف فيه الشيخ حسن قويدر الخليلى من اهل القـــرن الثالث عشر الهجرى ، له فيه رجزية بديعة النظم اولها :

يقول من اساء واسمه حسن　　　لكن لـــه ظن بمولاه حسن

وهى مطبوعة بالمطبعة الاميرية فى بولاق عام 1301 هـ .

وانا فى هذا البحث القصـــير لا يهمنى من هذه المؤلفات فى المثلـــث الا ما عنونت به البحث وهو نظم مثلـــث قطرب وشرحه ، فكتاب قطرب نفسه لا اتعرض له ولا لما كتب عليه من ذيل او شرح ، لان ذلك يطول .. وما بعثنى على الاهتمام بهذا النظم الا طرافته والاسلوب الذى تناول به موضوع المثلثات ، وهو موضوع لغوى بحت ، فأحالـــه بحسن تأتيـــه وبطريقة التورية الى عمل ادبى جميل ؛ الى شعر غزلى يكاد القصد منه ، وهو نظم المثلثات يخفى على قارئه .

وهذه الطريقة هى التى ارتكبها ناظم آخر لعلم مصطلح الحديث ، وهو العلامة ابن فرح الاشبيلى نزيل دمشق ، ففرغ معانى المصطلح فى قصيدة غزلية رائعة ، بلغت غاية الشهرة وتعرف بقصيدة (غرامـــى صحيح) ، اخذا من الجملة الاولى فى مطلعها الذى يقول فيه صاحبها :

غرامى صحيح والرجاء فيك معضل　　　وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل

فورى فى هذا المطلع بأربعة القاب من القاب الحديث الشريف ، وهـــى الصحيح والمعضل والمرسل والمسلسل ، وذلك من حيث لا يشعر السامع او القارىء بمقصده ، ومن ثم قيل ان هذه القصيدة لو قرئت على عربى قح لما فهم منها غير الغرض القريب وهو التغزل ، اما الغرض البعيد وهو نظم الاصطلاح فانه لا يخطر له ببال .

ولاستحسان هذه القصيدة شرحها كثير من العلماء ونسج العلامة الصبان على منوالها قصيدة فائية يقول فى مطلعها :

صلوا صحيح غرام صبره ضعفا　　　وبدلوا قطع من فى حسنكم شغفـــا

ولا اقول ان ابن فرح قلد ناظم المثلث ولا ان صاحبنا هذا قلد ابن فرح ، فهما كانا متعاصرين وكان ناظم المثلث احرى ان يكون هو المقلد لابن فرح ، لما علم من ان الاندلسيين هم مبتكرو هذه الفنون من القول والرمز فى نظمهم للعلوم ، كما فعل الشاطبى فى قصيدته المشهورة فى علم القراءات والخزرجى فى قصيدته العروضية . . ولكنا هنا بصدد لون آخر من النظم وهو استغلال نوع التورية من محسنات البديع ، وصاحب نظم المثلث وان عاصر ابن فرح ، فهو متقدم عليه فى الوفاة بنحو عشر سنين ، ولذالك ينتفى الترجيح بينهما فى الاسبقية لهذا الاسلوب فى النظم ، وما ينبنى على ذلك من تقليد احدهما للآخر .

وقد وهم بعضهم فى نسبة هذا النظم لقطرب نفسه ، كما يفهم من كشف الظنون وتبعه على ذالك صاحب معجم المطبوعات . . مع ان فى آخر النظم ما ينفى ذالك ، ويثبت ان الناظم شخص آخر غير قطرب . نبه على هذا الاستاذ خير الدين الزركلى فى قاموس الاعلام . والناظم الحقيقى هو عبد الوهاب المهلبى البهنسى المتوفى سنة 685 كما فى قاموس الاعلام ؛ وبروكلمان ؛ وفى نسخة خطية من النسختين اللتين تحت يدى ؛ وعليهما اعتمادى فى النص الذى سأقدمه من هذا النظم . فقد ختمت هذه النسخة ببيتين اشك فى نسبتهما للناظم لهلهلة نظمهما وان كنت لا اشك فى ان صاحبهما كان يعرف من هو الناظم وراى خلو النظم من اسمه ؛ وربما اطلع على الوهم المشار اليه فى نسبة النظم لقطرب ، فنظم البيتين وذيل بهما المنظومة الجميلة التى تستحق التعريف بصاحبها . وسأشير الى هذين البيتين عند تقديم النص فى التعليق ، وفى النسخة الخطية الاخرى وهى بخط الوالد نسبته كذلك للمذكور الا ان فيها عوض البهنسى البلنسى ، مع زيادة وصف الاندلسى ولعله تحريف ، وتأكيدى على نسبة النظم للبهنسى من هذه الطرق ، لكون مترجميه لم ينسبوا له تأليف ايا كان ، لا هذا النظم ولا غيره ، وان وصفوه بأنه كان فقيها اصوليا نحويا نظارا ، وانه ولى قضاء مصر والوجه البحرى ، ومن قوة عارضته ان الشيخ شهاب الدين القرافى حضر عنده مرة وقت الدرس ، وهو يتكلم فى الاصول فشرع القرافى يناظره وصاحبنا يعلو

بكلامه عليه ، فقام طالب يتكلم بينهما ، فاسكته وقال له : فروج يصيح بين الــديــكـــة .

وقد ثبــتت ترجمته فى طبقات الشافعية للسبكى وبغيــة الوعـــاة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد .

على ان النظم نفسه لم يشتهر وينتشر بما فيه الكفاية حتى يصيـــر متداولا ومعروفا بين جميع الناس ، وغاية ما يذكر منه مطلعه او الشطر الاول من المطلع ، واشهر منه عند العلماء شرحه الذى نتكلم عليه قريبا . ولعل ذلك لانه يعتبر كمنظومة غزلية انما تهم اهــل هذا الشأن فى حين ان الشرح يعتبر متنا لغويا يستظهر به فى تفسير معانى هذه الالفاظ .

ويذكر بروكلمان ان المستشرق فلمر نشره سنة 1857 ونشره ايضا الاستاذ محمد بن شنب فى الجزائر سنة 1907 . . ولــم اقــف على اى منهما . واود عند العثور عليهما ان اجد فيهما ما يكمــل هــذا البحــث ويطعمه بما ليس فيه .

واعتمادى فى النص الذى اقدمه على نسختين فى خزانتنا الكنونية ، احداهما بخط الوالد رحمه الله والاخرى بخط غيره ، وهى على ما يظهر اقدم قليلا وان كانت اكثر تصحيفا . وقد اجتهدت فى ان اخرج منهما نسخة صحيحة بقدر الامكان ، مساهمة فى نفض الغبـــار عن هذا الاثــر الادبى النفيس ، وتعاونا مع العاملين على خدمته . . ولهذا المعنى قلت (النص الذى اقدمه) ولم اقل (الذى انشره) تفاديا من التزامات النشر العلمى التى تقتضى مقابلة اكثر ما يمكن من النسخ المخطوطة بعضها مع بعض والاطلاع على الطبعات السابقة للكتاب . فانا لا ادعى شيئا من ذلك ، وانما اعطى صورة مما عندى تفيد فى ترويج هذا النظم وتسهم فى تحقيقه ولــو بأقــل نصيب .

ذلك ما يتعلق بنظم المثلث ، واما شرحه فانـــا اعنى بـــه الشرح المنظوم على نسقه وترتيبه وهو المسمى بالمورث لمشكل المثلث المنسوب

خطأ فى ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون لعبد العزيز الديرينى الدميرى سنة 694 . وذلك لانه كما نرى توفى بعد ناظم المثلث بتسع سنوات ، فيبعد ان يكون شارحا له من غير ان تكون بينهما علاقة كالتلمذة او الصداقة تمكنه من الاطلاع على النظم وتبعثه على شرحه ، ولم نطلع على شىء من ذلك ، فيبقى الاستبعاد حافا بهذه النسبة . ثم ان ترجمته ليس فيها ذكر لهذا الشرح ، على حين جاء فيها ان له ارجوزة فى علم التفسير تزيد على 3000 بيت ، وكتبا اخرى منها طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب فى التصوف وهو مطبوع معروف .

واقطع من كل هذا فى عدم صحة نسبته اليه انه جاء فى آخره. اعنى الشرح ، التصريح بأن صاحبه مغربى ، والديرنى مصرى لا شك فيه .

وكنت ابحث عن عبد العزيز المغربى هذا الذى يمكن ان يكون ناظم الشرح ، فوقفت على شخص بهذا الاسم هو عبد العزيز بن عبد الواحد المغربى المكناسى شيخ القراء بالمدينة المنورة ، الامام العالم الاديب ، كما وصفه ابن العماد فى الشذرات ، وزاد قائلا انه كان فاضلا علامة متفننا شاعرا صالحا دمث الاخلاق كثير التواضع له عدة منظومات فى علوم شتى منها منهج الوصول ومهيع السالك للاصول فى اصول الدين ، ونظم جواهر السيوطى فى علم التفسير ، ودرر الاصول فى اصول الفقه ، ونتائج الانظار ونخبة الافكار فى علم الجدل ونظم العقود فى المعانى والبيان وتحفة الاحباب فى الصرف وغنية الاعراب فى النحو ونزهة الالباب فى الحساب والدرر فى المنطق . الخ وتوفى سنة 964 ، فقلت ولم لا يكون له ايضا المورث لمشكل المثلث ، نظما مسمى كسائر الانظام الاخرى التى نسبها له صاحب الشذرات فى هذه الترجمة لا سيما واسمه عبد العزيز وهو موصوف بالمغربى كما فى النظم . وزال الاشكال بالتصريح بنسبة هذا الشرح له عند بروكلمان مسمى باسمه المورث ونسبة صاحبه الى مكناس ، وذكر وفاته سنة 964 ، والنص على ان شرحه هذا نشر فى فاس سنة 1317 هـ ، وهو يعنى بنشره ظهوره فى كتاب مجموع المتون الكبير الذى طبع بفاس على الحجر مرارا ، منها الطبعة التى اشار اليها فى تلك السنة . وبروكلمان لا يقول ذلك الا لكونه

راى التصريح باسم صاحبه الحقيقى فى بعض النسخ المعتمدة او عند احد المؤلفين ممن لم نطلع عليهم ، وطبع هذا الشرح مجردا عن النظم المشروح ، مما يدل على الاهتمام به اكثر من النظم ، وذلك ما المعت اليه آنفا من كونه بين اهل العلم اشهر من اصله . ثم ان طبعته هذه تعطينا نسخة ثالثة زيادة على المخطوطتين اللتين تحتويهما خزانتنا ، وهما تشتملان على النظم وشرحه معا .

ولكنى لم اجعلهما اصلا ، بل اعتمدت على الشرح المطبوع وبنيت عليه ترتيب النظم وتصحيحه ، اذ كان قد تداولته ايدى العلماء ورددته السنتهم ، ومن املاءاتهم حفظنا بعض ابياته ولا شك انه انما اثبت فى مجموع المتون عن عدة نسخ كما هو الشأن فى المتون الاخرى ، ولا يفوتنى فى الاخير ان اثير الى ان كلا من النظم وشرحه ، من مجزو الرجز ، وعلى قافية الباء المكسورة مع تقفية الاشطار الثلاثة من كل بيتين بالحرف الاخير من اللفظ المثلث المنظوم او الشروح الا قليلا ، فهما اى النظم وشرحه على شكل الرباعيات المعروفة فى الشعر العربى .

وهذا هو النظم المستخرج من النسختين بعد مقابلته على الشرح المطبوع :

يا مولعا بالغضب	والهجر والتجنب
فى جده واللعب	حبك قد برح بى
ان دموعى غمر	وليس عندى غمر
يا ايها ذا الغمر	اقصر عن التعتب
بدا وحيى بالسلام	رمى عدوى بالسلام
اشار نحوى بالسلام	من كفه المختضب
تهيم قلبى بالكلام	وفى الحشا منه كلام
فسرت فى ارض كلام	لكى انال مطلبى

ثبت لأرض حرة ... معروفة بالحرة
فقلت يا ابن الحرة ... ارث لما قد حل بي
جدد فالأديم حلم ... وما بقى لى حلم
ولا هنا لى حلم ... مذ غبت يا معذبى
حمدت يوم السبت ... مذ جاء محذى السبت
على بنات السبت ... فى المهمه المستصعب
خدد فى يوم سهام ... قلبى بامثال السهام
كالشمس اذ ترمى السهام ... بضوئها الملتهب
دعوت ربى دعوه ... لما اتى بالدعوه
وقال عندى دعوه ... ان زرتم فى رجب
دلفت نحو الشرب ... فلم اذد عن شرب
فانقلبوا بالشرب ... ولم يخافوا غضبى
رام سلوك الخرق ... مع الظريف الخرق
ان بيان الخرق ... منه ، ركوب السبسب
زاد كثيرا فى اللحا ... من بعد تقشير اللحا
لما راى شيب اللحى ... صرم حبل السبب
طرحنى بالقسط ... ولم يزن بالقسط
فى فيه عرف القسط ... والعنبر المطيب
ظبى ذكى العرف ... وآخذ بالعرف
وآمر بالعرف ... سام رفيع الرتب
كأننى فى لمه ... مذ شاب شعر اللمه

وما بقى لى لمه   ولا لقى من نشب

لما اصاب مسكن   فاح نسيم المسك

وكان فيه مسكنى   وراحتى من تعبى

ملت دموعى حجرى   وقل فيه حجرى

لو كنت كابن حجر   لضاع فيه ادبى

ناول برد السقط   من فيه ، غير السقط

فلاح رمى السقط   من خده كالشهب

صاحبنى فى صره   فى ليلة ذى صره

وما بقى فى الصره   خردلة من ذهب

ضمنته نبت الكلا   بالحفظ منى والكلا

فشق قلبى والكلى   عمدا ولم يرتقب

عال كريم الجد   وفعله بالجد

الفيته كالجد   المعضل المضطرب

غنى وغنت الجوار   بالقرب منى والجوار

فأسمعوا صوت الجوار   ثم انثنوا بالطرب

فداره قد عمرت   ونفسه قد عمرت

وارضه قد عمرت   من بعد رسم خرب (1)

قولا لاطيار الحمام   يبكيننى الى الحمام

اما ترى يا ابن الحمام   ما فى الهوى من كرب

---

(1) يلاحظ ان المثلث هنا من باب الفعل لا من باب الاسم وان اختلاف معاني الفاظه باختلاف شكل عينه وربما كان هذا مما ادرج فى النظم وشرح عليه الشارح وهو ليس منه .

سار مجدا في الملا ... وابحر الشوق ملا
ولبسه لين الملا ... فقلت يا للعجب
شكلته كشكلي ... تيمني بالشكل
وغلني بالشكل ... في حبه ، واحر بي
هذي علامة الرقاق ... فانظر الى اهل الرقاق
هل نطقوا بعد الرقاق ... بالصدق او بالكذب
وجدته كالقمه ... في جبل ذي قمه
مطرحا كالقمه ... قلت له احفظ مذهبي
لا تركنن للصل ... و لا تلذ بالصل
واحذر طعام الصل ... وانهض نهوض المحتبي
يسفر عن عيني طلا ... ووجنة تحكي الطلا
وطلية من الطلي ... اغيد لم يحتجب
فأم قلبي امه ... عند نزول الامه
فاستمعوا يا امه ... بحقكم ما صار بي
لما رايت دله ... وهجره ومطله
نظمت في وصفي له ... مثلثا لقطرب (2)

وهذا هو الشرح على الترتيب المذكور :

---

(2) في النسخة الثانية من المخطوطتين يجيء بعد هذا البيتان المشار الى انهما تضمنا اسم الناظم وهما ليسا له على ما قدمت ، ونصهما :

نظما يضيء كالشهاب ... الفه عبد الوهاب
قاضي النحاة والادب ... وفحل أهل المذهب

ولا يخفى ما في البيت الاخير من النظم ، من الدلالة على ان صاحبه غير قطرب كما نبه على ذلك في قاموس الاعلام .

حمدا لبارئي الانام ثم الصلاة والسلام
ما ناح فى دوح حمام على الرسول العربى
وآله وصحبه ومن تلا من حزبه
بسبيله فى حبه على ممر الحقب
وبعد فالقصد بتمنا نظمته شرح لما
قد كان قبل نظما مثلثا لقطرب
مقدما فتحا على كسر فضم مسجلا
وهكذا على الولا نظما على الترتب
سميته بالمورث لمشكل المثلث
من غير ما تريث من لى بنيل الارب
وسل من المولى العلى غفران كل الزلل
ثم قبول العمل بالمصطفى المقرب
صلى عليه ذو العلا ما هطلت مزن على
ربع فاضحى مبقلا من كل نوع طيب

* * *

الغمر ماء غزرا والغمر حقد سترا
والغمر ذو جهل سرى فيه ولم يجرب
تحية المرء السلام واسم الحجارة السلام
والعرق فى الكف السلام رووه فى لفظ النبى (3)

(3) يشير الى قوله (ص) على كل سلامي من احدكم صدقة الحديث

امـا الحـديـث فالـكـلام والجرح فى امرىء الكلام
والموضـع الصلـب الكـلام للـيـبـس والـتـصلـب
والـحـرة الـحـراره والـحـرة الحجـارة
والـحـرة المخـتـاره مـن محصنـات الـعـرب
الحلـم ثـقـب فى الاديـم والحلـم من خلـق الكريـم
والحـلم فى الـنوم العميـم بـالـصـدق او بالـكـذب
الـسـبـت يـوم عـبـدا والسبـت نـعـل حـمـدا
والسبـت نـبـت وجـدا فى معـمـر او سبـسـب
لـشـدة الـحـر السهـام وللـنـبـال قـل سـهـام
ولضـيـآ الشمس السهـام فى مـشـرق او مـغـرب
ودعـوة الـعـبـد الدعـا ودعـوة الـمـرء ادعـا
ودعـوة مـا صـنـعـا للاكـل وقـت الطـلـب
الـشـرب جمـع الـنـدمـا والـشـرب حـظ قسـمـا
والشرب فـعـل عـلـمـا و قـيـل مـاء العـنـب
الخـرق مـا قـد عظمـا والـخـرق حـر كـرمـا
والخـرق حـمـق لـؤمـا فـمـنـه كـن ذا هـرب
عذلـك للـمـرء اللحـا وقشرة الـعـود اللـحـا
وجـمـع لحـيـة لـحـى بـالضـم والكسـر حبـى
القـسـط جـور رفـضـا والقسـط عـدل قرضـا
والقسـط عـود مرتـضـى لـعـرفـه الـمـطـيـب
الـعـرف ريـح طـيـب والعـرف صـبـر يـنـدب

والعرف امر يجب | عند ارتكاب الريب
لجنة قل لمه | وشعر راس لمه
وجمع ناس لمه | من عجم او عرب
المسك جلد يا غلام | والمسك من طيب الكرام
والمسك بلغة الطعام | تكفى الفتى من نشب
الحجر فى الثواب امام | والحجر بالبيت الحرام (4)
وحجر والد الهمام | امرى قيس عربى
السقط ثلج قد عرا | والسقط ما ترمى المرا
والسقط زند قد ورى | فى ضوئه والغيهب (5)
قل ثلة فى صرة | وقرة فى صره
وخرقة فى صره | مشدودة من ذهب
العشب يدعى بالكلا | و للحراسة الكلا
وجمع كلية كلى | لكل حى ذى اب
الجد والد الاب | والجد ضد اللعب
والجد عند العرب | البئر ذات الخرب
جارية احدى الجوار | ومصدر الجار الجوار
ورفع صوت الجوار | من وجع او طرب
وداره قد عمرت | عمارة و عمرت

(4) فى الشرح المطبوع ثبت هنا بيت النظم بدل بيت الشرح ولم يرد الشرح الا فى نسخة الوالد .
(5) سقط هذا التفسير من الشرح المطبوع والمخطوطة الثانية ولم يثبت الا فى نسخة الوالد .

نفــس الفتــى وعــمــرت ... ارضــك بــعــد الخــرب
طــيــر شهيــر الحــمــام ... والموت قــل فيــه الحمــام
وعلــمــا جــاء الحــمــام ... على فتــى مــنــتــســب (6)
جماعــة الــنــاس الــمــلا ... و قــل اوانــيــهــم مــلا
ولبســهــم هــى الــمــلا ... من عــبــقــرى مــذهــب
الشــكــل عين الــمــثــل ... والشكــل حــســن الــدل
والشكــل قــيــد الــغــل ... مــخــافــة الــتــوثــب
متــصــل الرمــل الرقــاق ... وفى مسيــل المــآ الرقــاق
والخــبــز ان رق الرقــاق ... يــقــال عــنــد الــعــرب
وســؤر لــيــث قــمــه ... وراس طــــود قــمــه
بــكــســرهــا والــقــمــه ... مــزبــلــة لــلــقــشــب
الصــل صــوت بــيــن ... والصــل حــنــش لــيــن
والــصــل لحــم مــنــتــن ... طــبــخ او لم يــطــب (7)
ظبــى كحــيــل : الــطــلا ... والخمر قــل فيهــا الطــلا
وطــلــيــة مــن الــطــلا ... جــيــد الفتــى المــهــذب
شــجــة راس امــة ... تــدعــى وقالــوا امــه
لــنــعــمــة وامــه ... مــن عــجــم وعــرب
امــا الــغــزال فالــرشــا ... والحبل للدلــو الرشــا (8)

---

(6) هو الحمام بن المنذر الصحابي الجليل .
(7) ثبت فى الشرح المطبوع هنا بيت النظم بدل الشرح .
(8) ما بين الرقمين (2) من الشرح ثبت فى المطبوع وفى النسخة الثانية من المخطوطتين ولم يثبت مشروحه فى نظم المثلث من المخطوطتين فأثبتناه لمزيد الفائدة ، ولاحتمـال وجود مشروحه فى أصل آخر .. وهذا ايضا مما يدل على انتشار الشرح اكثر من النظم.

وبذل مال الرشا	لحاكم مستكتب
حب القرنفل الزجاج	وزج الارماح الزجاج
وللقوارير الزجاج	وهو سريع العطب
كناسة البيت اللقا	**والزحف للحرب اللقا**
وانت احرقت اللقا	من عسل باللهب
الحمة اسم المنه	والامتنان المنة
والقوة اسم المنه	وهو دليل الغلب
المتن للمرء القرا	ونزل ضيف القرا
وجمع قرية قرى	كمكة و يثرب
ريق الحبيب الظلم	وفى النعام الظلم
فحل واما الظلم	فالجور من ذى غضب
القطر غيث ساكب	والقطر صفر ذائب
والقطر عود جالب	من عدة فى المركب (9)
هذا تمام شرح ما	نظم من تقدما
من ادباء العلما	مثلثا لقطرب
هذبه للحب —	رجاء عفو الرب
عما جنى من ذنب	عبد العزيز المغربى
مصليا مسلما	على رسول كرما
والآل والاصحاب ما	لاح بريق يثرب

طنجة — **عبد الله كنون**

---

(9) هنا يصف الشارح نفسه بانه مغربي فيدفع نسبة شرحه الى الغير كما اشرنا لذلك فى البحث .

الثقافة
لغة، وفكرة، وتنظيما

محمد العربي الخطابي

الثقافة كلمة حية متطورة من حيث مدلولها اللغوي وأبعادها الفكرية والوجدانية ومراميها الانسانية والاجتماعية ، فهي ، من جهة ، صفة من صفات العقل والنفس ، ومن جهة اخرى نمط من التفكير والسلوك الوجداني ومنهاج لتقويم المزايا الروحية والعقلية والحسية . والثقافة بعد هذا وذاك مؤسسة رائعة أوجدها العقل الانساني المبدع ، وتعهدتها الاجيال المتعاقبة بالشذب والتكميل والاثراء حتى غدت برهانا على عبقرية الانسان ونزوعه الدائم الى الكمال ، ولعلها المؤسسة الوحيدة التي يلتقي عندها البشر من مختلف الاجناس فى وفاق وانسجام ويطمئنون اليها اطمئنان المرء الى شيء عزيز عليه اثير عنده ، يحرص على استبقائه .

الثقافـــة ، لغـــة

معنى الثقافة عند العرب الاقدمين الفطنة والحذق وسرعة الفهم ، وهي من ثقف الشيء ثقفا وثقافا أي حذقه وتعلمه بسرعة. قالت العرب : رجل ثقف اي فطن ، فهم ، حاذق . وزاد محمد بن منظور فى (لسان العرب المحيط) قوله : « والمراد انه ـ اي الرجل الثقف ـ ثابت المعرفة بما يحتاج اليه ». وهذا التعريف من ابن منظور يقرب المدلول اللغوي لكلمة الثقافة ممـا نفهمه نحن المحدثين منها ، ذلك أن « ثبوت المعرفة » من علامات المثقف بالمفهوم العصري .

ان تعريف لفظ الثقافة بأنه الحذق والفطنة والفهم ، على نحو مـا اوردته المعاجم العربية القديمة ، ربما لا يقارب الا من زاوية بعيدة مـا نفهمه نحن المحدثين من كلمة « الثقافة » ذلك انه اذا كانت الفطنة والفهم والذكاء من الصفات الفطرية التي يودعها الله فى عقول من يشاء من الناس، والتي يستعبد اكتسابها بالتعلم ، فان اضافة الحذق الى هذه الصفـات العقلية ربما يعطي للفظ الثقافة معناه الايجابي ، اذ ان الحـذق مهـارة تكتسب بالتعلم والمراس ، وتكتمل بالمزاولة الدائبـة . اذن فالرجـل « الثقف » عند العرب الاقدمين ، هو الذي يتصف بصفات عقلية خاصة : « الفطنة والفهم » ويكتسب الى جانب ذلك « الحذاقة » « وثبوت المعرفة »

ويبدو ان صيغة المثقف لم تكن شائعة بين العرب فى العصور الذهبية للحضارة الاسلامية كما كان شائعا عندهم أوصاف من مثـل العالـم ، والاديب ، والمحدث ، والمشارك ، والحافظ ، والفقيه . . . الى غير ذلك من الاوصاف التي اطلقها اجدادنا على مثقفيهم . والراجح عندي أن لفظ « المثقف » لم يعرف الا فى عصر النهضة الحديثة شأنه فى ذلـك شأن الفاظ اخرى كالمفكر والفنان والرسام ـ بمعناها الذي نعرفه اليوم ـ وربما يكون رجال النهضة الحديثة قد استخدموا هذا اللفظ فى مقابل الكلمـة الفرنسيـة Intellectuel التـي تترجـم أيضـا بالمفكـر .

أما فى اللغات الاوربيـة فان كلمـة Culture أصلهـا مـن اللاتينيـة Cultura ، ومعناها الاول خدمة الارض وفلاحتها وغرس

بعض انواع النبات ، وقد يكون معناها أيضا استغلال بعض المنتوجات الطبيعية . وقد تطور مفهوم هذه الكلمة من خدمة التربية الى تعهد العقل واستثمار الملكة ، وقد اشتهر عن سيشرون قوله : « الفلسفة هي خدمة العقل » اي تثقيفه . وقال المؤرخ المعاصر ويل ديورانت ، صاحب كتاب « قصة الحضارة » ان الثقافة مرتبطة بالفلاحة كما أن المدنية مرتبطة بالمدينة » ، وهو يشير بذلك الى الاصل اللغوي لكلمتي Culture و Civilization

وواضح أن الاصل اللغوي اللاتيني لكلمة Culture ، وما هو قريب منها من نحو Culte بمعنى العبادة او التقديس ، لا يعنينا في هذا المقام الا بقدر ما يعيننا مدلول « تثقيف الرماح » عند العرب الاقدمين ، اي تسويتها اذ نستعير هذا المعنى فنقول تثقف العقل ، اي تقوم واستقام.

الثقافة ، فكرة :

عرف مجمع اللغة العربية بالقاهرة الثقافة بكونها « كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع؛ وفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الاولى ذات طابع فردي وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية ، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي ومادي » ويقول الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي بأن « الثقافة ، بالمعنى العام ، هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق ، وحس انتقادي ، وحكم صحيح أو هي التربية التي ادت الى اكسابه هذه الصفات».

يعرف المعجم الموسوعي الكبير (لاروس) Grand Larousse Encyclopédique الثقافة بأنها « تنمية شتى ملكات العقل واثراؤها ببعض التمارين الفكرية » وبأنها « حالة العقل الذي يتم اثراؤه على هذا النحو » .

ومن هنا نرى ان ما قاله ابن منظور عن « ثبوت المعرفة بما يحتاج اليه » لا يبتعد كثيرا عن تعريف « لاروس » للثقافة ، وذلك من حيث النتيجة التي تحصل من ترويض العقل وتقويمه .

لقد اشتهر عن الاديب والسياسي الفرنسي ادوار هريو E. Herriot قوله : « الثقافة هي ما يتبقى حينما ننسى كل شيء » ، وهو يقصد أن الثقافة هو ما يرسخ فى الذهن ويمتزج بالوجدان ويقومهما بفضل المعرفة المكتسبة .

ان هيريو ــ الذي كان هو نفسه ذا ثقافة موسوعية ــ قصد ولا شك الى تجنب تقويم مدلول الثقافة ــ كفكرة ــ بمعيار كمي نيجعل منها قيمة كيفية خالصة . وهو بذلك قريب مما قصد اليه ابن منظور حينما قال : « بأن الثقافة هي ثبوت المعرفة بما يحتاج اليه » .

ويروي الدكتور صليبا عن روستان D. Rostan قوله : « العلم شرط ضروري فى الثقافة ، ولكن ليس شرطا كافيا ، انما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي أكسبنا اياها العلم ، حتى جعل احكامنا صادقة ، وعواطفنا مهذبة » وحبذا لو استعمل روستان لفظة « المعرفة » عوضا عن كلمة « العلم » .

واذا كان هذا ، بايجاز ، هو مفهوم الثقافة عند الفرنسيين ومفكري الشعوب اللاتينية بوجه عام فان الانجلسكسونيين يربطون فى الاغلب الاعم بين فكرتي « الحضارة » و « الثقافة » ، ومنهم من يعتبر اللفظين مترادفين فى مدلولهما العام .

ان الموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica لم تورد فى طبعتها التي ظهرت سنة 1929 سوى مادة « الحضارة » Civilization وذلك فى بحث قيم كتبه روبنسون James Harvay Robinson ويفهم من سياق بحثه أن للحضارة والثقافة عنده مدلولا واحدا .

وحينما اعاد أصحاب الموسوعة البريطانية طبعها سنة 1969 اثبتوا مقال المستر روبنسون بنصه ، وذلك فى مادة جعلوا عنوانها فى هذه الطبعة « الحضارة والثقافة » الا انهم ذيلوا المقال باضافة جديدة جعلوها تحت عنوان « مفاهيم الحضارة والثقافة »
Concepts of culture and civilization

مؤكدين بذلك ، ولا شك ، التطور الذي آلت اليه الثقافة وما اكتسبته من معنى خاص بها يميزها عن معنى الحضارة وذلك دون اغفال للصلات القائمة بينهما .

وقد جاء فى هذا التذييل ما ترجمته : « ان الثقافة هي منهاج الحياة الذي تسلكه جماعة بشرية ما ، ويدخل فى ذلك أنماط من السلوك تكتسب بالتعلم أو تقوم على قواعد ثابتة ينهجها فرد ويعاينها ويقرها فرد آخر ينتمي الى نفس المجموعة . وبمعنى أعم تهتم الثقافة بأنماط الحياة التي يتميز بها الانسان عن الحيوان الاعجم » ، ونقرأ فى نفس المادة من الموسوعة البريطانية « أن كل الناس يستعملون اللغة والرموز ، ولهم تراث اجتماعي يتلقونه بالتعلم ، وهم يعملون فى مجتمعات ذات كيان تنظيمي انساني متميز » .

وواضح ان هذا التعريف الاخير يغلب عليه المشرب الانثربولوجي لمفهوم الثقافة ، الذي ينظر الى كل مجموعة بشرية على حدة من حيث تراثها الثقافي والحضاري . وفى هذا المعنى يقول مجدي وهبة فى معجم مصطلحات الادب « بأن الثقافة هي احدى السمات المميزة لاحدى مراحل التقدم فى حضارة من الحضارات » .

ويفهم بعض مفكري الالمان من الثقافة أنها الدين والفلسفة والفن من جانبها الشكلي الذاتي ، بينما يفهمون من الحضارة أنها ـ اجتماعيا وموضوعيا ـ التقنولوجيا والمعلومات العلمية المتراكمة . وكأن هذا الاتجاه فى التفريق بين الحضارة والثقافة ، يذكر بالعلاقة القائمة بين الجوهر والمادة ، اذا اعتبرنا ان الثقافة هي الاصل والحضارة فرع منها .

ويبدو أن العرب كانوا يطلقون ، فى العصر الذهبي للحضارة الاسلامية وصف « الاديب » على المثقف بمفهومنا العصري . ويروي ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » عن عبد الله بن قتيبة قوله : « من اراد ان يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتفنن أو فليتوسع فى العلوم » .

والادب ، بهذا المعنى ، يقارب مدلول الثقافة . يقول ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل اولا ، والادب ثانيا » ، وقد كان الجاحظ نموذج المثقف العربي القديم كما كان ابن قتيبة وابن حزم وابن خلدون وعياض اليحصبي والقزويني والسيوطي وغيرهم من أعلام الثقافة العربية .

ومن الطريف أن كلمة « وين » ــ ادب ــ عند الصينيين . انما تدل فى أصلها على الثقافة ، أو الحضارة الانسانية بمعناهما الواسع . والشكل الذي ترسم به هذه الكلمة فى اللغة الصينية مستوحى من تخيلات جمالية مصدرها رؤية الرسوم البديعة فى فرو النمر أو اكتشاف مثل هذه الرسوم فى قبة السماء أو على اديم الارض .

وقد نظرت فى أمر الثقافة والحضارة وما قد يوجد بينهما من اختلاف فى الدلالة والمضمون رغم الترابط البين القائم بينهما فوصلت الى استنباط الصيغة ــ أو الصيغ ــ التي اسوقها فيما يلي على سبيل التسلية الفكرية لا كقاعدة يعتمد عليها :

أقول : ان قيام المدن ، ونشأة الحرف والصناعات فيها ، واتفاق سكانها على اصطناع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وما يتطلبه ذلك من تعبيد الطرق ، واستئناس الماشية والطيور ، وتنظيم الانتاج الصناعي والزراعي ، والمبادلات التجارية ، كل ذلك يعد من الحضارة . ويدخل فيه اختراع الكتابة والرموز وفنون الطباعة ، وصنع الآلات الموسيقية وتجويدها وتنويعها .

اما استعمال اللغة لاغراض الشعر والنثر البياني والتعبير عن الفكر الراقي ، وتأمل ما فى الطبيعة والكون من جمال أو قبح ومشاهدة ظواهرها قصد تفسيرها عقليا او وجدانيا ، علميا أو فنيا ، عن طريق الفلسفة والعلوم والآداب والموسيقى والنحت والتصوير والفن المعماري ، كل ذلك يعد من الثقافة ، ويدخل فى هذا التزام الجماعات البشرية بأنماط معينة من السلوك الخلقي والاجتماعي الذي يمليه ، فى العادة ، الدين والفلسفة والفنون والآداب التي ينشأ عن شيوعها ورسوخ تعاليمها وايحاءاتها معتقدات وعادات تطبع المجتمع .

باختصار ، كل ما يتصل بالتنظيم الشكلي والتفصيلي لحياة الجماعات البشرية المختلفة ويقيم بينها التعاون وينظم طرق الكسب والمعاش وتوفير الامن والطمانينة فى ظل الشرائع والقوانين والاعراف يمكن عده من الحضارة . وكل ما يستهدف بلوغ الكمال عن طريق المعرفة واستغلال الملكات العقلية والطاقة الروحية والوجدانية ، وما ينشأ عن ذلك من انماط الحياة والسلوك ، فهو ثقافة .

فالحضارة اذن عرض لا جوهر ، وهي مظهر لحياة الجماعات البشرية وميلها الفطري الى الانتظام فى مجتمع مدني مستقر . أما الثقافة فهي جوهر كل مسعى بشري يحاول ان يضفي على الحياة معنى ساميا متعاليا بتفسير مظاهرها واحداثها تفسيرا يستلهم المثل الانسانية العليا ويصوغها فى قالب جمالي مقبول .

ولعل ما قاله جوهان فون هيردر J. Von Herder من أن « كل انسان يكتسب ثقافة ويسهم فيها ، وليس كل الناس قد ولدوا داخل حضارة او يحملون حضارة » لعل هذا القول يفسر بايجاز وتركيز الفوارق بين مدلول الثقافة والحضارة . ذلك أن الانسان مفكر — خلقة وفطرة — وهو مدفوع الى تأمل ما فى الطبيعة والكون من ظواهر واسرار ، والى الاعراب عن نفسه بالقول أو بالفعل والى مقارنة تجربته الذاتية بتجارب غيره ، فهو بذلك مكتسب للثقافة بالضرورة مشارك فيها بطبعه الاجتماعي. اما الحضارة فانها لا تقوم الا باستقرار الانسان واضطراره الى التعايش مع غيره فى مجتمع مدني منظم يتعاون افراده ويتبادلون المنافع ويتوزعون فيما بينهم الاعمال بالاختيار أو بالضرورة . من ذلك تنشأ الحضارة وتتكون.

لقد سمعنا وقرانا عن رسوم بديعة حية يتجلى فيها ذوق فني رفيع اكتشفت على جدران بعض المغاور فى فرنسا واسبانيا وفى الصحراء الغربية . ان تلك الرسوم التي تعبر بألوان رائعة عن احاسيس أصحابها وتطلعاتهم الفكرية والوجدانية تعطينا الدليل على أن الرسامين البدائيين الذين أبدعوها فى عصر ما قبل التاريخ كان لهم ذوق مهذب وملكة فنية مصقولة ، فهي اذن تعرب عن نوع ثقافتهم دون أن تدل على أنهم كانوا ذوي حضارة ومدنية .

تنـــوع الثقـافـــات :

اعتبر الفيلسوف جون ديوي « أن مشكلة المجتمع المدني هي فى اساسها مشكلة تبادل الافكار » ، فاذا أخذنا المجتمع بمعناه الانسانـــي الواسع فاننا نلاحظ أن التبادل الفكري بين الشعوب المختلفة لم ينقطـــع ابدا . فمنذ اقدم العصور والناس من مختلف الاجناس يتبادلون الافكار عن طريق الفتوح ، والتجارة والسفارات والهجرة الطوعية أو الاختيارية ويعرضون معتقداتهم وعاداتهم وانماط حياتهم كما يعرضون بضائعهـــم وازياءهم فيؤثرون فى غيرهم ويتأثرون . هكذا انتقلت الكتابة ، والاديان والفلسفات والعلوم والآداب من شعب الى شعب ، ومن اقليم الى آخر .

وبالرغم من ان الامم والاجناس المتباينة قد احتفظ كل منها بقـــدر معين من الثقافة يميزها وتختص به دون غيرها الا أن الافكار الكبـــرى والاتجاهات العظيمة ، دينية كانت أم فلسفية أم علمية أم أدبية وفنية قد انتقلت بالتواتر وتفاعلت بالاحتكاك فتولدت عنها ثقافة انسانية تشترك فيها عطاء واخذا ، جميع شعوب الارض .

لقد لاحظ الفيلسوف المعاصر ، رتشارد ماك كيون « أن انقســـام الانسانية الى جماعات مختلفة تحرص كل منها على بعض الافكار وبعـــض القيم ، وكذلك انقسام الناس حسب الوظيفة الاجتماعية ، يمكن ان يؤدي الى التوتر أو الى التقدم ، ثم ان الاختلاف ، بل حتى الصـــراع حـــول الافكار والقيم قد ساعد على تقدم المعارف والفنون والمجتمع » ، هـــذا الكلام يلخص فكرة هذا الالتقاء الرائع الذي تم ويتم بين شعوب الارض ، عن طريق الائتلاف او الاختلاف ، التفاهم او الصراع ، هذا الالتقاء الذي خلف تراثا ثقافيا يتسم بالشيوع ويصطبغ بالصبغة الانسانية . وهو تراث لم تقو على تبديده تيارات التعصب والاستئثار والاستبداد الفكري الذي ساد فى هذه الامة أو تلك فى عصر أو فى آخر من عصور التاريخ .

ان الحواجز الفولاذية أوالخيزرانية التي أرادت أن تضربها بعـــض الامم للحيلولة دون تبادل الافكار بين سكان الارض لم تكن لتمنع هـــذه

الافكار من «التسرب» والانتشار ؛ حدث هذا في العصور التي كان الاستبداد الاعمى ينصب للعلماء والمفكرين المشانق ويضرم في اجسامهم وأعمالهم النيران ، وهو يحدث الان في هذا العصر ، عصر المواصلات السريعة المذهلة . غير ان الافكار والنظريات والحقائق العلمية تثبت وتنتشر . وآخر الامثلة على ذلك رواج مؤلفات باسترناك وسولجنتسين في جميع انحاء المعمور رغم المنع الذي تعرضت له في بلاد أصحابها ولم تقو الثورة الثقافية الصينية الجارفة على ان تحجب عن الناس تعاليم « كونفشيوس » الانسانية العريقة كما لم يستطع الاستبداد في عصور سلفت أن يمنع آراء رجال من أمثال الغزالي وكوبرنيك وغاليليو ومونسكيو وفولتير وروسو من الرواج في كل مكان واحداث التأثير على الناس وعلى الاتجاهات الاجتماعية والفكرية .

لقد راجت فكرة الايمان بوجود خالق مدبر للكون دعا اليها أنبياء من البشر منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، وانتقلت بين الامم والشعوب معتقدات عن الخير والشر ، عن الاجر والعقاب ، عن البعث والحياة الاخرى ، كما ذاعت بين الناس في مختلف الامصار آراء ومعتقدات عن الكون والطبيعة واصل الانسان وعلاقته بالقوى المدبرة للعالم فنشأت الفلسفات والفنون ، والسحر والتنجيم ، وانتشرت الديانات . وقد اخترع الانسان الصور والرموز ليعبر بها عن أفكاره ويترجم بها الوقائع اليومية والاحداث الهامة، وما لبث أن تطورت الكتابة وانتشرت . وانتقل الشعر من جماعة الى جماعة كما انتقلت فنون النحت والزخرفة والتصوير . وما زال ذلك هو الشأن في تعانق الثقافات منذ أقدم العصور الى وقتنا هذا . وان الانسانية لتذكر اليوم بالفخار والتمجيد الوانا وضروبا من ثقافات ما بين النهرين ، ومصر الفرعونية ، والصين ، والهند ، واثينا ، والاسكندرية ، وبيزنطة ، وروما ، ودمشق ، وبغداد ، وفاس ، وقرطبة ، والقاهرة ؛ والثقافات التي ترعرعت في عصر النهضة التي انبثق عنها تقدم عظيم في الفنون والآداب والعلوم والتي أحدثت ، بفضل رجالها وبما أخذته عن الثقافة الاسلامية في عصور ازدهارها ، أثرها الفعال في ثقافة العصر الحديث . وقد نشأ عن هذا الاحتكاك الخلاق ـــ الذي ساهمت فيه الحروب والمبادلات الدبلوماسية والتجارية ،والرحلات والهجرات ، « واقع ثقافي عالمي » فرض اعتبار

الآثار الفكرية والفنية والادبية والعلمية تراثا انسانيا مشاعا لا تستأثر بـه امـة دون اخـرى .

وهكذا فان كثيرا من الآثار الخالدة التي ابدعتها العبقرية الانسانيـة قد فقدت جنسيتها الاصلية وغدت متاعا فكريا وروحيا للناس فى كل ارض يدرسها الدارسون من كل الشعوب ويستلهمها المفكرون والادباء والفنانون فى كل مكان . وقد انتقلت الكنوز الاثرية النفيسة ، والمخطوطات النادرة، واللوحات العظيمة ، والتماثيل البديعة . انتقلت من أمكنتهـا الاصليـة لتستقر فى أشهر المتاحف وخزانات الكتب فى مختلف أمصار المعمور ، وتناقلت الاجيال والشعوب المتباينة روائع الالحان الموسيقية . ولاقـت كل هذه الآثار عناية فائقة من الدارسين والمنقبيـن وذوي المواهـب المبـدعـة .

ان المثقفين فى جميع أنحاء العالم لا ينقطعون عن النظر فى محتويات الواح ما بين النهرين ، و « كتاب الموتى » واناشيد اخناتون ، واسفـار الفيدا ، وتأملات بوذا ، وحكم لاوتسو ، وتعاليم كونفشيوس ، وكتـب سقراط وارسطو وافلوطين والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن طفيل وسان أغسطين وبيكون ورابليه وابن خلـدون وتوما الاكوينـي ،

وما تزال النحوت البديعية والفنون المعمارية الباقية تلهم القرائح فى كل مكان وتثير اعجاب ملايين الناس من مختلف الاجناس ، اذ يجدون متاعا روحيا ونفسيا وفكريا فى معابد تل العمارنة بأعالي مصر ، ومعابد موناررااك بالهند وتماثيل بوذا فى الصين والكمبودج وبورما واليابـان ، ويجـدون نفس الروعة الفنية فى مسجد قايت باى بالقاهرة وجامع قرطبة ومسجد مبات خان بباشاور ، وتستهوي نفوسهم بنفس القدر نفائـس النحـت التجسيمي مثل « الرقصة الكونية لشيفا » و « كاتب صقارة الفرعوني » و « انتصار ساموثراس » و « عبد ميكيل انجيلو » ، كما تبعث الراحة فى قلوبهم لوحات الخالدين «كجو كوندا» «دي فينشى ،» و «بوهيمية هالس» و « طاحونه هوبيما » و « بيثسابي فى الحمام » لرامبرانت ، و « حسناء كويا » و « مستحمات براكونار » ، و « الحرية تقود الشعب » لدلاكروا .

وتثير الاعمال الموسيقية الخالدة أحاسيس الناس وتلهم الكثيرين منهم ، فيذكرون بالاعجاب والنشوة آثار البينوني ، وباخ ، وموتسار ، وهيدن ، وبيتهوفن ، وفيردى وشتراوس ، ولا اتحدث عن المحدثين والمعاصرين من عباقرة الرسم والنحت والموسيقى والغناء .

انه التراث الثقافي المشترك يعيش بين البشر من مختلف الاجناس والالوان والمعتقدات فيسموا بنفوسهم ويبعث فيها الرضا والاطمئنان ، ويفتق فيهم حب المثل العليا ويشيع بينهم الالفة والتعارف ، ويعرفهم بانفسهم . وتلك هي رسالة الثقافة الحق .

الثقافة ، مؤسسة :

ان تنظيم العلاقات الثقافية الدولية ، بالمفهوم الجديد للكلمة ، قد بدا فى اوربا فى أواخر القرن التاسع عشر ، اذ نشطت حركة تبادل الافكار والاعمال الفنية والادبية والعلمية ، وبدات الحكومات تتدخل مباشرة فى تنظيم هذا التبادل وتوسيعه . يقول لوى ضولو Louis Dollot فى كتابه « العلاقات الثقافية الدولية » : « ان حرب 1914 ـ 1918 قد نمت هذا الاتجاه وحثت الدول على أن تتولى هي نفسها مسألة العلاقات الثقافية ، وبذلك أحدثت فى كثير من الاقطار اجهزة حكومية مختصة بأمور التبادل الثقافي ، وانشأت عصبة الامم المعهد الدولي للتعاون الفكري » الذي افتتح أعماله فى باريس سنة 1925. وتعتبر هذه المؤسسة الثقافية نواة (اليونسكو) اي منظمة التربية والعلوم والثقافة التي تاسست على اثر الاجتماع الذي عقد فى لندن فى شهر نوفمبر 1945 بحضور ممثلي اربع واربعين دولة أعلنوا فى نهاية اجتماعهم « ان الحروب تنشأ فى أفكار الناس ، ففي أفكار الناس يجب ان تقام حصون السلام » ، ان هذا القول الرائع المتسم بمسحة مثالية انما يدل على ارادة رجال الفكر والراي فى العالم ورغبتهم فى أن تسهم التربية والثقافة والعلوم فى تشييد حصون السلام والامن عن طريق التعاون وتبادل الافكار واستكشاف ما في الآثار الانسانية البديعة من

معاني التقارب بين الاجناس ومفازي الحق والخير والجمال لاستلهامها فى ايجاد تيار عالمي للافكار تلتقي عنده الشعوب والامم بعيدة عن التعصب والأثرة .

عين مديرا عاما لهذه المنظمة فى اول نشأتها عالم اديب ذائع الصيت ثابت النفوذ فى عالم الفكر هو جوليان هوكسلي الانجليزي الذي طبع منظمة التربية والعلوم والثقافة بروحه الوقادة وفكره النير وانسانيته الحية .

وقد سارت هذه المنظمة فى الاتجاه الذي رسمته لنفسها متخطية الصعاب التي اعترضت طريقها فى عالم شديد التعقيد ، اقتصاديا وسياسيا واديولوجيا ، فحققت فى المجال الثقافي اعمالا عظيمة على المستوى العالمي نذكر منها « تاريخ الانسانية » الذي شارك فى تأليفه صفوة علماء التاريخ والحضارة فى العالم ، والذي يعتبر معلمة تسجل التطور العلمي والثقافي الذي حققته الانسانية منذ فجر التاريخ .

ومن الاعمال الثقافية الرائعة التي ساهمت فيها اليونسكو بأكبر نصيب صيانة آثار النوبة فى صعيد مصر ، وانقاذ كنوزها الفنية القيمة الموزعة بين 23 معبدا ، واقدمت المنظمة على رفع عاديات الزمن والطبيعة عن معبد بورويودور (اندونيسيا) الذي ينتصب فيه تمثال عظيم يجسم بوذا وهو فى حالة استفراق تأملي يتحد فيه بالزفانا (الحقيقة السامية) ، كما ساهمت اليونسكو وتساهم فى حفظ التراث الثقافي الانساني وحمايته فى السلام والحرب عن طريق اتفاقات دولية اشرفت المنظمة على وضعها وابرامها ، والتزمت بالسهر على احترامها .

ومن الهيئات الدولية التي تتصل بخدمة الفكر والثقافة من جانب خاص « المنظمة العالمية للملكية الفكرية » التي يوجد مقرها بجنيف والتي جعلت من بين اهدافها النهوض بحماية الملكية الفكرية عن طريق التعاون بين الدول ، وهي بذلك تسهر على تطبيق عهود دولية منها اتفاقية بيرن لحماية الآثار الادبية والفنية المبرمة سنة 1886 والتي تمت مراجعتها فى باريس سنة 1971 . اما الاتفاق العالمي حول حقوق المؤلف المبرم سنة

1951 والمراجع سنة 1971 ، فهو فى عهدة منظمة التربيـــة والعلـــوم والثقــافـــــة .

هذا وقد انشأت الدول اقساما للعلاقـــات الثقافيـــة فى وزارات خارجيتها ، وملحقين أو مستشارين ثقافيين فى سفاراتها بالخارج قصد تنشيط التبادل الفكري والعلمي على الصعيد الثنائي ، وفتحت الجامعات ابوابها للطلاب الاجانب وازدهرت حركات تبادل الآثار الادبيـــة والفنيـــة والعلمية بين الامم ، فانتقلت فرق المسرح والموسيقى والرقص والغناء من قطر الى آخر ، وخرجت « موناليزا » الباسمة من رواقهـا المتحفـــي لتنتقل شرقا وغربا كاشفة عن اسرارها وعن سر عبقرية رسامها الخالـــد ليوناردو دى فينشي ، وسافر « توت عنخ امون » من بلاده الى اقطار اخرى معرفا بالحضارة المصرية العريقة ، وتسابق المحققـــون الى مخابـــىء المخطوطات النفيسة ونشرها وعرفوا بها وعلقوا عليها ، وتقاطر علماء الآثار على مواطن الحضارات القديمة ينقبون فى أعماق الارض والبحـــار عــــن الكنوز التاريخية الدفينة فى النوبة وفيما بين النهرين وفى بقاع الشرق الاقصى وامريكا الجنوبية ، واوشكت « اتلنتا » أن تخرج من حيز الاسطورة الى عالم الحقيقة الاثرية ؛ وتناقل عباقرة الالحان روائـــع السمفونيـــات والاوبرات يجولون بها فى أرجاء المعمور مبشرين بالصفاء الروحي الذي توحي بها الآثار الموسيقية الخالدة . وانتشرت فى مختلف متاحف العالم آثار الرسامين والنحاتين الكبار من أمثال فان جوج وسيـــزان ومونيــــه ورودان وجياكوميتي وبيكاسو .

وقد عمدت معظم الدول ـ أمام هذا الانبعاث الثقافي الهائـــل ـ الى احداث وزارات مختصة بالشؤون الثقافية للاشراف على حفظ التراث وصيانة الآثار الفكرية والفنية والمعمارية والنهوض بحركة الثقافة وتنشيط التبادل فى مضمارها . وبذلك تعددت المعاهدات الثقافية الثنائيـــة بين الدول ، واحتلت القيم الثقافية مكانا بارزا فى سياستها .

وكان من نتائج الالتقاء الرائع بين الامم على صعيد الثقافة ان اضمحلت الفكرة التي كانت سائدة فى القرن التاسع عشر والتي كانت تعتبـــر أن

اوربا وحدها هي مركز الابداع ، وان « الثقافة » لفظ لا يمكن ان يطلق الا على القيم الفكرية والادبية والفنية الاوربية . وباضمحال هـذا الفهم الخاطىء احتلت الثقافات الزنجية والانكية والازتكية والماياوية وثقافات الشعوب الاسيوية مكانها فى جوقة الامم ، فأحدثت تأثيرهـا البارز فى الآداب والفنون العالميـة .

اما الثقافة العربية فقد دخلت بدورها فى طور الاحياء والاثـراء ؛ فتأسست مجامع اللغة فى دمشق والقاهرة وبغداد لتجديـد العربيـة وتطويرها ، وازدهرت حركة الفكر والادب والفن ، وساهمت الجامعـات ومراكز النشر فى احياء التراث العربي وشذبه والتعريف به ، ونشطت المبادلات الثقافية بين مختلف البلاد العربية وبرزت الى الوجود منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية ، واخذت لغة الضاد تحتل مكانا عالميـا مرموقا بعد ان اصبحت لغة رسمية فى اليونسكو ومنظمة التغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة العمل الدولية ، وغيرها من الهيئات، ونقلت أمهـات الكتـب العربيـة الى اللغـات الاجنبيـة لا سيمـا بواسطة اليونسكو التي أخذت على عاتقها نشر روائع الفكـر الانسانـي وساهم المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي الذي يوجـد مقره بالرباط مساهمة عظيمة فى توحيد المصطلحات العلمية والفنيـة والقانونية والحضارية ، ووضع المعاجم التي تدعو اليها حاجة العصر .

واحيت الدول العربية تراثها الفني فى الموسيقى والغناء والرقص والزخرفة فتعددت بذلك منابع الالهام الثقافي التي تنبثق كلها من القيـم العربية التي اثرت أيما تأثير فى الثقافة العالمية . واتجه الاهتمام فى كل الاقطار العربية الى رعاية المعالم الاثرية التي تزخر بها بلادنا ، مع مواصلة أعمال التنقيب عن كنوز اثرية جديدة فى أماكن شهدت التقاء أكبر الحضارات التي عرفها العالم .

لعل ميزة هذا العصر ، أن الثقافة ، كالتربية ، اصبحت حقا لكـل الناس ، الذكور منهم والاناث ، لهم ان يستمتعـوا بمزاياهـا الفكريـة والوجدانية وأن يساهموا فيها ، وان تتاح لهم فرص متكافئة لتثقيـف

عقولهم وتربية احساسهم بالجمال وتهذيب اذواقهم واشاعة الآثار الانسانية الرائعة بينهم بواسطة المتحف والمعرض والكتاب والمسرح وغيرها من مراكز التثقيف .

لقد جاء فى التصريح العالمي لحقوق الانسان : « ان لكل فرد الحق فى ان يشارك بحرية فى الحياة الثقافية للجماعة ، وان يستمتع بالفنون وأن يسهم فى التقدم العلمي وفيما ينتج عنه من خير ، وان لكل امرىء الحق فى رعاية المنافع المعنوية والمادية التي تنشأ عن كل انتاج علمي او ادبي أو فني يكون هو صانعه » .

الثقافة ، ثقافتان :

انتقل الآن الى قضية اخرى من قضايا الثقافة تستأثر هي أيضا باهتمام المفكرين فى عدد من الاقطار الشرقية والغربية . وهي قضية الدور الذي يجب ان تلعبه كل من الثقافة العلمية والثقافة الادبية فى حياة الانسان والعلاقة القائمة بين رجال الثقافتين . وهل يجب أن تكون المعرفة التقنية أم العلوم الانسانية أو كلاهما اساس التعليم والتربية فى العالم الحديث .

لقد اثارت هذه القضية اهتمام المربين والمفكرين ورجال الادب والعلم ، وكانت موضوع نقاش ودراسة فى بعض المؤتمرات والاجتماعات. وقد وقع حول هذه القضية جدل فكري اثارته محاضرة القاها تشارلز سنو C. Snow — وهو من رجال العلم والادب فى بريطانيا — بجامعة كمبردج سنة 1959 ، وأصدر بعدها كتابا بعنوان : « الثقافتان والثورة العلمية » .

وقد بين « سنو (*) » الهوة السحيقة التي تفصل بين ذوي الثقافة

(*) اعتمدت فى هذا الباب على بحثين نشر أحدهما فى مجلة (الهلال) المصرية والآخر فى مجلة (أصوات) الانجليزية وعلى كتاب صدر بالفرنسية لتشارلز سنو بعنوان «الثقافتان» Les deux cultures ترجمه كلود نويل C. Noël ونشره جان جاك بوفي J.J, Pauvet سنة 1968 .

التي أساسها العلم ورجال الثقافة القائمة على الآداب والفنون والعلـــوم الانسانية بوجه عام فقال : « كل من يتحرك فى الاوساط الفكرية العلميـة والادبية يلاحظ ان هناك درجات متفاوتة من التفاهم وعـدم التفاهـم . واعتقد أن محور ذلك هو الجهل التام بالعلم فى بعض تلـك الاوساط ، ونظرا لاننا نعيش فى هذا الجو ذاته ، فاننا لا ندرك مدى تأثير هذا الجهل فى صبغ ثقافتنا التقليدية بطابع لا علمي الى حد يكاد يكون أحيانا معاديـا العلم وان لم نعترف نحن بذلك . واذا كان المستقبل يسيطر على عقـول العلماء ، فان الثقافة التقليدية تستجيب لذلك بأن تتمنى أن لا يتحقق هذا المستقبل . وما زالت الثقافة التقليدية هذه التي لم تتأثر كثيرا بظهـور الثقافة العلمية ، توجه العالم الغربي » .

وتحدث سنو عن التباعد الموجود بين الفريقين وانعدام الفهم المتبادل بينهما حتى ان الامر ليصل احيانا الى العداء وخاصة بين بعض الشبان . « ان من درس العلم يتحدث بلغة تكاد تكون مختلفة عن تلك التى يتحدث بها طالب الدراسات الانسانية . فبينما لا يعرف الاول عن روائى شهيـر مثل تشارلز ديكنز أكثر من اسمه الا قليلا ، فان الثانى لا يعرف عن قانون لترموديناميكا حتى مجرد اسمه » .

« وكل فئة تحمل فى نفسها صورة مشوهة للفئة الاخرى ويرى سنو ان الانفصال بين الثقافتين ضار بالشعوب وبالمجتمعات ، وانـه ضيـاع عملى وفكرى واخلاقى » .

وبينما يرى سنو أن التصنيع يجب ان يكون اساس التعليم يرى من تصدوا الرد عليه ، وفى مقدمتهم ليفـز ، ان اساس الثقافة هو المعرفـة التامة بلغة البلاد وادبها ، وان دراسـة هاذين الفرعين هـو الاسـاس الوحيد لتنمية الذكاء والوعى .

وليفز يتفق مع سنو فيما يراه من ان مستقبل العالم اساسه التقدم العلمى والتكنولوجى . ويرى أن التقدم الانسانى بسبب هذا سيتم بسرعة مذهلة والى درجة تجعل من الضرورى ان تكون الانسانية فى كامل وعيها ونبوها العقلى . واننا تجاه هذا التقدم العلمى التكنولوجى فى حاجة الى تنمية الحواس الانسانية والى الذكاء والقوة المبـنية على التجربـة ورد

الفعل الانسانى تجاه ما يواجهه البشر من تحد . ومن الجدير بالذكر أن سنو قد توقع فى كتابه الذى اصدره سنة 1963 ظهور « ثقافة ثـالثة » تكون صلة وصل بين الثقافتين الانسانية والعلمية ، ويلتقى عندها رجال الاجتماع والمؤرخون والديمغرافيون وعلماء النفس والمهندسون المعماريون.

ومن الملاحظ ان الهوة التى تفصل بين الثقافتين تكاد تكون عامة فى اقطار اوربا وبعض الدول المتقدمة فى افريقيا وآسيا . والسبب واضـح جلى يكمن فى نظم التربية والتعليم التى بقيت جامدة فى معظم اقطار اوربا والبلاد التى اخذت عنها هذه النظم .

لقد غيرت المدنية الآلية حياة المجتمعات والافراد ، واحدثت العلوم التكنية اعظم انقلاب فى المفاهيم والمقاييس ، وغيرت اتجاه العالم ، واصبح العقل العلمى الذى اتاح للانسان سيطرة واسعة على الكون يهدد الانسان باستعباده .

وازاء ذلك ظلت نظم التربية والتعليم جامدة فى عـدد من الاقطار تستوحى نظريات ومبادىء عتيقة لا تساير الزمن الذى نعيش فيه . وقد ارسل كثير من رجال التربية فى الغرب صيحات ينادون باصلاح انظمـة التعليم ، وذلك تجاه التقدم السريع الذى يعرفه العالم فى مضمار العلوم والتكنولوجيـا .

ولعل اكبر نقص يمكن ان يلاحظ فى نظـم التعليـم ، هو التخصص المقفل الذى يسد فى وجه الطلاب الثقافة ككل لا يتجزا ، ويحشو رؤوسهم ويوجه مهاراتهم الذهنيـة واليدويـة للحيـاة الماديـة الصـرف ، او يلقـنهم العلوم الانسانية وحدها .

وقد قال العالم والمفكر الانجليزي المعاصر (نورث وايتهيد) :

« ان ما ينبغى أن نهدف اليـه هو اعداد الرجـل الذى يجمـع بين الثقافة والمعرفة البارعة فى منحى معين من المناحى ، فالمعرفـة البارعة تتيح لذلك الانسان نقطة الانطلاق ، اما ثقافته فهى حرية ان تقوده الى اغوار الفلسفة وان تعرج به الى سماء الفن » .

وقد حدد هذا المفكر الكبير رسالة الجامعة بقوله :

« ان مبرر قيام الجامعات انها تحفظ الصلة بين المعرفة وتذوق الحياة ، بأن تربط الشباب والكهول فى النطاق التخيلى للتعلم .

« واننا اذا عززنا خيال الشباب بالتنظيم أمكن الاحتفاظ بقوته الى درجة كبيرة طوال العمر » . لذلك « فان كل تربية حقيقية يجب أن تفسح مجالا للثقافة الانسانية الكفيلة باقامة التوازن مع العلوم التقنية وتقوية النظر البعيد عن الغموض القريب من الواقع » .

كما يجب على التربية « أن تعمل — فى راى وايتهيد — على انماء المخيلة والقيم الجمالية الى جانب الفكر » وذلك حتى تتناسق ملكات الفرد فتتآلف المجتمعات ويزول التباعد الذى يفصل بين طبقات المثقفين من جهة وبينهم وبين سواد الناس من جهة اخرى .

* * *

ان الثقافة خير كلها ما قامت على المثل الانسانية المشتركة ، والانسان هو صانع الخير باذن الله ، وهو مصدر الشر اذا زاغ وانحرف . ومسيرة الثقافة فى تعبيرها الروحى والفلسفى والعلمى والادبى والفنى انما هى تلخيص لهذا الصراع بين الخير والشر ، وكلاهما جبلة فى طبع البشر .

الربـاط **محمد العربي الخطابي**

حماية الإسلام للأنساب

وموقفه حيال ما قررته في هذا الصدد الشرائع السابقة

د. علي عبد الواحد وافي

وجه الاسلام قسطا كبيرا من عنايته نحو تدعيم نظـــام الاســـرة ، وتخليصها من شوائب الضعف ، واحاطتها بمـــا يكفـــل لهـــا الصـــلاح والاستقرار . فلم يغادر اية ناحية من نواحيها الا اقامها على نظم رشيدة ، وقضى على ما كانت تسير عليه الشرائع السابقة له من طرائق معوجة فاسدة فى هذا السبيل .

ولما كانت الانساب هى قوام القرابة فى الاسرة ودعامة الرابطة بين افرادها ، فقد حرص الاسلام ايما حرص على حمايتـــها من كل مـــا يؤدى الى اختلاطها أو يوهن حرمتها .

ويبدو حرصه هذا فى مواطن كثيرة من اهمها الغاؤه لخمسة نظـــم فاسدة كانت مقررة فى كثير من الشرائع السابقة له ولا تـــزال مقررة فى

كثير من الشرائع الحاضرة ، وهى : نظام التبنى ؛ ونظام الاعتراف بالولد ؛ ونظام الادعاء ؛ ونظام الخلع ؛ ونظام اهدار نسب المراة بعد زواجها

وسنعقد لكل نظام منها فقرة على حدة ، مبينين موقف الاسلام حياله ، واثر هذا الموقف فى حماية الانساب ، وموازنين بين موقفه وموقف الشرائع الاخرى . وسيكون معظم اعتمادنا فى تفاصيل هذه الاحكام على مذهب الامام الاعظم ابى حنيفة النعمان .

— 1 —

نظام التبنى

يجيز هذا النظام للانسان أن يتخذ فردا غير منحدر من صلبه ولدا له ، فيعامل هذا الغريب معاملة اولاده امام المجتمع وامام القانون ، وينعم بحقوقهم ، وتقع عليه اعباؤهم وواجباتهم .

وقد عمل بهذا النظام كثير من الامم فى العصور القديمة والوسطى ، ولا يزال معمولا به فى كثير من الامم الغربية وغيرها فى العصر الحاضر بشروط واوضاع تختلف باختلاف الامم التى أخذت به . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع ، حتى لقد كان ينـدر أن تجد من بين سراتهم واوساطهم من ليس له ولد أو اولاد بطريق التبنى . ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته ، جريا على عادة العرب ، زيد بن حارثة ، مع أنه كان معروف الاب والام ، فكان يدعى زيد بن محمد .

ولا يخفى ما يؤدى اليه نظام التبنى من اختلاط فى الانساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، واضعاف لوشائج الدم ، وافساد لمقومات الاسرة ، واثارة لعوامل الفتنة والضغينة ، واضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والاسرات .

ولذلك حرمه الاسلام تحريما باتا ، وانكره القرآن فى عبارات قوية تنم على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التى ينبغى أن يقوم عليها نظام الاسرة الانسانية . وفى هذا يقول الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . وما جعل ادعياءكم أبناءكم » والادعياء هم الذين كان الناس يتخذونهم أولادا بطريق التبنى « ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله » اى اعدل عند الله « فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » (1)

وبهذا النص الكريم الغى الاسلام التبنى الغاء باتا ، فانتسب اولاد التبنى كلهم الى آبائهم الحقيقيين ؛ أما الذين كانوا لا يعرف لهم اباء فاكتفوا بنسب الاسلام وصاروا اخوة وموالى للمسلمين . وفى هذا يقول عبد الله بن عمر « ما كنا ندعو زيد بن حارثة الا زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله » فدعوناه عند ذلك زيد بن حارثة » .

وجاءت احاديث الرسول متوعدة من ينتسب الى غير ابيه بأشد عقاب يوم القيامة ؛ بل ان بعضها ليجعل هذا الانتساب ضربا من ضروب الكفر . وفى هذا يقول عليه السلام : « من ادعى الى غير ابيه ، وهو يعلم أنه غير ابيه ، فالجنة عليه حرام » ؛ وفى حديث آخر : « ليس من رجل ادعى الى غير ابيه وهو يعلم الا كفر » .

ولحرص الاسلام على القضاء على هذا النظام وازالة جميع آثاره ، ولقوة تأصله فى نفوس العرب ، لم يكتف الاسلام بالغائه بالقول ، بل رأى كذلك ان يقضى عليه بطريق عملى وبفعل الرسول نفسه ، فأوحى الله تعالى الى نبيه أن يتزوج زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة الذى كان الرسول عليه السلام قد تبناه قبل الرسالة ، ليبين للناس بطريق عملى انه لا تبنى فى الاسلام وان الدين الجديد قضى على هذه القرابة المصطنعة ، ومحا جميع آثارها ، واحل ما كانت تحرمه ، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه ، وذلك ان العرب فى الجاهلية ، لانزالهم المتبنى (بفتح النون) منزلة الابن من جميع الوجوه ، كانوا يحرمون على من تبناه ان

(1) آيتي 4 ، 5 من سورة الاحزاب .

يتزوج بمطلقته ، كما يحرم على الاب الزواج بمطلقة ابنـــه من صلبـــه ، فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد بن حارثة تقريرا عمليا لالغاء هذا النظام وما يترتب عليه . وقد ذكر القرآن هذا السبب بصريح العبارة اذ يقول : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » (2) . ولتوكيد هذا الحكم يقول الله تعالى فى الآية التى بين فيها من يحرم الزواج بهـــن : « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنـــات الاخ وبنـــات الاخت . . . وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم » اى ان الابنـــاء الذيـــن يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم هم الذيـــن ينحـــدرون من اصلابهـــم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبنى الذى قضى عليه الاسلام .

هذا ، ويلاحظ أن ثم فرقا جوهريا بين التبنى الذى نتحدث عنـــــه والاقرار بالابوة الذى يعتمده الفقه الاسلامى ويعتبره دليلا على ثبـــوت الابوة للمقر والبنوة للمقر له . وذلك ان الاقرار بالابوة معناه أن يعترف شخص بأبوته لشخص آخر ، أى بأن هذا الشخص الآخر قد جـــاء من صلبه . ففى هذه الحالة تثبت القرابة بينهما على الوجه الذى اقر بـــه ، ويترتب عليها ما يرتبه الشرع على هذه القرابة من حقـــوق وواجبات ، على شرط ألا يقوم دليل على بطلان اقراره ولا يلقى اعتراضا من المقر له ولا من غيره ، وان يكون الفرق بين سنيهما يجعل ابوة المقـــر للمقر لـــه ممكنة من الناحية الطبيعية ، أو كما يقول الفقهاء ان يكون ممن يولد مثله لمثله ، وان يكون المقر له غير معروف له نسب آخر (3) . على حين ان التبنى معناه أن يتخذ انسان فردا غير منحدر من صلبـــه ولدا لـــه مـــع اعترافه بأنه غير منحدر من صلبه .

ويذلل الاسلام وسائل الاعتراف بالابوة فى حالة اللقيط بوجه خاص ، فيقرر أن نسبه يلتحق بمن التقطه اذا اقر بأبوته له ، اى اعترف بأنـــــه ولده جاء من صلبه ، او يلتحق بأى شخص آخر يعترف بذلك اذا لم يدعه

---

(2) آية 37 من سورة الاحزاب .
(3) انظر ص 198 وتوابعها من الجزء السادس وصفحة 223 وتوابعها من الجزء السابع من كتاب « بدائع الصنائع » للكاسائي ، فى فقه ابي حنيفة .

الملتقط لنفسه . واذا اعترف الملتقط ببنوته واعترف بها كذلك شخص آخر فان الملتقط يكون اولى به ، وذلك على شرط ان يكون اللقيط غير معروف النسب وان يكون ممن يولد مثله لمثل من اعترف بأبوته له ، فيصبح اللقيط بعد هذا الاعتراف من اولاد المعترف ، ويعامل معاملتهم من جميع الوجوه .

ويلحق باللقيط كل شخص غير معروف النسب ، فان الاسلام يذلل كذلك وسائل الاعتراف ببنوته ويقرها بالشروط السابق ذكرها .

وقد قصد الاسلام بذلك أن يشجع الناس على حماية اللقطاء ومجهولى النسب وان يحقق لهؤلاء واولئك من رعاية الاسرة ، والفة القرابة ، والتنشئة الصالحة ، والحقوق المدنية ، ما لا يمكن أن يتحقق لامثالهم بدون هذا الاجراء .

— 2 —

نظام الاعتراف بالولد

يقتضى هذا النظام الا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعى الا اذا اعترف به اعترافا صريحا ورضى أن يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الامم فى العصور القديمة .

فعند قدماء الرومان مثلا كان اذا ولد لعميد الاسرة او لاحد ابنائه ولد من زوجته الشرعية وجب تقديمه للعميد ، وذلك بأن يوضع على عتبة حجرته ، فان قام وضمه الى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وان تركه ملقى على العتبة اعتبر أجنبيا عيه وعن اسرته (4) .

وكذلك كان شأن العرب فى الجاهلية ، فكانت البنوة فى كثير من عشائرهم لا تثبت لمن يجىء من الزوجة الشرعية الا باعتراف صريح من

---

(4) انظر كتابنا « الاسرة والمجتمع » الطبعة السادسة صفحات 9 — 14 .

الزوج (5) . وكانوا اذا شكوا فى مولود استفتــوا اصنامهم فى حقيقته . قال ابن الكلبى فى كتابه « الاصنام » فى اثناء كلامه عن هبــل : « وكان لقريش اصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان اعظمها عندهم هبــل ، وكان فيما بلغنى من عقيق احمر على صورة الانســان ، مكسور الــيــد اليمنى ، ادركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهــب ، وكان اول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكان يقال له هبل خزيمة . وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة اقداح مكتوب فى اولها « صريح » وفى الآخر « ملصق » فاذا شكوا فى مولود اهدوا له (اى لهبل) هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فان خرج « صريح » الحقوه ، وان خرج « ملصق » دفعــــــوه » .

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشئون الاسرة ، واخضــاعها لاهــواء الازواج ونزواتهم ، واضطراب فى الانساب ، ونيل من كرامة الزوجات ، وتعريض الاولاد للضياع ، وحرمانهم من اعز حقوق الانسان والزمــهــا للحياة ، وتفرقة ظالمة بين الاخوة والاخوات ، وزلزلة عنيفــة لدعائــم النظام العائلى ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الاسلام هذا النظام فى جميع مظاهره ، ولم يأل جهدا فى القضاء عليه ، وقرر أن « الولد للفراش » (6) ، اى ان من يجىء من الاولاد ثمــرة لفراش شرعى يلتحق نسبــه بالزوج من غير حاجــة الى اعترافه به اعترافا صريحا ، واخذت الشريعة الاسلامية بهذا المبدا حتى فى الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجته ، كما اذا عقــــد مشرقي على مغربية وظل كل منهما مقيما فى بلده ، ولم يعرف بين الناس اتصاله بها ، ثم جاءت الزوجة بولد بعد انقضاء مدة الحمل ، فانه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة الى اعترافه به اعترافا صريحا (7) .

---

(5) المرجــع الســابــق .
(6) هــذا نـص حديــث شريــف .
(7) انظــر ص 332 من الجزء الثاني من كتاب « بدائع الصنائع » للكاساني .

ولا يقيم الاسلام فى ذلك وزنا لمظاهر الوراثـة وآراء الخبـراء فى شئونها . فكل ولد يولد على فراش صحيح مشروع يلحق الاسلام نسبه بالزوج صاحب هذا الفراش بقطع النظر عن قوانين الوراثة ومبلغ شبهه بالزوج ، اذ من المحتمل ان يكون قد انتقل اليه بعض صفات كانت موجودة فى جد قديم من اجداده ولم تكن ظاهرة فى أبيه ، وانما كانت مستكنة فيه . وقد اخرج البخارى فى صحيحه قال : « حدثنا يحيى بن قزعة حدثنا مالك عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن ابى هريرة ان رجلا اتى النبى عليه السلام فقال : يا رسول الله ، ولد لى غلام اسود (اى ان لونـه مغاير للون ابيه وهو لذلك يشك انه قد جاء من مائه) فقال عليه السلام هل لك من ابل ؟ قال نعم . قال ما الوانها ؟ قال حمر ، قال هل فيهـا من اورق (اى لونه كلون الرماد) ؟ قال نعم ، قال فأنى ذلك ؟ قال لعله نزعـه عرق ، قال فلعل ابنك هذا نزعه عرق » (8) . وتعنى عبارة « لعله نزعه عرق » انه من المحتمل ان يكون قد ورث هذه الصفة من جـد قديـم من اجداده ، وذلك ان الفرع قد ينتقل اليه بطريق الوراثة بعض صفات كانت ظاهرة فى احد اجداده ، من جهة الاب او الام من الدرجة الاولى او من الدرجات التالية لها ، ولم تكن ظاهرة فى اصله المباشـر ، وان كانـت موجودة لديه فى صورة مستكنة (9) . ولا يخفى ما يدل عليه هذا الحديث على ما كان للرسول عليه السلام من حذق فى هذه الشـئون ، واسلوب حكيم فى الاقناع .

وقد حدث ان جارية كانت ملكا لزمعة صهر الرسول عليه السلام (والد سودة بنت زمعة زوج الرسول) قد جاءت بولد بعد وفاة سيدها فتنازعه اثنان : احدهما عبد بن زمعة (اخو سودة) الذى قرر انـه اخوه ، لان الجارية كانت ملكا لابيه وفراشا له ، والآخر سعد بن ابـى وقاص الذى ذهب الى انه ابن اخيه عتبة بن ابى وقاص ، لان عتبة قد اعترف له قبل موته بأنه قد اتصل بهذه الجارية وانها علقت منه بحملها هذا ، وطلب اليه ان يضمه اليه بعد وفاته بوصفه ابن اخيه ، ورفـع

---

(8) انظر صحيح البخاري فى باب اللعان واذا عرض بنفي الولد .
(9) انظر كتابنا « الوراثة والبيئة » الطبعة الثانية ص 43 ، 44 .

امرهما الى الرسول عليه السلام . فنظر عليه السلام الى الولد فاذا هو من الناحية الوراثية اشبه الناس بعتبة بن ابى وقاص ، ولكنه مع ذلك حكم به لعبد بن زمعة ، لانه ولد على فراش ابيه ، والقاعدة الاسلامية ان « الولد للفراش » كما تقدم .

وقد استثنت الشريعة الاسلامية من ذلك حالة ما اذا ثبت لدى الزوج أن زوجته قد خانت امانته وعلقت من غيره او جاءت بولد من غيره ، ووجه اليها هذا الاتهام صراحة ، ورفعت الزوجة امرها للقضاء لقذفه اياها ، أو رفع هو أمره للقضاء ، ولم يكن له على ادعائه شهداء تثبت بشهادتهم جريمة الزنا على الزوجة . ففى هذه الحالة يجرى القاضى بينهما الملاعنة المبينة اجراءاتها وصيغها فى أول سورة النور ؛ فيطلب اليه ان يقسم اربعة ايمان يقول فى كل يمين منها اقسم بالله انى لمن الصادقين فيما رميتها به ، ويقول فى الخامسة لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . ثم تشهد المرأة بعده لنفسها اربع مرات كذلك تقول فى كل مرة منها اشهد بالله انه لمن الكاذبين فيما رمانى به ، وتقول فى الخامسة غضب الله عليها ان كان من الصادقين . وفى هذا يقول الله تعالى : « والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب (اى يدرأ عنها عقوبة الزنا) ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين » (10) . — وبعد ان يحلف كلاهما هذه الايمان المغلظة ، ويجرى بينهما هذا الاجراء الذى يسميه الفقهاء « الملاعنة » لوجود كلمة « اللعنة » فى شهادة الرجل ، يفرق القاضى بينهما ، ويعتبر الولد الذى أجريت بسببه هذه الخصومة أجنبيا عن الزوج ويلحق بأمه وحدها .

وان تأملا يسيرا فى هذا الاجراء ، وما يحيط به من مراسم وطقوس ، وفى صيغ الايمان المغلظة التى يحلفها الزوج وتكرارها عدة مرات ، ان

---

(10) آيات 6 ـ 9 من سورة النور .

تأملا يسيرا فى هذا كله لكاف فى الدلالة على ان الاسلام ينظر الى هـــذه الحالة على انها حالة استثنائية شاذة لا يجوز للزوج أن يلجـأ اليها الا عند الضرورة القصوى ، حينما يقوم لديه الدليل القاطع على صـــدق دعواه ، ومن ثم يمكن اعتبار هذا الاجراء نفسه وسيلة لحماية الانساب وتخليصها من شوائب الريبة .

هذا الى أن الاسلام قد اعطى الزوجة فى هذه الحالة فرصة لتبرئة نفسها ولتكذيب زوجها فيما اتهمها به ، ولدرء العقوبة عنها ؛ وذلك بأن تقسم الايمان الخمسة المبينة فيما سبق ، فينتهى الامر فى نتائجه العملية الى اعتبار كل منهما صادقا فيما يتعلق بمسئولياته والتزاماته ، فلا يلحق الولد بالزوج ، ولكن لا تعد الزوجة آثمة ولا توقع عليها عقوبـــة مـــا ، واذا قذفها أحد بالزنا او قذف ولدها بأنه ابن زنا فانه يقام عليه حـــد القذف ، فيجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة ابدا ، عملا بقوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمـــانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا ، واولئك هم الفاسقون » (11) .

وتسرى هذه الاحكام جميعها حتى لو ظهر كـــذب المـــراة بحسب قوانين الوراثة . فقد اجرى الرسول عليه السلام ملاعنة بين هلال بن امية وزوجته التى رماها بالزنا وقرر انه رآها متلبسة به مع شريك (12) بن سحماء ، وهذا هو اول حادث ملاعنة فى الاسلام ، وهو الذى نزلت بشأنه الآيات السابق ذكرها . وبعد أن اقسما ايمان الملاعنة المبينة آنفا ، فرق الرسول بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لاب ، والا يرمى بأنه ابن زنا ، ولا ترمى هى بالزنا ، لان ايمانها قد درات عنها وعن ولدهـــا هذه التهمة ، وان من رماها أو رمى ولدها بذلك يقام عليه حد القذف . ولكن الرسول عليه السلام قد عقب على ذلك فقال : « أنظروها : فان جاءت به اصيهب اثيبج حمش الساقين فهو لهلال ، وان جاءت به اورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الاليتين فهو لشريـــك بن سحمـــاء (الذى

---

(11) آية 4 من ســـورة النـــور .

(12) فى معجم المصباح المنير فى مادة « شرك » : « وباسم الفاعل وهو شريك سمي ، ومنه شريك بن سحماء الذي قذف به هلال بن أمية امراته » .

رماها به زوجها) (13) ، فجاءت به متوافرة فيه هذه الاوصاف الاخيرة . فقال صلى الله عليه وسلم : « لولا ايمانها لكان لى ولها شأن » (يقصد الايمان التى حلفتها ان زوجها كاذب فيما رماها به والتى درأت عنها تهمة الزنا وما يترتب عليها) .

وفى هذا كله أقوى دليل على حرص الاسلام على حماية الاعراض والانساب وحسن توفيقه بين هذين الغرضين عند تعارضهما .

— 3 ، 4 —

نظام الادعاء ونظام الخلع

اما نظام الادعاء فانه يبيح لعميد الاسرة ان يضم اليها فردا غريبا عنها ، فيصبح عضوا فيها له ما لبقية أعضائها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ؛ واما نظام الخلع (بفتح الخاء) فانه يبيح له أن يخلع احد اعضائها الاصليين عن ذمتها ويقطع صلتها به ، فيصبح « خليعا » أجنبيا عنها من جميع الوجوه .

وقد أقرت هذين النظامين امم كثيرة فى العصور القديمة والوسطى بشروط واوضاع تختلف باختلاف اتجاهاتها فى التشريع .

فقد كان لعميد الاسرة الرومانية Pater Familias الحق فى أن يدخل فيها من يشاء بطريق الادعاء ، فيصبح من أدخله عضوا فى أسرته ، له ما لافرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، وكان له الحق

(13) الصهب محركة حمرة أو شقرة فى الشعر ، فهو أصهب ، وأصيهب فى الحديث تصغير أصهب ، والثبج بفتحتين ما بين الكاهل الى الظهر ، والاثبج العريض الثبج أو الناتئه ، والاثيبج فى الحديث تصغيره . وحمش الساقين دقيقهما . والجعد من الشعر خلاف السبط أو القصير . والاورق ما كان لونه كلون الرماد ، ورجل جمالي بضم الجيم وكسر اللام وتشديد الياء عظيم الخلق أو طويل الجسم . والخدلج بفتح الخاء والدال وتشديد اللام المفتوحة الممتلىء الذراعين والساقين .

كذلك فى أن يخرج منها من يشاء فيصبح اجنبيا عنها ، بل يفقد صفة المواطن الرومانى ، ويصبح « خليعا » اذا لم يتح له الالتحاق بأسرة اخرى .

ولم يكن ادعاء العميد ملزما له الى الابد ، بل كان فى استطاعته ان يرجع عن اعترافه بصدد احد الاعضاء ، فيخرج من يشاء عن نطاق الاسرة ، بأن يبيعه بيع الرقيق او يقبل انضمامه الى اسرة اخرى عن طريق ادعائها له ، او يتبرأ منه ولا تقبل اسرة اخرى انضمامه اليها ، فيصبح خليعا لا أسرة له .

وكذلك كان الشأن فى الاسرة اليونانية ، فكان « لمجمع العصبة » فى كل عشيرة الحق فى أن يدخل فى العشيرة من يشاء بطريق « الادعاء » ، ويخرج منها من يشاء بطريق « الخلع » على غرار ما كان متبعا فى الاسرة الرومانية .

وكان العرب فى الجاهلية يطبقون كذلك نظامي « الادعاء » و « الخلع » فى اوسع نطاق ، وكانوا يلجئون الى نظام الخلع فى الغالب لمجازاة احد افراد العشيرة لخصال او اعمال تتعارض مع عرفها أو نظمها أو آدابها او عقائدها ، فاذا وقع عليه هذا الجزاء اصبح خليعا غريبا عن عشيرته ، لا تعده من افرادها ، فلا تؤخذ بجرائر اعماله ، ولا تثأر له اذا قتل . وقد طلب كفار قريش الذين ضاقوا ذرعا بمحمد عليه السلام وبدينه الجديد الى عمه ابى طالب أن يخلعه على اساس نظامهم هذا ، حتى يستطيعوا قتله بدون أن يخشوا مطالبة بنى هاشم بثأره . ولكن ابا طالب مع عدم ايمانه بالدين الجديد لم يذعن لرغبتهم حفاظا منه على حقوق الرحم ، ولانه لم يعهد فى ابن اخيه من الخصال الا ما يشرف به بطن بنى هاشم . فعرضوا عليه أن يتنازلوا له عن احد ابنائهم يضمه الى اسرته على ان يتنازل لهم عن محمد ويسلمه لهم على طريق الادعاء والخلع المتبادلين ، فرد عليهم بهذه الاجابة الرشيدة : « لبئس الصفقة التى تعرضونها على : تعطونى ابنكم لاطعمه واربيه وارعاه ؛ على أن تأخذوا ابنى لتقتلوه ! ! » .

ولا يخفى ما يؤدى اليه نظاما « الادعاء » و « الخلع » من اختلاط فى الانساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، واضعاف لوشائج الرحم والدم ، وافساد لمقومات الاسرة ، واثارة لعوامل الفتنة والضغينة ، واضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والاسرات ؛ ولذلك حرمهما الاسلام تحريما باتا ، وقرر ان القرابة ليست هبة تمنح ولا رداء يخلع ، وليست خاضعة لارادة الناس ولا لاهوائهم ، وانما هى وشيجة دم لا يلقاها من لم يعطها له منبته ، وعروة وثقى تنبعث عن لحمة النسب ولا تنفصم عمن ارتبط بها .

ولم تستثن الشريعة الاسلامية من ذلك الا حالتين : أوجبت فى احداهما قرابة غير قائمة على صلات الدم ؛ وأجازت فى الاخرى هذه القرابة ؛ مراعية فى هذه وتلك صالح الافراد والصالح العام .

(اما احداهما) فتتمثل فى نظام « مولى العتق » وهو الذى يصبح بمقتضاه العبد بعد عتقه عضوا فى أسرة سيده السابق ، يشترك مع افرادها فى كثير من حقوقهم وواجباتهم ، حتى لقد كان يجب عليها ان تدفع عنه الدية اذا ارتكب جناية توجب الدية على أسرة الجانى ، كما تفعل حيال اعضائها الاصليين ؛ وكان سيده السابق يرثه اذا مات ولم يترك عصبة ؛ ويصبح أهلا لجميع الوظائف والمناصب التى يمكن ان يتولاها أحد افراد الاسرة ، حتى أرقى منصب فى الدولة وهو منصب الخلافة نفسه . وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « مولى كل قوم منهم » ؛ ويقول عمر بن الخطاب حينما طلب اليه فى مرض موته أن يرشح احدا لتولى الخلافة من بعده : « لو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا لوليته » . وسالم هذا كان رقيقا لابى حذيفة القرشى ، وقد اصبح بعد عتقه فردا من افراد اسرة ابى حذيفة ، واصبح بذلك اهلا لجميع المناصب التى يرشح لها حر قرشى حتى منصب الخلافة نفسه (14) .

---

(14) انظر كتابنا « الحرية فى الاسلام » صفحتي 55 ، 56 .

وقد قصد الاسلام من ذلك الى غرض انسانى سام وهدف عمرانى نبيل ، وهو أن يكمل نعمة الحرية للعبد بعد تحرره ، فيجعله مساويا فى الحقوق والواجبات لافراد الاسرة التى كانت تملكه ، ويجعل له من هذه الاسرة درعا تحمى حريته الطارئة ، وتدرا عنه ما عسى ان يوجه اليه من عدوان ، ويسبغ عليه فوق هذا وذاك صفة من أهم الصفات الاجتماعية التى يمتاز بها الحر عن العبد ، اذ يعد الاول عضوا فى أسرة وعشيرة ، بينما يعد الثانى فردا لا اسرة له ولا عشيرة .

(واما الاخرى) فتتمثل فى نظام « مولى الموالاة » . وذلك أن الشريعة الاسلامية تجيز لغير العربى اذا كان مجهول النسب أن يتخذ له وليا من اسرة عربية معروفة يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو فى اسرة هذا الولى ، يدفع عنه الولى الدية اذا ارتكب جناية توجب الدية ، ويرثه اذا مات ولم يترك وارثا ، ويسمى من يكتسب القرابة عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة » .

وقد قصد الاسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سندا وحماية فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ولذلك لم يبحها الا لشخص غير عربى مجهول النسب ؛ لان العربى ليس فى حاجة الى هذه الحماية ، فهو محمى بعشيرته ؛ وذو النسب المعروف من غير العرب ليس فى حاجة اليها كذلك ، لانه فى ظلال اسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدى الى اختلاط الانساب واضطراب الاسس التى يقوم عليها نظام القرابة .

ويلاحظ أن ثم فرقا جوهريا بين ادعاء الغريب الذى حرمه الاسلام والاقرار بالنسب الذى يعتمده الفقه الاسلامى ، ويعتبره دليلا على ثبوت القرابة . وذلك أن الاقرار بالنسب معناه أن يعترف شخص ان آخر اخ له مثلا ، ولا يقوم دليل على بطلان اقراره ، ولا يلقى اعتراضا من المقر له ولا من غيره ، ويكون المقر له مجهول النسب من قبل . ففى هذه الحالة تثبت القرابة بينهما على الوجه الذى اقر به ، ويترتب عليها جميع

ما يرتبه الشرع على القرابة من حقوق وواجبات (15) . وذلك كما فعل معاوية اذ اقر بأخوة زياد ، وهذا مظهر من حرص الاسلام على حماية الانساب ، وحفاظه على روابط الرحم ووشائج القرابة ، على حين ان ادعاء الغريب الذى حرمه الاسلام واقرته شرائع اخرى معناه أن يضم رئيس الاسرة الى افرادها شخصا اجنبيا عنها مع اعترافه بأنه لا تربطه به اية رابطة من روابط الدم ، فيكتسب هذا الغريب قرابة قانونية عن طريق هذا الادعاء .

— 5 —

حماية الاسلام لنسب المراة المتزوجة

يقرر الاسلام أن نسب المرأة لا يناله تغيير ما بعد زواجها . فتظل المراة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ونسبها الاصلى ، ولا تحمل اسم زوجها مهما كانت مكانة هذا الزوج . فزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام انفسهن كن يسمين بأسمائهن واسماء آبائهن وينتمين الى عشائرهن الاصلية ؛ فكان يقال عائشة بنت ابى بكر وكانت تنسب الى تيم عشيرة أبيها ، وحفصة بنت عمر وكانت تنسب الى عدى رهط عمر . . . وماكن يحملن اسم زوجهن ولا ينتسبن الى هاشم رهط النبى ، مع أنهن كن زوجات لخير خلق الله .

ويظهر سمو هذا التشريع ومدى حمايته للانساب بالموازنة بينه وبين كثير من الشرائع التى تهدر نسب المراة بعد زواجها ، فتجردها من اسمها واسم اسرتها وتحملها اسم زوجها واسم أسرته ، وعلى هذا النظام سار كثير من الامم فى العصور القديمة وبخاصة اليونان والرومان ؛ ولا تزال الامم الغربية تسير على هذا النظام الجائر الى الوقت الحاضر .

الرباط — د . على عبد الواحد وافى

(15) انظر ص 228 من الجزء السابع من كتاب « بدائع الصنائع » للكاساني .

معطيات الفن الإسلامي في المغرب *

عبد العزيز ابن عبد الله

سوف لا أتحدث فى هذا العرض الوجيز عن الآثار المغربية «العادية» antiques إلا من زاوية واحدة كمدخل الى الفن الاسلامي فى المغرب العربي ، فقد بنى الفينيقيون فى عام واحد (حوالي سنة 1101 ق م) مدينتين فى كل من تونس والمغرب الاقصى يعتبران أقدم حاضرتين فى هذا الجزء من العالم وهما أوتيك Utique قرب تونس وليكسوس (1) Lixus قرب العرائش ثم فى عام 814 ق م مدينة Carthage أي قرية حداش

(*) خلاصة محاضرة ألقاها الكاتب فى المؤتمر السابع للآثار الذي انعقد بمدينة العين بدولة الامارات العربية المتحدة فى 16 و 17 دجنبر 1974 .

(1) ليكسوس : تقع على مسافة أربعة كلمترات شمالي العرائش على الضفة اليمنى لنهر اللكوس وهي فينيقية الاصل احتلها الرومان وأقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس أو تشميس التي يقال بأن حدائق هسبيريدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها فى الجزر الخالدات وهي الجزر « السعيدة » السبع التي احتلها الاسبان فى القرن الخامس عشر ، ويرى علماء الآثار أن هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك أولى المسؤولون من الأثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة . وقد عثر على البناء الفينيقي فى الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين أعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة أخيرة يظهر أنها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي أوان من الفخار تطور صنعها فدهنت أيام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل منوعة ، كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وأرضها مبلطة بالفسيفساء المرمري ، وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة أحياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين فى مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الفنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

او القرية الحديثة بالبونية ، ومعني ذلك ان انطلاق الفن المعماري المغربي القديم نفسه كان من الشرق ، ويتبلور ذلك في الحجارة التي عثر عليهـا اخيرا في البرازيل وهي مكتوبة بالبونية وتحمل تاريخ 125 ق م . ويتبين من مقارنتها باللغة العربية أنها هي نفس اللهجة العامية التي لا تزال تستعمل بتونس وباقي المغرب العربي الى الآن ، ومعنى ذلك أن الفكر الشرقـي العربي بمعالمه اللسنية والاثرية والفنية قد دخل الى المغرب العربي قبل الاسلام بنحو اربعة عشر قرنا .

وقد قامت أول مملكة عربية صميمة في مدينة ((نكور)) الواقعـة بالريف على شاطىء البحر الابيض المتوسط وذلك في عصر الوليد الاموي وغزا الاسلام منذ العقود الاولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهـت الجهود الى بناء رباط يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحـي تصميمـه الهندسي من جامع الاسكندرية ، وكان الاسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الاسلامي الذي كان لا يزال اذ ذاك في فجر انبثاقه ، فجامع عمرو ابن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنميـق كالقربصـة والتنقيش الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التـي امتاز بها الفن العربي في العصور التالية .

ومن هذا الطراز مسجد اغمات غيلانة الذي أسس عام 85 هـ حسب ما يذكره ابن عذارى في كتابه (المغرب) والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد ان حولت المعابد التي بناها المشركون الى مساجد وجعلت المنابر في مساجد الجماعات وبدأت افريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الاسلامي .

وقد أمسى المغرب منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة في الطريق الكبرى التي تصل الهند بجبل ((البرانس)) باسبانيا والتي يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار فلا يسعنا والحالة هذه أن نستهين بآثار عهد الاسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ، ومن ابرز مظاهر هذا الاشعاع الفنـي انبثـاق

مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي اصيل وتوجد خاصة بافريقية العناصر الاولية للفن الاسلامي ، فمدينة القيروان هي أول حاضرة اسسها العرب بعد فتح عقبة بن نافع الفهري ، وقد برزت فى القرن الثاني الهجري أهمية هذه المدينة التي اصبحت عاصمة المغرب الاسلامي فى عهد عبيد الله بن الحبحاب باني الجامع ودار الصناعة بتونس عام 116 هـ والذي استعمل على طنجة العامل عمر بن عبد الله المرادي وتم ذلك فى أواخر عهد الامويين وأوائل العصر العباسي حيث بدأ الاسلام يتغلغل فى الفيافي الافريقية . وقد احتفظ المغرب مع ذلك بسمة خاصة نظرا لكون العباسيين لم يملكوا ما وراء الـــزاب .

وفى نفس الوقت تاسست دولة الاغالبة وبني رستـــم فى كـــل من افريقية والمغرب الاوسط وتركز الادارسة بالمغرب الاقصى .

ويمكن ان نعتبر مدينة فاس اول مركز عربي تفتق فى البلاد المغربية واصبح بعد ذلك – حسب كوتيي – مظهر اعجاز فى ميدان التكيف بالطابع الشرقي . ذلك ان الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الاموي فى كل من الشرق الادنى والمغرب العربي بفضل مرونة وحساسية العرب ومداركهم الابداعية ، فهناك عوامل حدت العرب فى الاندلس والمغرب وكذلك بمصر الى الاستيحاء فى زخارفهم من معطيات الهندسة ، وهذه العوامل هـــي اهمالهم للاشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهـــم فى دراســـة الرياضيات وسعة مواهبهم واذواقهم .

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الاعصار وتهذبـت اطرافــه ورقــت حواشيه وتنمقت معالمه .

فظهور العباسيين بالشرق قد حدا فلول الامويين الى تاسيس مملكة اتخذوا لها قرطبة حاضرة ما لبثت ان اصبحت مهدا لمدنية جديدة ترعرعت مجاليها الخصبة طوال قرنين ونصف قرن مسفرة عن فترة زاهـــرة فى تاريخ الفن الاسلامي .

ورغم احتكاك القبائل العربية المستقرة بالاندلس واستفحال حركة التمرد بانضمام البرابرة وتدخل المسيحيين لم يتوقف ازدهار الفنون ، وقد نتج عن حركة الربضيين الثورية التي شبت في ربض قرطبة بعد تاسيس فاس - هجره عائلات اندلسية من مختلف الطبقات الى خارج الاندلس وقد استفادت حاضرة المغرب الادريسية من الافواج القرطبية التي توافدت للاستيطان بها فكان لهؤلاء أثرهم في توجيه الحركة الفكرية والمآثر الفنية الا أن الاستقرار السياسي الذي استتب في عهد الناصر والحكم الثاني قد فتح المجال في وجه الادباء والشعراء والفنانين فاقيمت دعائم نهضة فنية جديدة تجلت معالمها الرائعة في البنايات التي تنافست العناصر المختلفة من سكان الاندلس في وضع أسسها مما أدى الى تأصيل نواة وصفت فيما بعد بالفن الاندلسي المغربي .

فهذه المعطيات الاولية للفن الاندلسي التي تجمعت في روائع قرطبة كالجامع الكبير والقصر ومدينتي الزهراء والزاهرة قد انضافت اليها عناصر فنية مقتبسة من مدارس طليطلة واشبيلية وغرناطة حيث توجد مثلا في قصر الحمراء قوالب بسيطة من الجبس ما زالت تغالب الحدثان الى الان.

وفي هذا المزيج الفني برز العنصر الشرقي في الآثار الشامية والفارسية والبيزنطية ، فكما سبق للوليد الاموي أن استعان بامبراطور الاستانة لاستقدام فنانين في الفسيفساء من اجل ترخيم جوامع دمشق والمدينة والقدس فكذلك اتجه الحكم نحو الامبراطور الروماني للحصول على خبراء في هذا الجانب من الفن البيزنطي ، وقد اكتسب العمال الاندلسيون مهارة في الابتكار تجاوزوا بها معلميهم .

وقد كان لروح التبادل التي سادت بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة الاموية في الاندلس اثرها العميق في طبع أبسط المعالم في الحضارة المغربية الاندلسية ، اذ لا يعزب عن الاذهان ان زرياب وهو من ابرع مغني الشرق قد هاجر الى قرطبة فاصبح - كما يلاحظ دوزي - مشرع اسبانيا العربية حيث حقق ثورة جذرية في الازياء ، وكل هذا أضفى على الحضارة الاندلسية طابعا خاصا من الروعة والرواء وازدهرت في عهد عبد الرحمن

الناصر جميع مرافق المدنية من فلاحة وصناعة وتجارة وفنون وعلوم مما ساعد حضارة اسبانيا المسلمة على احتلال المكانة الاولى بالنسبة لدول الغرب ويشهد كثير من مؤرخي الفكر باوربا أن القرن العاشر الميلادي وهو عصر النهضة الناصرية - يعتبر من أبهى وأزهى عصور اسبانيا العربية سواء فى الفنون أو المؤسسات العلمية والناصر الاموي هذا هو الذي وسع جامع القرويين بعد بنائه بقرن مضفيا بصورة رسمية على مدينة فاس اول طابع فني اندلسي وقد ازدهرت هذه الحضارة الى أن أصبحت بعد ذلك بقليل منافسة لدار السلام بغداد الرشيدية .

وقد كان لفاس أثرها القوي حتى فى افريقيا وبذلك امسى مهد علماء الاسلام بافريقيا تابعا لمدرسة الغرب الاسلامي فاس الادريسية ويرجع فضل هذه النهضة الى المولى ادريس الثاني الذي أمد حاضرة العلم باولى مؤسساتها ، فالفن بالمغرب وفى غيره من الدول الاسلامية هو من متبنيات الامراء والملوك الذين يعنون بالآداب والفنون الجميلة ويشجعون الكتاب والفنانين متحملين بذلك تكاليف مادية باهضة ، ففي الاندلس بلغت مصاريف بناء القصور وزخرفتها فى عهد الملوك الامويين الاول ثلث الميزانية العامة للدولة وكان المهندسون المعماريون والنحاتون والرسامون يشتغلون ترضية لحاجيات الامير ونوازعه السياسية ونفعا لغلته الدينية وتلبية لاتجاهاته الزخرفية ، وعندما كانت الاضطرابات تستتب وتحتدم كان الفن يتوقف وينتكس لان ازدهاره منوط بثروة الدولة وشخصية الامير .

كل ذلك جعل تطور الفنون معلقا على الظروف والملابسات التاريخية ومدى ثراء البلاد فى الحقل المادي ، وقد استمرت هذه التقاليد الفنية بالمغرب خلال العصور التالية وحتى عقب انحلال المملكة الادريسية فى القرن الثالث الهجري ، ظل كبار الامراء يؤسسون من الشمال الى الجنوب حواضر صغرى تنافس حاضرة فاس فى اقتباس مظاهر الحضارة الاسلامية ونشر معالمها الرائعة .

ويظهر ان الحياة الحضرية كان لا باس بازدهارها آنذاك نظرا لوفرة الحواضر التي اندرس معظمها ، وقد ترك لنا كل من البكري والادريسي

اسماء مجموعة من المدن اندثرت الان معالمها وهي مجهولة فى الخرائط ، وقد هدم البرغواطي يونس بن الياس وحده 387 مدينة حسب زعم بعض المؤرخين ، وتهمنا هذه الحواضر وتلك المؤسسات من عدة وجوه لان الفن فى كل قطر مظهر لامجاده وصورة حية لروائعه ، فما أثر من الآثار العمرانية الا ويمكن أن تنطوي زخارفه ونقوشه على اسرار من شأنها أن تلقي يوما ما ضوءا جديدا على المجالات التي ظلت غامضة فى تاريخ البلاد، فالدراسات الاثرية تكون احيانا اضمن وسيلة للتحري والتصحيح وهي عنصر جوهري فى كل حضارة .

المرابطون والفن

ان احتكاك العناصر السلالية فى الاندلس قد احتد وعجل ذلك بسقوط الخلافة الاموية مما أدى الى قيام نحو العشرين من ملوك الطوائف ابرزهم المعتمد بن عباد امير اشبيلية الذي اتسم بلاطه بروعة خلابة وكان مجمعا للعلماء والادباء ورجال الفن غير ان الزحف الاسباني استفحل فاستنجد مسلمو الاندلس بزعيم الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين الذي عمل على توحيد الاندلس تحت راية الاسلام ومنذ ذلك العصر أصبحت الاندلس مقاطعة مرابطية عرف فيها الفن خلال جيلين مظهرا جديدا من الروعة والازدهار .

وقد لوحظ أن المرابطين الذين ورثوا ملك الامويين وحكموا العدوتين كانوا صلة وصل بين اسبانيا والبربر حيث نما التبادل بين شقي مملكتهم ، واذا كانت اسبانيا اذ ذاك قد خضعت سياسيا للمغرب فان المغرب كان اقليما فنيا اندلسيا حيث استقدم يوسف صناعا قرطبيين لبناء مؤسسات بفاس بينما استفاد ابنه علي من مواهب مهندسي العدوة لاقامة قنطرة تانسيفت مثلا فى مدخل حاضرة مراكش ، وبفضل هؤلاء الغزاة الصحراويين فرض الفن الاندلسي روائعه على المغرب .

وقد وسع المرابطون جنبات « جامع القرويين » المؤسس عام 245هـ على الشكل الذي ما زال عليه الى الان كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد

فى القرطاس وزهرة الآس ، وقد بني جامع القرويين طبقا لتصميم اصيل فصحونه موازية للقبلة على غرار مسجد الشرفاء الذي بناه المولى ادريس بفاس وكذلك جامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك بدمشق .

وينبغي أن نؤكد هنا أن علي بن تاشفين فاق والده كثيرا ، فيكفي ان نذكر ان معظم أروقة جامع القرويين زاخرة بروائـع الفـن الاندلسي المقتبس طبق الاصل من الفن الاندلسي بما كان ينطوي عليه فى القرن الخامـــس الهجري من رقة ورشاقة وروعة وزخرف ، فاسهام المرابطين فى الفـــن كان مهما لا يخلو من تجديد ، فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس الا مـــا تمكن تقريبا من الكشف عنه ولنا على ذلك دليل قوي فى النفوذ الشامـــخ الذي بسطه المرابطون فى الاندلس وافريقيا وذلك فى العمل البناء الذي حققوه فى هذا الجزء من المغرب الاسلامي ، وقد لوحظ عن حق أن اقامة المرابطين لصروح أكبر امبراطورية أسست فى العالم حيث امتدت مـــن الاندلس الى جزر البليار الى نهر النيل (النيجر) لتنم لدى الفاتح عن تفتح مدارك قويـــة .

وعلى ذكر المرابطين والفن أرى من اللازم الاشارة الى موقف أحـــد علماء الآثار الاجانب من أحد مآثر المرابطين فهؤلاء العلمـــاء ــ وأغلبهـــم مستشرقون ــ بقدر ما نقدر دراساتهم وأبحاثهم بقدر ما يتحتم علينا اعادة النظـــر فيمـــا وصلـــوا اليـــه من نتائـــج للتاكـــد من صحتهـــا ، ففى خصوص جامعـــة القرويـــن التـــي هـــي أقـــدم جامعـــة فى العالم بعد جامعة الزيتونة وقبل جامعة الازهر ، زعم ((مارســـي)) فى كتابه الذي صدر عام 1927 م حول الفن المعماري ان ما توهمه ابن ابي زرع صاحب ((القرطاس)) من وجود ترخيمات مرابطية رائعة فى احدى قباب جامع القرويين انما يستهدف تغطية ((الفراغ)) الفني عند المرابطين وقد فند هذا الزعم عمليا نتاج الحفريات التي قام بها المغرب عام 1952 حيث برزت هذه الترخيمات والتجصيصات أروع وأجمل مما وصفه صاحـــب القرطاس ، ولكن هذا لم يمنع ((مارسي من الاحتفاظ برأيه فيما بعد ذلك بسنتين عام 1954 فى كتابه حول الفن الاسلامي ، وهو مظهر اما للجهل او التجاهل أو الغفلة المدانة فى جانب علمي لا يغتفر فيه اي نزوع مهما يكن ولو عن حسن نيـــة .

تطـــور الفـــن فى عهـــد الموحديـــن

وبعد انهيار الدولة المرابطية اعتلى اريكة العرش زعيم المصامــدة الموحدين المهدي بن تومرت المنحدر من الاطلس الكبير ثم خلفه عبــد المومن بن علي الكومي الذي وصفه بعض المؤرخين الاجانب بانه أعظــم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية اذ هو قائد حربــي نظامي حقق للمرة الاولى فى تاريخ افريقيا الشمالية اعجوبة باستلام الحكم فى مجموع الاقطار الممتدة من المحيط الاطلسي الى طرابلس الغرب .

وهكذا فان الموحدين الذين ركزوا للمرة الاولى وحــدة الاســلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا قد ساهموا فى تأصيل نــوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي فى المغرب .

وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من نصف قرن ، كان لهم فى غضونه اعمق الاثر فى عدوة الاندلس المترامية الاطراف . فانتصار يعقوب المنصور فى الاندلس قد اضفى على الفن طابعا خاصا وحقق ـ بتساوق مع مدرسة القيروان ـ التجانس الفني بين الشرق والغرب ، ذلك أن المغرب تمكن عن طريق الاندلس من الاتصال بعالم جديد متاثر بالعناصر المصرية والعراقية ، وقد احتل الموحدون فى تاريخ الفن الاسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين فى هذا الحقل ، وذلك بالرغم من معارضة المهدي بن تومــرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسمــاع والزخارف والنقوش ، غير أن البلاط الموحدي ما لبث ان تلألأت فى ربوعه مجالي الفن أيام عبد المومن الذي أضفى رواء على مساجلات الشعراء كما اقام العمارات الرائعة وازداد الفن روعة فى عهد ولده يوسف الذي زخــر بلاطه بالاطباء والفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وبني زهر .

وكان ابن يوسف هذا يقطن فى اشبيلية التي زخر فنها المعماري بأبهى واروع مما زين به حاضرة مراكش ، اما ولده يعقوب المنصور فان بدائعه الفنية تشهد بانه اروع بناء فى العصر الموحدي حيث تبدو الهندسة المعمارية الموحدية في اجلى واجل معالمها فى مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة Geralda باشبيلية ، وقد أكد كل من « طيراس »

و « باسي » ان الكتبية بمراكش اجمل معبد اقامتهالخلافة الاسلامية في المغرب وانه يعادل في جدة اسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة والانطباعة التي ترتسم في نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتأثير البليغ ، ذلك أن مساجد الموحدين أكمل واروع المساجد الاسلامية فهي عبارة عن خميلة من الاساطين تتجلى في غصونها جلالة الصحون والاروقة الممتدة بين الاعمدة والحنايا وصفاء الاقواس في رسومها المتناهية والجناس الاخاذ بين الصحن المركزي والصحون الجانبية باقواسها المتربصة وقبتها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلألأ في منتهى الصحن الذي تخيم عليه أشعة خافتة وضاءة تنعكس من الترخيمات الناعمة وفصوص العاج المصفرة في تضاريس المنبر ولمعان الفسيفساء بحيث تنبثق عن هذه المجموعة المعمارية الخلابة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة ، فجامع قرطبة رغم سمعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق في حين أن جامع « الكتبية » يشكل متحفا حيا للاعمدة الموحدية التي ينيف عددها على الاربعمائة والتي ما زالت تحتفظ باصالتها المتجلية في عبقرية الفنان الأندلسي الموحدي ومهارة يده الصناع وقد اكتسى بناء رؤوس الاعمدة غلالة من الخصب الذي لا ينضب معينه ولم يسبق له نظير في الغرب الاسلامي ، ولن يسمح الزمان بمثله .

أما منبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن مرزوق في مسنده فاشار الى ما أكده اهل الفن من جودة واتقان ترصيع منبري جامع قرطبة ومسجد الكتبية في حين أن المشارقة لا علم لهم في نظره بفن النقش على الخشب برقة واناقة ، ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر الى عبد المومن بن علي .

ويرى كل من طيراس وباسي أن هذا المنبر هو اجمل منبر في الغرب الاسلامي بل أبهى واروع منبر في العالم الاسلامي اجمع ، وما زال قائم الذات الى عصرنا هذا في الكتبية ، الا أن بعض اجزائه تميل الى التداعي ، وقد تعرض «ميلي» في كتابه عن الموحدين (ص128) الى المنارات او الصوامع الثلاث فذكر ان قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل ايضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الاناقة مع بساطة في الزخرف والنقش واصالة في الذوق الذي يحدق بها ويحويها دون مساس

بوحدة هذه المجموعة التي تسري في معالمها آثار السلطان المؤسس لها محيي الملة والدين وحامي التقاليد بل مدعم الاسلام في ربوع المغرب .

وقد بنى أبو يعقوب الموحدي القناطر ومعابر المياه مبرهنا بذلك عن اهتمام نادر بالصالح العام ، وقد أسس ولده المنصور منارات وقناطر وحفر مطافيء واقام الملاجيء في الفلوات من سوس الاقصى الى سويقة ابن مذكود في حدود طرابلس .

ولم يعثر على أي أثر للمدارس او المرستانات التي أشار اليها صاحبا ((القرطاس)) و ((المعجب)) ويظهر ان المستشفى الذي بناه يوسف بمراكش في القسم المنبسط من المدينة كان يتسم بطابع عصري ، وقد وصف ((ميلي)) هذا المارستان ملاحظا انه ((يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية وتخجل منه حتى اليوم (أي عام 1926) مستشفيات باريز)) .

نعم عرف فن الزخرفة الاندلسي المغربي - نظرا لزهد وتقشف عبد المومن وخلفائه - نوعا من البساطة حدت فناني الاندلس الى الاجتهاد لضمان خطوط الزخارف وفحواها وبذلك قويت حاسة الاتقان وسما الكيف والقيمة لا سيما مع توفر الوسائل وكفالة الذرائع المادية التي لم يسبق للفن الاندلسي أنعرف نظيرا لها منذ ازدهار مملكة قرطبة ، فقامت المؤسسات الضخمة وعجلت المجموعات الفنية الموحدية بمراكش واشبيلية والرباط بانبثاق الاساليب الكلاسيكية للفن الاسباني المغربي ، وقد تبلورت في هذا العصر في مجموع أنحاء المملكة حضارة يانعة مؤتلقة المعالم انعكست أشعتها الخلابة على الحياة المدنية وحتى في بعض مظاهر حياة البادية ، فاجتمعت في الهندسة المعمارية رغبة في ضمان جودة الكيف مع حاسة العظمة واستعملت أساليب آلية مقتبسة من ((علم الحيل)) لانجاز التصميمات الهندسية ، وقد لاحظ الاستاذ ((اندري جوليان)) ان الحضارة الاندلسية اتسمت اذ ذاك بطابع رائع صادف ازدهار النظام الذي حققه الموحدون ، وبذلك اخذ كل واحد حظه من الاشعاع الحضاري وامتد ذلك طوال القرون التالية حيث تغلغلت مدنية حق كثمرة للمبادىء وثقافة فكرية آخاذة في أعماق الجبال المغربية ، وقد أكد الاستاذ ((روبير

مونطاني » هذه الانطباعة عندما وصف المعالم التي تشهد بمدى اسهـــام الانتصارات الموحدية فى نشر الحضارة بالنواحي الاطلسية التي لم يسبق للعناصر الاجنبية ان تسربت الى حواجزها المنيعة .

« فقصبة الاوداية » مثلا برباط الفتح محاطة بسور ســـواء على طول نهر ابي رقراق أم تجاه المحيط الاطلسي ونحو السهل البربري ، وينفـــذ الزائر اليها من ثلاثة أبواب نشير خاصة الى الباب الكبير الذي تحتـــوي طبقته الارضية على قاعات متداخلة تعلوها حنايا جانبية فى نفس الاحجام مقببة ومحلاة بمناجد Pendentifs شبيهة بالجواهر المنظومة .

ويلاحظ ان انعدام الملاط المقوى Béton قد يثيـــر الدهشـــة بالنسبة للعصر الموحدي الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وأن الابواب الاخرى لمدينـــة الربـــاط تغايرها تماما من حيث مادة البناء ، وقد أظهر النحاتون براعـــة فى نقش بابي القصبة وهو نحت ثري منوع فى صلب الحجر على مستويات عديـــدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الاقسام وتحيط كتابـــات الخـــط الكوفـــي بالمشتبكـــات Entrelacs وبافاريـــز الزخـــرف السعفـــي Frise de palmette فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وأفاريز واشرطة كتابية وأقواس مفصصة Arcs lobés (أي ذات قويسات طبقا للفن الاندلســـي المغربـــي) وأقواس حدوية Outrepassés (أي شبيهة بحدوة الفرس او نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية فى أروع مظاهرها وهي أجمل أنواع الخطوط وأوفقها للنقوش المعمارية ، ولذلك كانت تشكل احد المجالـــي البارزة فى الفن الاندلسي ، أما الرسوم النورية أو الزهرية فانها تشغل ايضا فى هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم فى شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الاقواس المفصصة فى الوجهين معا ، ويتوافر هذا النوع من الرسم فى الابواب الموحدية الكبرى كباب كناوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط) والملاحظ أيضا أن الرسوم السعفية (أي التي تتخذ أشكال سعف النخيل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية فى الترخيمات الموحدية ، وهي موجودة فى جميع الابواب المومنية الا أنها أبرز وأوسع فى باب القصبة خاصـــة فى الوجه الخارجي للباب وهي من المقتبسات الراجعة الى الفن القوطي .

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الاشكال والتقاسيم فانها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن فى عهد بني مرين من تكثف ووفرة ، وهناك تناسب بين الترخيم فى مختلف اجزاء الهيكل العام يتسم بالأبهة والرشاقة معا بحيث لم يتخلف الموحدون فى ذلك عن تقاليد الفن الاسلامي شرقا وغربا .

اما السور الموحدي الذي اسسه يعقوب المنصور بالرباط فما زال - رغم مرور نحو من ثمانية قرون على تاسيسه - قوي الدعائم عدا قمته التي تفتت عناصرها ، وهو مبني من الملاط المقوى Béton الذي يحتوى على الثلث من الكلس بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس او الثمن، ومعلوم ان الملاط الموحدي هو اقوى الملاطات اذ يشتمل فى بعض المواضع على آجر مدكوك فى شكل ((طابية)) وعلى حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فاصبحت كالحجارة فى صلابتها لا ينال منها المعول الا قليلا ، وقد غالبت اسافل السور جوارف المطر ، اما عرض السور فيبلغ احيانا مترين اثنين ونصف متر قد عبدت فوقها طريق مشرفة للحراسة يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد فى حين يصل علو السور الى ازيد من عشرة امتار ، ويمكن ان نلاحظ اليوم وجود اربعة وسبعين برجا سبعة منها تمتد من ((برج الصراط)) فى الطريق الغربي الى ((باب العلو)) وتسعة الى ((باب الاحد)) وخمسة وعشرون الى ((باب الرواح)) وسبعة على طول ((ثكنة الحرس الملكي)) واربعة وعشرون الى الجهة المارة من ((باب زعير)) والمطلة على أبي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه .

ومن هذا الوصف الموجز يتضح ان ابواب السور الموحدي بالرباط لها ميزات مشتركة تتجلى فى وجود منعرجات ونواتىء ضخمة وسلسلة من القاعات المتوازية احداها مكشوفة يحتوي داخل كل منها على غرف صغيرة لسكنى الحرس او خزن الاسلحة وهي تشكل مع ذلك مراكز دفاعية هامة تعززها الانعراجات المختلفة غير الموجودة فى الحصون الاندلسية .

المرينيون والفن الاندلسي المغربي

وفى عام 610 هـ انبثقت من الصحراء قبيلة بني مرين التي قامت بحملة واسعة فى كثير من الاقاليم المغربية التي كانت تحت الحكم

الموحدي وكانت حدود المغرب قبيل ذلك بعقود من السنين تمتد من السوس الاقصى الى طرابلس ، الا أن الحفصيين (وهم من سلالة الشيخ عمر الهنتاتي صاحب ابن تومرت) الذين كانوا يحكمون افريقية باسم الموحدين ، اقتطعوا لانفسهم مملكة منفصلة عن المغرب ، وفى عام 625 هـ أسس محمد بن يوسف بن هود باسم العباسيين امارة بالاندلس ما لبث ان استولى عليها بعد أربع سنوات الامير محمد بن يوسف بن الاحمر الذي انصاع لامير تونس وبذلك توالت الضربات على المملكة الموحدية فآل امرها الى الانهيار على اثر احتلال المرينيين لمدينة فاس عام 645 هـ .

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران فى عهد بني مرين الذين أصبحوا اقوى ملوك افريقيا الشمالية اذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فانهم استطاعوا – بفضل اتصالهم المزدوج ببني نصر ورثة الحضارة الاندلسية وبالموحدين – التكيف والانسياق فى مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الاسلامي والمجالي الطريفة فى التجديد ، وقد تبلور اتجاههم فى اقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الاضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء .

وقد اتسمت حركة المرينيين المعمارية بطابع ديني فى كثير من الاحايين حيث أقاموا مجموعة رائعة من المساجد والزوايا فى تازة ووجدة وتلمسان وفاس والمنصورة (قرب سبتة) وطنجة وسلا ومكناس ومراكش، كما أقيمت معابد حول أضرحة الملوك مثل مقابر المرينيين فى شالة ، وفى شالة ذاتها أسسوا الزاوية التي تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب السلماني والتي اضافها أبو الحسن الى جناح الاضرحة بهذه المدينة الاثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها واروقتها وغرفها أشبه بمعهد تتجلى فيه نفس المعالم الزخرفية المدرسية كالترخيم والنقش والزليج والفسيفساء والتبليط المرمري .

وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة ومركزا لدراستهم التي كانت تتابع فى المساجد القريبة منها ، واحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوي

على مسجد صغير بمحرابه ومنارته ، وقد رسم التصميم العـــام لهــــذه المدرسة المغربية منذ القرن الخامس فهناك صحن تقوم في جوانبه الثلاثة سلسلة من البيوت ، وفى الجانب الرابع قاعة للعبادة ، وتقوم فى الطابق الاول فى بعض الاحايين مجموعات أربع من الغرف تشرف على الصحـــن الداخلــــي .

وقد اسست اول مدرسة مرينية عام 670 هـ بامر من أبـــي يوسف وهي تحتوي على مسجد ومنارة وهي المؤسسة الوحيدة التي يرجع تاريخ تاسيسها الى هذا القرن .

وفى القرن التالي اقيمت مجموعة من المدارس منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ ، ومدرسة « السباعيين » (الصغرى) ثم اخيـــرا المدرسة « المصباحية » . وقد بنيت هذه المدارس بامر من أبى الحسن الذي زود بالمدارس كبريات مدن المغربين الاقصى والاوسط (تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفـــي واغمــات ومراكش والقصـــر الكبير والعباد بتلمسان وعاصمة الجزائر) .

ومن المساجد التي ما زالت قائمة برباط الفتح ممثلة الفن المريني « الجامع الكبير » الواقع قرب شالة والذي جدد فى عهد مولاي الحسن الاول سنة 1299 هـ (1882 م) .

تلك بعض المظاهر الجوهرية التي يمكن أن تستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدات تتبلور فيـــه مجالـــي الازدواج بين الطابعيـــن الاندلسي والمغربي فى شكل جديد سمي بالفن الاسباني الموريسكـــي . Art hispano-mauresque وبالرغم عن التاثيرات الاندلسيـــة التـــي وسمت هذا الفن فانه اصطبغ بسمة خاصة اذ عوضا عمـــا كان يذكـــي المهندس الاندلسي من رغبة فى تحقيق التوازن بين القوى فى المعالـــم المعمارية هدف المهندس المغربي الى ضمان متانة الهيكل بالاضافة الى ما كان يشعر به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الاسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري

الذي بلغ فى العصر المريني اوج عنفوانه من ايغال فى التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد ، فان المجموع ظل واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رئعا ضمن الحيز الذي يملاه ، وهذا بالاضافة الى ما انطوت عليه الالوان من دقـــة وجناس كاملين ، وقد أشيع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التـــي لا تضاهـــي وروعته الطريفة الاصيلة ، فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره فى العدوتيـــن .

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشـــاط المهنـــدس الاندلسي الذي كان تاثيره ملحوظا فى مجموع المآثر المعماريـــة ، وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا باس بها حتى فى الشرق، غير أن درجة النضج التي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره، فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد أبي الحسن وحال قيام الفتـــن دون تحقيق أعمال عمرانية كبرى بعد ذلك .

وهكذا نرى أنه اذا كان الفن قد استطاع الصمود فى نهاية العهـــد المريني فما ذلك الا بفضل العناصر الاندلسية التي هاجرت الى المغرب بحيث اصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة فى كثير من الفنون والحرف على الاندلس ، ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته رغما عن انعدام الفخامة فى مجاليه ، ذلـــك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت فى اطار من الوضوح والدقة لا غبـــار عليـه ، وكان المجهود الفني الذي بذله المرينيون قد تقلص ـ كمـا يقـــول طيراس ـ فى الوقت الذي انبهرت قوتهم العسكرية .

كيف تبلور الفن فى العصور الاخيـــرة ؟

ا ـ السعـديـــون :

اتخذ تدخل السعديين صورة ثورة ضد عجز الوطاسيين عن ايقاف حملات المسيحيين وهبوب الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعاقـــل

العربية فى الاندلس ، وقد تم احتلال سبتة عام 818 هـ فثارت ثائرة الامة المغربية وطاف دعاة الجهاد فى القبائل يحدون الناس الى مقاومة المغير، وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهي الزوايا ، واستغل الشرفاء السعديون الموقف فتزعموا هذه الفورة الشعبية ونصبوا انفسهم قوادا للثورة التي لم تنتظم الا بعد أن تمكن البرتغاليون من غزو كبريات المدن الساحلية التي أحاطوها بأسوار عتيدة وجهزوها بحصون وأبراج وأقاموا فيها مستودعات للماء (مطافيء) .

وقد عرف السعديون كيف يوجهون هذا الحماس الشعبي الرائع الذي كان يعززه العلماء والصوفية فأخرجوا العدو من أكادير وآسفي وازمور وأصيلا والقصر الصغير ، وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمة شنعاء مني بها البرتغاليون فى معركة ((وادي المخازن)) التي فقدت البرتغال بعدها استقلالها السياسي طوال اثنتين وستين سنة ، واندرج المغرب بفضل انتصاره الفذ فى صف الدول العظمى وأصبحت تخطب وده بلاطات أوربا وتسعى فى الحظوة بمعونته وتأييده ، وقد أثرت الدولة بما دره عليها ذهب السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين ، فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر ((البديع)) الذي وصفه ((اليفرني)) ملاحظا ان السبب الذي حمل المنصور على انفاق جلائل الاموال ونفائس الذخائر لبناء البديع هو الحصول على ماثرة وشفوف على المرابطين والموحدين ومن بعدهم ، وقد استغرق العمل فيه المدة المتراوحة بين سنة 986 هـ و 1002 هـ ، وجلب الصناع الافرنج كما جلب له الرخام من ايطاليا فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل فى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة تحف بها مصانع من قباب وقصور ودور ... وفيها الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكر ، وكل رخامة طلي راسها بالذهب الذائب ومموه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة وجعل فى اضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين وتجسم فى سقوفه الذهب وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس ، وكان به اشعار مرقومة فى الاستار وابيات منقوشة فى الجهات على الخشب والزليج والجبس ،

وقد هدم هذا القصر عام 1119 هـ ((ولم يبق بلد ـ كما يقول اليفرني ـ من بلاد المغرب الا دخله شيء من انقاض البديع))

ومن المؤسسات الدينية السعدية مسجد ((باب دكالة)) الذي بنته ((مسعودة المزكيتية)) والدة المنصور ويتناسق في هذا المسجد الاسلوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدي مثل هندام القباب ((وجامع المواسين)) بمرافقه من الحمام والمدرسة والكتاب (أي المسيد) والساقية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتنم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة في الحقل المعماري.

اما جامع القرويين بفاس فان السعديين بنوا قبتين في الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهة بما يوجد في ساحة الاسود بالاندلس.

كما أسهم السعديون في بناء مدارس صغرى مضافة الى المساجد أو الزوايا حيث توجد مثلا في مراكش عاصمة السعديين أعظم مدرسة بالمغرب يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التي تستمد اسمها من الجامع المجاور بها وقد بناها أبو الحسن المريني ، وكانت اهم ماوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة . وقد اقيمت قبور السعديين على غرار أضرحة المرينيين بساحة قرب مسجد القصبة بمراكش لدفن امراء الاسرة المالكة .

وأما المؤسسات العسكرية فان الانقلاب الذي طرا على الاساليب الحربية تحت تاثير حركة النهضة الاوربية وانبثاق عهد الآلة وغزو المسيحيين للتراب المغربي ، كل ذلك حدا الدولة المغربية الى تعديل مناهج وطرق التعمير ، فالاسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعززت بابراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية ، ومن جملة هذه المعاقل المجردة ((باستيون)) (أي حصن) تازة الذي بناه المنصور استجابة للحواجز العسكرية القاضية بتزويد ممر تازة الواصل بين الشرق والغرب بالاجهزة الدفاعية المناسبة ، وهذا الحصن عبارة عن مؤسسة ضخمة مربعة الشكل يبلغ طول أضلاعها ستة وعشرين مترا ، وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة

غرفة للرماية ، كما تحتوي على مستودعات للعتاد ، وقد اقام المنصور كذلك بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة ، وما زال البرج الجنوبي على حالته بينما أدخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون الاخيرة، وتجدر الاشارة هنا الى ان السعديين اضافوا أجهزة قوية جديدة الى المعاقل والحصون البرتغالية فى المدن المحررة (آسفي وأزمور والجديدة) كما بنوا فى طول البلاد وعرضها قناطر ذات طابقين استراتيجي ونفعي ومعابر لنقل المياه وسقايات عمومية على غرار سلفهم .

ومهما يكن فان الفن المغربي الذي استنفد قواه اصبح يرزح تحت عناصر قوية فى النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها من جهة ولكنها ازدادت فخفخة ورواء من من جهة أخرى .

ب ـ العلويون :

وفى القرن الحادي عشر عندما استتب الامر للعلويين الامجاد فى عهد مولاي الرشيد بدأ هذا الامير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدي بتعزيز الاجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد ، وقد استطاع اقامة بعض المؤسسات رغم قصر أمد امارته الملآى بالحروب من ذلك بناؤه عام 1075 هـ لقنطرة طولها مائة وخمسون مترا مرفوعة على اعمدة تتخللها ثمانية اقواس كما شرع عام 1081 فى بناء « مدرسة الشراطين » ، ولا تخلو هندسة ونقوش هذه المدرسة من جمال الا ان معالمها بعيدة عما كان يتسم به الفن المريني من صفاء .

واقوى أمير واعظم بناء فى الاسرة العلوية الماجدة هو مولاي اسماعيل الذي اضطرته مقتضيات التهدئة الى الجولة خلال عقدين من السنين فى اقصى الاقاليم التي جهزها بقلاع يبلغ عددها ستا وسبعين فى المغرب وشمال الاطلس .

ثم اختار مدينة مكناس عاصمة اقام بها قصور فخمة داخل القصبة نفسها ، منها « مدينة الرياض » التي لم يبق منها سوى باب الخميس ،

وقد وصف ((الناصري)) قصور مكناسة ومساجدها ومدارسها بانها فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول كما ذكر الزياني أنه ما شاهد فى آثار الدول اعظم من آثار هذا الامير ، ولا يخفى ما فى ذلك من ايغال بالرغم عما تنم عنه بعض الآثار الباقية من روعة الاصل .

وتشتمل جميع المساجد العلوية على صحون ـ قليلة العدد ـ تخترق المسجد على نسق ما عوهد فى فاس منذ أزيد من أحد عشر قرنا باستثناء الفترة المرينية .

أما فى الهندسة العسكرية فان العلويين ساروا على غرار سلفهم السعديين ، فالمولى اسماعيل أعظم من اقام القلاع والحصون .

ومن جملة القلاع المهمة التي ما زالت قائمة الى الآن قلعة اذخسان فى الشعاب الشمالية للاطلس وأكوراي التي تراقب الاطلس المتوسط وقلاع تادلا وحميدوش وبو الاعوان ومديونة .

اما الدار المغربية فانها احتفظت بتصميمها وهندامها المعماري الذين أصبحا المظهر التقليدي منذ نهاية العهد المريني أي منذ نحو خمسة قرون، فالباحة الداخلية التي تتصل بالخارج عن طريق ممر منعرج ـ يتناسب مع لوازم الحجاب العرفية ـ محاطة باروقة مسنفة مستطيلة تتفتح فيها غرف ذات أبواب ضخمة تعلوها شماسات مفرغة وتقوم على جانبها نافذتان متوازيتان وفى احدى جوانب ((وسط الدار)) يوجد بهو منمق الجدران كما فى أجزاء المنزل علاوة على سقاية تواجه البهو احيانا أو فسقية فوارة

ويرى المؤرخ جورج مارسي ان الدور المغربية تتسم بمياسم ثلاثة او ترجع الى ثلاث مدارس :

1 ـ مدرسة الرباط وسلا ومدن الساحل

2 ـ مدرسة مكناس وفاس

3 ـ مدرسة مراكش ومدن او قرى الجنوب

فالتصميمات واحدة فى هذه الدور وانما يختلف الهيكل العام ومعالم الزينة تبعا لهذه الاقاليم ، فالاسلوب الموحدي يغلب وجـوده فى المدن ذات الطابع الاندلسي حيث تحيط مثلا الحنايا الحجرية بساحـة الدار الوسطى ، وفى بعض المدن كفاس حيث تسيطر التقاليد المرينية ، تحتوي الدار على طبقتين أو طبقات تتوفر فيها مظاهر الزخرفة بينما يتبسط هذا الاسلوب فى مدن الشمال الاخرى كوزان وتازة (باستثناء تطوان الاندلسية الهنـدام) .

وفى كل ذلك اتسم الفن العلوي الرائع بطابع ضم الى ضخامة الفن الموحدي روعة ودقة الفن المريني وخاصة منذ أن استعاد هذا الفن رواءه الاصيل بفضل الانبثاقة الفياضة التي آذكاها جلالة المرحوم محمد الخامس تبلورت فى تجديد جوامع ومساجد المغرب وخاصـة « جامع السنـة » بالرباط وقد ازداد هذا التراث الفني بهاء فى عهد جلالة الحسن الثانـي حفظه الله من خلال ذلك التوليف الاخاذ الذي ركز فى « ضريـح محمد الخامس » بحسان أبهى عناصر الفن الاندلسي المغربي مما عز نظيره الان فى العالم بحيث يعتبر هذا الضريح فى مظهره المعماري وحده تحفة فنية هي أبدع ما خطته يد الصناع فى المغرب الاقصى .

وقد عاش المغرب فى ابان الحماية عالة على روائع الماضي فكبريات المدن فقدت كثيرا من مظاهرها الفنية الكلاسيكية ، ومدينة فاس التـي كانت تنافس حاضرة بغداد قد تهدم الكثير من آثارها ، وقـد وصـف « كامبو » هذه المعالم عام 1886 م اي بعد بدء تسرب الاستعمـار الى المغرب العربي واتجاه ملوكنا الى الذب عن حياض المغرب فلاحـظ فى نغمة المتشائم ان كل شيء بال عتيق منخور فى معظمه لانعدام اي اصلاح الا ان مصلحة الآثار تبذل جهودا لترميم المآثر التاريخية التي يهددهـا الحدثان مع محاولة الاحتفاظ بالاساليب الكلاسيكية فى الفن المغربـي بالاضافة الى حركة التجديد التي تساير التطور العالمي .

ومن هذه الفذلكة يتجلى أن الاختلاف الظاهر بين المدارس الفنيـة فى مختلف العصور المغربية لا تسمح لنا بالحديث عن مدارس معماريـة مختلفة فضلا عن وجود انفصام بين الاتجاهات الفنية التي ترجع فى نظري الى عوامل اجتماعية تاريخية هي نفسها مستديمة التقلب ولعل هذا هـو الذي يفسر لنا مظهر التجانس بين أجزاء الهيكل المعماري العام فى حواضر المغرب فالدور الانيقة لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض من حيث الشكل واسلوب الزخرفة ذلك أن وفرة الجزئيات والزخارف المرينية مثلا لم يعد لهما حيز اقليمي خاص لا سيما فى العصور الاخيرة حيث تحقـق بيـن الحواضر الكبرى (كفاس والرباط ومراكش) تداخل عميق أسفر عـن وجهات متساوقة وحيوية فياضة هي سر هذا الطابع العام الموسوم بالوحدة، ولكن هذه البوتقة لا تلبث أن تصبح وعاء لانصهار العناصر المختلفـة فى فن جديد تتسق فيه معطيات العصور وتنبثق عن مزيج كلاسيكي .

فهل من مصلحة هذه المعالم ان تتحد ؟ أم أن سر جاذبيتها كامن فى اختلاف معالمها ؟ أم ان استمرار اصالتها لا بد أن يرتكـز على نـوع من الامتـزاج ؟

الواقع أن الهندسة والاساليب المهنية العتيقة التي يظهـر انهـا تحجرت فى البادية والجبال يجب أن تنتعش بمعطيات الفن فى الحواضر، ولكن دون مساس باصالتها ، ويجب أن ينبثق كل تجديد عن حاسة عريقة بالجمال وشعور تلاقائي بدافع التكييف لا تذوب معه الخواص الجهوية التي هي اسس كل اصالـة .

الربـاط عبد العزيز بنعبد الله

موقف الأديب والفنّان بينَ الحُرّيّة والإلتزام

د. تمام حسان

أكثر النقاد من الكلام فى مشكلة الحرية والالتزام ، حتى لقد أثاروا فى الاذهان ما احتدم من جدل بين المتكلمين فى مشكلة الجبر والاختيار. وارتبطت هذه المناقشة فى بعض صورها بالسياسة والاقتصاد ، حتى لم يعد المرء قادرا على التمييز بين رسالة الأديب والفنان من جهة ، ورسالة الداعية من جهة أخرى ، فراى البعض ان الوظيفة التي يجب أن يؤديها الفن انما هي الدفاع عن صالح المجتمع ، ومن لم يجند فنه لهذه الغاية فهو اما سلبي أو منحرف ، ومن ثم يستحق غضب المجتمع ، ويستجلب على نفسه ما هو أهل له من عقاب . ورأى الآخرون أن رسالة الفنان هي ابداع الفن فحسب ، فالفن غاية فى نفسه ، وليس وسيلة

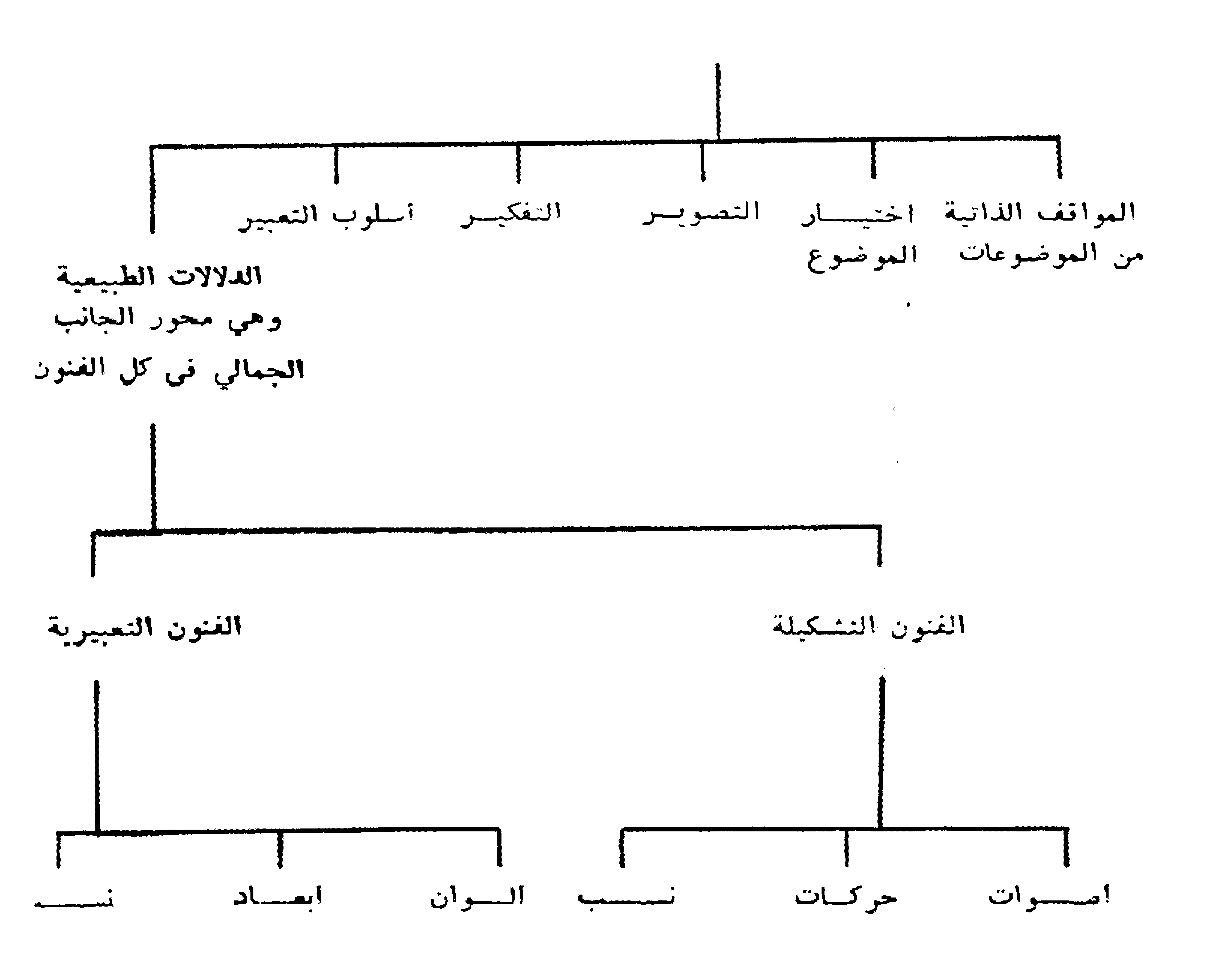
يتوصل بها الناس الى غاية اخرى . وواضح ان كلا من هذين الموقفين مبالغ فى التطرف . اما الاول فلأنه يفرض على الفن قيودا اقل ما توصف به انها تحد من حرية التعبير ، وتفرض شروطا موضوعية على نشاط ذاتي الطابع ، وتحتم على الانتاج الفني أن يجري فى مسالك لم يحددها الالهام الفني ، ولم تدفع اليها معاناة الفنان نفسه .

وأما الثاني فلأنه يريد للفن أن يكون افرازا ذاتيا مثله مثل الاحلام ، أو متعة ولذة مجردة ، وبذلك يفصل ما بين الفن وبين غاياته الانسانية النبيلة .

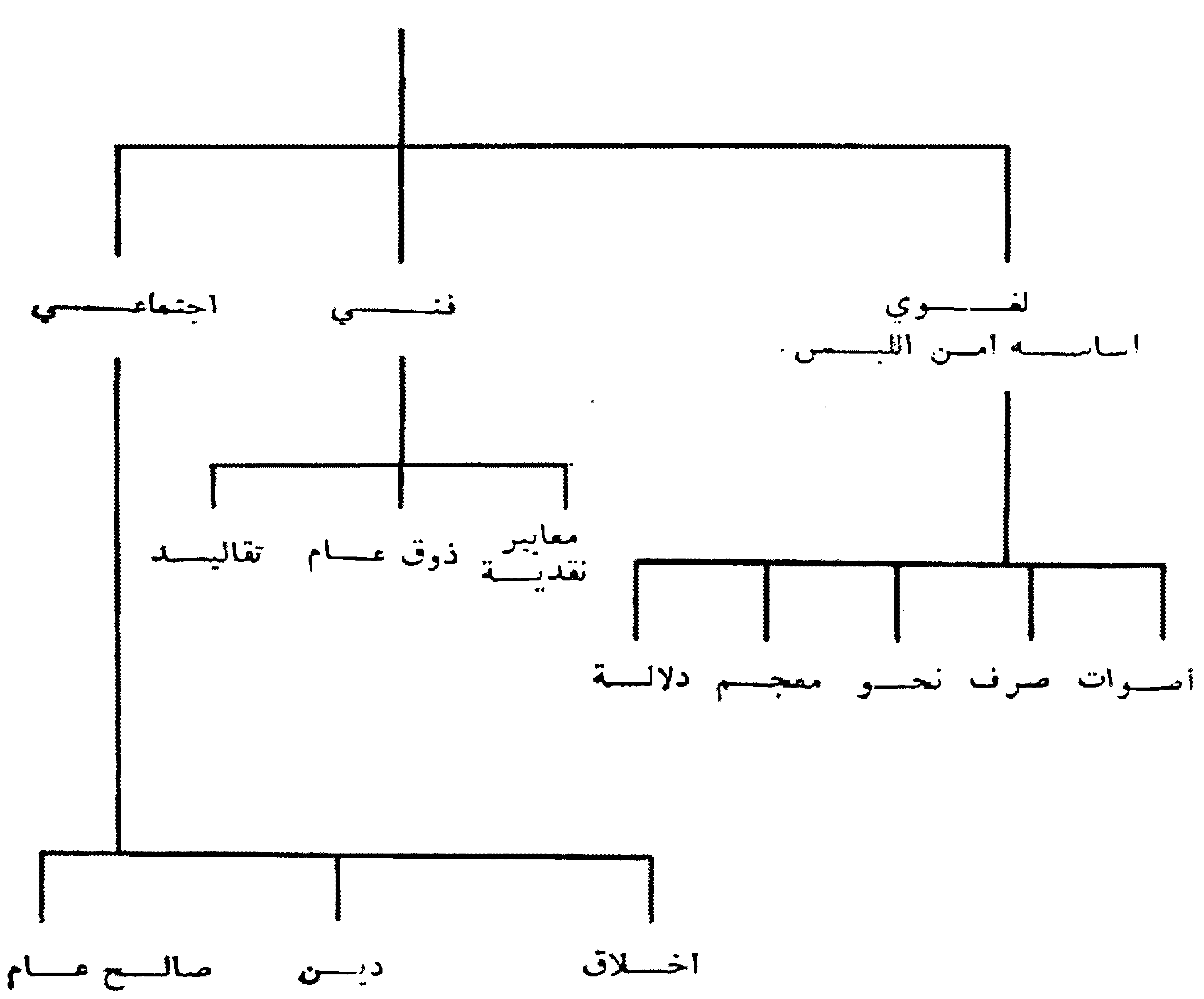
واذا امعنا النظر فى موقف الفنان والاديب من هذه القضية وجدنا ان للفن (ومنه الادب فى المقدمة) جانبين : جانب ذاتي ينتمي فى عمومه الى حقل الدراسات النفسية ، ويتناوله النقاد فى العادة فى ضوء علمي النفس والجمال ، وللفنان فى هذا الجانب حرية مطلقة ، لان تفوقه الفني وبروز شخصيته الفنية مرتبطان اشد الارتباط بهذه الحرية ، فلا يتحققان بدونها ، وجانب موضوعي ينتمي (فى عمومه ايضا) الى حقل الدراسات الاجتماعية ، ويتناوله النقاد فى العادة فى ضوء علمي اللغة والاجتماع ، وعلى الفنان هنا ان يلتزم التزاما كاملا بالعرف ، لان هذا الالتزام هو الذي يحدد قيمة فنه ويعطيه رسالته النبيلة الانسانية ، ويخلق الوحدة فى الفهم والذوق بين الفنان والمتذوقين لفنه . وهذا الكلام تلخيص مركز لموضوع المقال كله ، وما يتلو بعد ذلك شرح له وايضاح . وينبغي لنا قبل هذا الشرح وذلك الايضاح أن نقدم التخطيط التالي لعناصر الموضوع ، حتى ندرك العلاقات العضوية بين بعض هذه العناصر وبعضها الآخر :

مـوقـ

ذاتي طابعة الحرية
ينتمي الى حقل الدراسات النفسية (ومنها الجمال)



الفنـــان


موضوعي طابعه الالتزام
ينتمي الى حقل الدراسات الاجتماعية
لغـــوي
اســـاســـه امـــن اللبـــس
فنـــي
اجتماعـــــي
أصـــوات
صـــرف
نحـــو
معجـــم
دلالـــة
معايير نقديـــة
ذوق عـــام
تقاليـــد
اخـــلاق
ديـــن
صالـــح عـــام

وسنتناول عناصر الموضوع بحسب ترتيبها الذي يبدو فى هـــذا التخطيط ، بادئين بالموقف الذاتي وفروعه ، خاتمين بالموقف الموضوعي.

واول ما يصادفنا من ذلك أن الفنان حر فى اتخاذ موقف ذاتي ما من موضوعه ، فللفنان ان يتفاءل أو يتشاءم دون تثريب عليه من النقاد ، فـــلا لوم على عمرو بن كلثوم فى دعواه أن قومه ملأوا البر حتى ضاق عنهـــم وانهم قادرون على ان يملأوا البحر بالسفن ، ولا لوم عليه كذلك اذا ادعى ان الجبابرة يخرون ساجدين للوليد من قومه اذا بلغ الفطام . ولم يلم النقاد ابن الرومي لتشاؤمه ، ولا أبا العتاهية لزهده فى هذه الدنيا وتشاؤمه بها، لان ذلك الموقف النفسي حق ثابت للاديب ، وحرية الاختيار فيه أمـــر مسلم به . كذلك يمكن للاديب أن يحب موضوعه أو يكرهه فلا يلام بحبه ولا بكرهه . لقد كان عنترة حفيا بالحرب محبا لها ، لانها كانت سبب عتقـــه وحريته ، وكان زهير ضائقا بالحرب لانها رحى تعرك الناس بثفالها ، ويفنى بها الناس بعضهم بعضا ، فهي شؤم ذميمة . والاديب حر فى الاستحسان والاستهجان ، فذلك شأنه ولا يمكن أن يفرض عليه من خارج . وفى ادب الجاحظ من مدح الموضوع ثم ذمه ما يشير الى تعضيد هذه المقولة ، حتى تبيح أن ينسب اليه كتاب متخصص فى هذه السوفسطائية الادبية يسمى « المحاسن والاضداد » .

ثم يأتي بعد ذلك حرية الاديب فى اختيار موضوعه ، أو قل ان شئت: فى اختيار نوع الاستجابة لموضوع ما ، أيستجيب له استجابة عاديـــة كالذي يكون من عامة الناس ، أم يستجيب له استجابة أدبية كالذي نعرفه من الادباء . فكثير من المواقف التي تعرض للاديب يمكن أن يثير فيه هذه الاستجابة أو تلك ، كالفرح والحزن ، والالم ، والغضـــب ، والرضـــا ، والسخط ، وغير ذلك من المواقف اليومية الشائعة فى حياة النـــاس (والاديب منهم) . فيمكن أن تمر كما تمر التجارب العابرة ، لا يعيرهـــا الاديب من قته وانتباهه ما يؤهلها لان تكون موضوع ابتداع فني ، ويمكن — على عكس ذلك — ان يحفل بها وينشط لها فيعطيها من مـــا تستحقـــه التجربة من اهتمام ، ويخف الى ورقه وقلمه ، ويستديم اثر التجربة فى نفسه (وهو ما يسمونه المعاناة) حتى تكتمل له الصورة الادبية المرجوة . والاديب حر فى اختيار الموضوع الذي يستحق منه هذه الحفاوة .

فاذا اختار الاديب موضوعه فهو حر فى طريقة تفكيره فى هذا الموضوع ، ففي اختياره ان يحاول الابتكار او يركن الى التقليد ، وقد ينجح فى الابتكار او يخفق ، وقد يبتكر أمرا ذا بال ، أو يأتي بأمر مسف ، وقد يحسن التقليد – مجرد تقليد – فى الاطار الفكري العام ، فيكون فى حدود حريته واختياره ، وقد يسطو على افكار غيره بتفاصيلها فيخرج من حدود حريته ، ويعرض نفسه حينئذ لما يتعرض اه المعتدون من عباد الله . والاديب حر بعد ذلك فى أن يكون فرديا فى تفكيره أو اجتماعيا ، ولا حرج عليه فى كلا الموقفين الفكريين . وهل عاب احد ابا فراس بقوله : اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر . أو فضل احد عليه من يقول :

فلا نزلت علي ولا بأرض   سحائب ليس تنتظم البلادا

ولعل الفنان احوج الى حرية التفكير من العالم ، لان العالم يسترشد بمنهج معين يهديه الى سواء السراط ، ومن هنا تصبح الحقيقة أيسر عنده منالا ، ويصبح بالمنهج اقوى اعتصاما ، وأوضح به اعتذارا عند تعرضه للمؤاخذة . أما الفنان فى عالمه الذاتي ، فلا عاصم له الا أن يعترف له بحرية التفكير ، ولا وظيفة للفن يمكن الوصول اليها الا بهذه الحرية الفكرية .

وللفنان مطلق الحرية فى التصوير سواء كان ذلك مرتبطا بالصورة العامة التي شكلها لموضوعه ، ام بالصورة الفرعية التي تدخل فى اطار هذه الصورة العامة . ولم يعرف الادب العربي القديم وحدة عضوية تجمع الأخيلة المتفرقة فى صورة خيالية واحدة ، وان كان قد عرف فى الكثير من الاحوال وحدة عضوية للموضوع نفسه ، ومن هنا كان بعض القصائد خالصا للغزل ، أو خالصا للاعتذار وهلم جرا .

والنقاد المحدثون يدافعون بشدة عن الوحدة بين الاخيلة بحيث يكون للموضوع صورة عامة متخيلة ، وصور اخرى فرعية بداخلها . ولكن الاديب العربي يظل حرا فى ان ينحو نحو الاقدمين ، أو أن يسلك مسلك المتأخرين ، ولا بأس عليه فى رايى ان نحا ، ولا بأس عليه ان سلك ،

والمجيدون والمسفون يكثرون بين انصار القديم وأنصار الحديث على حد سواء . والمغزى من وراء ذلك أن الفنان له حرية التصوير ، ولولا هذه الحرية ما تطور الادب ، ولولاها ما قال ابو نواس :

كل من يبكي على رسم درس   واقف ما ضر لو كان جلس

ولولاها كذلك ما تطورت الفنون الاخرى سواء فنون التعبير وفنون التشكيل .

وليس الفنان اقل حرية في مجال اختيار طريقة التعبير . فهو حر فى ان يعبر بالشعر أو بالنثر ، وهو حر فى أن يجعل من ابداعه قصة شعرية ، أو نثرية أو مقالا ، او ترجمة ، او اعترافا ، أو غير ذلك من أنواع الادب . وله بعد ذلك أن يكون جادا او هازلا ، أو مبالغا أو مقتصدا ، مطنبا او موجزا ، وهلم جرا . وله فى اطار كل ذلك ان يستعمل أساليب الخبر او الانشاء ، وان يركن فى مجمل أسلوبه الى الجملة الفعلية ، أو الاسمية ، وان يختار ما بين الحذف والذكر والاضمار ، وبين الفصل والوصل ، وهلم جرا ، مما لا حرج على الاديب فى اخذه او تركه . ومن المسلم به ان لكل اديب اسلوبه الخاص الذي يعرف به ، حتى يمكن لمن أكثر القراءة له ان يتعرف عليه مما يكتبه وان كان غير منسوب اليه نسبة صريحة . ولكن من المسلم به ايضا أن مما يحدث للاديب احيانا أن يتعمد التأنق فى اسلوبه على صورة قد تخرج بهذا الاسلوب عن منهجه العادي . والاديب حر فى ذلك يختار لنفسه ما يشاء وانف الناقد راغم . على ان حرية الاديب فى حقل التعبير انما هي حرية تحيط بها جبرية معينة من عرفية اللغة ، والالتزام بهذه العرفية على نحو ما سيبدو لنا فيما بعد . فمثل الاديب هنا كمثل الذي قيل له لا تغادر المدينة ، ولك حرية التنقل فى ارجائها ؛ أو كمثل الارادة التي نسبها المعتزلة الى الانسان مشروطة بارادة الله . ومعنى ذلك كما سيتبين لنا فيما بعد ان الاديب لا يستطيع أن يتحدى عرفية اللغة ، فاذا التزم بها فله الخيار فيما وراء ذلك .

يبقى من فروع الموقف الذاتي ما للفنان من حرية الاختيار فى استعمال الدلالات الطبيعية فى التعبير . واذا رجعنا الى التخطيط السابق

لعناصر الموضوع وجدنا ان هذا التخطيط ينسب الى الدلالة الطبيعية ، انها محور الجانب الجمالي فى كل الفنون ، سواء منها الفنون التعبيرية والفنون التشكيلية . وترتبط الدلالة الطبيعية فى الفنون التعبيرية بالاصوات والحركات والنسب ، كما ترتبط فى الفنون التشكيلية بالالوان والابعاد والنسب . ولنعد الى شيء من تفصيل ذلك . وسنرى ان ارتباط الدلالة الطبيعية بالاصوات فى الفن يتجلى فى الموسيقى والغناء ، واختيار بحور الشعر وايقاعاته ، وقوافيه وطريقة القائه ، واختيار الكلمات التي التي تروق الاديب لجرسها ، وهلم جرا ، كما تتمثل الدلالة الطبيعية للحركات فى المسرح والسينما والرقص بأنواعه . ذلك هو شأن الفنون التعبيرية ودلالاتها الطبيعية . اما فى الفونن التشكيلية كالرسم ، والتصوير ، والنحت ، والخط (ولا سيما الخط العربي) ، وغيرها ، فالدلالة الطبيعية انما تكون بالالوان والابعاد والنسب . فالوان الرسم الزيتي والمائي ذوات ايحاءات طبيعية فنية هي مناط تأثيرها فى النفس ، و لا شك ان الفلم الملون والتلفزة الملونة تمتاز بامكانات فنية لا تكون لها بغير اللون ، واختيار الالوان هنا مجال من مجالات حرية الفنان . والدلالة الطبيعية للابعاد تتجلى فى الرسوم وفى النحت وفى الخط . والفن المعاصر يتلاعب بدلالة الابعاد كثيرا ، ولا سيما فى حقل الفنون التجارية والاعلان ، على ان القدماء والمحدثين استخدموا الدلالة الطبيعية للبعد لاغراض وسيلتها الفن وغايتها فيما وراءه ، فكلنا يعلم أمر التمثال الضخم فى كريت الذي عد من عجائب الدنيا السبع ، وابو الهول اشهر من ان يشار اليه فى هذا المقام ، وتمثال المسيح الذي اقيم على ربوة عالية فى البرازيل لعله أضخم تمثال جاء به النحت المعاصر . وتمثال الحرية فى نيويورك . كل ذلك يمثل الدلالة الطبيعية للابعاد (والمقصود هنا الاثر الفني والنفسي الذي تخلفه الضخامة) .

اما الدلالة الطبيعية للنسب فهي اخطر شيء فى الفن على الاطلاق ، وهي صادقة على الفن ايا كان نوعه (تعبيرا أو تشكيلا) . والنسبة علاقة بين منسوب ومنسوب اليه ، ومن ثم فهي فى طابعها أشبه بالتفاعل منها بالفعل . واذا كانت تفاعلا فلا غرابة أن نجد أكثر العبارات الدالة على النسبة تقع فى صيغة التفاعل كالتوازن ، والتوازي ، والتوافق ، والتباين،

والتوالى ، والتساوى ، والتقابل ، والتكامل ، والتلازم ، وهلم جرا . ولن اغامر هنا بتطبيق فكرة النسبة فى الحركات والالوان والابعاد ، لان لهذا الميدان فرسانا لست منهم . أما فى الاصوات فاشهر ما يقع من تاثير النسبة انما يكون فى الموسيقى والفناء . وحسبنا أن نعلم النسب الرياضية بين درجات السلم الموسيقي من حيث عدد الذبذبات ، وأن نعلم ان امر التوافق الهارموني بين الدرجتين من درجات السلم انما يرتبط بأمر هذه النسبة الرياضية . ثم يأتي بعد ذلك الشعر وموسيقاه الخاصة، ودوائره التي انشأها الخليل ، فلخص فكرة النسبة فى الميزان الشعري أكمل تلخيص . ولقد استعمل المولدون والمحدثون هذه النسب فى توليد اشكال شعرية جديدة اشهرها الموشح ، وما نعرفه الان باسم الشعر الحر . كما نص الخليل من قبل على فكرة الجزء فى البحور . والنسبة ذات أثر فى القافية أيضا ، فالفرق بين الشعر والرجز فرق فى نسبة القافية من جهة ، وفى التزام البحر أو عدمه من جهة اخرى . والمحسنات البديعية فى جملتها من قبيل النسبة كما يبدو فى اسمائها ، كالطباق وهو تباين ، والجناس وهو توافق ، الخ .. مما يمكن رده الى فكره التفاعل التي مرت بنا وكلها ذوات دلالات طبيعية . والنسبة تبدو أيضا فى القاء الشعر بمراعاتها بين الاصوات المستعملة فى الالقاء ، للتعبير عن المعاني الطبيعية كالفرح والاسى ، والغضب الخ .. اذ يكون وصف الصوت بالعلو او الانخفاض وصفا غير مطلق ، بل يوصف بذلك بالنسبة الى الاصوات التي جاورته . والذي يهمنا من كل ذلك أن الفنان حر فى الاختيار فى كل ما تقدم ، مما يصدق عليه انه موقف ذاتي ينتمي فى طابعه الى حقل الدراسات النفسية . ومعنى حريته فيما يختص بالفقرة الاخيرة انه يستطيع أن يختار نغمة دون نغمة ، وحركة دون حركة ، ولونا دون لون ، وبعدا دون بعد ، ونسبة دون نسبة ، وهو يعلم مع كل اختيار أن الاثر النفسي الذي يتركه اختياره سيكون مخالفا لما يتركه الاختيار الآخر فى النفس .

والموقف الموضوعي للفنان موقف عرفي ، ينتمي بحكم مكوناته الى حقل الدراسات الاجتماعية التي تعتبر العرف سيد الموقف . ويبدو الطابع العرفي لهذا الجانب من نشاط الاديب عند النظر الى عناصر هذا

المواقف التي لا غنى عن العرف في واحد منها . فاللغة بكافة صورها عرفية عامة ، والدوق الاجتماعي العام عرف عام ايضا ، والمعايير النقدية عرف خاص بين النقاد ، والتقاليد عرف ، والاخلاق ومعاييرها عرف ، وليس الدين بعيدا عن العرف ، وللصالح العام جانبه العرفي كذلك . واذا كان العرف ملزما ــ وهو لا يكون الا كذلك ــ فان موقف الفنان هنا موقف الالتزام بلغة المجتمع ــ لا يغير فيها ولا يبدل ، وبذوق المجتمع ، وتقاليده ، واخلاقه ، ودينه ، وصالحه العام . وهو ملتزم كذلك بالمعايير التي تعارف عليها النقد في عرفهم الخاص . دعنا اذا نتناول كل عنصر من هذه العناصر على حدة .

اما اللغة فالاديب ملتزم باصواتها ، وصرفها ، ونحوها ، ومعجمها ، (مفرداتها) ، ودلالات جملها ، وأساليبها ، لا يتصرف في واحد من هذه الامور بحسب اختياره ولا يتحدى العرف . ولو قد فعل لصادف من المجتمع ما يستحقه من السخرية او الاهمال وعدم الحفاوة بأدبه ، لان اللغة نظام رمزي يقوم عليه ترابط المجتمع ، ومن ثم يحرص المجتمع على امن اللبس في استعمال هذا النظام . وقديما سخر الناس ممن تهاون في مراعاة امن اللبس ، فقالوا : « المعنى في بطن الشاعر » ، لان الشاعر فيما يبدو كان قد استعمل مفردات غير معروفة المعنى . فعلى الاديب أن يلتزم بأصوات اللغة ، فالاديب العربي لا يستعمل صوت V وانما بقلبه الى الواو كما في « انو شروان » من قول البحتري :

والمنايا مواثل وانو شر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وقول المتنبي :

يقول بشعب بوان حصاني اعن هذا يسار الى الطعان ؟

ولا يستعمل صوت P وانما يقلبه الى الباء كما في قول علي محمود طه :

كليو بترا اي حلم من لياليك الحسان

على ان الشاعر هنا التزم بشروط اللغة العربية في أمر آخر هـو تجنب البدء بالساكن لان النطق الاصلي لهذا العلم هو Cleopatra فكسر الشاعر الكاف الساكنة واسكن اللام المكسورة بحسب مطالب اللغة. وقد استعمل محمد عبد الوهاب حق الملحن فى التحرر من ضبط الشاعر لهذا اللفظ ، فأحدث فيه قلبا مكانيا بين اللام والياء ، وصيـر الكلمـة « كيلو بترا » ، تحت داعي الانتفاع بهذه الياء فى احداث مد فى المقطـع الاول مناسب لمطالب اللحن من جهة ، وفرارا من تشكيل الياء بالضمـة وهي عدوتها من جهة أخرى ، فأرضى اللحن والقواعد الصوتية فى وقت معـا .

ولا يستعمل صوت O وانما يحوله الى الواو اذا كان ممدودا والى غيرها اذا دل عليه دليل . فقد استعمل شوقي كلمـة Waterloo على شكل « واترلو » اعتدادا بهجائهـا فى الانجليزيـة . وفى كلمـة « شبكسبيـر » Shakespear تراعى القواعد الصوتية للغة بتحويل مد المقطع الاول الى صورة الياء ، ثم كسـر الكاف الساكنـة لالتقـاء الساكنين ، ثم تحويل P الى صوت الباء ، وهلم جرا .

وعلى الاديب أن يلتزم بالقواعد الصرفية للغة ، فلا يستعمل صيغة صرفية لم تستعملها اللغة ، ولا يغير كلمة من صيغتها الى صيغة أخرى : ولا يخترع فى اللغة ضميرا ولا اداة ولا حرفا من حروف المعانـي ، واذا عرب كلمة حاول ان يخضعها قدر امكانه لطريقة الصياغة العربية ـ ولذلك كله اصوله المرعية التي راعاها الشعراء والكتاب فى العصور الاسلاميـة الاولى ولا سيما فى عصر الترجمة فى الخلافة العباسية .

وعلى الاديب أن يراعي قواعد النحو لانها كالقواعد الاخرى فى حراسـة المعنى ، وتجنب اللبس المخل به . ولقد شاع اللحن فى أدبنا المعاصـر الى مدى يبرر تسميته « بالملحون » وكأن الشعراء والكتاب قـد راوا أن النحو فضولي على الادب ، أو كأنهم يئسوا أن يحيطـوا بأطراف النحـو فازدروه ، ثم نكلوا به . وكذلك فعل النقاد الذين راوا أن النقد اذا اتجـه الى المضمون فحدد قيمته ، فالشكل (أي اللغة التي صيـغ بها الادب)

لا خطر فيه ، ولا طائل تحته . فاذا علمنا ان معظم قواعد النحو العربي قد استنبط قديما من الشعر ادركنا مقدار الفجيعة فى ادبائنا المعاصرين ، وفى موقفهم من اللغة التي يكتبون بها أدبهم .

وعلى الاديب أن يلتزم بمفردات لغته ، لانها كلمات تعارف الناس عليها فأصبح معنى كل كلمة منها واحدا فى ذهن المتكلم وفى ذهن السامـــع . ولهذا السبب تصبح الكلمات واختصاصها بالمعاني كأزرار الضوء الكهربائي واختصاصها بالمصابيح ، اذا اردت أن تضيء مصباحا عرفت أين تضغط . ولو فرضنا أن رجلا قد أراد أن يحدث عملا تخريبيـــا فى هـــذه الاضواء ما كان عليه الا أن يغير نظام التوصيل الذي « عهده » اصحاب المبنى الذي به المصابيح ، فيجعل كلا من الازرار متصلا بغير المصباح الذي كان له ، ويحدث من الازرار ما لا يتصل بمصباح أبدا . فاذا جاء اصحاب المبنـــى فأرادوا أن يضيئوا حجرة اضاءوا غيرها ، واذا ضغطـــوا على المفتـــاح المستحدث لم يحدث منه ضوء . فكذلك اللغة ، اذا تغيرت دلالات كلماتها حدثت الفوضى فى الفهم ، واذا استحدثت فيها كلمات لا عهد للناس بهـــا لم تثر فى افهامهم شيئا ، ومن هنا كان على الاديب أن يلتزم بمعجم اللغة .

ولقد استعمل الاقدمون فى الادب رخصا أملتها عليهم الضرائـــر أو الاعتبارات الجمالية فى اللغة ، ولكنهم حين فعلوا ذلك كانـــوا يدركـــون بسلائقهم القوية ان اللبس مأمون مع الرخصة ، وان المعنى مضمون ، وان لا خطر على السامع ان يفهم شيئا غير الذي اراده القائل . حدث ذلـــك فى الشعر كما حدث فى القرآن والحديث ، ثم ذهب النحاة يؤولون ويشذذون حرصا على قواعدهم وهم يعلمون علما تاما أن اللغة ما يقوله السليقي لا ما يراه اللغوي . ومن الرخص ما يتعلق بالحركة الاعرابية كقطع النعت نحو .

قد سالم الحيات منه القدمـــا   الأفعوان والشجاع الشجعمـــا

واعراب المجاورة كما فى قوله تعالى : « عاليهم ثياب سندس خضر» على جر كلمة خضر ، وقول العربي « حجر ضب خرب » على جر كلمـــة خرب ، وقوله تعالى : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » على جـــر

كلمة رسوله . أو لسبب غير القطع والمجاورة كقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى» برفع الصابئين ، وقول الشاعر:

كأن اذنيه اذا تشوفـــا قادمـــة او قلما محرفـــا

بنصب خبر كأن — وقد يكون الترخص في الرتبة كقول الشاعر :

الا يا نخلة من ذات عـــرق عليك ورحمـــة الله الســـلام

بتقديم المعطوف على ما عطف هو عليه ، او في البنية ، كقوله تعالى: « وطور سنين » في مكان سيناء ، وقوله : « سلام على الياسين » في مكان الياس ، وقوله : « وابراهيم وميكال » في مكان ميكائيل . وكقوله صلى الله عليه وسلم : « جلس احدى عشرة نسوة » في مكان امـــراة ، وقول الشاعر : « أو الفا مكة من ورق الحمى » في مكان الحمام . وقد تكـــون الرخصة في المطابقة كقول علي : « انا الذي سمتن امي حيدرة » في مكان سمته ، وقول المتنبي « أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي » في مكان أدبـــه ، وقوله تعالى : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » في مكان خاضعة ، وقوله : « بل انتم قوم تجهلون » في مكان يجهلون . وقد تكون الرخصة في الربط كالغاء الضمير العائد في قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » اي فيه ، وقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجـــا يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرء » اي بعدهم . وقد تكون الرخصة في عنصـــر تفتقر اليه الكلمة ، كقول الشاعر :

نحن الاولى فاجمع جمـــو عـــك ثم وجههـــم الينـــا

اي الاولى يتحدونك ، وقولـــه :

فساغ لي الشراب وكنت قبلا اكاد اغـــص بالمـــاء الفـــرات

اي قبـــل ذلـــك :

وقد تكون الرخصة في الاداة كقوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكـــر يوسف » بحذف لا ، وقول امرىء القيس :

فقلت يمين الله ابرح قاعـــدا ولو قطعوا راسي لديك واصالي

بحذف لا ايضا ، وقوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيمـــوا الصلاة » بحذف اللام (اي ليقيموا) ، وقوله جل شأنه : « ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض ...» بحذف الفاء (اي فقلت) ، وقول ابن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهـــرا عدد النجم والحصى والتراب

بحذف الهمزة « اي اتحبها » . ولا يهولنك كثرة الامثلة التي سقناها لهذه الرخص فليست هذه الرخصة مبررا للقول بفك التزام الاديب بقواعد لغته ، والرخصة حتى بحكم تسميتها لا تطعن في قاعدة ، ولا تعفي مـــن مراعاتها ، ولا تستخدم الا فيما وردت فيه ، ولا يأتيها الا صاحب سليقة يدرك ما يقبله المجتمع منها وما لا يقبله .

وعلى الاديب ان يلتزم بالدلالة العامة للسياق بحيث لا يقول هراء ، ولا ينتهي الى احالة . فقد يحافظ القائل على التزامه بالاصوات والصرف والنحو والمعجم ، بحيث يأتي بالكلمات التي تدل كل واحدة منها بمفردها على معنى ، ويرصفها رصفا نحويا سليما ، ولكنها على الرغم من كل أولئك لا تفيد معنى محدودا . وقديما عجز ابو العلاء العماني وابو عبيدة وأو زيد والاصمعي عن فهم كلام قاله المجنون بن جندب ، ورد فيه :

محكوكة العينين معطاء القفـا كأنما قدت على متـــن الصفـــا
تمشي على متن شراك أعجفـا كأنما ينشـــر فيـــه مصحفـــا

فقال كل واحد من هؤلاء الافاضل : لا ادري له معنى . وقال ابو زيد: هو كلام مجنون ، ولا يعرف كلام المجانين الا مجنون . هذا هـــو شـــأن الالتزام باللغة ، وعلى الاديب ان فرط فيه أن يتوقع العقوبات الاجتماعية المناسبة التي اشرنا اليها من قبل .

ويلي ذلك ما يلتزم به الاديب من مراعاة المعايير االنقدية المقررة فى آداب لغته . فالاديب لا ينشأ فى فراغ ، وانما ينشأ فى اطار حركة أدبية محدودة المعالم ، مقررة الاصول . كان الاقدمون يتكلمــون عن عمــود الشعر ، وكان عبد الحميد الكاتب أول من حاول برسالته الشهيــرة الى الكتاب ان يرسي قواعد واصولا لمن بعده منهم ، ونشأت البلاغة العربيــة فرسمت من جانبها ابعاد العبارة العربية ، ونشأ النقد الحديث فأضاف الى كل ذلك اضافات هي فى جملتها انتفاع بمناهج الفكر ومعطياته . وامتزج ذلك كله ليكون منه فى النهاية اطار عام بدور الادب فى حدوده ، والاديب لا يستطيع الافلات من كل ذلك الا بجرأة المغامر ، واستقتال الفدائي . وآية ذلك ما صادفته تجربة الشعر الحديث من صعوبات ورفــض ، ولولا أن هذه التجربة قد جاءت بدعوى ان ادب الامم الحية لا يشتمل على قيــود كالتي نصادفها فى الشعر العمودي ، فحاربوا معركة التحلل بصيحة التطور، ما كان لهذه التجربة الجديدة نصيب من البقاء قدر ما بقيت . ثم هي فى النهاية ما تزال فى الميزان ، ولن تبقى الا أن يكون لها من فرسان القــول المبرزين فى حلبة الشعر كثرة من الاتباع على مدى عصور طويلة .

والاديب ، بل الفنان فى عمومه ، ملتزم بالذوق العام لمجتمعــه ، فلكــل مجتمع ثقافة ، . وانا لا اتكلم هنا عن الثقافة بمعناها التعليمي والدراسي الخاص ، وانما اتكلم عنها بالمعنى الانثروبولوجي العام culture وفى اطار هذه الثقافة يتخذ المجتمع لنفسه تقاليد خاصة ، وطرق سلوك خاصة ، وادوات خاصة ، ويمتاز بذلك عن غيره من المجتمعات ، كما يكون له فى ظل هذه الثقافة ذوق اجتماعي يمتاز به كذلك . ولا بد للفنــان أن يلتزم بهذا الذوق الاجتماعي العام ، والا نسب اليه سوء التربيــة ، أو الدعوة الى الافساد ، أو الخروج على الطرق الاجتماعيــة فى السلــوك والقول . لقد كان الذوق العام فى المجتمع الجاهلي يتقبل من الشاعر أن يقف مفاخرا بنفسه وبمغامراته النسائية ، ويسمح لامرىء القيس مثلا أن يقــول :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فالهيتها عن ذي تمائــم محــــول

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لــم يحـــول

ويعلق له ذلك على الكعبة . ويروى الاولون عن الاخطل الفحش فى هجاء بني كليب بقولــه :

فلا تقرب بيوت بني كليـــب ولا تقرب لهـم ابـدا رحـالا
ترى منها لوامـع مبرقـات يكدن ... بالحـدق الرجـالا

والذوق العام فى ايامنا لا يقبل هذا ، ويتطلب من الاديب ان يلتـزم بالاحشام . ومن تجرا من الادباء على انشاء مثل هذا « الادب » احتفظ به ليتداوله فى خلواته مع خلصائه ، ولم يجرؤ على نشره بين الناس .

وعلى الاديب ايضا ان يراعي تقاليد المجتمع ويلتزم بها ، والا صادف من مجتمعه بلاء عظيما كان من تقاليد العرب الا يسمحوا بالتشبيب ببناتهم، فمن تجرا على مخالفة هذا التقليد من المحبين حرم الزواج ممن شبـب بها ، وقصة المجنون وليلى ترمز رمزا واضحا الى هذه التقاليد . ولقـد يسمح المجتمع الاوربي باقامة تمثال لرجل عار او امراة عارية فى احـد الميادين العامة ، ولكن ذلك غير مقبول فى العالم العربي . وكان الكـرم تقليدا من تقاليد العرب ، وكانوا يبالغون فيه الى درجة الافلاس ، ولم يجرؤ شاعر عربي واحد على ذم الاسراف فى الكرم بأي منطق اقتصادي ، كما لم نسمع شاعرا واحدا يرثي للموءودة التعسة ، او ينهي عـن الغارة بأي منطق انساني ، لان واد البنات والغارة كانا من تقاليد المجتمع العربـي والاديب ملتزم بالتقاليد .

والتزام الاديب بالاخلاق لا يحتاج الى تاكيد . ومن الادباء من تحدى المقاييس الخلقية فاصبح صنيعه ممجوجا ، واصبح ادبه بضاعة محرمةعلى مر العصور ، منذا الذي يتباهى اليوم بانه يتذوق أدب ابن حجاج وابن سكرة؟ ومنذا الذي يستطيع أن يعجب بقصيدة من شعر الغزل بالمذكر على ملأ من الناس ؟ حقا ان الادب فيما بعد العصر العباسي قد جعل الحبيب مذكرا فى كل حال ، وخاطب الحبيبة بلفظ « يا حبيبي » ، ولكن ذلك لا يعد من قبيل الغزل بالمذكر ، ولا من آثاره فى الشعر ، وانما يعد من قبيل الابهام والتعميم ، وهما امران محمودان فى الادب ، وهكذا صار « الحبيـب »

دالا على المذكر والمؤنث كما دل عليهما العدو والصديق . ولا يجرؤ واحد من الادباء على ذم فضيلة أو مدح رذيلة ، والا عـــده الناس خارجـــا على الاخـــــلاق .

والادباء فى المجتمعات المتدينة ملتزمون بالدين ايضا . حتـــى فى المجتمعات غير المتدينة قل ان يسخر أديب من امر ديني ، ومن ثم يكون التزامه بالدين امتناعا سلبيا عن التعرض له او الخوض فيه . واذا بدا للاديب أن يستخدم من الامور ما يتنافى مع عقيدته احترس فى كلامه كما فعل شوقي فى قصيدته التي قالها فى المعلم اذ يقول :

لو كنت اعتقد المسيح وخطبه لجعلت من صلب المسيح دليلا

وهكذا استدل شوقي بأمر لا يعتقده ، واحترس أن يعترض عليـــه بعدم الالتزام بعبارة « لو كنت اعتقد » ، ولو لم يفعل لو رد عليه الاعتراض، وشوقي نفسه هو الذي لم يشأ ان يصدم شعور المسيحيين من مواطنية فى مصر عندما تكلم عن تحويل كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية الى مسجد، فخفف من فكرة التحويل بالقهر والغلبة ، حتى جعلها فى صورة الاهداء :

كنيسة آلت الى مسجـــد هديـــة السيـــد للسيـــد

فجعل المسيح نفسه يهدي هذه الكنيسة الى محمد عليهما السلام . الى هذا الحد يلتزم الاديب بالدين ، باعتبار الدين عقيدة للمجتمع ، ومن ثم يصبح من التراث الاجتماعي الذي يلتزم به الاديب .

ونصل بعد هذا التطواف الى التزام الاديب بالصالح العام ، وهـــو موضوع الخلاف المحتدم بين نقاد الادب ، بل هو الموضوع الذي تختلط فيه وظيفة الادب بوظيفة الدعاية ، فلا يدري متى تنتهي هذه وتبدا تلك . وفى رايي ان التزام الاديب بصالح المجتمع لا يمكن ان يعبر عنه بعبارات ايجابية ، لاننا لا نستطيع ان نصنف من الامور ما يشتمل عليه صالـــح المجتمع ، لنقول : ينبغي ان يلتزم الاديب بكذا وكذا . ولكن الايســـر أن

نعبر عن ذلك بالسلب ، فنجعل صالح المجتمع بالحمية دون المحظورات التي لا ينبغي للاديب أن يقع فيها . فالاديب لا يمس مقدسات المجتمع ، ولا يدعو الى تخريب ، ولا يتحلل من تقاليد ، ولا يشكك فى تراث الامة ومقومتها كاللغة والدين والتراث ، ولا يدعو الى التخلي عن النظام الاسرى ولا الاجتماعي ، ولا يمدح الاعداء ولا يبالغ فى تصوير قوتهم على صورة تدعو الى الوهن فى العزائم ، ولا يستهين بقوتهم الى درجة تدعو الى الاحساس بأمان زائف ، ولا يهجو أمته كما هجا الشاعر القديم قومه :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد   ليسوا من الشر في شيء وان هانا

أما فى القضايا السياسية والاقتصادية التي تختلف فيها الاجتهادات ولا تعد من التراث العام فى المجتمع ، فلا يكون التزام الاديب الا برايه فقط، وله الحق كل الحق أن يستمتع بحرية رايه فى هذا المجال . فاذا التزم برايه ودعا له فلا ينبغي ان يعد ذلك طعنا فى أدبه ، لانه انما يدافع بأدبه عن رايه وان اتخذ دفاعه صورة الدعاية . ومن هنا يصبح التفريق بين التزام والتزام فى هذه النقطة الاخيرة من الامور الصعبة المفتوحة للنقاش .

واذا صح لي أن الخص هذا المقال فى عبارة موجزة فاني افضل ان اضع هذه العبارة على الصورة الآتية :

الفنان حر فى موقفه النفسي ملتزم فى موقفه الاجتماعي .

الربـاط **د. تمام حسان**

قصة :

كاتب وحق السماء ... !!

عبدالكريم غلاب

لم يكن يدرى كم انصرم من الليل ، ولكن الذى شعر به وهو يرفع عينين ارهقهما التحديق والتقاط الكلمات ، فى غرفة ضيقة اطبقت عليها سحب من دخان ثقيل ، انه اشرف على النهاية .

قليلة هى الكتب التى التهمها فى ليلة واحدة . فقد كانت الغرفة الباردة تطبق عليه بسقفها وكأنه يناجى ارضيتها بكلمات ود تكاد تجمع بينهما . كانت الليالى الباردة طويلة مملة فى غرفته الضيقة بسراجها الكابى وانفاسها اللاهثة ، تبدو لعينيه كعجوز تتنفس برئة واحدة .

دخينة ثم اخرى ، بعد ان يرمى بآخر كراسة صححها — وكأنه يرمى بآخر اتعاب النهار — ثم يأخذ النوم بأجفانه فى عناقه الودى .

مع « لوليتا » احس لاول مرة بهدوء يغلف الكون : الجدران الاربعة والسقف المنحدر ، والسرير الذى كتم انفاسه — ولم يكن يتحرك منه الا عيناه فى مسيرتهما التلقائية — الدخان اطبق على الغرفة فلم يعد سراجها الخابى يخترق كونه ذاك الا فى سحبه المكثفة . انفاسه تتردد فى انفعال هى وحدها كانت تؤنس غربة الغرفة التى لا تتردد فيها انفاس الا فى الليل الطويل البارد . لحافه ، يداه تداعبانه ، ترفعانه فوق الراس ، تحتضنانه فى ود ، ظهره يحتك به ، قدماه تتحسسانه وهما تنقبضان كأنهما فى شوق طويل الى عناق .

مع « لوليتا » لم يكن يدرى اكان يحتضنه فراش ولحاف . . . عاش معه ومعها الساعات الحرجة ، ترددت انفاسه او تصاعدت ، عيناه لم تكتحلا بنوم لم تضيقا بدخينات كان يشد انفاسه فى ... لم يكن يدرى اكاد يشدها فى عنف ، لم تداعبها شفتاه فى رفق كما كان يفعل احيانا وهو يصحح كراسات **التلاميذ . ممتعة كانت ليلته** ... لم يكن يدرى لم لم يعرفها من قبل « لوليتا » . . . ؟

كلها كانت تطيل نهاره المتعب ، يرمى بها ، كما يرمى بكراسات التلاميذ المتعبة ، بعد الدخينة الاولى والثانية .

« لوليتا » وحدها كانت قادرة على ان تطير من عينيه النوم ، ان يعيش معها فى آفاقها المتمردة على الحياة الهادئة الطبيعية . . . الطبيعية ؟ حياتها تلك هى الطبيعة . . . احساساتها الثائرة اعادت الحياة الى غرفة كان الموت يدب فى اوصالها .

كل هذا الركام ، هؤلاء الذين زاروها ، ثم عادوا من حيث اتوا . كانت الساعات ، الدقائق معهم مملة ، الحياة مغلفة عندهم بنفاق . احاسيس باردة . كلمات لا تنبض . صناعة ، هؤلاء القصاصون والمؤلفون احترفوها ، وزعوا الادوار فيها بين العقل والمنطق والتاريخ والحاضر والعاطفة . . . خرج الممثلون جميعهم من ادوارهم فاشلين . الحياة تساقطت اوراقها بين ايديهم ، **كشفت** عن عريهم . كم من الوقت اضاع

ـــ منذ بدا يقرا ـــ مع هؤلاء العراة . . . دخلوا الغرفة وخرجوا منها . اوهم استقروا فى ركنها المنعزل الضيق ذاك على رف يكــاد يهوى ، يئن من « ثقلهم » . لن يؤويهم بعد هذا الرف . « اشان شيفــون . . . » ؟ « الجوطية . . . » لا ، النار مثواهم خالدين فيها .

« لوليتا » . هذه الجنية التى الهمت الكاتب هى وحدها التى ستتربع على هذا الرف . . . ستعيش معى ، تحيل هذا الكوخ البارد الى غرفة دافئة ناعمة موحية يقظة شابة .

« لوليتا » . . . كم انت حية يا « لوليتا » . . !

وضع الكتاب برفق بجانب وسادته .

عاد يتعثر فى الظلام بعد ان اطفأ نور مصباحه . تلمس الطريق الى فراشه ، الى لحافه ، الى وسادته . واحتضنت يــداه « لوليتــا » . اغمض عينيه ، بدا يحلم . . .

سلم ضخم انتصب امامه ، فى الهواء رفع قدميه ، يصعد ثم يصعد . لا درج تعتمد عليها قدماه . لا عوارض تستند اليها يداه ، لا يستبد به خوف من سقوط . عيناه الى سماء لا تنزلان الى ارض . فى دنيا الواقع كان يخشى ان يتأرجح جسمه بين الارض والسقف فيتهاوى ، وكان يخــاف صعود السلالم الخشبية . نظر مرة الى تحت فهاله البعــد . تراقصــت الارض تحت قدميه . اظلت عيناه . دافع عن نفسه ويداه تتشبثان بالعارضيــن . اهتدى . رفع راسه الى اعلى ، خطا وهو يتحسس بقدميه درج الســلم كما يتحسس اعمى . وصعد . فى الحلم اهتدى بالتجربة . لم ينظــر الى تحت ، رفع عينيه الى اعلى . وصعد . . .

افاق من نومه على اطلالة شمس كانت تــتلصــص بين الجــدران السامقة تسترق من النافذة الضيقة نظرة على الغرفة الغارقة فى الرطوبة والبرودة ، وكأنها تقول : ها انا ذى . . . ! من الاطلالة المبتســرة كان

يدرك ان الوقت ضحى . كانت عيناه تنتظران هذه الاطلالـة ضحى يـوم الاحد ، وفى الاصباح التى لا يختلف فيها الى المدرسة . يحس بالغربة فى الغرفة الضيقة ، لا تتجاوب معه حتى جدرانها ، ويشعر بالانس فى هذا الغزل البرئى الذى تشرق معه الغرفة اشراقة بريئة كأنها ابتسامة سيدة حزينة لا تلبث ان تنطفىء .

مع الابتسامة المشرقة رفع راسه عن وسادتـه وما تزال ذراعاه تحتضنان « لوليتا » فرك عينيه ، ما تزال بهما بقية من حلم . خيـل اليه انه قضى ليله الطويل يحلم . رمى بذراعيه فى الفضاء وكأنه يستزيد : اصعد اصعد . . . .

اعاده الواقع الى فراشه الصلب ، جاثما على ارض صلبة تشده اليها فى قسوة . القى نظرة حواليه : الفراغ — لولا الابتسامة التى اطالت اطلالتها — غراف الماء . الكرسى الاعرج والمكتب القديم . دفاتر التلاميذ مزروعة عليه فى غير نظام : لا بد انه كان يلقى بها فى سخط مثيـر . كل منها يجسد عقلا بليدا لا يكاد يقيم اود جملة .

— هكذا كنت وانت فى سنهم . . .

وابتسم وهو يذكر للمرة الالف الاستاذ الذى كان يثور فى وجهه كلما اخطأ . يهم ان يرميه بحذائه ، بعد ان تتخلص اذناه من قبضته ، لولا ان مدير المدرسة كان يشدد فى منع العقوبة البدنية . . .

بجانب مكتب مايزال وفيا منذ اشتراه اخوه من « الجوطية » يثوى رف ركام الكتب الفارغة . بدت له الغرفة واسعة فى فراغها . ضاقـت فجأة والابتسامة تغور . وقف يتحرك فى الغرفة الباردة الوخيمة . امـام المرآة اكتشف وجهه لاول مرة . واقفا مفتح العينين كان يحلم :

وجه اديب . لم لا . . . ؟ عينان تقفز منهما الحدة . ذكاء ؟

جحظت عيناه فى وجه المرآة كأنه يريد ان يكتشف ، كأنـه فوجىء

بجديد على صفحتها الغائمة . ارتفعت انامله الى ذقنه تتلمس منابت لحيته . نظر شزرا الى آلة الحلاقة . وداعا الى غير لقاء . . . مشط كان يثوى بجانب المرآة . انت الآخر : وداعا الى غير لقاء . . . همت يداه ان تكسره . لا ، اتركه حطاما للماضى يملأ فراغ الغرفة . كم من اشياء فارغة تملأ الفراغ . . . مكتب ، دفاتر ، غراف ولا ماء ، مشط . وارتفعت انامله فى تلقائية تمسد شعره الى وراء . ارتجفت بندم . تحركت الى امام ، يمين ، شمال . بدا شعره منفوشا عاد الى المرآة يستشيرها :

وجه اديب ؟

مايزال فى حاجة الى مزيد : الراس حديثة عهد بالمعلم الحلاق . الذقن فى حاجة الى اسابيع . . .

اختفت الصورة وعيناه تجحظان فى الوجه الزجاجى الغائم . بدت الصورة الجديدة ، عينان حمراوان زائغتان ، الراس الغارقة فى الشعر المنفوش كما لو كان خارجا من معركة ، وجه طفح بلحية ثائرة ، اختفت الفتوة ، النضارة . صفرة تجلل الساحل الذى لم تدهمه ثورة الموج . حدقتان يغلفهما سواد .

افتر ثغره عن ابتسامة ، استطالت اسنانه خربت جذورها ، شىء ما اقتحم صفاءها ، صحتها ، احالها الى اطلال خربة ، اتسعت الابتسامة :

اديب وحق السماء . . . !

كادت عيناه ترتفعان وهو يذكر السماء ، ارتدتا ، كان هناك سقف يطبق . . .

السماء . . ؟ اية سماء . . ؟

قهقه الوجه الفارق فى الشعر المنفوش ، بدا كما لـو كـان يجـادل وجه المرآة :

اديـب وحق نفسـى . . .

عادت ابتسامة الرضى تجلل الوجه الفارق فى الظلام ، انامله تمتد الى دخينة ، حلقه هو الآخر احس بحشرجة تدغدغ اوتاره ، اوقد الدخينة فى عصبية ، كانت الشعلة تهتز بين انامله ، الدخينة ترتعش بين شفتيه ، تقترب احداهما من الاخرى وهى تبـتعد ، التحمـت النـار بالعشب فى لقائهمـا الابـدى . . .

عاد الى الوجه الزجاجى الغائم ، اختفت الصورة ، بدت الصورة الحقيقية وهو يعود من حلمه ، ماتزال اصابعه تداعب خديه فى رفق : سأريحكما من هذه الموسى اللعينة ، انتما منذ اليوم حـران ، تمتـعـا بالدفء ، بالطبيعة ، برفقة الخصب والنماء . . . عادت اناملـه تنفـش شعر راسه ، ابتسم ، ماتزال اسنانه فى بياضها وجمالها وصحتها .

سأكون اديبا . . عظيما . . !

ابتسامة الرضى تجلل وجهه الصبوح مرة اخرى ، نصعت المرآة كما لو كان شبابها قد عاد اليها ، قهقه ، صوت ماتزال به نعومة .

« لوليـتا » . . اين انت يا « لوليتا » . . ؟

ارتسمت على وجهه علامة حسرة وهو يفكر فى البعيدة . . .

البعيدة . . . شفتاه ترتعشان : « لوليتـا » .

حانت منه التفاتة الى السرير . « لوليتا » كانت هناك . . .

* * *

خرج محمود من غرفته ، شمس مشرقة دافئة ، اختفت ظلال السحب من السماء فبدت زرقاء ، كما تبدو سماء يوم ربيعى ، كان شتاء ، دون امطار ولا برد ولا هواء . شتاء يفر اليه الشماليون لينعموا بالمعجزة ، ينظرون الى الشمس ، حتى تعشى عيونهم ، وكأنهما تختزن اشعة كل شموس الدنيا ، وكأن اجسامهم تختزن دفئا الى سنوات . بدت له المدينة؛ وكأنها هى الاخرى تحتفل بيوم عطلتها : كسولة ، هادئة ، تتمطى فى وداعة فتاة مدللة تود — فى الظهيرة — ان تعود الى اغفاءتها . راقه ان ينعم بالدفء ، ان يغازل الفتاة المدللة ، ان يسير بخطوات متهالكة ؛ كما لو كان يود ان ينام فى احضانها . احس بسعادة متناهية ، كان يعبر شوارع المدينة فى سباق مع الزمن ورنين الجرس يطن فى اذنيه مؤذنا ببداية الدرس الاول . اختفى رنين الجرس : السوط الذى كان يلهب ظهره كجواد عربة . لا درس ، لا رنين . الدنيا متفتحة فى يوم عيدها . .

قدماه تنطلقان لا يدرى الى اين . بدا كسائح يكتشف المدينة لاول مرة . فى اتجاه الآثار واطلال الماضى انسابت قدماه دون وعى . لا يعرف عنها الا القليل . منذ عين مدرسا فى المدينة الحافلة بالشمس والضوء وهو يود ان يكون يوما ما سائحا .

تسمرت قدماه لا تتحركان . هتف :

— هى . « لوليتا » .

فى باقة من الفتيان والفتيات كانت كوردة ناهد . عينان اشربتا زرقة مذهبة . الشمس الدافئة اشعت فى خديها اللاهبين ، قامة مديدة فى غير اسراف . شعرها الذهبى السبط كان يتموج فى حرية مطلقة تتحرك فى يقظة : تداعب ، تبتسم ، تنكت والرفيقات والرفاق يضحكون . لا يدرى . هى تتحدث لغة لم يسمعها قط . سويدية ، دانمركية ، نرويجية ، ايطالية . قد تكون كل ذلك . هى بنت الشمال . قد تكون بنت الجنوب . معها قضى ليلته : « لوليتا » .

اخذ يطوف بالرفقة السائحة وكأنه يحاول ان يستقبل الشمس فى كل اتجاه . اقترب ، ابتعد ، حدق بناظريه ، ارهف بأذنيه ، فغر فاه .

ود لو فهم ، لتقدمت يده بالتحية . بـــدا كأطفال السابلة حينما يتجمعون حول قوافل السائحين .

« لوليـــتا » . . . .

هكذا كانت تهتف اعماقه . تتحرك الكلمات فى احاسيسه ، يسمعها بأذنيه المرهفتين ، تطفو رويدا رويدا — عيناه محدقتان — الى شفتيـــه المرتعشتين : « لوليتا » . . . كانتا تتحركان فى صمت . اصـــداء الصمت كانت تتردد فى دناياه صاخبة عنيفة قوية . لم تكن تسمع الصوت الصاخب، لم تكن تلتفت اليه . عيناها تتحركان فى ملتقى نظراته .

من اثر لاثر ، من متحف لمتحف ، محمود يتابـــع القافلة ، امامها ، خلفها ، بجانبها . يسترق الكلمة ، النظرة . يكاد يشعر انها تتحدث اليه . يحس بالسعادة . عند بوابة الفندق الضخم توقـــف . الرفقـــة تقتحـــم البوابة فى مقدمتها لوليتا . وبقى حيث هو . . .

عاد محمود ادراجه يقتحم الفراغ الهائل الموحش . المدينة الضاحكة الوديعة الغافية اصبحت شامتة هازئة من وحدته ، وهو يحـــث الخطى الى غرفتـــــه .

هناك على الفراش البارد القاحل كانت لوليتا . صورتها الملونة على الغلاف تستدعيه ، تودعه . نظراتها ساخرة هازئة ، فيها رجاء ، فيهـــا احتقار . شفتاها الشهيتان تفتران عن كلمة ، لا تنطقها . جيدها ، صدرها العارى يقتحم حياءه . هم ان يتحدث اليها . زاغت عيناه ، فكره سبـــح هناك فى مسبح الفندق الفاخر حيث كان جسم لوليتا يتأرجح فى الماء الدافىء كسمكة صغيرة يحتويها المسبح الضخم . شلال شعرها الراعش سحابة كثيفة تطفو على الماء لتظلل ظهرها الناعم . عيناها الضاحكتـــان تنعمـــان بالدفء فتشيع فيهما البسمة ، هى نفسها الابتسامة التى اغرته بلوليتا . ذراعاها السابحتان تحتضنان دفقات الماء فى رفق ، تنسحب من احضانها وتعود لتلامس صدرها الناهد وكأنها دفقات لذة كاسحة . . .

عاد الى واقعه وبقيت هناك .

عاش محمود عاشقا ولهانا . عاشت معه لوليتا فى احلامــه ويقظتــه تطفو عيناها المشرقتان على واقعه المر وهو يعانق دفاتـــر التلاميـــذ ، تمترضه قامتها المديدة وهو يسير حثيثا الى المدرسة ، تـــرن ضحكتهـــا الصافية فى اذنيه فتعلو على ضجيج تلاميذه .

« لوليتا » ، هذه الساحرة التى الهمت محمودا ان يكون اديبـــا ، فـــكـــــــــان .

على دفتر من هذه الدفاتر التى لا تكاد تريم عن مكتبه القديم بدا قلمه يخط الكلمات . استعصت ، تأبت . فكانت الدخينة مفتاحه الى المنفلق . وكان كأس الشاى ، كأس القهوة . . وماتزال عصية متأبية . صاحب « لوليتا » كان يقتحم عالمها بغير الدخينـــة ولا بالشاى والقهوة . وكانت الكأس التى لا يحب ان يراها فارغة ولا مليئة ...

نظر فى المرآة : راس جديرة بكاتب اديب . . . مشط ؟ : صناعـــة البورجوازيين ، الماء ؟ الماء والمشط والكحل واحمر الشفاه هى لك جميعا يا « لوليتا » .... الذقن التى استراحت من الموسى نبتت اعشابها هنـــا وهناك ثائرة متمردة تنبىء بعصر الثورات . . والتمردات . . عينـــان ، موجة من السحب الحمراء زحفت على صفائهما ، يفتحهما فى ثقل على غير بعد ، كما لو كانتا لا تحتملان انوار السماء . ربطة عنق ؟ هذا القيـــــد البورجوازى الذى يطوق عنقه فى غير رحمة رمى بـــه فى ركن المهملات . ماتزال به بقايا من عالم غير الموهوبين . قميص نظيفة ؟ ستـــأخذ الوان الطبيعة . . . سراويل ؟ ستضيق وتتمزق ويستحيل لونها الى امنـــــا الغـــبـــراء . . .

وبدا الاديب الكاتب يحل فى محمود .

مع الليل والهدوء والنور الخابى وفـــراغ الغرفة والدخيـــنة تغلف الفضاء بلون الرماد يسهر حتى يسمع صياح الديك . دفاتر التلاميذ تظل فى محفظاتهم . شبوا عن الطوق . اصبحوا فى غير حاجة الى تصحيح .

— سيخرجون من المدرسة وهم يتعثرون فى الكلمات . . . ؟

صاح محمود وكأنه يجادل خصما قويا :

— ليركبهم الشيطان او ليفعل بهم ما يشاء . انا ايضا خرجت من المدرسة وانا اتعثر فى الكلمات . . .

مع دفتر من دفاتر المدرسة ، كتلميذ مجتهد ، كان يسهر الليل ويكتب القصة . « لوليتا » لا تبرح وسادته . . . كتاب « كيف تكتب قصة ناجحة» صديقه الودود فى الشارع والمقهى والحديقة العامة .
الشكل . المضمون .

استعصت الكلمات ، نضب الوحى . الدخينة ، الكأس ، لم تعد اى منهما تثير انفعاله . لا وحى منهما عليهما اللعنة . . .

تاهت قدماه فى الشوارع ، فى الحارات الضيقة . هناك فى كوة تشبه الدكان تخيم فى جوانبها العنكبوت ، البرودة والوخم والفراغ والمعلم « صابر » ومخرطته وادواته الدقيقة ، وعصاه السحرية تدير دولاب المخرطة . بين اصابع قدمه ويده تخرج المعجزة الفنية من قطعة خشب تافهة . توقف امام الفنان صابر كسائح قدم من شمال اوربا — كما لو توقفت « لوليتا » — بهره الفن والصناعة والقطع المخروطة الدقيقة . الكلمات الفنية التى تصنع سر القصة .

— المعلم صابر فنان يكتب قصة رائعة بقطعه الصغيرة ، تخرج من بين اصابع يده وقدمه ، من تلافيف عقله الذى يكمن هنا . . .

ودقت سبابته على جبهته كأنما تشير الى مكمن حقيقة الفن .

توقفت اليد السحرية تدير المخرطة فى سرعة ودقة . رفع المعلم صابر راسه من بين قدميه تجلله عمامة ضخمة . نظارة متهالكة تثوى بين عينه . رفع النظارة التى ضببها العرق يند من جبهته وعينيه وخديه

جميعا . عرق الشتاء البارد نـــد عن اجهاد . مر بكمة المزقة على جبهته وذقنه المبعثرة هنا وهناك . اخذ نفسا عميقا . امتدت يـــداه الى غليونه الصغير بقصبته الدقيقة . نفث فيه نفخة قوية . احتضن ابهامه ووسطاه « شقفته » ، سبابته تحشوها فى رفق . توقفت عينـــاه عنـــد الشقفـــة المليئة . عينا محمود تتبعان بدقـــة العمليـــة الفنـــية . كـــم هى هزيلـــة تافهة ان تحمل دخينة جاهزة بين اصبعيك ثم توقد فيها النار . . . المعلم صابر فنان يكتب قصة ناجحة بكلمات فنية رائعـــة تصدر عن مخرطته . اصابعه جميعا تحتضن الشقفة الحبيبة . ود لو امتدت يداه بعود وقيد . تحسست يسراه علبة الوقيد فى جيبه . كان المعلم صابـــر اســـرع من امنيته . اتقدت الشقفة بين اصابعه . ارتمى عود الوقيد ، وهو يلفـــظ انفاسه ، على مقربة من محمود . تعلقت عيناه بالجمرة اللاهبة ، بشدقى المعلم تفوران وهما تمتصان فم « السبسى » . لم ينفث دخانه كما تعود محمود ان ينفث دخان دخينته ، فتح فمه فى عفوية ، ترك دخانه الحبيب يجلل الوجه المعروق ، يدخن اللحية المنفوشة . برزت اسنان ناتئـــة هنا وهناك ، مهترئة متآكلة مسودة . شد نفسين عميقين . دارت عيـــناه فى محجريهما . نفث نفثة قوية ، طارت الجمرة اللاهبة ، وقعت على مقربة من محمود . ماتزال بها بقية من « كيف » تعلقت عيناه بهـــا ، تصاعدت منها رائحة ذكية داعبت انفه . امتدت اليـــد المعروقة الى المخرطة مـــرة اخرى ، اقوى ما تكون يدا واروع ما تكون مخرطة لتصنع التحف الفنية الرائعة من قطع خشبية تافهة .

ود محمود لو يسأل المعلم صابر . الفنان منهمك فى كتابة رائعته . تحركت قدماه ليترك الفنان فى وحدته مع الفراغ والمخرطة وقطع الفـــن و « السبسى » . . .

فى ركن الحارة كان هناك :

— اتـــريـــد . . . ؟

— نعم . . . وسأعب منها حتى يتفجر الفن من هذه الراس التى استعصت عليها الكلمات .

ومن بين اصبعي هذه سأكتب قصة تزرى بما يصنع الفنـان صابـر مـن تـحـف .

عرفت الغرفة الباردة دخانا اكثر قتامة . مع الليل والهدوء والبرودة والرطوبة والوخم كان محمود يسبح فى بحر الظلمات . . . لوليتـا وحدها كانت تنير ممددة على الوسادة وكان السبسى يسخر من علبـة الدخائـن الجاهزة ، وكانت الكأس التى تتأبى على الفراغ والملء . . .

ويبقى الحب . . حتى يكتب عن موضوع . .

احب شمالية رائعة ، سامقة كأشجار الشمال ، بيضـاء كثلوجـه ، عيناها تسبح فى بحاره . شعرها . . آه . . تجلله صفرة الشمس الواهنة فى صيف شمالية البارد . بدا يكتب عنها قصته . كانت هنا سائحة معجبـة مولهة بشمس مدينته . احبته ، هامت فى عينيه وذقنه وراسه وغرفته . لوليتـا تركت مكانها للحب الجديد . على سريره المتهـالك كانت السويد تحنى هامتها للدفء والفحولة والربيع الحى . . .

وسارت القصة تروى الظمأ من ادب الجنس : لوليتا ، وكيف تكتـب قصة ناجحة ، والشماليـة التـي ختمـت الفصـل الاول مـن القصـة بشبقهـا العارى . . .

عند الشبق العارى توقف الالهام . كل امنيته تحققت ، منذ رآها ، مع الاطلال ، تتجول فى شوارع المدينة وهو يريدها لتكون لوليتـاه تحنى هامة السويد للوسادة التى داعبت لوليتا احلامها . توقفت الكلمات عند شبقه . . . كان يبدو راضيا . عاش معها ، روت شبقها ، روى شبقه . فتح بوابة الادب على مصراعيه ، سيكون كاتبا ، يشار اليه فى شوارع المدينة : معشوق الشمالية الفاتنة . . . !

راود الكلمات لينهى بقية القصة . استعصت . تحجـر القلم بين يديه . لا الكأس ، لا السبسى ، لا الدخينة اثـارت الانفعـال فى اردان القـلم المتحجـر .

كانت شوارع المدينة التى زفرت فيها جهنم كما تزفر كل صيف مسرى اقدامه المتهالكة . يسير ثم يسير ، ولا يستريح الا على مقعد متهاو فى مقهى تشرف على « جامع الفنا » . فاجأه الصوت المتحشرج يصحبه الوجه الباسم :

ــ اتستضيفنا على كأس شاى ... ؟

على كأس الشاى كان حديث الثلاثة يروى ثلاث قصص انتهت جميعها بكأس شاى فى مقهى يطل على جامع الفنا . ضحك الشاب الاشقر ذو الوجه الضخم ، الذقن الثائرة ، الشعر المنفوش ، بقايا « بلودجين » وسترة ممزقة :

ــ ارضكم غير معطاء .

لم يفتح محمود فمه استغرابا ، فتح اذنيه ليسمع المزيد ، اتسعت ابتسامة الفتاة :

ــ الكيف ينبت بين الصخور . . لا يحرك حتى الصخور . . موضة قديمة . . انتم فى عصر النباتات . . حتى الحقن ولى زمانها ، قطرة ماء على قطعة سكر تنقلك الى عالم آخر . . .

فغر محمود فمه وعينيه واذنيه جميعا . تحدثت عضلاته ، تحركت اعصابه . تحدث الى نفسه او تحدثت اليه :

ــ فرجت . . . ابواب الالهام ستتفتح ، كاتب كبير وحق . . (ال ــ اس ــ دى) . . .

وانطلق الصوت الناعم ينتشله من احلامه وابتسامة عريضة تحلق كهالة رائقة على الوجه الضحوك :

ــ هل جربت ؟

لـــم تنـــتظر جوابـــا :

ـــ جرب . جرب . عشرون درهما تنقلك على جناحى مـــلاك ، الى عالم لم تعرفه . واضح انك تحتمل . انت فنان ، كاتب ، الفـــن فى حاجة الى . . .

لم يعد يصغى الى بقية حديثها . اخذ يفكر فى العشرين درهما . . . الكأس والسبسى والدخينة وعشرون درهما اخرى . ومرتب المدرسة لم يتحرك . ! سأكون كاتبا تدر قصصى على المال . .

ـــ نعـــم سأجـــرب . . .

اصبح محمود صديقا للشاب ذى السراويل الممزقة والسترة المهترئة . تمزقت سراويله . حال لون سترته . ومايزال يتردد على المدرسة وفى طريقه الى الغرفة التى شهدت ميـــلاده الجديد كان دائمـــا مقهـــى « جامع الفنـــا »

المرآة . السبسى . الكأس المليئة الفارغة ، ، ال ـــ اس ـــ دى الاقلام المكسرة . . . ودفتر تلميذ .

استعصت الكلمات الا حينما تنطق هاتفة بشبـــق السويـــد . . . اختفى مفعول السبـــسى والدخينـــة والكأس وال ـــ اس ـــ دى . . . وقف محمود عاريا من كل ادواته .

هل مايزال الفن ينطلق من بين اصابع المعلم صابر ؟

كان هناك فى مثل وقفته منذ بضعة اشهر . ماتزال القطع الخشبية تطاوع بنانه ، المخرطة تدور وشقفة « السبسى » تمتلىء ثم ينفث جمرتها الملتهبة ، وبقايا رائحة ذكية تعطر الحارة الصغيرة . . .

ــ المعلم صابر . . .

تلفت محمود . كان الصوت يصدر عن دكان صغير مقابل . العنكبوت والبرودة والوخم والفراغ . والمعلم العربى يجدل شريطا حريريا ملونا تجاذب اطرافه عصا قوية غليظة تقتعد فلقة رحى . نظارته بين عينيه . اضاف الصوت الهادىء الناعم فى اطمئنان :

ــ . . . كيف انتهت قصتكما امس ؟

لم يكن المعلم صابر فى حاجة الى زيادة توضيح . لم يرفع راسه عن مخرطته . انطلق صوته المتحشرج يتابع يده القوية وهى تدير دولاب المخرطة :

ــ اين للحمار ان يفرق بين سكينجبير والابزار . . . ! ؟

قهقه ، فى احتقار ، لم يرفع راسه وهو يضيف :

ــ اين له ان يفهم . الصنعة . . الفن . . بماله يستطيع ان يشترى ، ولكنه لا يستطيع ان يتذوق . . .

هدات المخرطة . افتك القطعة الرائعة من مخلبيها . امسك بها بين اصابعه كما لو كان شاعرا يتذوق نتاجه .

ــ آلمعلم العربى . . .

تقابل الرجلان الفنانان بعينيهما اللامعتين . كان محمود يتتبع حديثهما يتردد بين جانبى الحارة ، وكأنهما يتحدثان فى مجلس خاص .

اضاف المعلم صابر وعيناه مثبتتان على القطعة الفنية تدور بين اصابعه :

ــ . . . هذه القطعة ، كالشريط الحريرى بين يديك ، لا يستطيع اى كان ان يصنعهما . . .

اجاب المعلم العربى :

— الخشب والحرير بين يدى كل انسان ، ولكن الصنعة . . . الفن لا يستطيعه الا فنان . . .

اهتزت اطراف المعلم صابر وهو يضحك بحشرجة :

— كم من نجار فى المدينة ، ولا يستطيعون ان يصنعوا غير التوابيت . . . !

قهقه المعلم العربى بصوته الناعم المطمئن وهو يضيف :

— . . . كم من مجدلى فى المدينة ولا يستطيعون ان يجدلوا غير الحبال . . .

امتدت يدا المعلم صابر فى هدوء الى غليونه . اتقدت وقيدة وهى تقترب من شقفة السبسى لتنير وجه الفنان . بدت سعادته ورضاه فى الخدود المعروقة والعينين المثقلتين . ونفث الجمرة المتقدة فى اتجاه محمود : بقية نار تحمل بقية دخان داعبت خياشيمه ، ثم لم تلبث ان خمدت . . .

الرباط **عبد الكريم غلاب**

النضال *

في الشعر العربي بالمغرب

من 1830 الى 1912

د . عباس الجراري

لابد لنا ان نقول فى بداية هذا البحث ان موضوع « النضال في الشعر العربي بالمغرب » يتسم بالاتساع والصعوبة ، هو متسع لأنه بدا منذ بدا الشاعر المغربي يتوسل باللغة العربية لتنشيط وجدانه وفكره وجعلهما قادرين على التوجيه والتصحيح ، وللتعبير عن موقفه في الصراع الذى كان دائرا على الدوام فى هذا البلد من أجل الذود عن الحرية والكرامة ومن أجل الدفاع عن الكيان والحفاظ على الوجود ومن اجل الأحسن والأفضل وعلى جميع المستويات .

ثم هو صعب بسبب قلة وتشتت المادة الشعرية التي وصلتنا عبر هذه الفترات الطويلة الممتدة فى التاريخ وكذلك بسبب غموض كثير من الظروف التي عاشها المجتمع المغربي والتي يكمن فيها تفسير الكثير من

(*) نص البحث الذي قدمه الكاتب لمؤتمر الادباء العرب العاشر المنعقد فى الجزائر من 25 ابريل الى 2 مايو 1975 .

ظواهر الشعر وملامحه ولكنها للأسف ما زالت تاريخيا واجتماعيا لم تحلل لكي تعرف حقيقتها ، انطلاقا من تركيب المجتمع وتياراته وطبيعة العلاقات بين افراده وطبقاته ثم بينه وبين المجتمعات القريبة له والبعيدة .

واذا كان غير ممكن فى مجال هـذا البحث المحدود ان نلـم باطراف الموضوع ولو فى خطوطه العامة ، فقد ارتاينا ان نحصره فـى مرحلـة تبدا مع دخول الاستعمار الى قلب الشمال الافريقي متمثلا فـى احتلال فرنسـا للجزائر سنة 1830 وتنتهي ببداية عهد الحماية فى المغرب سنة 1912 .

وليس من شك فى ان حادث احتلال الجزائر يعتبـر بدايـة مرحلـة جديدة فى المغرب والشمال الافريقي عامة لأنه كان بمثابـة الناقوس الـذى دق ينذر بالخطر فى المنطقة . وقد افاق المغرب من سباته بالفعل ، وكـان ممكنا ان تبدا النهضة الحديثة ــ ولو متاخرة عن نهضة المشـرق ــ وكانـت قد تيسرت لها اسباب متلاحقة ، لعل هذه اهمها :

اولا : البعوث العلمية التي وجهت الى مصر على عهد السلطان محمد ابن عبد الرحمان ثم الى اوربا ايام الحسن الاول .

ثانيا : المحاولات المتعددة لاصلاح اجهزة الادارة وتطوير التعليم وتنظيم الجيش وبعث الاسطول وتنشيط حركة الصناعة والتجارة وضبط العملـة واعادة النظر فى مختلف مرافق الدولة سـواء علـى الصعيـد الداخلـي او الخارجي . وهي محاولات كان مضطرا الى اللجوء اليها لمعالجـة الأوضـاع التي توالت الاحداث لتعرى بنياتها المهزوزة وهياكلها الفارغـة ثـم لتكشف عـن انهيارها وعدم قدرتها على الصمود .

ثالثا : دخول المطبعة الى المغرب من باريس عام 1859 ومن مصر سنة 1865 ثم توالى المطابع بعد ذلك .

رابعا : ظهور الصحافة ابتداء من 1889 ، وهي السنة التي صدرت فيها اول جريدة اسبوعية ، وكانت تصدر بطنجة وتسمـى « المغـرب » . ثم تلتها صحف اخرى غير قليلة .

ولكن هذه العوامل لم تثمر حيث وجدت عوائق كثيـرة حالـت دون ظهـــور النهضـــــة :

أولها : الظروف الداخلية والخارجية التي كان يعاني منها المغرب نتيجة الانهاك الذى اصابه ـ كما سنرى بعد ـ على اثر مواجهته لفرنسا فى وقعــة ايسلي ثم لاسبانيا فى حرب تطوان ، تلكم المواجهة التي اضطر اليهـا عقـب مساندته للجزائر والتي فتحت عليه باب المناوشات والتدخلات الى ان كان عقـــد الحمايــة .

ثانيها : طبيعة البعوث التي وجهت للخارج اذ لم يكن يقصد منها الى التعليم الطويل بقدر ما كان يقصد الى التكوين السريع والتدريب العملـي علـى بعض التقنيات . ومن ثم لم تمس حركتها اى جانب من ميدان الفكـر يمكن ان يكون له تاثير فى العمــق .

ثالثها : اقتصار المطابع على اخراج بعض الكتب الدينية والمتـــون المقـررة فى مجالس الدرس كشمائل الترمذى وشرح ميارة علـى ابـــن عاشر ، وهما فى طليعة الكتب التي نشرت يومئذ .

رابعها : عدم وجود راي عام وطني واع يبلـور اختيارات الشعـــب ومطامحه . والمسؤولية فى ذلك تقع على القيادة السياسية التـــي كانـت تسعى او يسعى من حولها لحماية مكاسبهم على حســاب الشعـب الـذي كان مسلوب الارادة . وما تجميد المسؤولين للخريجين الذين عادوا مـــن البعثات الموفدة للخارج الا مظهرا لذلك . والمسؤولية تقع كذلك على العلماء ورجال الفكر الذين قطعوا ما بينهم وبين الجماهيــر من رباط فلـم تعـــد لهم ـ على الصعيد المجتمعـي ـ اية مبـــادرة ولا اى دور قيـادى ولا اى صوت مسموع الا ما كان من صوت الوعظ والارشاد . وحتى هــذا الصوت فقد كان غالبا ما يضيع فى زحمة الصراع من اجل المصالح والتهافت علـى تحقيقها بكل الوسائــل . (1)

(1) انظر مقدمتنا لكتاب « الشعر الوطني المغربي على عهد الحماية » ص 6 ـ 7 .

والشاعر كالأديب والمثقف عامة ـ مهما كان قادرا بمفرده على تجاوز عصر بتلك الملامح ، فهـو لابد متاثر به سلبا وايجابا ، ولابـد بالتالـي لانتاجـه ان يكون صورة لهذا العصر .

والشعر فى المرحلة التي حددنا كان قد أصابه من الوهـن والضعف ما اخمد فيه روح الجودة والأصالة وما جعله لا ينبض بالحيـاة ولا يتعمـق التجاوب ولا يصدق القول ولا يحمل فى ترنيمات أوزانه وقوافيه مـا يدفـق العواطف ويبعث فيها الدفء والحرارة . أغلب موضوعاته تدور فى اطار ذاتي خاص من غزل ووصف لمناظر الطبيعة ومجالس اللهو ، وان تعدتـه فالى المساجلات والاخوانيات والمدائح والمولديات وما اليها مـن أغراض المناسبات التي صاغها الشعراء نسجا على منوال السابقين ومحاكـاة غيـر جيدة فى غالب الاحيان لنماذج المتقدمين .

ومع ذلك فقد كانت هذه الفترة دقيقة فـي تاريـخ المغـرب نظـرا لأزماتها التي هزت كيانه ومسته فى العمق . وفـي مثـل هـذه الأزمـات يفرض على الانسان ـ على الصعيد الوطني والقومـي ـ أن يقـف موقـف المواجهة ليقاوم ويتحدى أو ليرفض ويتمرد أو ليضطر الى اظهـار القبـول حيـن العجز عن المقاومة . ولكنه في كل هذه الحالات يصـارع وان تفاوت الصراع فى وجدانه نوعا ودرجة ، طالما أنه لم يستسلـم للأمـر الواقـع . والشاعـر باعتباره انسانا ثم باعتباره فنانا مهيا بحكم طبيعتـه الحساسـة الواعية وبحكم طبيعة دوره القيادى التقويمي التصحيحي ان يكون لـه موقف طليعي اى موقف مناضل ولو فى اطار ذاته الفردية حين لا يستطيـع خلـق التفاعل مع ذات الجماعة ـ تحت تاثيرات معينة ـ كما هو الشان بالنسبة لشعرائنا خلال هذه المرحلة . ونعني بالفردية فردية الرؤيا النابعـة مـن الوعي الشخصي بالأمر العام . ولسنا نعني بها تحرك الشاعر متحفزا مـن حادث يمس شخصه فى حريته وكرامته ، فتلك قضية (2) ترفد موضـوع النضال على صعيـد الشعر والادب عامة وفـي سائـر العصـور ومختلف

(2) انظر كتابنـا « الحرية والادب » .

اقاليم العروبة . ولكنا لن نتعرض لها طالما اننا حددنا اطـار هـذا البحـث فى نطاق الاحداث الوطنية والقومية التي فرضت المواجهة على مستـــوى يتعدى ذات الفرد الى ذات الأمة .

لذا فمفهوم النضال كما يستخلص من النصوص المحدودة التي توفرت لنا والتي سنعرض أهمها فى هذا البحث لا يتعدى مساندة المقاومة الرسمية والشعبية واتخاذ موقف من الأزمات يساير الموقف المسؤول ، وهو موقف مهما كان ضعيفا أو فاترا فهو رافض للانهزام والاستسلام ، الا حيـن ينقاد للقدر ؛ يحاول التوعية والتنبيه للخطر وبث روح الحماس وابعاد عناصر اليأس والتذكير بالقيم التي طرحها دائما مرتبطة بالعقيدة ، كما يحاول وفـى حالات قليلة تحليل الوقائع وتعليلها والتنبؤ بما قد ينتج عنهـا . وسيتضـح لنا ذلك من خلال تناولنا لثلاثة أحداث تشكل ثلاث فترات فى الأزمة التي عاش المغرب طوال المرحلة المطروحة للبحث وهي :

1 احتلال الجزائر ووقعة ايسلـي

2 ـ حـــرب تطـــوان

3 ـ المناوشات الاستعمايـة التي مهدت مباشرة للحماية

* * *

احتـــلال الجزائـــر ووقعـــة ايسلـــي (3)

يرجع حادث الاحتلال لسببيـــن :

احدهما مباشر ، وتمثله قضية المروحة المشهورة ، ومجملها ان قنصل فرنسا فى الجزائر (دوفال) كان يهنىء الداى حسين باشا بعيد الفطر سنة 1243 هـ فاستفسره الداى عن عدم رد وزير الخارجية الفرنسي على رسائله

(3) انظر فى احتلال الجزائر : الاستقصا ج 9 ص 26 واللسان المعرب ص 105 والحركة الوطنية الجزائرية ص 21 (والمصادر المذكورة) وانظر فى وقعة ايسلي : الاستقصا ج 9 ص 49 واللسان المعرب ص 135 .

التي يبعثها له في قضية الدين ـ اذ كانت الجزائر قد اقرضت اموالا لفرنسا مما يدل على تفوق مالي للجزائر لابد من تسجيله في هذا الصدد مقابل عجز فرنسا عن التسديد ـ كما استفسره عن امكان التكاتب مباشرة مع المسؤولين الفرنسيين . فكان جواب القنصل ـ وفي وقاحة واستفزاز أن حكومته لن ترد وان الوزير لن يتنازل لمراسلة من هو دونه . فغضب الداي ورفع مروحته مشيرا على القنصل بالخروج . ولكن الممثل الفرنسي زعم ان ريش المروحة اصابه في وجهه واعتبرت حكومته أن في ذلك اهانة لفرنسا وملكها لوي فيليب ، فطلبت من القنصل أن يوقف اتصالاته بالداي ، واخبرت أن قائد الحملة سيأتي لينال الترضية أو ينتقم بالقوة للكرامة الفرنسية المهانة . ورفض الداي قبول شروط فرنسا التي لم تلبث ان فرضت حصارا على البلاد ، ساعدتها عليه المراكز التي كانت الجزائر قد سمحت باقامتها مقابل مبالغ مالية شريطة الا تحصنها او تمدها بالسلاح .

اما السبب الثاني وهو خفي ـ فرغبة فرنسا في تحطيم القوة البحرية التي كانت تتمتع بها بلاد الشمال الافريقي والتي كانت تسيطر بها على حوض المتوسط . وكانت فرنسا وغيرها من الدول الاروبية تضطر لكي تمر سفنها الى عقد معاهدات ودفع ضرائب ورسوم وتقديم هدايا لولاة وحكام هذا البلاد . ولقد كانت للمغرب عناية خاصة بالأساطيل حيث حاول المولى عبد الرحمن بن هشام تنمية منجزات سيدي محمد ن عبد الله في هذا المجال ، ونظم حراسة السواحل ومراقبة المياه الاقليمية وانزال العقوبات بكل من يمر فيها بدون رخصة أو اذن على حد ما حدث مع بواخر النابريال (4) . بل ان قرا صنتهم ارادوا أن ينتقموا فهاجموا مدينة العرائش التي حاولوا احتلالها لولا ان واجهتهم المقاومة الشعبية وردتهم على الاعقاب . وليس من قبيل المصادفة أن يكون هذا الحادث قد وقع سنة 1245 هـ اى زهاء سنة قبل حادث احتلال الجزائر .

مهما تكن الاسباب فانه حين استفحلت القضية انسحب العثمانيون بعد توقيع « اتفاق الجزائر » وتركوا البلاد وشانها ، لان الأمر لم يكن يهمهم

(4) انظر التفاصيل في الاستقصا ج 9 ص 24 .

مباشرة ولأنهم كانوا اضعف من ان يواجهوا فرنسا . بل ان السلطان محمود العثماني كان حتى في الظروف العادية يفوض الأمر للوالي التركي لكـي يتصرف فيما يطرأ له مع الحكومة الفرنسية دون ازعاجه بشيء مـن ذلـك . اما تونس فانها لم تتحرك وزادت فرنسا فعينت على عمالة وهران احـد البايات التونسيين ، بل ان فرنسا لم تلبث بعد سنوات قليلـة ان فرضـت عليها الحماية . (5) واضطر المواطنون الى الاعتماد على انفسهم والالتفاف حول زعماء المقاومة الشعبية وخاصة الأمير عبد القادر (6) ، على الرغم من انحراف بعض القبائل التي والت المحتلين . وعرضت فرنسـا منصـب الحكم على القائد الشعبي كما انتخبته بعض القبائل المجاهـدة سلطانـا للجزائر ، ولكنه أبى الا أن يناضل فمد يده للمولى عبد الرحمن بن هشام ملك المغرب وبعث اسئلة لعلماء المغرب حـول الوضع في الجزائر (7) . كمـا ان أهل تلمسان أوفدوا عنهم من يطلب من السلطان قبـول بيعتهـم ، فكتب يستفتي العلماء في الأمر فافتى معظمهم بالرفض . ومع ذلك قبل البيعـة وعين عليهم ابن عمه علي بن سليمان مع تجريدة من الجند والقواد ، يساعده في مهمته القائد ادريس الجراري الذي كان يومئذ على رأس عمالة وجـدة . وتوالت الامدادات المغربية للجزائر واعتبرت فرنسا أن هذا الموقف يلغـي الهدنة التي كانت معقودة بينها وبين المغرب منذ عهد سيـدي محمد بن عبد الله فشنت غاراتها على الأقاليم المغربية الشرقية وخاصة على بنـي يزناسن ووجدة وما يدخل في عمالتها ، وكانت هي وغيرها مناطـق لتحـرك القوات الجزائرية وانطلاقها لاسيما بعد أن تم احتـلال جميـع القطـر

(5) بمعاهدة باردو سنـة 1881 م .
(6) 1807 – 1883 م . وانظر مقاومته في الحركة الوطنية الجزائرية ص 49 .
(7) تتصل هذه الاسئلة بقول الشرع في القبائل التي مالات المحتلين وفي المتخلفين عن الدفاع والجهاد وفي المانعين للزكاة والمعونة كما تتصل بالاستفسـار عن الطريـق المشروع لتمويل جيش المقاومة في مثل هذه الظروف . وقد أجاب غير واحـد مـن العلماء على هذه الاسئلة ونخص بالذكر القاضي عبد الهادي العلوي (انظر جوابه في المعيار الجديد ج 10 ص 205) والقاضي علي التسولي المدعو مديدش (ت 1258هـ) وقد كتب الجواب في صيغتين احداهما مختصرة (تنظر في موضعين من المعيار ج 3 ص 42 و ج 10 ص 207) والثانية مطولة وقد طبعت على الحجر . وبالخزانة العباسية نسخـة مخطوطـة منها .

الجزائرى . وتطورت الغارات الى ان كانت معركة ايسلي (8) المفاجئة التي هزم فيها المغرب اشنع هزيمة والتي اضطرته الى عقد معاهدة مـع فرنسـا (9) كان ملزما بمقتضاها ان يضيق الخناق على عبد القادر الذى لم يلبث ان ارغم على الاستسلام (10) .

جين نبحث في موقف الشعر من هذا الحادث فاننا نصادف شاعريـن مدرسيين وشاعرا شعبيا . أما الشاعران المدرسيان ـ ونسجل انهما كانا مسؤولين في الدولة ـ فاحدهما هو محمد غريـط (11) ، وتعـرف لـه قصيدة (12) قالها اثر احتلال تلمسان بداها باستنكار تباطؤ المغاربـة وعدم تحركهم لمواجهة العدو مذكرا بنواياه وبما كان له في الاندلس :

مالي أرى جفـن اهـل الغرب وسنانـا
من بعد ما اخـذ الرومـي تلمسانـا

كانهـم مـادروا مـاذا يريـد بهـم
عـدو دينهـم ، لا نـال امكانـا

ولا علـى فعله فـى دفتـر وقفـوا
باهـل اندلس يابيس مـا كـانـا

(8) سنة 1260 هـ 1844 م وفيها اخذ الجيش المغربي بغتة ولقي الهزيمة فى معركة واحدة. وفي نفس الوقت كانت مدافع البحرية الفرنسية تقصف مدينتي طنجة والصويرة .. والحقيقة أن الفرنسيين كانوا يستغلون ادنى سبب للتدخل العسكري على حد ما حدث سنة 1268 هـ حين هجمت البحرية الفرنسية على مدينة سلا (انظر الاستقصا ج 9 ص 62) .

(10) سنة 1264 هـ حيث لجا الى فرنسا وفيها قضى ست سنوات ثم سمح له بمغادرتها فذهب الى دمشق حيث قضى بقية ايامه الى ان توفي .

(11) المكناسي المتوفى سنة 1280 هـ 1863 م ، كان كاتبا للوديني عامل فاس ثم عينه المولى عبد الرحمن بن هشام وزيرا بعد عزل العامل المذكور لفضيحة خلقية ولكنه لم يلبث أن اعفي من الوزارة ليبقى كاتبا للوزير الجديد محمد الصفار . كذلك استوزر لسيدي محمد بن عبد الرحمن حين كان خليفة لوالده . اورد له صاحب فواصـل الجمان بعض شعره وقال انه كان بيده الكثير منه ولكنه ضاع حين سلمـه لبعـض أصدقائه . انظر ترجمته فى : الاتحاف ج 4 ص 248 ـ فواصل الجمان ص 63 ـ الاعـلام لابن ابراهيم ج 5 ص 320 .

(12) انظرها فى ذيل « كشف الغمة » للكردودي .

وتساءل بعد ذلك عن وجود رجال المغرب الأبطال :

ايـــن الحمـاة الكمـــاة ما لهم رقدوا
والكفر فى اخذهم مـا زال يقظـانـا ؟

ايـن الأبـــاة لمس الضيـــم مالهـــم
اليه لـم ينفروا رجـــلا وركبـانـا ؟

ثم وجه الخطاب لاستنهاض الهمم والتحذير مـــن العـدو والدعـوة للاسراع بنجدة الجزائريين ومساعدتهم على الخروج مما هم فيـه ، وهـو موقف يحتمه الدين :

يا معشر المسلمين استيقظـوا وخذوا
من العـدا حذركم سـرا واعلانـــا

فليس يومـن غدرهـــم وان بعـــدوا
فكيـف اذ اصبحوا للحـــد جيرانـــا

* * *

وانقذوا اهلها مـن العـدو فقـــد
أراهـــم مـــن شنيـع المكـر الوانـا

والدين اوجب أن نسعـى لنصرتهـــم
بالنفس والمـــال اشياخـا وشبانـــا

وختم بالحث على الجهاد والموت فيه فهو أفضل مـوت للمـرء الحـر الذى يرجو ثواب الله خاصة وأن العمر لا يتأثر بمواجهة الخطر أو القعـــود عنـــة :

موتـــوا كراما فـان الحر يانـف مـــن
معيشـــة تـــدع الحليـــم حيرانـــا

لاموت افضل من مـوت الجـهاد لمـن
يرجو من اللـه رحمـــات ورضوانـــا

كونوا صلابا على اهل الصليب فلا
دين لمن لعدو دينه لانا

* * *

وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى
جلاده اخوة كونوا واعوانا

ما قصر العمر اقدام على خطر
ولا انال الخلود الجبن انسانا

والشاعر الثاني هو محمد بن ادريس الزموري العمراوي الملقب ب « السلطان الصغير » (13) وله ثلاث قصائد ،

يقول فى الاولى (14) حاثا على الجهاد ومنبها الى الخطر المحدق فى اسلوب خطابي قوى يلح على صيغة التوكيد :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم
الى الجهاد فما فى الحق من غلط

فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

---

(13) الذي لقبه هو احد أولياء فاس كان يعتقد فيه ويخدمه ويعرف بمولاي عمر . كان كاتبا للمولى عبد الرحمن فى فترة خلافته للمولى سليمان بفاس ثم وزيرا له بعد توليته الملك . غير انه تعرض للعزل والسجن سنة 1247 هـ لاتهامه باثارة بعض الحوادث ثم اطلق سراحه ليسجن مرة ثانية . وبعد الافراج عنه كتب القصائد فى استعطاف السلطان وتوسط له بعض اصدقائه فاعاده الى الكتابة ثم الوزارة . ولعله بقي فى منصبه الى ان توفي سنة 1264 هـ 1847 م . وهو كما يبدو من الديوان صاحب موهبة وشاعرية نلمحهما حين تخف وطاة التصنيع والزخرف المسيطرين على شعره وهو القائل عن نفسه : « لقد غاص فكري فانتقى دررا فنظمها نظام الجواهر » انظره فى : الجيش ج 2 ص148 والسلوة ج 2 ص 362 وفواصل الجمان ص 40 والاتحاف ج 4 ص 189 والاعلام ج 5 ص 263 والسلطان الصغير لعبد الرحمن الفاسي (مجلة رسالة المغرب س 9 ع 47 ـ 49) ومحمد ابن ادريس لناصر الفاسي ، (مجلة البحث العلمي س 1 ع 1) والحياة الادبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص 327 .

(14) انظرها فى الديوان ص 402 والحلل البهية ص 211 والاستقصا ج 9 ص 50

فــلا يغرنكـم مـــن ليـــن جانبـــه
ما عاد قبل علـــى الاســـلام بالسخط

فعنده من ضروب المكـر ما عجـــزت
عن دركه فكـرة الشبـــان والشمـط

فراتح المكـــر تبـــدو من خواتمـــه
فعنـــده المكـر والمكروه فـى نمـط

وانتـم القصـــد لا تبقـن فـى دعـــة
ان السكون الـى الاعدا مـــن السقط

من جاور الشــر لا يعـــدم بوائقـــه
كيف الحياة مع الحيات فـى سفـط

قـد يغبط الحي فـي عـــز يخلـــده
وليس حـــي علــــى ذل بمغتبـــط

ويقول فى الثانية (15) حاثا كذلك على الجهاد باعتباره فرضــا علـــى الجميع ومذكرا بفضائله وانه الوسيلة للنصر اذ به تم نشـر الديـن وفـوز لرسول والمسلميـن :

فرض على كـل مسكيـــن وسلطـــان
حمل السلاح علـــى عباد اوثـــــان

فحملـــه شـــرف عـــال ومفخـــرة
خـــص الالاه بهـا اعـــز عبـــدان

لا شيء احسن من صوت السلاح علـى
الأعناق فى طاعة المولـى ورضـــوان

(15) وهي قصيدة تشتمل على مائتين وعشرين بيتا وتسمى «سرية النصر لاهل هذا العصر» انظرها فى الحلل البهية ص 211 .

فهو الوسيلة فى نصر الالاه لكم
ونصرة المصطفى اجل عدنان

وليس يجحد فضل حمله ملك
وليس يانف عنه كل خاقان

به نبيكم الالاه شرفه
بحملة لامتثال امر رحمان

به آزليت لهذا الدين غربته
وطار صيتا به بكل بلدان

والى نفس الفكرة يدعو فى القصيدة الثالثة (16) التي يستهلها بقوله ينبه المغاربة من الغفلة ويثير فيهم الحماس لمقاومة العدو الذي اصبح بين ظهرانيهم يتهيا للانقضاض عليهم :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شاركم فى البلاد

والشرك قد نصب اشراكه
مستعبدا بكيده للعباد

ويا حماة الدين ما صبركم
والمشركون يطلبون البداد

ما هذه الغفلة عن ضدكم
وانتم فى الحرب اسد الجلاد

وهو فى دعوته للجهاد يعرض للوضع الذي غدت عليه الجزائر بعد الاحتلال ويتوسل بمثل مشهور لعل المغاربة يتخذون منه العبرة :

(16) انظرها فى الديوان ص 179 وفى تقديمها ورد ان السلطان « امر ان تقرا عقب الصلوات فى المساجد وكراسي الوعظ فى ادنى البلاد واقصاها » .

واسطة الغرب قد حازها
والأمر جد والبلا فى ازدياد

حوى الجزائر ووهرانها
وراع حاضرا بذاك وباد

مصائب صبت على معشر
يبكي من الاشفاق منها الجماد

* * *

اخوانكم دينا وجيرانكم
اضحوا رعايا الشرك بين أعاد

ساموهم هونا وازروا بهم
في الدين حتى ركنوا لارتداد

وطمعوا فيكم فكونوا يدا
فان تثاقلتم فانتم مراد

قد ملكوا الأحرار من غدرهم
وذللوا بالكره صعب القياد

من حلقت لحية جار له
فلتكونن لحيته في اعتداد

كذلك نجد للشاعر ابن ادريس قصيدة توسلية (7) قالها بعد هزيمة المغرب فى ايسلي اولها :

سلام يفوق الورد فى الطيب والزهرا
ويفضل فى اشراقه الانجم الزهرا

(17) انظرها فى الديوان ص 206 والاتحاف ج 5 ص 271 .

ونقتطف منها هذه الأبيات :

واني قد استرعيت منهـــم رعيـــة
وحملت من اعباء امرهـم اصـــرا

اروم لها التوفيق والرشـد والهـدى
وارجو لها الاسعاد والحفظ واليسـرا

وآمـــل مـــن جدواك كل عنايـــة
ونصرا عزيزا يهدم الشرك والكفـــرا

* * *

فكـن يا رسول الله غوثـــا لامـــة
تمت الى علياك بالنسبة الكبـــرى

فمـــا انزلـوا الا ببابـــك رحلهـم
ولا اتخذوا يومـا سواك لهم ذخـــرا

ولا استنصروا الا بجاهك فى الوغـى
ولا قصدوا فى الخلق زيدا ولا عمـــرا

ولا حصـــروا الا عليـــك رجاءهـــم
وما قصروا لو خلفوا النهي والامـــرا

وقد جاوروا من عصبة الكفر امـــة
تريد بنصب الماكرين لهـا الجـــرا

* * *

اجرنا فنعم الجار انت لمـــن لجـــا
ببابـــك واستكفى بهمتـك الاصـــرا

وغر يـا رسول الله عزمـا لامـــة
دعوك ولب صوتهم واحبهم جبـــرا

واظهـر لها من عز جاهـك نصـــرة
ترد على الأعقاب من سامها ذعـــرا

وتخلي ديار المسلمين مـن الصـــدا
وتكسبها من بعــد نجسهم طهـــرا

وتتركهـم صرعـى بكـل ثنيـة
وتملأها دينا كمـا ملئـت كفـرا

واما الشاعر الشعبي الذى تناول حادث الاحتلال فهو الشيخ الأكحـل (18) وهو لا يسير فى نفس الخط الذي سار فيه غريط وابن ادريس من حيث النظر الى الحادث واتخاذ موقف فى اطار الدعوة الى الجهاد وحمـل السلاح لنصرة الجزائر ورد العدوان ، ولكنه يرد الأمر الى قدر الله ومشيئته واذنه ، فقد قضى أن يرتد العرب ويفشل المسلمون وأن يحتل الكفار هـذا الجزء من بلاد العروبة والاسلام :

لعرب ابقدرة الله اتعود مرتدين

* * *

اتعـود باذن الالـه سكان للكفـرا

ويستشهد على ذلك بقول ينسب للرسـول يؤكـد ان كفـة المسلمين ستنقلب فى آخر الزمان وأن القرن الثالث عشر سيشهد قهرهم وذلهم :

قال الرسول مفتـاح دولـت لخيـــار
يابن خلوف (19) راقب شف ما يطـــرا

آخر الزمان ينعكس وتنقلـب ليـــام
قـــرن ثالـث عشر فيـه ابني مـــرا

يتفقوا اعلى ابـلاد تسمـى ياكـــرام
هـــاذك زاويـــة فالزمان مذكـــرا

(18) انظر كتابنا « القصيدة » ص 354 .

(19) لعله يخاطب الشاعر الجزائري الاخضر بن خلوف . ونخشى ان تكون القصيدة ليست للاكحل كما يرويها الحفاظ ولكن لابن خلوف (انظر المصدر السابق)

فيهـــا الولـــى لمخصص وينذكر بعلوم
جعلو الله عساس اقبالـت الكفـــــرا

* * *

سبحان مالك الملك الواحـــد لعظيـم
آخر الزمان ماذا تحووز مـن قهـــــرا

هذا القصاص مذكور عام من اسنيـــن
فـــى قـرن ثالث عشر ابلا عبــــرا

وفى استسلام لقضاء الله وقدره ينتقل للحديث عن الموت والفناء :

لـرواح فانيـــا ولجثات مرمييـــــن
مالك لملوك يبقى اولا بعدها عبـــــرا

سبحان امن اخلقنا بعد العـدم كـــان
من بعد اوجدنا نضحاوا فالتراب مدفونين

* * *

سبحـــان امـــن اخلقنا امكون لكـــوان
واجعـــل اوكيـل عنـــا عزرائيـــل

ويؤكد فكرة القضاء والقدر فى قوله :

يامالـك السمايا عظيـم يـــا جـــواد
واجميـع مـــا جـرى بسبب القـدرا

وعنده أن المومن الذي يعبد الله يهون عليه تحمل قضائه :

اذا اعبدت ربي اتنال خيـــر اكثيـر
اتسلم القدرة الله اولا ترى قهـــــرا

وهو لهذا يوصي بالايمان والاستسلام للقدر فى رضى وعلانية :

احذر اوكون مومن اوخـذ التمهيـــل
سلم اجميع ماكان بالرضـــا جهـــرا

فمن علامات هذه الفترة أن يترك صوم رمضان ويذل المصلون والا ينهى عن المنكر وان يشيع الحرام ويخضع المسلمون لأسياد كفار ، صابرين باكين منتظرين آجالهم ان تحين :

ثــم اتنــوح الخلــق فيــه بالتعراج
رمضـــان ينهجر ولا تبقى لـو جـــرا

فيـــه اهـــل الصـــلا مذلوليـــن
ايرخصو اولا يبقى في امناكـر نكـــرا

آكل واحـد ابلحـــرام يلهـــا املـــو
والمومنين تظهـر اعليهم الصبـــــرا

او كـــل واحـــد ينظـــر لاجلـــو
يرضوا ذوك لسياد ابسكب العبرا (20)

ولعله واضح ان حادث احتلال الجزائر اذا كـــان يعتبـــر تاريخيـا بمثابة الناقوس الذى دق ينذر بالخطر المحدق بالمغرب ، فانه يكشف مـــن خلال الشعر الذى قاله المغاربة فى التجاوب معه عن مدى وعيهـم بهـــذه الحقيقة . ولقد انطلقوا ـ الا من استسلم منهم للقدر على حد ما فعل الشاعر الشعبي ـ من موقف مفعم بروح اسلامي ينظر الى المحتل كافرا مشركـــا تجب محاربته ويتحتم طرده ، وينظر الى المواجهة من خلال الجهاد علـــى اعتبار ان هذا الجهاد واجب يفرضه الدين وان الشهادة أفضل سبيل للموت والا حياة مع الذل وبجانب الاعداء وخطرهم يهدد

* * *

حـــــرب تطــــوان :

لا غرابة وقد اتجه الاستعمار بانظاره للمغرب يسعى لتحقيق اطماعه ، ولا غرابة وقد جربت فرنسا اولى جولاتها فى هذا المضمـــار ، ان نـــرى اسبانيا تحاول الظهور فى الميدان لتثبت وجودها فى المنطقة ولتؤكـد ـ

(20) انظر القصيدة فى مجموع مكتبة تطوان وفى الكناش رقم 18 ص 2

للمغرب اولا ثم لفرنسا والدول الأروبية المتطلعة الى توسيع رقعة نفوذها ـ قدراتها وامكاناتها حتى تفرض هذا الوجود ، لا سيما بعد ان كشفت ظروف احتلال الجزائر وتدخلات المغرب ثم هزيمة ايسلي عـمـن تخلف أجهزتـه التسييرية والدفاعية (21) وعجزها عن الصمود ومواجهة المد الاستعماري ورد العدوان ، ولا سيما كذلك وان اسبانيا كانت تحتل مدينتي سبتـة ومليلية وانها استغلت موقف المغرب المنهار بعـد ايسلـي لتستولـي (22) على الجزر الجعفرية الواقعة على مقربة من شاطىء المتوسط شرق مدينـة مليليـــــــــة .

هذه هي الدوافع الحقيقية للحرب التي دارت رحاهـا بيـن المغـرب واسبانيا والتي تسمى بحرب تطوان . وبعد ذلك ياتي السبب المباشـر الذى يتحدث عنه المؤرخون (23) ، وهو ان الاسبـان ـ تحديـا منهـم للمغاربة ـ خرقوا اتفاقا كان بينهما يقضي بأن يقيم كل فريق مكانا للحراسة علـى الحدود الفاصلة بينهما فى منطقة سبتة . وكان هـذا الاتفاق يقضـي بأن يتخذ نصارى هذه المدينة بيوتا من خشب وأن تكون لأهـل اللانجـرة أخصاص من البردي ونحوه . ولكن الاسبان بنوا « بيتا من حجر وطيـن وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة بالكرونة » (24) . ونبه السكان المغاربة لهذا الخرق أول الأمـر ، وحين لم يجدوا سامعا لتنبيههم هدمـوا البيـت ولطخوا العلامة المذكورة ، وأغاروا على سبتة وهاجموا الاسبان وقتلوا منهم عددا كبيرا . وثارت ثائرة الاعداء واشترطوا لاعادة الصلح تسليم اثني عشر

---

(21) وقد أثار ضعف الجيش وسوء تنظيمه اهتمام كثير من العلمـاء فالفـوا رسائـل فى ضرورة تنظيمه وكيفية هذا التنظيم نذكر منها «رسالة العبد الضعيف الى السلطان الشريف» لابن عزوز وقد ألفها للسلطان المولى عبد الرحمن (مخطوطة فى 19 ص بخزانة الرباط العامة رقم 1623 د) كما نذكر كتاب « كشف الغمة ببيان ان حرب النظام حق على هذه الامة » لمحمد بن عبد القادر الكلالي الشهير بالكردودي المتوفى سنة 1261 هـ 1851 م ، وقد وضعه باسم نفس السلطان كما ذكر فى المقدمة ، وهو مرتب على عشرة أبواب وخاتمة (مطبوع على الحجر فى 111 ص)

(22) سنـــة 1848 م .

(23) انظر فى حرب تطوان : الجيش ج 2 ص 71 والاستقصا ج 9 ص 84 واللسان ص 138 والاعلام ج 5 ص 341 والمجلد الرابع والخامس من تاريخ تطوان .

(24) الاستقصـــا ج 9 ص 84 .

مغربيا ـ حددوا بأسمائهم ـ ليقتلوا . وبعد مباحثات في الموضوع رفض المغرب هذا التحدي أسافر ودخل الحرب ، واحتل الاسبان مدينة تطوان (25) وكانت بينهم وبين المغاربة جولات حربية شارك فيها الجيش الرسمي وقوات المقاومة الشعبية انتهت الى الصلح بين الطرفين والى جلاء القوات الاسبانية عن المدينة بعد احتلال دام زهاء سنتين وثلاثة أشهر مقابل عشرين مليون ريال يدفعها المغرب ، وهو مبلغ عجز عن تسديده مما اضطره الى طلب قروض اجنبية ولا سيما من انجلترا والى قبول وجود مراقبين أسبان في مراسي المغرب لاقتطاع المبلغ من مستفادها ، ومقابل استقرار الاسبان في شاطىء الأطلسي بالموقع المعروف بسنتا كروز الذى تسربوا منه لاحتلال ايفني .

وقد عبر الشعر (26) المغربي عن هذه الازمة سواء في قالبه المعرب أو الملحون وكان لشعراء تطوان المحليين ، وأغلبهم من الفقهاء وطلبة العلم المتأدبين ، أثر كبير في اغناء مجال القول ، انطلاقا من المعاناة المباشرة والمعايشة اليومية لظروف الحرب ، وان جاء شعرهم ضعيفا ومهلهلا من حيث الاسلوب بحكم ضيق تكوينهم الفكرى والأدبي وربما انعدامه عند البعض ، وبحكم محدودية شاعريتهم وقدرتهم على التعبير .

ويعتبر المفضل أفيلال (27) في طليعة هؤلاء الشعراء ، وقد اشتهرت قصيدته (28) التي مطلعا :

يادهر قل لي على مه
كسرت جمع السلامة

وفيها يعرض بنفس فاتر يكاد يقرب من الاستسلام ـ للوضع الذى آلت اليه مدينته فيخاطبها ويتذكر الأيام الحلوة التى كانت له فيها مع احبابه

---

(25) سنة 1276 هـ 1859 م
(26) كذلك عبر النثر من خلال فن الخطابة ، انظر اربع خطب أوردها صاحب تاريخ تطوان (م 5 ابتداء من ص 236)
(27) المتوفى سنة 1304 هـ
(28) انظرها في الاستقصا ج 9 ص 92 والاعلام ج 5 ص 350 وتاريخ تطوان م 5 ص 251

واخوانه وينهيها بمخاطبة أهل تطوان يحثهم على الصبر ويدعوهم الى التفاؤل وتفويض الأمر لله حيث الأزمة عنده عابرة كالظل الزائل ، ثم هـي مجـرد انتقام من الله ، يقول :

يـا آل تطـوان صبـرا فمـا لخطـب ادامـه
دوام حـال محـال وهـل لظـل اقامـة
ان غـاب نجـم سعـود ولاح نجـم شـآمـة
فسـوف يطلـع بـدر يمحـو سنـاه ظلامـه
فاعتصمـوا برجـاء وارعـوا بصـدق ذمامـه
وحسنـوا الظـن تنجـوا دنيـا ويـوم القيامـة
وفوضـوا الأمـر للـه يكـف عنـا انتقامـه

وبتفاعل أكثر يتناول الفقيه محمد القيسي وقائع الحرب فى قصيدته (29) التي يكشف أولها عن مدى رؤياه حيث يقول :

تصبر لحكم الله فى قـوم اذ جـرى
عليهـم بانـواع الوبـال المحتـم

وبعد أن يتحدث عن الحرب وانتصار الاسبـان يصـف فـى لقطـات مؤثرة مغادرة السكان للمدينة وخروجهم الى البوادي والاطراف تاركيـن كل غال ونفيس ، فرارا بدينهم وكرامتهم من بطش المعتدين :

فمن ذاك خاف الناس من كيد مكرهـم
اذا دخلوا غصبـا بقتـل ومغنـم

(29) انظرها فى تاريخ تطـوان م 5 ص 257 .

وصاح كثير بالعويل وبالبكا
وساروا على هجر لارض المراغم

بهجرتهم فروا بدين محمد
به تاركين الكفر في كفره عم

وقد تركوا الأملاك والمال والحلي
وجملة دين في الرسوم مزمم

وامتعة شتى اثاثا كثيرة
ومتروك دار من قديم مخدم

ودينهم اشتروا بصفقة رابح
وباعوا بها الدنيا بفلس ودرهم

وتاهوا هياما في المداشر والقرى
على حبهم في الله حب المتيم

وبعد دخول الفاسدين عليهم
يدورون في نهب على كل ماتم

* * *

ففي ليلة شاب الشباب لشينها
كانها يوم الحشر بالدمع والدم

* * *

نساء وابكار حسان عوامر
خرجن بكشف الوجه غير ملثم

ينحن على حر الفراق تاسفا
عن الأهل والأوطان والأخ والحم

وهو لا ينسى ان يقدم صورا عن الأفعال الشنيعة للمحتلين بعد دخولهم المدينة من سلب ونهب وتخريب :

بها استوطنوا قسرا على رغم انفنا
وحلوا بها مثل الجدام المجدم

فكم وسقوا منهـا اثاثا كثيـرة
وما تركوا فيهـا غنيمـة مغنـم

كما اخذوا منهـا المدافـع كلهـا
وآلة حرب مـن خزيـن متخـم

واسواقها هـدت ودور تهدمـت
ولا أثـر يبقـى لكـل مهـدم

مساجدها اضحت كنيسـة كفرهـم
ومربـط خيـل للعـدو المؤيـم

والنظر الى تطوان بين ماضيها الزاهر الجميـل وحاضرهـا المؤلـم في ظل الاحتلال وبعد هجرة أهلها شغل الفقيه محمد السلاسي في منظومته (30) التي تكفينا منها هذه الأبيات :

أيـا درة البلـدان حـل بـك البـلا
فصرت لاهـل اكفـر ماوى ومنهـلا

وقد كنت من نور الهـدى بمكانـة
تفـوق الثريـا رفعـة وتجمـلا

تراكم بلواهـا فبـاد بهاؤهـا
وقد عفت الآثار واعتراها البـلا

* * *

فيا اسفي ذاك الجمـال وسـره
تعطـل وانقضى سريعـا واهمـلا

وصارت محل الكافريـن ودارهـم
وموطن من في الكفر حقـا تغلغـلا

فكـم مـن خنازير وكـم مـن نواقس
وكم من خمور يا اخي وكـم طـلا

(30) انظرها في المصـدر السابـق ص 263

وحول موضوع الهجرة كذلك يدير الفقيه احمد الجندى قصيدته (31) التي حاول فيها ابراز موقف السكان فى الدفاع على حد قوله :

بقوة حاربوا الكفار وامتثلوا
أمر الالاه وما آتاهم الكدر

حموا حريمهم باهل دينهم
فليس للكفر في حريمهم وطر

ولكنه يوجه التهمة لسكان البادية الذين والوا العدو :

واما اهل البوادى والعمود معا
فاخوة للنصارى ويلهم كفروا

* * *

سحقا لهم غدروا الاسلام واقتطعوا
جل الالاه فما يرضى لهم نظرا

ونفس التهمة نجدها توجه للبوادى فى ابيات (32) الفقيه محمد اسنوس التي ختمها بقوله محذرا منهم أهل تطوان :

يا آل حاضرة كونوا على حذر
من البوادى وعين الله تحرسكم

واذا كان هؤلاء الفقهاء وغيرهم (33) من الذين نظموا قصائد ومقطوعات فى حرب تطوان ينتسبون جميعا لهذه المدينة ، فتلك ظاهرة تستوقف الباحث ليتساءل عن سببها ، قد يكون مجرد ضياع الشعر الذى قاله غيرهم ، وقد يكون كامنا فى انعدام وعي وطني قادر على

(31) انظرها فى المصدر السابق ص 271
(32) انظرها فى المصدر السابق ص 272
(33) فى المصدر السابق منظومات اخرى قيلت فى حرب تطوان والهجرة والجلاء (انظرها فى ص 255 – 265 – 267 – 268 – 270 – 272) .

استيعاب المواطنين في بوتقة رأى عام يوحد بين مشاعرهم بما يخلق وجدانا جماعيا ينفعل تلقائيا ــ وفي لحظة واحدة ــ للظروف والأزمات كيفما تكون وأينما تحدث . ثم انه اذا كان هؤلاء ــ كما أسلفنا ــ من الفقهاء وطلبة العلم المتأدبين البعيدين عن مجال الشعر الحق ، فتلك ظاهرة اخرى تؤكد ما ذهبنا اليه من ان هذا المجال كان وفى هذه الفترة المحدودة بالذات قد زادت اصابته بالوهن والضعف بحيث لا نجد في الساحة شاعرا كابن ادريس السالف الذكر . ونستطيع أن نضيف بان الزعامة الشعرية كانت قد انتقلت الى فئة جديدة من الشعراء آجادوا القول في فني المعرب والملحون ، يعتبر فى طليعتهم التهامي المدغرى (34) وادريس بن علي السناني المعروف بالحنش (35)

على اننا لابد أن نشير الى بعض الشعر الذى قاله خلال هذه الأزمة شعراء آخرون قصدوا به الى مدح السلطان ، ولكنه ينضح فى بعض ابياته بالقوة والحماس ، على حد ما نقرأ لأكنسوس (36) فى احدى قصائده في سيدي محمد بن عبد الرحمن حيث يقول (37) :

وجالد عباد الصليب فاذعنوا
لعزته تحت الضراعة اعبدا

وعدد أمثال الاسود عساكرا
تحركها الاسد الضراغم سجدا

(34) المتوفى سنة 1273 هـ وهو أبرز شعراء الغزل الشعبيين ، وقصائده كثيرة ومشهورة (انظر ترجمته فى « القصيدة » ص 643) .

(35) المتوفى سنة 1319 هـ . شعره الملحون كثير ومحفوظ وله ديوان معرب بعنوان : « الروض الفائح بازهار النسيب والمدائح » (مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 1678) وله « المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروضة المنادمة والايناس فى لطف محاسن وادي فاس » (طبع على الحجر) .

(36) ابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس الاديب المؤرخ صاحب كتاب « الجيش العرمرم » 1211 ــ 1294 هـ / 1797 ــ 1877 م . انظر فيه : السعادة الابدية ج 2 ص 105 ومؤرخو الشرفا ص 200 (والمصادر المذكورة) .

(37) الجيش ج 2 ص 79 .

وتهتز منهـا الأرض عنـــد ركوبهـــا
وترجف اطـواد الجبـــال تميـــدا

وتحسب ان الجـــو نـــار تاججـــت
يضج لهـا باقـي الفســـاد مشـــردا

نعود الى حرب تطوان فنجد للشاعر السناني قصيدة شعبيـة فـي الموضوع تعرف ب « التطوانية » (38) يقول في حريتها (39) :

مـــدرا نغديـــو الشـــار ويفدينا ربي امـــع النصارى
نسعاوه النصر والفتح من الله ابلمفضل وانصارو

وفيها يوصي الغافل الساهي ان يستعد للجهاد بعد ان جار الأعداء :

اساهـــي خـــذ اخبـــار وافهم تعبير القول ولشـــارا
نوصيك يا غفيل احتال لأمر لجهاد لعدا جـاروا

واذا شاء الله رحم الضعف وجبر الكسر واتـى بالفـــرج واتـــاح للمغاربة غزو الكفار وارغامهم على الرضى بالغلب ، وبدد شملهـــم وحطـــم سفنهـــم :

ايـــلا راد الستــــار ايفاجي عل لسلام د الكـــدارا
يرحم ضعفنا ويعاملنا ابلفراج فعســـى تجبـارو

ونعـــزو فـــالكفـــار حتى يرضوا الغلـب بجهـارا
ويبدد لكريم اشملهم واسفونهم ليهم يكسـارو

(38) انظر كتابنا « القصيدة » ص 357 وانظر النص كاملا في الكنـاش رقم 8 ص 27 والكناش رقم 24 ص 19 وفي تاريخ تطوان م 5 ص 245 .
(39) اي لازمتهـــا .

وعنده ان الرومي ـ والمقصود به المستعمر الكافر ـ ماكر ، وهـي حقيقة نسيها بعض الناس ، فمجنون كل من يغتر به ويامن لجواره . فهو في مكره مثل النار ان لم تخمد في الحين تزيد اشتعالا ، لا مثيل لـــه في الغدر فهو يطمع بجد في مدن المغرب ، ولكن الشاعر يدعو اللـه الا يحقـق طمعـــه :

والبعض انســـاوا ما صـــار   ما يعرفو بين الروميهل امكارا
مهبول كل من يتفر افهذا الزمان والكافر جارو

الرومـــي مثـــل النـــار   قالوا ناس التشبيه ولعبـــارا
اذا ما طفتها فالساعا اتزيـــد هـــذا تمكـــارو

ليـس ابحالـــو غـــدار   طامع فمدون الغرب بتمـــارا
لهـلا ايوصلو ولا يوفي لو ظن هـــو وانظـــارو

وفي محاولة لتعليل ما حدث يرى انه اذا كان المغاربة قد أصيبوا بهذا العدو فلانهم شغلوا بالدينار وانهمكوا في الاخـذ والعطـاء وقـــوى بينهـم البغض والحسد كبارا وصغارا ، لم يعودوا ينهون عـن المنكـر ويوقـــرون السادات ويزورون الاولياء ، وقليل منهم من لا يؤذي جاره :

ايـــا اولـــى لبصـــار   اعتبروا نظروا افـــذا لعبارا
واتاملوا افهذا القول اللى بان ياسيـدى اثـــارو

لتهنـــا بـالدينـــار   واغبطنا فالدنيا ابخـــذ وارا
واقوى البغض ولحسد افهذا الجيل في اكبارو واصغاروا

لا نهـــى اعلـى المنكـــار   لا توقير السادات فزيـــارا
وقليل من اتصيبو في هذا الجيل ليس كيدى جارو

والشاعر يرى ان الأمل فى الجهاد ولكن لا جهاد بدون تقوى وصبر ، فهما كالأساس للبنيان ، وليس يكون حصينا اى بنيان بدون اساس :

ليس ايقـــوم لجهـاد يالامت لخـوان
دون التقوى امع الصبر هاذو باثنيــن

تمثيـل الساس للـذى رايـد بنيـان
اشمن بنيان دون ساس ايكون احصين

وعنده أن ما حدث ليس غير تنفيذ لحكم الله ، فعساه ان يعفو ويطهـر وينصــر دين الاسلام على ملــة الكفر بجاه رسوله المختار :

من نسعاوه لعفـوا مـــع اطهـــــارا
ينصر دينا عن ملت لعدا ابجاه طه مختارو

ولا شك انا حين ننظر فى الشعر الذى قيل فى حــرب تطوان سواء ماكان منه مدرسيا أو شعبيا ، فاننا لا نجده يختلف عما قيـل فـي حـادث احتلال الجزائر ، فالاتجاه فى الرؤيا والتعليل يكاد يكون واحدا وخاصة فيما يتصل بالدعوة للجهاد وفيما يتصل بربط الواقع بمشيئة الله ولغاية قصدها عقابا للمغاربة على تفريطهم فى الدين . وعلى الرغم من ان معظم هذا الشعر جاء فاتر الأسلوب مفكك التعبير غير سليم الايقاع ، فانه مــن حيــث عرض بعض جزئيات الواقع قدم مادة خصبة تضاف الى وثائق التاريخ لتبلور كثيرا مـــن حقائق الازمــة .

* * *

المناوشات الاستعمارية التي مهدت مباشرة للحماية

اذا كانت حرب تطوان قد انتهت بالصلح والجلاء على حد ما بينــا فانها ((ازالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بهــا وانكســر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشا عــن ذلك ضرر كبيــر)) (40)

---

(40) الاستقصـــا ج 9 ص 101 .

والحقيقة ان المضاعفات التي تولدت عن هذه الحرب أضيفت الى مضاعفات حادث احتلال الجزائر لتؤزم أوضاع المغرب فى جميع اقاليمه ومناطقه وعلى مختلف الاصعدة والمستويات . (41)

في هذه الظروف نجد للشاعر الصحراوى محمد بن الشيخ سيدى الشنجيطى (42) قصيدة (43) يحرض فيا على الاستعداد للنصارى ومحاربة البغاة والمعتدين ، اولها :

رويدك انني شبهت دارا على أمثالها تقف المهارى
تأمل صاح هاتيك الروابي فذاك التل أحسبه أنارا (44)

وفيها يقول متحدثا عن الحال وحاثا على الجهاد ومستنهضا هم القادة والمسؤولين لانقاذ الأمة والاسلام :

ترانا عاكفين على المغاني لفرط الشوق نندبها حيارى
أسارى لوعة وأسى ننادي وما يغنى النداء عن الأسارى
ولو فى المسلمين اليوم حر يفك الأسر أو يحمي الذمارا
لفكوا دينهم وحموه لما أراد الكافرون به الصغارا
حماة الدين ان الدين صار أسيرا للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه والا يسبق السيف البدارا

(41) انظر بعض مظاهرها فى : اللسان ص 141 وتاريخ المغرب فى القرن العشرين (القسم الاول ص 59) .
(42) المتوفى سنة 1284 هـ 1867 م . له ترجمة فى : الوسيط ص 243 – 279 حيث اورد له عدة قصائد ومقطعات . وفيها انه « كان ... شاعرا مجيدا وصوفيا وحيدا » (244) وانه « كان سلس العبارة رقيق الشعر فصيحا لم نر من انتقد عليه شيئا سوى النزر القليل الذي تعفي عليه جودة معانيه وسلاسة الفاظه » (245)
(43) انظرها كاملة فى : الوسيط ص 246 – 252
(44) انار : كثيب عظيم فى آوكار واسمه الشائع أنير (الوسيط)

بـان تستنصروا مولـــى نصيـرا لمن والى ومن طلـب انتصـــارا
مجيبا دعوة الداعـــي مجيـــــرا من الاسواء كل مـــن استجـــارا
وان تستنفــروا جمعـــا لهـامـا تغص بــه السباســب والصحــارى

وقـد تجسدت الازمة فى ظاهرة مست سيادة المغرب فى الصميـم ، متمثلة فـي الامتيازات الاجنبية والحمايات (45) . وهي ظاهرة بـدأت مـع اسبانيا بحكم الاتفاقيات التي عقدها المغرب معها على اثر حرب تطوان ، ثـم لم تلبث فرنسا أن ظهرت فى هذا المجال حيث اصبحت لها بعد اتفاق عقد سنة 1863 م بعض الامتيازات المالية كما أصبح لها حق حمايـــة قناصلها وتجارها للمتعاونين معهم من المغاربة . وكان التستر خلف الحماية يعفي من الضرائب وجميع الالتزامات المالية والقانونية كذلك . بـل كان المحميون ــ فضلا عن الاجانب ــ يبيحون لانفسهم كل شيء حتـــى مـا كـان فيــه مس بالمقدسات على حد ما يعرض لنا القاضي محمد بن عبـد القادر الكلالـــي الكردودى فى قصيدته (46) التي يتحدث فيها عن مهاجمة الاسلام وسبــه من طرف احد اليهود المغاربة المحميين فى طنجة ، وعن انتهـاك احــد المسيحيين لحرمة مسجد . وفيها يقول عارضا للوضـع المـزرى الـذى غدت عليه البلاد ، باكيا فيها غربة الاسلام :

بـــلاد غـــدا نـور الوجود محمد
يسب بها جهرا فيا له مـن خســـر

وشان اليهـود فـــي حماها معظـم
وحكم النصارى فى جوانبهـا يجرى

(45) وقد كتب فى شجبها كثير من العلماء نذكر منهم محمد بن ابراهيم السباعي المراكشي (ت 1332 هـ ــ 1914 م) الذي كتب رسالة « سؤال كشف النور عن حقيقة كفـر اهل باصبور » (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقـم 1326 د فى 12 ورقـــة) والعربي المشرفي (ت 1311 هـ ــ 1893 م) صاحب « الرسالة فى أهل باصبـور الحثالة » وهي عند الكاتب مخطوطة فى 8 ص وقد أدارها حول مناقشة معنى الركون فى الآية : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » (هود 113) وعنده أن ما عبر عنه بالحماية انما هو الكفر . وانظر كذلك بعض الفتاوي فى : المعيار الجديد (ج 3 ص 47 ــ 50 ــ 53 ــ 60 ــ 61) .

(46) انظرها عند المنوني فى : مظاهر اليقظة ص 25 كما أمده بها حفيد الشاعر

ومن لشعار الديـن اصبح مظهـــرا
يقابلـه الكفار بالهـزء والسخـــر
وفيهــا امور لو احاول شرحهـــا
لضاق نطاق النظم فيها مع النثـــر
* * *
على غربة الاسلام ابكـــي تاسفـــا
وانــــدب اهلا للمكارم والفخـــر

ويضيق به الامر ويطغى عليه الياس فيتمنى الرحيل :

بلاد بفلس لـــو تيســر بيعهـــا
لجادت بها نفسي وان كنت ذا فقــر

ويتحدث بعد ذلك عن موقفه مما وقع وهو قاضي المدينة :

علــى انني قد قمـت فيها بواجــب
وارغمت آنفا للعداة ذوى المكــر
فعاقبت مــن بالسب اصبـح معلنـا
وفزت وربي بالجزيل من الأجـــر

وهو لا يقنع بذلك اذ لو كان الامر بيده لقتله :

ولو كنت فى امرى مطاعــا قتلتـــه
ولكنني فى تركـــه بيــن العـــذر

وكان قبل ذلك قد امر بترحيل نصراني انتهك حرمة المسجــد :

وكنت سعيت فـــى تنقـل كافـــر
الى ارضه عنا بحكم ذوى الامـــر
وذلـــك لمـــا ان تجـــاوز حـــده
وحـــل محـــلا للعبادة والذكـــر
* * *

علـى حالة ساءت نفوسا كريمـــة
بجعل سلاح والكلاب علـى الاثـــر

بل لقد كان بعض المحميين ـ وخاصـة منهم اليهـود ـ لا يكتفـون بالحماية الاجنبية لهم فيطلبون جنسية الدولة الحامية بعد اقامة ـ ولـو محدودة ـ فى الخارج مع الاحتفاظ بالجنسية المغربية ، الشيء الذى دعـا الحسن الاول سنة 1877 م الى اتخاذ قرار بنزع الجنسية من كل مواطـن يتجنس فى الخارج . بل انه ، سعيا منه الى وضع حد لهـذه الوضعيـة الماسة بسيادة المغرب ، دعا الى عقد مؤتمر مدريد سنة 1292 ـ 1880 م . ولكنه ان كان حصل على بعض ما يريد فانه منح حقوقا واسعة للفرنسييـن والاسبان والانجليز ، فلم يزد أمر الامتيازات الا استفحالا على الرغم مـن المحاولات التي قام بها هذا السلطان لتخفيفها كالغاء المحاكم القنصليـة وتكويـن محاكم مدنية للنظـر فى قضايا الاجانب .

فى هذه الاثناء كانت أطماع فرنسا تزيد ممـا جعلهـا تفاوض الـدول الاجنبية الأخرى لتخلي لها المجال فى المغرب حيث تنازلت لايطاليا سنـة 1901 م عن اى ادعاء لها في ليبيا ، وتنازلت لانجلترا سنـــة 1904 عـــن مزاحمتها لها فى وادى النيل وحيث اتفقت مع اسبانيا علـى اقتسـام المغرب فـى اتفاقيـات متتاليـة (1900 ـ 1904 ـ 1905 ـ 1907) . وكان لعدم اتفاقها مع المانيا سوء وقع كان حافزا على الزيارة التي قام بها غليوم الثاني الى طنجة في 31 مارس 1905 . الشيء الذى حث على عقد مؤتمـر الجزيرة سنة 1323 هـ 1906 م والذي حضره ممثلـو خمس عشـرة دولة . وقد قضى المؤتمر على الامتيازات التي نص عليهـا مؤتمر مدريـد واعترف باستقلال المغرب وفتحه ـ اقتصاديا ـ لجميع الدول وبالمساواة . غيـر انه أعطى فرنسا موقفا ممتازا بتكليفها ببعض الاصلاحـات وخاصـة فـى ميدان الشرطـــة .

وقد ضاق الشعب لاستمرار النفوذ الفرنسي وتغلغله الذي اكده مؤتمر الجزيرة ، وقامت حركـة مقاومة تزعمها الشيخ ماء العينين فـى الجنوب المغربي . وكان من الممكن لهذه المقاومة ان تلتحم مـع الحكـم خاصـة

على اثر الزيارة الرسمية والشعبية التي قام بها ماء العينين لفـاس باعتباره ممثلا للمقاومة والتي استقبله خلالها السلطان المولى عبد العزيز ، لـولا ان هذا الأخير كان عاجزا عن تلبية مطالب المقاومة وكانت تلـح علـى ضرورة الاسراع برد العدوان الأجنبي وعلى انشاء نظام دستورى .

وزادت ثورة الشعب فخلع عبد العزيز وبويع المولى عبد الحفيظ (47) بمساندة الشيخ ماء العينين . وكان عقد البيعة ينص على « رفع ما أضر ... من الشروط الحادثة في الخزيرات حيث لـم توافـق الامـة عليهـا ولا سلمتها ... وان يعمل وسعه في استرجاع الجهات الماخوذة من الحدود المغربية وان يباشر اخراج الجنس المحتل ... وان يستخير الله فـي تطهير رعيته من دنس الحمايات والتنزيه من اتباع اشارة الأجانب فـي امور الامة ... واذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية او تجارية فلا يبرم امر منها الا بعد الصـدع به للأمـة ... » (48) . ولكن السلطان ــ تحت الضغط الدولي وخاصة ضغط فرنسا التي لم تعترف بـه ــ كان عاجزا عن تنفيذ مطالب الشعب ، لاسيما والاوضاع في المغرب لا تزيد الا تأزما وخاصة في المجال العسكرى الذي كان في غاية الانهاك عاجزا عـن رد الاعتداآت التي كانت تتوالى عليه متذرعة بأتفه الاسباب .

ففي سنة 1325 هـ ــ 1907 م هاجمت فرنسا مدينة وجـدة (49) واحتلتها مستغلة قتل جماعة من سكان مراكش للطبيـب موشـان الـذى تحدى شعور المواطنين فرفع علم بلاده المثلث على بيتـه . وفـي نفس السنة تحالفت قوات البحرية الفرنسية والاسبانية للهجـوم علـى الـدار البيضاء واحتلالها منتقمة لتسعة من الفرنسيين والاسبان والايطاليين كان قد قتلهم المواطنون معلنين بذلـك رفضهم لجلوس مراقـب فرنسـي مـع امناء المرسى لمراقبة المداخيل . وفي سنة 1909 م حـاول الاسبـان غزو الريف فتصدى لهم السكان بقيادة المقاوم محمد امزيان الذى استمـر

---

(47) يوم الجمعة 6 رجب 1325 هـ (1908 م)
(48) انظر النص الكامل في : الاتحاف ج 1 ص 449 .
(49) انظر الاتحـاف ج 1 ص 415

يحاربهم مدة سنتين عانى الجيش الاسباني خلالهما الكثير . وكانت بعض قواته قد نزلت بمدينتي العرائش والقصر الكبير . كما ان البحرية الالمانية وجهت سنة 1911 م بعض قطعها الحربية لشاطىء اكادير مدعية حماية مصالح بعض الالمان . وكاد هذا التدخل الالماني ان يفجر الوضع في المغرب لولا ان سارعت فرنسا الى عقد معاهدة مع المانيا تخلت هذه بمقتضاها عن اى حق في المغرب مقابل تنازل فرنسا عن جزء من الكونغو والطوغو .

تضاف الى ذلك بعض الفتن والثورات الداخلية كثورة الجيلالي الزرهوني المعروف ب « بوحمارة » (50) وثورة احمد الريسولي (51) وثورة قبائل بني مطير التي هاجمت العاصمة في السابع من يناير 1911 . كما تضاف مهاجمة المولى الزين شقيق السلطان لمدينة مكناس والدعوة لنفسه .

وقد كان طبيعيا والظروف معقدة بهذا الشكل ان يفشل المولى عبد الحفيظ في النهوض بالاعباء وان يتخلى عن المبادىء الوطنية وان يمد يده لفرنسا ويستعين بجيشها . وفي 19 ابريل 1911 أعلنت فرنسا ان السلطان يطلب منها حمايته ضد الثوار واصدرت أوامرها لقواتها أن تتدخل . وانتهى هذا التدخل بقبول الحماية التي وقع المولى عبد الحفيظ وثيقتها في 30 مارس 1912 . ولكنه لم يلبث ان تنازل عن العرش لأخيه المولى يوسف وغادر المغرب لفرنسا يوم 12 غشت من نفس السنة . وبذلك طويت صفحة وفتحت اخرى في تاريخ المغرب الحديث .

اما عن الشعر ومدى تجاوبه مع هذه الاحداث المتتالية المتسارعة فماذا نجد ؟ عن احتلال وجدة أنشا الشاعر الشعبي هاشم السعداني (52) قصيدة (53) هذه حربتها :

---

(50) انظر اللسان ص 144 والاتحاف ج 1 ص 399
(51) انظر الاتحاف ج 1 ص 412 .
(52) انظر : القصيدة ص 356 و ص 660 (هـ 2)
(53) انظر النص كاملا في الكناش رقم 8 ص 33 .

يالسلام ابكوا اعلى ادخول وجـــدا دون حرب اغنمها لعدو او نال لمراد

وفيها يرى ان الاحتلال ناتج عن ضعف القلوب وفقدها لحرارة الايمان وقــوة الجهاد :

لقلــوب اضعافو واكساتهم بـــردا ولا نظرنا فهموم ابعز دين لجهـــاد

وعنده لأن يموت الانسان عزيزا خير من ان يعيش ذليلا :

موت العز فنهار اللقـــا وبـــرزوا خير من عيش الذل افكل حين مبروز

فلم تعد للحياة لذة وقد عز من حافظ على ايمانه فى قلبه ، والأمـل ان تمر سحابة الازمة وتنقشع ليغيب نجم النحس ويظهر هلال السعــد :

ما بقات افعيش الدنيا اليوم لــدا عز من دينو ويمانو افقلب لفـؤاد
امصرفين الوقت فعسى اليوم او غدا ايغيب نجم النحس وينبا اهلال لسعاد

ولكن فيم الخضوع والصبر على الذل حبا فى البقاء وتعلقا بالحياة ، وهي مهما طالت فانية ، ليست بدار مقام وانما هي دار عبور ، كـــل مـن حل بها راحل ، والافواج سائرة ونحن على اثرها بامر الله وقدره :

لمنا واحنا اقفاتنا تصبـــر للـــــذل
على حب لبقا ولفنا بعـــد ايطـــــول
ما هي دار المقام من جـا كيرحـــل
شف القومان سايرين اكفول اكفــول
واحنــــا فاتباعهم ابلقدر الموصول

وليس يموت احد دون اجله المعلوم ولو احاطـت بـــه الأخطــــار والمصائب ، ومن حان اجله فلا يستطيع تاخيره مهما كان غنيا ذا مـــال ، وليس فى مقدور احد ان يهرب مما كتب الله وسجل له وحكم به عليه :

مايموت افلورا مخلوق دون اجـــل   لو ايكون افوسط الغضب مايوصلـو
ومن اكمل محسوبو لو كان كاسب اموال   مـــا ينفعـو الا دغيا ايمـد رجلـــو
كيف يمنع من مكتوبو او كيف ينصال   من احكم الرب اعليـه وسجلـــو

حقا ان مشيئة الله قد نفذت ، ولكن لابد من لطف منه يفرج الكروب ، فلا شـدة الا وبعدها فرج ، وتلك حكمة الله حتى يذكر ويحمد فـي كـل الاحـــوال :

كل من راد الله عـــل لورا اتـــودا   او لازم لطفو ايفاجي هم ضيق لنكاد
كيف معلوم الرخفا بعد كل شـــدا   باش يذكر الله افكل ضيق وارغـاد

ثم ان لقاء الابطال ومقابلتهم شرف ، ومن لم يلقهم محتقر مهمـا عـــلا شأنـــه :

من لا يلقى لبطال لو يعلى محقـور

والذى يغفل عن الاعداء ويسكت عنهم او يهادنهم مغرور :

والغافل فالزمان عل لعـدا مغـرور

وللشاعر السوسي الطاهـر بن محمد الايفرانـي (54) قصيـدة (55) انشاها سنة 1325 هـ على اثر احتلال الدار البيضاء يخاطب بها الشيخ ابـا العباس الجشتيمي (56) مطلعها :

---

(54) 1282 هـ 1374 . انظره فى الادب العربي للقباج ج 1 ص 19 والمعسول ج 7 ص 69 وانظر فى اجزاء اخرى من المعسول بعض اشعاره وخاصة فى الجزء 4 ـ 6 حيث أورد مدائحه فى اسرة الشيخ ماء العينين ولا سيما احمد الهيبة .

(55) انظرها كاملة فى ترجمة ابي العباس الجشتيمي الواردة فى المعسول (ج 6 ص 159) وانظر بعضا منها فى : سوس العالمة ص 115 .

(56) 1231 ـ 1327 هـ

أبرق بدا أم لمع ثغـر منضـد وغيث همـى أم قطر دمـع مبـدد

وفيها يصف الوضع المزرى الذى آل اليه المغرب من جـراء العدوان المتتالي عليه فى سواحله وصحرائه ، فيقول :

فقد انشب الكفر المداهـن نابـه ومد الى صرح الهدى كف مفسـد
وكـاد بانـواع المكايـد اهلـه وصار ينادى : خامرى وتلبدى (57)
أسر احتساء فى ارتغـاء ومالـه سوى الدين من مرمى يرام ومقصـد
وقد بلغ السيل الزبـى بظهـوره وان لم يدأو العربا لكي يـزدد
وقد طبق الصحراء بالنحس شؤمـه واعدى نواحي التل بالخبث الـردى
وجاش على هذى السواحل كلهـا ببحر سفيـن بالقـوارب مزبـد
وغص به الدين الحنيفي فاكتسـى لما يشتكي من بثه ثـوب مكمـد

وفى بحثة عن المواطن الحر القادر على النضـال يرسـم الشاعـر صوة لهذا المواطن فى لحظة المواجهة وفى ملامح متحركة نابضة بالقوة والحياة فيقول :

شجاه الأسى من فقد حر يهمـه فكاك ذماه مـن يـد المتمـرد
يقود اليـه كـل اصيـد قـارم للحم العـدا مخشوشن متمعـدد
يجاهـد فى الله العظيـم عـدوه باقدام ليث فـى الكريهة محـرد
يشب لظى الهيجا بقلـب مشيـع وكف بصير بالطعـان معـود
ويختال ما بيـن الصفوف كانـه عروس تهادى بيـن خود وخـرد
على كل طرف سابـح ومطهـم قوى القرى عبل كصـرح ممـرد
ببيض سيوف أو بسمـر مداقـع مزلزلة ان يبرق السيف ترعـد

(57) خامر : استتر . تلبد : تداخل . الصياد يقول ذلك للضبع حتى تهدا فياخذها باليد

يلاعب أطراف الرماح كأنه صبي مع الولدان بالجوز مستد
يخال مجال الحرب وجه صحيفة تسطرها خيل اللقا بالتطرد
فينقط مدفاع ويشكل صارم ويكتب رمح الخط خط مجود

وهو حين يرسم لوحة هذا المناضل الشجاع لا يفعل ذلك في نطاق التجريد أو الخيال ، ولكنه ينطلق من واقع الشعب المعروف ببطولته وشجاعته فيلتفت اليه متسائلا عن رجاله المغاوير :

فأين مساعير الوغى وفوارس اللقا ومصابيح العجاج المعقد
وأين الألى صوت الصريخ اليهم ألذ واشهى من سلافة صرخد
وأين الألى قد الجسوم عليهم هباء اذا ما العرض غير مقدد
فما لهم ناموا عن الدين وارتضوا بدون حياة في هوان معبد
ومالهم لم يثأروه وقد هوى به الكفر مطلول الدماء ولم يد

وعن حصار فاس نقرأ قصيدة (58) لمحمد السليماني يقول فيها حاثا مختلف العناصر المغربية من عرب وبربر لحمايتها ورد العدوان عنها :

فهل من ذوى الرأى السديد عصابة من العنصر الشامي السراة بني العرب
وهل من بقايا الفاتحين ذوى السنا بهم تسعد الأوطان في زمن الجدب
وهل من بني الأنصار فضل بقية تناضل بالأقلام طورا وبالعضب
وهل من بني غسان والأزد فتية وفهر وعبس مدحج وبني كلب
بني الخلفاء الراشدين تهيأوا فأنتم أساة الضيم في زمن الخطب
وهل لبني بر بن قيس حماسة فحفظ ذرى استقلالكم غاية الحب

(58) انظرها في كتابه : اللسان ص 151 .

ذوى الباس والقوى بني البربر الألى لهم قدم فى المجد سامية الكعب
بهم نصر الدين الحنيف كفى بما أقام به أسلافهم شعلة الحرب
بني الفخر من صنهاجة وبرانس مصامدة الابطال هسكرة النجب
نصرتم بني المختار قدما فانقذوا أميركم المحبوب من وهدة الكرب
ومدوا فاس الاصيلة صفقة تطهرها مما عراها من النكب
وفكوا حصارا هالها بسياسة والا فحد السيف أصدق من كتب
اقيموا بني الامجاد شأو بلادكم فان شعوب ((الغال)) منكم على قرب

ومن أطرف الشعر الذى قيل فى أوائل هذه الفترة (59) قصيدة عامية للشاعر الشعبي سيدى لحسن وعلى (60) من النوع الجفرى الذى يعتمد التنبؤ واستخدام الرمز فى تصوير ملامح الاوضاع المنهارة ، يتنبأ فيها باحتلال فرنسا للمغرب ، وفيها يصف حال الزمان كما أخبرت به الأجفار . فقد كتب فى ألواحها أنه في السنة الحادية عشرة ستكدر عيون المياه ويتفرعن الضفادع فى الوديان وتتقوى الذئاب وتضعف السباع وتصول البومة على النسور وتنزل مكانة ذوى الهمة والشأن وتعلو مكانة السفلة ويصبح الفجار فى قرار مكين ويغدو الوجهاء والشرفاء كالحيوان ، ويظهر القول الحق تخبر به الأجفار معلنا دخول الفرنسيين (ل ـ ف ـ ر ـ ن ـ ص ـ س)

بعد الصلا اعلى الرسول انوضح ببيان شرط الساعا توصف حال الزمان
بها لجفار خبروا باقي السنين نظروا فالواح باحوا بالكتمان
فى عام احداش غتخوض العين ويتفرعن اجران في اجميع الويدان

---

(59) وبالضبط فى سنة 1274 هـ كما يتضح من قول الشاعر فى قصيدته مؤرخا لها (تاريخ ((عدشر)) يالفاهم) فالعين بسبعين والدال باربعة والشين بالف والراء بمائتين انظرها فى الكناش رقم 5 ص 62 ورقم 10 ص 9

(60) انظر : القصيدة ص 351 .

اتقوى الذياب والسبع ارجع مسكين حتى موكا اتصول اعلى جميع البيازن
واهل الرفعا تخمد ويعلو من شيــن ناس الرفعا تعود خافضا بعد الشان
تضحى قوم لفجور فى اقرار التمكين واهل الجاه يضحاوا مثــل الحيوان
يا اسفا الحــق يبقــى باين ابيــن خبروا به لجفار يفبا لس ايبـــان
من لا م افا ارا انون اصاد اسيـــن ايلا اوصل غرينا بعـد الحســـان

وهنا أيضا نصادف فى ثنايا قصائد المدح التي وجهت للملوك جوانب نضالية قوية على حد قول محمد بن ناصر حركات (61) من قصيدة (62) فى الحسن الاول وموقفه من بعض البغاة :

مازلــت تجتــاب البــلاد بسيـــرة عمريــــة تــذر المعاصى مذعنـــا
وتبيــن للناس الرشــاد وسبلـــه وتريهم نهــج الســـواء البينـــا
وتدمر العاصـــى بأبيض صـــارم وتقوى المعوج بالسمـــر القنـــا
لولا البغاة من الانـــام وجورهـــم ما فارقت بيض السيوف الاجفنـا

وعلى حد قول الطاهر الافراني من قصيدة (63) فى المولـــى عبـــد الحفيظ ، دون ان ننسى أن الافراني كان شاعر المقاومة الشعبيـــة التـــي ظهرت في الجنوب ودون ان ننسى كذلك ان هــذه المقاومة هـــي التـــي نصبت السلطان المذكـــور :

وافى الخلافة فاستقامت بعـــد ان عفى مراسمها الضيــاع وغيـــرا
وافى وقد مد الضلال الى الهـــدى كف الردى قـــد عابـــه مستنصرا

(61) المتوفى سنة 1316 هـ 1898 م « ... له ديوان ضخم اشتمل على قصائد مطولات سلطانية زاخوانيات ومقطعات وأمداح فى علماء بلده ... وجل شعره كان فى السلطان الحسن الاول ... » (اعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 106)
(62) انظرها فى : الاستقصا ج 9 ص 139
(63) انظرها فى : المعسول ج 4 ص 46 .

لبى صريخ الدين بالعـــزم الـــذى لا تنثنـــي جنباته انـــى انبـــرى
وبـــدا بتطهيـــر البلاد مدافعـــا عنهـــا عـــدوا قـــد طغى وتكبرا
ويـــل الفرنسيس الكفـــور أمادرى ان قد اتيح لحربـــه أسد الشـــرى

وهـــو القائل كذلك من قصيدة (64) يخاطبه :

ودافعت من جنس الفرنسيس زاخرا تلاطـــم عجبـــا بالتكاثـــر والكيـــد
اتى كظلام الليل يحســـب آنـــــه بباطله يرمـــى حبالـــك بالهـــــد
ثبت له حتـــى اذا حـــان حينـــه وثبت اليه وثبة الأســـد الـــورد
فولى وحل الويـــل فيـــه محلـــه وعممته بالقتل والأســـر والطـــرد
وملأته ذعرا وزعزعـــت كيـــــده من السيف والبارود بالبرق والرعد
وارسلت جنـــد الله ينقض خلفـــه بزاة على القب السلاهبـــة الجـــرد
شفيت صدور المسلميـــن بخزيـــة واذهبت غيظا كان مستعر الوقـــد

وليس يخفى ان الشعراء فى مثل هذه القصائد كانوا يضفون علـــى ممدوحهم صفات تعكس القيم التي يومنون بها اعتقادا منهم بأنـــه مهيـــأ لتحقيق الاماني والاهداف الشعبية ، ومهيا قبل ذلك وبحكـم توجيههـم ـ للايمان بها . وهم فى مثل هذا الموضوع كانـــوا يحاولـــون ان يجعلوا من ممدوحهم شخصية فذة قادرة على استقطاب الناس حولها . ولم تكـن هذه المحاولة منفصلة عن واقع الانسان المغربي ـ والعربي عامة ـ الذى كان أبدا وبحكم مواضعات كثيرة لا داعي لاثارتها يبحث عمن يلتف حولـه وعمن يخلصه من الظلم والعبودية ويحقق لـــه العـــدل والحريـــة . وهـــو يتجه اول ما يتجه الى من اتيحت لهم مناصب الحكم والقيـــادة أو زعامـــة المقاومة الشعبية على حد ما نجد عند الشعراء الذين اشادوا بالمقاومين من

(64) انظرها فى المصدر السابق ص 49

امثال الشيخ ماء العينين (65) ثم بعده وعلى عهد الحماية بدءا من ابناء الشيخ المذكور وخاصة منهم احمد الهيبة الى الفدائى علال بن عبد الله (66) . واذا ما خاب ظنه التجأ الى ساحة الدين ليتخير مثاله من بين الزهاد والمتصوفة والصالحين ، وليجعل من هذا المثال في حالات كثيرة وداخل اطار غيبي صرف فردا خارق القوة والحول . وهو حين يفشل في ذلك كله يلجأ الى تمثل ابطال خياليين أو خرافيين يحكي سيرتهم في قصصه ومروياته ويشبع عن طريقهم طموحه وامانيه وتطلعاته ، وان بواسطة الوهم والمغالاة .

* * *

والحقيقة ان هذه الفترة بما اعتمل فيها من احداث متتالية وازمات متلاحقة كانت حرية بأن ترفد مجال القول وتغني الرأي العام وتثبت من خلال التعبير الصادق ذات الفرد وتبرزها ملتحمة مع ذات الامة وتخلق من ذلك كله موقفا وطنيا قادرا على المواجهة والصمود . ولكن يبدو أن الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية كانت قد بلغت أقصى حدود الاضطراب ، وكانت بذلك لا تنعكس على الحياة الاجتماعية والفكرية الا لتعري بنيات متعفنة منهارة وتكشف عن رؤى مهزوزة ومشتتة غير نابعة من شعور مجتمعي واع وغير قادرة بالتالي على تحليل موضوعي تنظر من خلاله الى الواقع وتفتح افاق المستقبل .

من هنا كان الشعر الذي قيل في التجاوب مع احداث هذه الفترة قليلا وهو على قلته يسير في خط واحد لا يتعدى لفت النظر الى الخطر الذي يواجهه المغرب من جراء الاعتداءات الاجنبية المتكررة في نظر الى ما حدث انه قضاء وقدر وانتقام من الله على تفريط المغاربة في شؤون دينهم ، وفي محاولة للاعتماد على الشعور الديني لاثارة حمية الشعب

---

(65) جمعت قصائد مدحه في ديوان « الابحر المعينية »

(66) الذي فتح باب الكفاح المسلح خلال الازمة التي نشبت على اثر نفي الملك المغفور له محمد الخامس والتي انتهت بعودته واستقلال المغرب .

وايقاظه من سباته وتذكيره بقدراته على النضال وتنبيهـه الـى ان الجهـاد فرض عين والى ان الاستشهاد أفضل سبيل للموت .

والالحاح على الدين ـ وهو السمة البارزة فى هذا الشعر ـ نابع من الاحساس بان الاسلام هو المجسم الحقيقي للشخصية الوطنية وللوجدان الفردى والجماعي وللوجود الثقافي والحضارى فى ابعاد التاريخ والحاضر والمستقبل . فالمغرب منذ كان وحتى قبل اسلامه وهو يعبر عـن وجوده مـن خلال الدين ويحاول جاهدا اثبات هذا الوجود . ولقد أتيح له حيـن اتصل بالمد العربي الاسلامي ان يفجر طاقاته النضالية انطلاقا من العقيدة التي كانت أبدا تلازم تحركاته وتكيف مواقفه . ثم هو نابع من النظر الـى هذه الأحداث على انها استمرار للاحداث التي واجههـا المسلمـون سـواء فى الاندلس او المشرق وفى نطاق الحروب الصليبية . وهـو نابـع فـى النهاية من اعتبار الدين الخيط الرابط بين المغاربة والباعث لهم ولغيرهم من الشعوب العربية والاسلامية على التحالف والتضامن والتآزر .

والنضال كما صوره الشعر الذى حاولنا تناوله فـى هـذا البحـث يسير فى ثلاثة اتجاهات :

1 ـ التاريخ للوقائــع

2 ـ المعايشة الآنية للأزمــات

3 ـ التنبؤ بالاحداث وسبقها بوحي من ارهاصات الواقع .

وربما بدا هذا النضال فاترا وضعيفا فى مواقف كانـت تستوجـب المقاومة الصلبة القوية ؛ وربما كان الشعر الذى صوره لـم يصـل الـى درجة تخطي الحدود المحلية الاقليمية ، وظل دائرا فـى الفلـك العربـي الاسلامي لم يتجاوزه لأفق ارحب وأبعد من شانه ان يكسبه ملامح انسانيـة وسمات تتيح له الخلود ، ولكنه وحتى فى هذا الاطار لا يمكن ان يعتبـر الا شعرا نضاليا طالما انه عبر عن وجدان متحرك نابض وان بدا هذا الوجـدان

فى حال احتضار ، وطالما انه هز مشاعر متلقيه وان لم ينزل الى ساحة الجماهير الواسعة . على اننا لا ينبغي ان ننسى في التحليل عنصر الوعي الشعبي والراى العام ، وكان يومئذ محدودا وربما منعدما .

كما لا ينبغي ان نتجاهل الوضع الضعيف الذى كان يعاني منه الادب المغربي عامة فى هذه المرحلة ، وهو وضع لا يبرز غير محدودية الوعي الوجداني والفكرى للأدباء ومحدودية قدرتهم على طرح مشاعرهم وافكارهم وعلى الوعي والاستيعاب وادراك مشاعر الجماعة والتقاطها ، وكذلك محدودية قدرتهم على التجاوب وتعميق التجربة وعلى التصور والتمثل والتعبير ، وفى النهاية عدم قدرتهم الفنية على الكشف فى هذه الأزمات عن الجوانب الانسانية وعلى طرحها في لوحات تصويرية قادرة على اثارة انتباه الانسان واحساسه فى أى زمان ومكان .

الرباط — د. عباس الجراري

* * *

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ د . ابراهيم السولامي
الشعر المغربي الوطني فى عهد الحماية (مقدمة الجراري)
دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1974

2 ـ د . ابو القاسم سعد الله
الحركة الوطنية الجزائرية
الطبعة الاولى بيروت 1969

3 ـ احمد الامين الشنجيطي
الوسيط فى تراجم ادباء شنجيط
ط الثانية ـ القاهرة 1378 هـ ـ 1958 م

4 ـ احمد بن خالد الناصري
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى
ط دار الكتاب ـ الدار البيضاء

5 ـ روم لا نـــــدو
تاريخ المغرب في القرن العشرين (ترجمة د . نقولا زيادة)
دار الثقافة ـ بيـــروت ـ 1963

6 ـ عباس بـن ابراهيـــم
الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعـلام
ط الأولى ـ 1355 / 1358 // 1936 / 1939

7 ـ د . عبـاس الجـــرارى
الحريـــة والأدب
ط الربـــاط 1971

8 ـ د . عبـــاس الجــرارى
القصيـــدة (الزجـــل في المغـــرب)
ط الاولى المغرب 1390 ـ 1970

9 ـ د . عباس الجرارى (جمع)
مجموعات شعرية شعبية (كنانيش)
مخطوطة بخزانته (ارقام 5 ـ 8 ـ 10 ـ 18 ـ 24)

10 . د . عبـــاس الجـــرارى
موشحات مغربيـــة
ط الاولى ـ دار النشر المغربية الدار البيضاء 1973

11 ـ عبد الرحمن بـن زيدان
اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكنـاس
ط الاولى 13 47 ـ 1352 // 1929 ـ 1933

12 ـ عبد الرحمـن الفاســي
السلطـــان الصغيـــر
مجلة رسالة المغرب س 9 ع 47 ـ 49

13 ـ عبد الله الجـــراري
من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين : الرباط وســـلا
ط الاولـــــى الربـــاط

14 ـ العــــربـــي المشرفـــي
الرسالة فى اهل البصبور الحثالـــة
مخطوطة الكاتب الخاصة (منقولة من نسخة الفقيه محمد
المنـــونــــــي)

15 ـ علي بن عبد السلام التسولـــي
الاجوبة على اسئلة عبـــد القادر الاجزائرى
مخطوط الخزانة العباسية 3135

16 ـ ا ٠ ليفي بروفنســـــال
مؤرخـــو الشرفـــــا
E LEVI PROVENÇAL LES HISTORIENS DES CHORFA PARIS 1922

17 ـ مجهـــــــول
مجمــــــوع
مخطوط بخزانة تطوان العامة رقم 589

18 ـ محمد بن إبراهيم السباعي الحسني المراكشـــي
كشف النور عن حقيقة كفر أهل باصبور
مخطوط خزانة الرباط العامة د 1326

19 ـ محـــد الاخضـــر
الحياة الادبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية
LA VIE LITTERAIRE AU MAROC SOUS LA DYNASTIE ALAWIDE 1075-1311/1664-1894
RABAT 1971

20 ـ محمد اكنسوس المراكشي
الجيش العرمــــوم
ط حجريـــــــة

21 ـ محمد بن ادريس العمراوى
الديـــــــوان
مخطوط الخزانة العامة بالربـــاط ج 45 8

22 ـ محمد بن جعفر الكتانـــــي
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر مـــن العلماء والصلحاء
بفـــــــاس
ط حجريـــــة 1316

23 ـ محمـــــد داود

تاريـــــخ تطـــــوان
1379 ـ 1386 = 1959 ـ 1966

24 ـ محمـد السليمـانـــي

اللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب
ط الاولى الرباط 1391 ـ 1971

25 ـ محمد بن الشيخ ماء العينين

ديوان الابحر المعينية فى الامداح المعينية
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1376 د

26 ـ محمد بن العباس القبـــاج

الادب العربى فى المغرب الاقصى
المطبعة الوطنية الرباط 1929

27 ـ محمد غريـــــط

فواصل الجمان فى انباء وزراء وكتاب الزمـــان
الطبعة الاولـــى 1346

28 ـ محمد بن محمد بن عبد الله الموقـــت
السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية
ط حجريـــــة

29 ـ محمد المختار السوســـي
المعســـــول
ط الأولى المغرب 1380 ـ 1381 / 1960 / 1961

30 ـ محمد المشرفي
الحلل البهية فى ملوك الدولة العلوية
مخطوط بخزانة الرباط العامة 1463 د

31 ـ محمد المنونــــى
مظاهر يقظة المغرب الحديث ج 1
الطبعة الاولى 1392 ـ 1973

32 ـ محمد المهدى الوزاني
المعيار الجديد (النوازل الجديدة الكبرى)
ط حجـــريـــة

33 ـ ناصر الفاســي
محمــد بـــن ادريس
مجلة البحث العلمي س 1 ع 1 1964

هكذا ستتم

رحلة ابن زيدون إلى المغرب*

محمد الصبّاغ

أسمع الساعات فى « قرطبة » ، تعان موعد الرحيل .
ترى ، أيكون ابحارا عبر قافيـــة ؟
أم سيـــرا فى تسريحة صباحـــة ؟
أم انطلاقا على جناح ساجعة ؟
أم زحفا على جمرات النوى والهـــوى ؟

(*) بمناسبة الذكرى الالفية التى قـــررت وزارة الدولة المكلفـــة بالشؤون الثقافية الاحتفال بها من 15 اكتوبر المقبل الى 21 منه .

الأندلس مزدحمة واقفة بين مؤشرى الساعات ، مشحونة مكتظة بأشياء الدهشة والانبهار ، وفتنة ألف حب ، وألف دلال ، وألف شارقة وشاهقة .

الساعات تعلن موعد الرحيل ، بالحاح مد ، وجهارة بحر تدق .

الزمن الألف « المزيدن » ، كله محزوم فى حقائب من زجاج على استعداد للسفر .

أسرار الحب ، والشوق ، والهتك ، والتبرح ، والضياع فى الهاجس ، والتشرد فى العناق ، ونزهة الضمة ، كلها تبين شفيفة مضيئة من خلال الحقائب المختومة المحزومة .

لا خوف من « ديوان التفتيش » على الحقائب !

سيمر الهوى ، ورماد القبل ، والليالة المهتوكة المذعورة ، مع كحل « ولادة » ومشطتها ، وقرطها ، ومرآتها ، وغنجها ، وزرقة عينيها ، وأرجوحة خصرها ، مع ما سيمر من السجعات ، والأسمار ، والمغامرات ، ومطارحات الصد والوصال ، مشحونة فى الحقائب ، وعليها خاتم بـ : « مرور الجواز » ، متجهة صوب العدوة المغربية .

تلك حقائب « ابن زيدون » . أما هو ، فموزع مشتــت فى بال الأبعاد والأصقاع ، ساكن فى الانتقال ، مقيم فى الارتحال ، من ريشة الى محبرة ، ومن رف الى موال ، ومن لهوة الى منبر ، ومن حفل ، الى سمر ، الى نزهــة ، فى : النجمــة ، والنقــرة ، والخاجة ، والهبوب ، مطبوعا بعادة الرياح ، متجنسا بجنسيــة الماء ، وكونية الضوء ، يتكلم بالبهاء من ثنايا عالمية الكتب ، كما يتكلم البلبل بجميع اللغات ، وكما تفهــم الوردة جميع الأشعار المطرزة بجميع الأبجديات .

أريد أن أسله من شتاتة ، أن أحرره من عــادة الهبــوب ، واسار الهواء ، أن أفرك الارتحال بين أصابعى ، حتى أدركه فى الاقامة ، وهو ساكن فى تأمل الهــدأة ، وتفريشــة الراحــة ، كالنحلة عندما تتحرر من طنين جولانهــا ، فتسريح فى قصيــدة بــاقــيـــــة .

لمدة أسبوع وحسب ، يا « ابن زيدون » ، يا ابن الامواج ، والاضواء ، والانزلاج ، أريد أن أنفيك حالا من « وردة الرياح » انكونية ، والىام فيضانك ، وأميالك ، وطول مساحتك وعرضها فى مقلة بلادى ، حتى تحتل كليتك النافرة ، فيجمعكما الامتزاج فى الرنــوة الخضــراء .

وفادتك علينا ــ مخطوفة ــ من متــون الشموخ الشاســع وشروحه ، تبعث الهدير فى الغفلة ، فتستيقظ نشيطة ، متنبهة ، ملتفتة الى الرائعة ، والبديعة ، وابرة الحرير :

تطريز زرقة بحيرة ، وترصيع حفيف قول فى منديل فاتنة

يقظة زاهرة ساهرة فى « مغرب المشارق » لتهيىء نزولك فى الفرحة ، وخلجة الريشة ، ورجع الوتر ، وتسريحك فى نزهة التأريخ ، بين متاحف الألق المنثورة فى كل رفة من رفات الزمن الخالص الضاحك ، بعد أن هصر زينــته وأجراها رقرقة فى هذا الوطن ، الذى يولد فى كل آونة شمس ، من تخطيط الخلد .

فلنملأ من هذه الرقرقات كاسات أنخاب ، ولنرفعها عناقــا نحو وفادتك ، يا ابن المــاء ، والضــوء ، و « وردة الريــاح » الكــونــيــة .

الربــاط **محمد الصباغ**

العلاقات الإنجليزية المغربية
في النصف الثاني من القرن السادس عشر والأول من القرن السابع عشر
(في ضوء وثائق مكتبة المتحف البريطاني بلندن)

د. شوقي عطا الله الجمل

شهد النصف الثانى من القرن السادس عشر ، والنصف الاول من القرن السابع عشر — قيام علاقات قوية بين المغرب وبريطانيا ، تمثلت معالمها فى عدد كبير من الرسائل المتبادلة بين الحكام وذوى السلطة فى البلدين ، و فى العلاقات الاقتصادية على وجه الخصوص ، وفيما قام بين ممثلى البلدين من محادثات ومحاولات لعقد اتفاقات ومعاهدات بينهما ، وتطور الامر الى تكوين شركة تجارية انجليزية لمزاولة النشاط الاقتصادى فى الثغور المغربية ، هذا بالاضافة الى ما ترتب على هذه العلاقات من انعكاسات سياسية وحربية .

ولا شك فى ان هذه العلاقات المتشابكة ، والمتعددة الجوانب تستلزم دراسة عميقة لمحاولة تحديد معالمها ، واطارها فى ضوء الوثائق التاريخية .

وقد ظهر ان مكتبة المتحف البريطاني بلندن بالذات تزخر بعدد هـــام جدا من الوثائق المتعلقة بهذه العلاقات ، هذا بالاضافة الى تقارير عـــدد من العسكريين وغيرهم ممن اتصلوا بهذه الاحداث ، والى عدد غير قليل من الكتب التى كتبها المعاصرون .

ومع ذلك فالحقيقة أن الاضواء سلطت على العلاقات بين اسبـــانيا والبرتغال من جهة ، والمغرب من جهة اخرى فى هذه الفترة ، بينما لـــم تحظ علاقاته بانجلترا بمثل هـــذه الدراســـة ، ولهذا فسنحاول فى هـــذا البحث كشف بعض جوانب هذه العلاقات المغربية الانجليزية .

ويمكن ان نقسم هذه الفترة الى اربع مراحل متمشية مع الحكام الذين تربعوا على عرش بريطانيا فى هذه الحقبة .

اولا : فترة حكم الملكة اليزابيث (1558 – 1603) :

كانت الثغور المغربية الهامة على البحر المتوسط ، والمحيط الاطلسى قد وقعت قبل ذلك فى يد البرتغال والاسبان ، وكانت الدولتان تحتكران التجارة فى الموانىء المغربية الهامة (1)

وشعرت انجلترا بضغط هذه السياســة البرتغالية والاسبانيـــة ، فاحتجت على هذا الاحتكار ، وطالبت بحرية التجارة مع الثغور المغربية ، بينما ظلت البرتغال تصر على ان التجارة مع السواحل المغربية والثغور التى تحت أيديها يجب ألا تتم الا بتصريح منها وبموافقتها ، واتهمت التجار الانجليز بأنهـــم يتاجرون فى السلاح فى هذه الموانىء المغربيـــة . لكن لـــم تستطع البرتغال الاستمرار فى سياستها هذه فقد كان النفـــوذ البرتغالي فى الثغور المغربية قد أخذ يضعف منـــذ منتصف القرن السادس عشر ،

ملاحظة : نشر الكونت دوكاستري (Le Comte de Castrus) بعض هـــذه الوثائـــق وان كانت لا تغني لكنها تعطي فكرة عن اهمية هذه الوثائق والتقارير والكتب المعاصرة.

(1) استولى البرتغال على الموانيء المغربية الواحد تلو الآخر ، فقد استولوا على (سبتة) عام 1415 م ، وظلت تحت حكمهم حتى سلموها للاسبان 1669 ، كما استولـــوا على (القصـــر الصغيـــر) 1457 ، وعلى (طنجـــة) 1464 ، وعلى (أكاديـــر) 1505 ، و (الصويرة) 1506 ، و (اسفي) 1508 ، و (ازمور) 1513 ، و (الجديدة) 1514 . وهكذا استولوا على الشاطيء المغربي كله .

فقد استرد المغاربة حصن اكادير (سانتاكروز) فى مارس 1541 ، واضطرت البرتغال بعد ذلك لاخلاء آسفى ، ثم اخلت ازمور ، والقصر الصغير ، واصيلا .

واتاح ذلك بالطبع الفرصة لرعايا الدول البحرية الاخرى — وانجلترا فى مقدمتها — لممارسة نشاطهم التجارى فى الثغور المغربية ، ولعل خطاب مولاى عبد الله الغالب الى الملكة اليزابيث فى اكتوبر 1569 للتوصية على تاجرين بريطانيين ممن كانوا يمارسون النشاط التجارى بين الموانىء البريطانية ، والموانىء المغربية — يدل على هذا النشاط التجارى لبريطانى فى الثغور والمدن المغربية (2) .

ويدل عليه ايضا التوكيل القانونى الصادر فى يناير 1572 من التاجر البريطانى توماس اوين (Thomas Owen) — لرتشارد جلا سكوك (R. Glascoke) — وكان هذا الاخير مقيما فى المغرب — وذلك ليقبض له ديونه طرف لبعض اليهود والمسلمين به (3) .

وقد تردد اسم هذا التاجر الاخير — رتشارد جلا سكوك — اذ يبدو انه كان يحتكر التجارة فى نوع خاص من القماش يعرف بالبرناتا (Bernatha) ، وقد رفع بعض التجار قضية على هذا التاجر البريطانى يطالبونه بباقى ثمن صفقة من هذا القماش اشتراها منهم ولم يدفع كل ثمنها — وقد نظرت قضية هذا التاجر ، وصدر فى مارس 1572 حكم لصالحه بابرائه مما كان يدعيه قبله هؤلاء التجار لانه ثبت أن القماش الذى باعوه له ظهرت به بعض العيوب ، وقد اعترف التجار الشاكون بذلك (4) .

---

(2) British Museum — Cotton Mss. Nero B.VII, F 67

(3) British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI, F. 67

(4) British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI, J. 65

— **وقد اشار دوزي (Dozy) الى هذا النوع من القماش وهو ازرق اللون يميل الى السواد**

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Luden 1932)

وقد احتـــج فرانسيسكو جيرالـــدى (Francesco Giraldi) السفيــر البرتغالى فى لندن فى ابريل 1574 على هـــذا النشاط التجارى البريطانى وطلب أن تصدر الحكومة البريطانيـــة أوامـــر للتجار البريطانيين بعـــدم التعامل مع الثغور المغربية الواقعة تحت سلطـــان البرتغـــال — دون موافقتهم — لكن لم تنجح وسائل البرتغال هذه (5) .

وبلغـــت قيمـــة الصادرات مـــن السكـــر ، والحبوب ، والتمـــر ، وجلود الحيوانات وغيرها ، التى حملتها السفـــن الانجليزية من الثغـــور المغربية فى عام 1575/1574 — 28639 جنيها استرلينيا قدرت الجمارك عليها بمبلغ 1431 جنيها استرلينيا (6) .

وقد ارسلت الملكة اليزابيث الى مولاى عبد الملك المعتصم — السفير ادموند هوجان (Edmund Hogan) بهدف الحصول على مزايـــا تجـــارية للتجار الانجليز ، ومحاولة عقد معاهدة سرية مع الشريف فى هذا الشأن — لم يكن فى النية نشرها — ويبدو انه لم تكن له أيـــة مهمة سيـــاسية اخرى غير هذه .

هذا على أن النصر الحاسم الذى احرزتـــه الجيوش المغربيـــة فى معركة وادى المخازن (4 اغسطس 1578) — فتـــح البـــاب لعلاقات جديدة بين المغرب وكثير من البلاد الاوربية الاخرى ، وكانت انجلترا فى مقدمة هذه الدول . والمتتبع للمراسلات بين الملكة اليزابيث ، والسلطان احمد المنصور — يدرك مبلغ ما وصلت اليـــه هذه العلاقات من القـــوة والتشعب (7)

---

(5) ملاحظة : فرانسيسكو جيرالدي هو ابن التاجر لوكاس جيرالدي (Lucas Geraldi) الذي أثرى من التجارة مع الهند وافريقيـــا .
— انظـــر British Museum — Cotton Mss. Nero B. I F. 165
وكـذلـــك Ibid P. 167
(6) British Museum — Cotton Mss. Nero B. XI F. 298
(7) ملاحظة : سعت مختلف الدول الاوربية بعد هذه المعركة لكسب ود الملك المغربـي مولاي احمد المنصور ، فارسلت له سفراءها وهداياها لهذا الغرض .
— انظـــر British Museum — Cotton Mss Nero B. I F. 235 and 239

ففي خطاب مؤرخ 18 يونيه 1579 نجد السلطان احمد المنصور يخبر الملكة اليزابيث انه استلم خطابها الذى تطلب فيه ان يعامل رعاياها — الذين يحضرون بالمغرب للتجارة — معاملة خاصة ، وان تستخدم الحكومة المغربية نفوذها لتلزم اليهود الذين يتعاملون مع هؤلاء التجار البريطانيين بالقيام بالتزاماتهم — وقد اوضح المنصور فى رده أن من التقاليد المعروفة عن المغاربة — احترام وتيسير مهمة التجار الاجانب جميعا والانجليز منهم على وجه الخصوص ، وان كل ما تطلبه بريطانيا سيكون موضع الرعاية والتنفيذ (8) .

هذا وقد اخذ بعض التجار البريطانيين يضغطون على حكومتهم للموافقة على تأسيس شركة تجارية تمنح امتيازا لاحتكار التجارة بين بريطانيا والمغرب — وفعلا تأسست هذه الشركة فى عام (1585) باسم « The Barbary Company »
ومنحتها الحكومة البريطانية عقد امتياز لمدة 12 عاما ، وارسل هنرى روبيرتس (Henry Roberts) كممثل للشركة فى المغرب (9) .

وقد وصل هذا المندوب البريطانى الى آسفى فى 14 سبتمبر 1585 ، ولما علم السلطان احمد المنصور بوصوله ارسل احد رجاله لمرافقته الى مراكش ، وقد عاونه مندوب السلطان على العثور على مسكن جميل فى الحى اليهودى حيث كان يسكن رتشارد ايفانس (Richard Evans) وغيره من التجار الانجليز والفرنسيين والهولنديين .

وقدم المندوب البريطانى للسلطان المغربى خطاب توصية من الملكة اليزابيث ، وظل هذا المندوب فى المغرب ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف فقد رجع الى لندن فى يناير 1589 ، وزار خلال هذه المدة الطويلة التى قضاها بالمغرب معظم الموانى والمدن المغربية الهامة ، وكتب تقريرا وافيا ضمنه ملاحظاته هناك — وقد قدم هذا التقرير للملك جيمس الاول ولذا

---

(8) Nickolas ; John : The progress and public Processions of Queen Elizabeth (1823) P. 288.

(9) Public Record Office — State papers —Domention Elizabeth. Vol. CLVII No. 85

سنرجىء الحديث عنه وعن محتوياته لما بعد ، اذ ان التغيير الذى طرا على الظروف فى المغرب بعد عهد السلطان احمد المنصور هو — كما يبدو الذى دفعه لتقديم هذا التقرير بالذات ، وللاتجاه الذى اتخذه فى تقريره — لكننى اشير هنا الى بعض التفاصيل التى ذكرها فى تقريره عن السلع التى كان التجار البريطانيون من اعضاء الشركة التجارية التى كان روبيرتس يمثلها — يحملونها من المغرب (10) .

السكر : وقد قال ان الملكة اليزابيث لم تكن تقبل فى مطبخها اى نوع من السكر الا السكر المغربى ، وذكر أن قصب السكر كان يزرع فى مساحات شاسعة يملكها الشرفاء المغاربة ، ويعمل فيها الاسرى المسيحيون ، وكان القصب يعصر بواسطة رحى ، فيمرر بين حجرين ، ويؤخذ العصير ويقطر ، وعملية التقطير كان يستخدم فيها الفحم الحجرى .

الذهب : ذكر ان كميات كبيرة منه ترد للمنصور من السودان خاصة بعد الحملة التى أرسلها سنة (1589) بقيادة قائده جؤدر لفتح هذه البلاد .

ملح البارود (Salpetre) : يذكر انه افضل من اى نوع كان يحصل عليه من أى مكان آخر فى العالم ، وكانت له اهمية كبرى فى الانتاج الحربى.

النحاس : اهميته ترجع لاستخدامه فى صنع المدافع .

القمح ، والذرة ، واللحوم : يذكر ان المغرب كان ينتج منها كميات كبيرة .

وقد ذكر ان الضريبة على الواردات كانت تقريبا 10 ٪ ، لكن ضريبة الصادرات كانت متباينة حسب نوع السلعة المصدرة ، وكان اليهود هم غالبا الوسطاء فى التجارة ، وكان بالمغرب عدد كبير منهم — وقد أشير اليهم فى اكثر من وثيقة تتعلق بالمعاملات التجارية ، وكما ذكرنا

(10) Hakluyt : The principal Navigations of the English Nation (1598-1600) - Tome II P. III.

كانت لهم أحياء خاصة بهم فى المدن التجارية الهامة ، واشار روبرتس الى ان اسعار الصادرات المغربية كانت ترتفع بسبب هذه الوساطة اليهودية .

هذا على أن العلاقات بين المغرب وبريطانيا لم تقتصر فى هذه الفترة على الشؤون التجارية فحسب ، لكنها تعدت ذلك الى المسائل السياسية ، وقد تبودلت عدة خطابات بين الدولتين بهذا الخصوص . ومن المسائل التى كانت مثارا للبحث بين الدولتين ــ مسألة معاونة دون انطونيو (D. Antonio) المطالب بعرش البرتغال ليستعيد عرشه (11) .

وهذا الموضوع بالذات كان مثار البحث فى العديد من الخطابات بين الملكة اليزابيث ومولاى المنصور ، ففى خطاب مؤرخ 12 مارس 1591 يذكر المنصور للملكة انه استلم خطابها الرقيق المرسل مع مندوبها الكابتان ادوارد برين (Edward Prynne) ، ويعتذر عن عدم رده السريع على خطاباتها السابقة بسبب انشغاله فى الحملة التى اوفدت الى بلاد السودان ؛ لكن يجب أن تثق انه يعير اهمية لكل الامور التى تتعلق بها صغيرها مثل كبيرها ، اما فيما يتعلق بالمعونة المادية التى كان قد وعد بتقديمها للمطالب بعرش البرتغال (D. Antonio) فهو دائما يفى بما يعد به ــ لكنه لا يستطيع ان يفى بذلك فى الوقت الحالى الى أن تنتهى حملة السودان والتى ستعاون نتيجتها على أن ينفذ ما وعد به ، على

---

(11) دون انطونيو (D. Antonio) هو ابن دون لويس (D. Luiz) الابن الثاني للملك عمانوئيل الاول (Emanuel I) ملك البرتغال (1491 - 1521) وكان قد اسر فى معركة وادي المخازن ــ لكن فك اسره بعد ذلك ووصل الى البرتغال بعد وفاة الكاردينال هنري (Roi Cardinal Henry) الذي حكم بعد موت الملك دون سابيستيان (D. Sebastian) الذي قتل فى المعركة المذكورة ، لكن بعد عام 1580 ضم فيليب الثاني (Philip II) ملك اسبانيا ــ البرتغال الى أملاكه وظل هذا لفترة ستين عاما تقريبا ــ وكانت انجلترا قد وعدت بارسال قوة لمعاونة المطالب بعرش البرتغال (دون أنطونيو) لاسترجاع عرشه ، وأن يعاون السلطان المغربي أحمد المنصور بمبلغ كبير من المال لتجهيز هذه القوة .

انها يمكنها من جانبها أن تقوم هى بهذا الامر حاليا الى ان يفرغ هو من متطلبات الحرب المذكورة (12) .

هذا على أن مشكلة دون انطونيو — لم تكـــن هى القضية الوحيدة التى تبادلت فيها الدولتان المراسلة . . . بل يبدو ان الدولتين كانتا تتجهان لاتخاذ سياسة موحدة تجاه الكثيـــر من الاحداث السياسية التى تمـــس مصالحهما المشتركة . تدلنا على ذلك بعـــض المراســـلات المتبـــادلة بين المسؤولين فى البلدين ، ففى خطاب من السلطان احمد المنصور الى الملكة اليزابيث بتاريخ 15 يونيو 1600 يشير السلطان المنصور الى انـــه بعث مندوبه عبد الواحد بن مسعود ليبـــلغ الملكة رسالة شفوية تتعلق بأمـــر هـــــام (13) .

ورغم أن الخطاب لم يفصح عن موضوع هذه المشاورات لكن المرجح أن الامر يتعلق باعداد حملة مشتركة ضد اسبانيا ، فقد أشار عبد الواحد بن مسعود فى مذكرات له كتبها فى سبتمبر 1600 الى أن الشريـــف كان يريد شن حرب على أسبانيا وأنه يبغى التعاون مع انجلترا فى هذا الامر

(12) Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. 11 No. 20

وهناك عدد كبير من المراسلات بهذا الشان نذكر منها :

ا — خطاب من مولاي احمد المنصور الى دون انطونيو (مؤرخ 29 مارس 1588)
British Museum — Burney Mss. 367 ff. 198-199

ب — خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 28 ابريل 1588)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. 11 No. 16.

ج — خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 12 فبراير 1589)
Public Record Office — State papers. Foreign Portugal Vol. 11

د — خطاب من مولاي احمد المنصور الى الملكة اليزابيث (مؤرخ 23 يونيو 1590)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. 11 No. 21

هـ — خطاب من الملكة اليزابيث الى مولاي احمد المنصور (مؤرخ 20 اغسطس 1590)
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. 11 No. 18

(13) British Museum — Cotton Mss. Nero, B. XI. f. 78

لقوتها البحرية ، وذكر ان المغرب يستطيع بامكانيـــاته تموين الاسطول البريطانى بحاجته من القمح وغيره من المؤن ومـــا يحتاجه من اخشاب ، وذكر أن حملة السودان اثبتت قوة احتمال الجنود المغاربة (14) .

ثانيا ـ فترة حكم جيمس الاول (1603 ـ 1625) :

شهد عام 1603 تغييرا فى السلطات الحاكمة فى كلا البلدين ، فقـــد توفى المنصور السعدى فى عام 1603 ـ وانقسم السعديون على انفسهم وقامت مملكتان فى فاس ، ومراكش ، وقامت حروب طاحنة بين المملكتين ، كما قامت ثورات فى كثير من الجهات ، وهكذا شهد المغرب فترة عصيبة فى تاريخه مليئة بالاضطرابات الى ان استطاع مولاى زيـــدان أن يثـــبت اقدامه فى مراكش ، وفى هذه الاثناء أيضا آلـــت السلطة فى بريطانيا الى جيـــمـــــس الاول .

وخلال الاضطرابات الداخليـــة التى شغلت المغـــرب عن الاعـــداء الخارجين استطاعت اسبانيا ـ رغم الهزيمة المنكرة التى الحقهـــا بهـــا الاسطول البريطانى الذى أغرق (الارمادا) الاسبانية فى معركة حاسمة عام 1588 ـ أن تستولى على العرائش فى عام 1610 ، وعلى المعمورة فى عام 1614 ، وهكذا اصبحت صاحبة النفـــوذ فى طنجـــة ، وسبـــتة ، ومليلية ، والعرائش ، والمعمورة .

واتجهت الدول الاوربية للاتصال بأصحاب النفوذ فى الموانىء والمدن المغربية الهامة سواء اكانوا حكامـــا رسميين أو من الثـــائرين والمغتصبين للسلطة والخارجين على السلطان الرسمـــى ـ وذلك لرعايـــة مصالحها ولضمان سلامة رعاياها .

---

(14) Public Record Office — State papers. Foreign Spain Vol. VII

(15) **انظر خطاب فرانسيس كوتينجتون** (Francis Cottington) **الذي اصبـح سفيرا لانجلترا فى اسبانيا ـ والموجه الى سالزبري بتاريخ 15 يونيه 1610 والذي انباه فيه بخبر استيلاء الاسبان على العرائش بمساعدة (مـولاي الشيخ) وذكـر ان الكنائس والمنازل والطرق فى اسبانيا زينت ابتهاجا بهذا الحدث .**

Public Record Office — State papers, Foreign
Spain Vol. XVII f.f. 217, 218 and 234

وفى ذلك الوقت كانت الموانىء الشمالية من تطوان الى سلا قد آل امرها لاتباع محمد العياشى — ولذا فقد مـدت الدول الاوربيـة — وفى مقدمتها انجلترا — أيديها اليه وعقدت معه المحالفات والمعاهدات وبعثت بقناصلها الى سلا ، وتطوان بالاضافة الى مراكش (16) .

وسنؤجل الحديث عن علاقة الانجليز بالعياشى للفتـرة التالية — فترة حكم شارل الاول حيث وصلت هذه العلاقات لذروتها .

وبمجرد اطلاع جيمس الاول ، بأعباء الحكم فى انجلترا قدم له هنرى روبرتس (Henry Roberts) تقريرا وافيا عن هذه البلاد ، وقد أشار فى تقريره — كما ذكرنا سابقا — الى ثروة هذه البلاد ومنتجاتها المختلفة ، ودعاه لغزو هذه البلاد قبل أن تقع فى أيدى الاتراك الذين يتربصون لها ، ونصح بأن يبدأ الانجليز بالاستيلاء على الاماكن الساحلية التى يحتلهـا الاسبان ، وأن اسطول الاراضى الواطئة يمكن أن يتعاون مع الاسطول البريطانى فى هذا الشأن ، وذكر أن الملك جيمس جدير بأن يحقق هـذا الحلم لمجد الكنيسة والامة الانجليزية ، وأن جل ما يطلبه المغاربة هو ان يؤكد ملك انجلترا لهم أنهم لن يصبحوا عبيدا نتيجة لهـذا الغـزو ، وأن يعامل معاملة طيبة سواء من رغب منهم فى الدخول فى المسيحية أو من بقى على دينه (17) .

على أن تقرير روبرتس هذا — لم يكن هو الوحيـد الذى تنـاول الاوضاع فى المغرب فى هذه الفترة بهدف اثارة الحكومة الانجليزية بالذات

---

(16) العياشي (أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد الزياني) - فقيه عالم ينتمي الى قبيلة بربرية يقال لها (ايت عياش) ، وقد كان اماما عالما ومن المصادر الهامة التي تعرضت لجهوده فى كفاح الاسبان والبرتغال :

— املاق ، عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الحسن : الخبر عن ظهور الفقيـه العياشي بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد (نسخة خطية فى وثائق الرباط تحت رقم - 91 / د) .

— الافراني المراكشـي ، أبـو عبـد الله محمد الصغير بن عبـد الله بن علـي : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي . (نسخة خطية فى وثائق الرباط تحـت رقم 4 / د ، 117 / د ، 70 / د) . ص : 104 ، 109 ، 110 - عـن التعريـف بالعياشي وجهاده ، حتـى نهايـة حياتـه .

(17) British Museum — Additional Mss. 38/39 f. 33

لتتحرك لاتخاذ موقف حاسم . فقد كتب جورج ويكنس (George Wikins، الكاتب الشهير الذى اشتهر بقصصه المسلية للمسرح — فى عـام 1604 كتابا اتخذ له عنوانا مثيرا تحدث فيه عما يعانى منه المغرب بعد وفـاة السلطان احمد المنصور — من حروب ومجاعات وأمراض — كما يقول ، وقد اهدى كتابه هذا للشركة البريطانية للتجارة مع المغرب (18) .

كذلك صدر كتاب فى لندن فى (1609) عن الحالة فى المغرب فى مطلع القرن السابع عشر ، والعجيب أن مؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه ولكنه رمز له بالحروف (.Ro. G) (19) وقد عالج هذا الكتاب الذى يقع فى 74 صفحة — بالاضافة الى اربع صفحات غير مرقمة — فتـرة حكـم مولاى احمد المنصور ، ثم الحروب التى نشبت بين أولاده ، كما تعرض لعـدة مواضيع تتصل بالاوضاع الاجتماعية والدينية والعادات والتقاليد ونظام الحكم فى المغرب بالاضافة الى رحلة قام بها انطونى شيرلى
(Anthony Sherley)
الى هذه البلاد وملاحظاته عنها (20) .

وقد زار المغرب فى هذه الفترة ايضا القائد البحرى البريطانى الكابتن هنرى مانورنج (Henry Mainwaring) — وكتب تقريرا مفصلا تحدث فيـه عن معظم الموانىء المغربية موضحا مميزات واهميـة كل منهـا (اشـار

---

(18) British Museum — Printed Books, Press Mark 1046 D. 24
والكتاب نشر بعنـوان :
« Three Miseries of Barbary : Plage, Femine, civil wars ; with a relation of the death of Mahomet, the late Emperour and a brief report of the now present wars between the three brothers ».

(19) British Museum — Printed Books, Press Mark 1198, C. 20
والكتاب نشر بعنوان :
« A true historicall discourse of Muley Hamets rising to the three Kingdomes of Moruecos, Fes and Sus (Londres — 1609)
ملاحظة : الاخطاء اللغوية فى العنوان ترجع للاختلاف الزمني ، فالأمر يرجـع للقـرن السابـع عشـر

(20) **نشرت رحلة انثوني شيرلي كاملة مع رحلات أخرى لأشقائه بعنوان :**
« The travels and adventures of Sir Anthony, Sir Robert and Sir Thomas Shereley »

انظـر :
— Hakluyt : The principal Navigations T. III P.P. 598 — 602
وكذلـك : — British Museum ; Egerton, Mss. 1824 - f.f. 77-82

بالذات للموانىء والمناطق الحصينة فى : أصيلا ، وسلا ، وآسفى ، وسانت كروز ، وماسة ، وذكر انه يشرفه ان يضع هذه المعلومات تحت انظار ملك انجلترا (21) .

وهكذا نرى أن هذه الكتب والتقارير تشير كلها للحالة المضطربة التى اعقبت وفاة السلطان القوى احمد المنصور الذهبى وتدعو انجلترا لانتهاز هذه الفرصة لوضع ايديها على الثغور المغربية ، لكن بلا شك كانت انجلترا تدرك انها بالاضافة الى المغاربة انفسهم ، فانها ان اقدمت على مثل هذا العمل ستصطدم بالقوى الاوربية الاخرى كفرنسا والاراضى المنخفضة واسبانيا التى كانت لها مصالح حيوية فى هذه البلاد .

وبالاضافة الى هذه الكتب والتقارير لدينا بعض المراسلات المتبادلة بين جيمس الاول ، والسلطان مولاى زيدان وقد تناولت هذه المراسلات عدة مسائل هامة تهم البلدين .

ففى رسالة للملك جيمس الاول يشير الى بعض الاشياء التى يشكو منها التجار الانجليز فى الثغور المغربية ، وعلى سبيل المثال ذكر أن بعض هؤلاء التجار البريطانيين عوملوا معاملة غير عادية من رجال الجمرك فى آسفى الذين استولوا على جوهرة ذهبية كانت معهم ورفضوا اعادتها لهم ، وطالب الملك البريطانى أن يعامل البريطانيون فى المغرب معاملة طيبة وعادلة — ورد مولاى زيدان على هذه الرسالة برسالة مؤرخة فى 17 مارس 1611 أوضح فيها أن المغاربة من عادتهم معاملة التجار جميعا بالعدل ، وشرح الملابسات المتصلة بموضوع الشكوى التى اشار اليها الملك الانجليزى اذ أن التجار البريطانيين فى آسفى حاولوا اخفاء هذه الجوهرة لكى يتهربوا من دفع الجمارك المحددة عليها ، رغم ان رجال الجمارك نبهوهم لابراز ما لديهم ، وأن القانون فى هذه الحالة يقضى بأن تضع السلطات ايديها على هذا الشىء الذى يعتبر فى حكم المهرب ، لكن مع ذلك فان الملك المغربى ابدى استعداده لاعادة هذه

---

(21) انظر تقريره فى : British Museum , Bibl. Reg. 17 A. XLVII
(ملاحظة : أصبح هذا القائد فى عام 1619 / 1620 — قائدا لقلعة دوفر) .

الجوهرة على ان يكون ذلك بمثابة هدية منه لان اصحابها اصبحوا لا حق لهم فيها — وفى نهاية خطابه طلب السلطان المغربى ان يرسل له ملك انجلترا بعض الفنيين لاصلاح بعض المدافع المعطلة عنده (22) .

وفى عام 1614 أرسل جيمس الاول مندوبه جون هاريسون (John Harrison) ليبلغ مولاى زيدان رسالة شفوية ، وقد رد هذا الاخير على هذه الرسالة برسالة مؤرخة فى 24 نوفمبر 1614 — شكر فيها الملك جيمس لعواطفه التى عبر عنها خاصة ما يتصل بالفتنة التى قامت فى المغرب ، واضاف أن هذه الفتنة أخمدت والحمد لله ، ويذكر ان هذه المشاعر ليست غريبة فانجلترا تربطها بحكومة المغرب صداقة قديمة ، وذكر فى نهاية الرسالة انه حمل المندوب البريطانى رسالة أخرى شفوية سيبلغها للملك البريطانى (23) .

على كل فان هذه المراسلات تدل على ان انجلترا كانت مهتمة بالاوضاع فى المغرب ، فقد كان يهمها أن يمارس رعاياها نشاطهم التجارى فى الثغور المغربية فى أمان بالاضافة الى الاهمية التى أخذت تبرز مع الايام للموانىء المغربية على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى بالنسبة لدولة بحرية كانجلترا كان نفوذها وسلطانها وقوتها فى ذلك الوقت يعتمد قبل كل شىء على قوة أسطولها البحرى .

---

(22) انظر نص خطاب مولاي زيدان الى جميس الاول (مؤرخ فى محرم 1020 — 17 مارس 1611) فى : Oxford Bodleian Library Ms. Oriental 575 Piece 70

(23) تزعم هذه الثورة (ابو محلى) ، وهو ابو العباس احمد بن عبد الله ، وقامت بعد ان سلم الشيخ المامون السعدي العرائش للاسبان ، وقد اجتمع حوله عدد كبير من المغاربة ، واستطاع ان يطرد زيدان بن المنصور من مراكش ذاتها — لكن لم يدم له النفوذ أكثر من ثلاث سنوات انتهت بقتله فى عام 1611 .
انظـر :
British Museum — Printed Books. Press Mark 1046 D 26 :
« Late News out of Barbary (Londres 1614) ».
وكذلك : British Museum — Cotton Mss. Nero B XI. f. 318

ثالثا : الفترة الاولى من حكم شارل الاول (1625 — 1642) :

تعاقب على عرش المغرب فى هذه الفترة أكثر من حاكـم ، كما ان سلطان كل منهم لم يشمل المغرب كلــه ، فكثيـرا مـا كان لا يتعـدى (مراكش) ، بينما كانت باقى الجهات فى يد سلطات اخرى تنازعـه النفوذ — وفى انجلترا ذاتها كانت هذه الفترة فترة اضطرابات ايضا .

لكن برزت فى هذه الاثناء شخصية الفقيـه محمد العياشى الـذى اشرنا اليه سابقا وذكرنا أنه اصبح صاحب النفوذ الحقيقى على ميناء (سلا) الهام ، وعلى طول المنطقة الممتدة منه الى تطوان (24) .

ولذا فقد اتجه الانجليز لهذه الشخصية القوية وسعوا الى الارتباط معه — أى مع العياشى — بمعاهدات تضمن لرعاياهم الامان والعمل فى الثغور المغربية التى تحت نفوذه باطمئنان كامل . ولهـذا الهدف أرسل شارل الاول جون هاريسون (John Harrison) للتفاوض مـع العياشى . ونجح هاريسون فى توقيع اتفاق فى (24 شعبان 1036 — 10 مايـو 1627) مع العياشى ، وقد كفل هذا الاتفاق للانجليز الضمانات المختلفة التى كانوا يتطلعون اليها (25) .

وفى رسالة العياشى بتاريخ (2 رمضان 1036 — 17 مايو 1627) احاط علم الملك البريطانى باستقباله مندوبـه جون هاريسون فى تطوان وترحيبه به ، وبأنه اصطحبه الى سلا ، ويذكر انـه مسـرور بالسلام

---

(24) اسست (تطوان) قبل الاسلام لتخلف ميناء تامودا (Tamoda) الرومانية — لكنها فى الفترة التي نعالج احداثها هنا كانت قد وصلت الي درجة كبيرة من الازدهار ، فقد استقر بها الاندلسيون النازحون من اسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة 1492 ، كما استقر بعضهم فى الرباط ، والبعض الآخر فى سلا وحصنوا قصبة سلا وبنوا فيها الدور والقصور ، واخذوا يمثلون قوة ضخمة فى هذه المدن .

(25) Public Record Office — State papers, Foreign. Treaty papers, Barbary States I.

والاتفاق الذى عقد فى هذا الشأن بين سكان قلعة الرباط ومندوب عظمة ملك انجلترا وانه مستعد لاية خدمة يطلبها الملك (26) .

وبعد ذلك التاريخ تبودلت بين الطرفين عدة خطابات تنم عن العلاقات الطيبة التى استمرت حتى نهاية حياة العياشى . ففى 12 اكتوبر 1627 ارسل شارل الاول خطابا الى العياشى ردا على الخطاب السابق شكره فيه على المساعدات التى قدمها لجون هاريسون ، وللمجهودات التى بذلها لفك اسرى الانجليز وابدى من جانبه ترحيبه بالصداقة مع المجاهد المغربى مؤكدا رغبته فى استمرار الاتصال والمراسلات معه ، ومع القواد الآخرين نظرائه لتوطيد علاقات الود بين انجلترا وبلاد المغرب لخير الشعبين (27) .

هذا وقد بعث جون هاريسون عدة تقارير من المغرب ، وهذه التقارير تعكس صورة واضحة للعلاقات بين البلدين فى هذه الفترة .

ففى تقريره المرسل فى عام 1627 — عقب عقد المعاهدة السالفة الذكر مع العياشى يشير الى الخدمات الجليلة التى قدمها هذا الاخير للرعايا البريطانيين بالمغرب ، وذكر أن العياشى يهاجم المعمورة التى بأيدى الاسبان بقوة تبلغ 40٫000 من المغاربة وانه طلب معاونة الاسطول الهولندى ليمكن محاصرة الميناء بحرا وبرا ، وذكر أن الاسبان نجحوا فى تعزيز حامية المدينة التى كانت على وشك السقوط ، فقد أرسلوا لها مركبين محملين بالعتاد والمؤن ، فأضطر العياشى لفك الحصار الذى كان قد ضربه على الميناء ورجع الى سلا ومعه بعض المدافع التى غنمها من الاسبان ، وذكر هاريسون فى تقريره أن العياشى يرغب فى معاونة شارل الاول له ليخلص المعمورة من يد الاسبان لما لهذا الميناء من اهمية كبرى (28) .

---

(26) Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. I I No. 66

(27) Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States,. Vol. XII. Fol. 142,143.

(28) Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States. Vol. XII. Fol. 129.139.

وقد اقترح هاريسون اما أن تقدم انجلترا المعونة الكاملة للعياشى لينتزع هذا الميناء — ميناء المعمورة — من أيـدى الاسبان أو ان تضع بريطانيا ايديها هى عليه ، وذكر انه يعتقد ان العياشى سوف يرتاح لو ان انجلترا حلت مكان الاسبان فى هذا الميناء لانه يخشى اذا استولى هو عليه أن تنازعه تركيا السلطان فيه — وعدد مزايا ميناء المعمورة فهو فى موقع ممتاز بحيث تستطيع السفن الانجليزية فى كل الظروف أن تتزود بما تحتاجه فى رحلتها الطويلة ، كما تجد الحماية ضد سفن أعدائها من أتراك او اسبان ، ولو وضعت انجلترا ايديها على هذا الميناء يمكن تحصينه فهو لاحاطته بالبحر من ناحية والنهر من ناحية اخرى يبدو كجزيرة داخلية كما يمكن زراعة مساحات واسعة من الاراضى الواقعة شمال المعمورة لمسافة عشرين ميلا ، كما يقول انه يشاع أن الموريسكيين قد اكتشفوا مناجم للفضة فى المناطق القريبة ، لكنهم لم يفضحوا أمر هذا الكشف الى أن يصبحوا سادة البلاد ، والموريسكيون — كما يقول — يتوقون أن يصبحوا تحت السيادة البريطانية .

وهكذا لو أصبح الانجليز مسيطرين ايضا على سبتة وجبل طارق فانهم سيتحكمون فى هذه المضايق الهامة (29) .

وقد عبر الملك شارل الاول فى تصريح له فى 22 اكتوبر 1628 عن اسفه لما حدث من بعض التجار الانجليز من مخالفات ضد بعض الاهالى فى الجزائر ، وتونس ، وتطوان ، وسلا ، ووعد بتوقيع العقاب على مقترفى هذه الاخطاء حسب القوانين الانجليزية — (30) ولا ندرى فى الحقيقة ما هى هذه الاخطاء التى يعتذر الملك عنها ويأسف لوقوعها .

لكن يبدو على الرغم من ذلك ان العياشى واتباعه ظلوا أمناء لمعاهداتهم فيما يتعلق بالرعايا البريطانيين ، ففى خطاب مؤرخ 20 مايو

(29) Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States Vol. XII Fol. 154.155.

(30) Public Record Office — State papers, Foreign Public Record Office — Patent Rolls. Charles 1, 2472 No. 10.

1630 يخبر العياشى الملك شارل أن اثنين من اتباعه من قـــادة قصبـــة الرباط هما (عبد الله بن على ، واحمد بن على البشير) نجحا فى اخلاء سبيل 195 اسيرا من سجناء الانجليـــز . ويعبـــر الفقيـــه العياشى فى ثنايا هذا الخطاب عن شكره لملك بريطانيا على استجابته لطلبه وارساله بعض المدافع وبعض المواد الحربية الاخرى ، ولمـــا أبداه من استعداد لاجابة كافة طلباته من الاسلحة ، ويذكر انه حاليا ليس فى حاجة لمزيـــد من الاسلحة الجديدة لانه يركز على اصلاح القديم منها وأنه اذا بدت له حاجة لاى شيء سيرسل فى طلبه ، ويؤكد ان التجـــار الانجليـــز الذين سيأتون لسلا سيعاملون كما لو كانوا فى لندن ذاتها (31) .

وقد اتاح هذا السلام — الذى كفله العياشى واتباعه للانجليز — فرصة مزاولة نشاطهم فى تطوان وسلا وغيرهمـــا من المـــوانىء التى فى ايدى اتباع العياشى — باطمئنان كامل (32) .

لكن حين تسلط الموريسكيون على تطوان ، والرباط ، وقصبـــــة سلا ، وناصبوا العياشى العداء ، كثر الهجوم علـــــى السفن البريطانية ، وتعرضت مصالح أنجلترا ورعاياها فى هذه الجهات للخطر ، ولذا اتجهت انجلترا وبحريتها لمساندة العياشى فى كفاحه ضد الموريسكيين من جهـــة وضد الاتراك العثمانيين من جهة اخرى (33) .

واضطرت انجلترا ازاء الاعتداءات التى بدأ يتعرض لها رعاياها الى تكليف القائد البحرى البريطانى وليم رينـــز بورو (W. Rainsborough)

---

(31) Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. II N° 56

(32) انظر خطاب سليمان بن يوسف من تطوان الى الملك شارل الاول — والمؤرخ 30 مارس 1682 ، والذي يذكر فيه انه لما علم بمضمون خطابه المرسل الى عبد الله النقسيس — حاكم تطوان السابق بادر باسم (سيدي محمد العياشي) — الى عمل كل التسهيلات الممكنة للرعايا البريطانيين ، ونص الخطاب موجود في :
Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. II N° 60

(33) Public Record Office — State papers. Domestic, Charles I Vol. CCCXXXVIII N° 51

بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التى تعمـــل فى ثغــور المحيــط الاطلسى ، وكذا رعاية مصالح البريطانيين فى هذه الثغــور المغربيــة ، والضغط على السلطات المتسلطة على الرباط لفك الاسرى البريطانيين ، ولتحقيق ذلك أبحر هذا القائد الى مياه سلا بالسفينتين (انتيلوب ، ومارى) (Antilope and Mary). واتسمت محاولة هذا القائد البريطانى مع حكـــام الرباط وسلا بأسلوب يجمع بين المهادنة ومحاولة التفاهم لتحقيق الهدف — وهو فك أسرى من وقع فى أيدى قراصنة ســـلا من الانجليز — والضغط من ناحية اخرى ملوحا بقوة الاسطول البريطانى التى تستطيع محاصرة الموانى المغربية . لكن يبدو — كما يفهم من خطابــه الذى أرسله لبريطانيا (غير واضح تاريخه) — أن حاكم الرباط لم يقبل تسليم الاسرى ، كما أن السفن التى تحت امرته كانت بطيئة الحركة ، ولذا لا تستطيع تعقب سفن سلا الخفيفة الحركة والتى يقدر عددها ما بين 40 و 50 سفينة ، وأنه لذلك يترقب وصول السفينتين الحربيتين الصغيرتين اللتين طلبهمـــا ليمكنه فرض حصار كامل على ميناء سلا ، ومهاجمة المدينـــة ، واخــلاء سبيل الاسرى ، وقد ارسل خطابه هذا مع سفينة اسبانية كانت قـــد انزلت بعض التعزيزات للاسبان فى المعمورة (34) .

ويستدل من تقارير رجـــال البحريـــة البريطانيـــة الذيـــن كانـــوا يعملون بسفنهم فى المياه المغربية — ان السفن الانجليزية قدمت مؤازرتها لقوات الفقيه العياشى التى كانت تحاصـــر الموريســـكيين فى تطـــوان ، والرباط ، وقصبة سلا (35) .

كما عقدت معاهدة جديـــدة فى 5 مايـــو 1637 بين العيـــاشى ، وبريطانيا . وقـــد وقع هـــذه الاتفاقية عـــن انجلترا وليـــم رينزبورو (William Rainsborough)

وعن العياشى — ابراهيم بن على .

---

(34) انظر خطاب رينز بورو (Rainsborough) **ومرفق به رسم توضيحي لميناء سلا:**
Public Record Office — State papers Domestic Charles I, Vol. CCC LIV No. 28

(35) انظر تقرير الكابتن جيلزبيني (Giles Penne)
Public Record Office — State papers Domestic Charles I, Vol. CCCXXXVIII No. 51.

وجاء فى هذه المعاهدة :

1 — تقوم البحرية البريطانية بمحاصرة سلا بحرا بينما تحاصرها قوات العياشى بــرا .

2 — لا يعقد أي صلح أو اتفاق للسلام بين القــوات البريطانيــة وسلطات سلا الجديدة ، بأية شروط دون أخذ موافقة العياشى على ذلك .

3 — تكون لرعايا كل من الطرفين حريــة الاتجار ، والتنقل فى أي من الموانى التابعة للطرف الآخر ، كما تقدم لسفنهما كل المساعدات اللازمة .

4 — يفك اسر كل الرعايا البريطانيين فى الاراضى الواقعــة تحت نفوذ العياشى ، واذا سقطت سلا الجديدة فى أيدى قواته يقوم على الفور باطلاق سراح كل الاسرى البريطانيين .

5 — وقبل ان يوقع العياشي على اي اتفاق للصلح مع الموريسكيين يجب ان يتحقق من ان كل الاسرى البريطانييــن قــد أطلق سراحهــم بالاضافة الى التعهد باعادة الاسرى الذين رحلوا الى الجزائر أو تونس أو غيرهما من البلاد .

6 — اذا حدث ان اية سفينة بريطانية تصادف لأى ظرف من الظروف ان جرفتها الامواج لمدينة ساحلية تحت سلطان قوات العياشي فان ركابهــا يعاملون معاملة الاصدقاء ، ويحتفظ بحقهم فيما ينجو من بضائــع هــذه السفيــنة أو معداتهــا .

---

(36) انظر نص شروط المعاهــدة :
Melbourne Hall (Derby Shire), Coke - papers, Lease 41

(37) انظر تقرير رينزبورو (Rainsborough) **المؤرخ 19 مايو 1637 ، وكذلــك التقرير المؤرخ 15 يوليو 1637 :**
Public Record Office — State pa pers, Foreign Barbary States XIII.

7 — يسمح لرعايا كل من الطرفين بنقل اية بضائـــع — من التى كانت متداولة بين تجار الطرفين من قبل — الى بلادهم طالما أنهم يدفعون الضرائب القانونية المقررة عليها .

وقد استمر رينزبورو (Rainsborough) فى ارسال تقارير منتظمة عن الاوضاع فى المغرب وموقف العياشي واتباعه . ويبدو من تقاريره أن الانجليز — تنفيذا لمعاهدتهم مع العياشي — كانوا يقدمون له ما يحتاجه من (بارود) ومعدات حربية أخرى ، وقد تمكن العياشي من محاصرة سلا بقوات من الخيالة بلغ عددها 20.000 رجلا لكنه — كما يقول القائد البريطانى — كان يفتقر لقوة كبيرة من المشاة ليحقق النصـــر المنشود ، ولذا فانه رغم محاصرته لاعدائه لم يستطع أن يوقع بهم هزيمة حاسمة أو يجبرهم على قبول شروطه للصلح — وقد ذكر رينزبورو فى تقرير له فى 15 يوليو 1637 ان الموريسكيين أطلقوا سراح أسرى الانجليز فى سلا مقابل اطلاق العياشي لعدد مماثل من أسراهم الذين وقعوا فى أيـــــدى قواته ، لكنه علم أن عددا كبيرا كان قد ارســـل الى الجزائر وتونس ، ويعتقد ان هؤلاء الموريسكيين يريـــدون كســـب الوقت الى ان يرحـــل الاسطول البريطانى الذي يؤازر قوات العياشي .

وفى 21 أبريل 1641 قتل العياشي بعد أن تنكر له الدلائيون الذين كانوا فى المبدأ حلفاء له (38) .

ولم تتأخر انجلترا فى الاتصال بزعيـــم الدلائيـــين (محمد الحاج) الذي كان مناوئا لحليفها السابق العياشى ، وعقدت معه معاهدة صداقة شبيهة بمعاهدتها السابقة مع العياشي — كما عقدت مـــع غـــيره من

(38) للدراسة التفصيلية لعلاقات العياشي مع زعماء الزاوية الدلائية وتطورها — انظر : الشفشاوني ، سليمان محمد بن عبد الله بن علي العلمي : البدور الضاوية فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (نسخة خطية بوثائق الرباط رقم 261 / د ص : 188 ، 189 ، 515 ، 516 .
— وكذلك محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الربـــاط 1964) .

اصحاب السلطة فى المغرب اتفاقات مماثلة ــ فقد كان الهدف هو تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وسلكت فى سبيل ذلك كل طريق ممكن .

فحين استطاع المرابط علي بن محمد ــ الذي اشتهر باسم « أبــى حسون » (39) أن يمد نفوذه على المنطقة الجنوبية الغربيــة من المغرب التي يقع بها ثغر اغادير الهام ، وأصبح هذا المرابط صاحب الامر فى منطقة سوس ــ اتصلت به انجلترا وعقدت معه معاهدة تجارية فى نفس الوقت الذي كانت تتعامل فيه مع السلطان السعدي فيما يتعلــق بمنطقة نفوذه فى (مراكش) و (آسفى) وغيرهما ومع العيــاشي ثم من بعــده مــع الدلائيين فى شان سائر الثغور الواقعة شمال نهر (أم الربيع) . وبالطبع دعمت هذه العلاقات مع أنجلترا وغيرها من الدول الاوربيــة مركز ابي حســون في ســوس .

وقد تبادل الملك شارل الاول المراسلات مع هذا المرابط (علي بن محمد) ، فقد أرسل الملك البريطاني خطابا يشكره فيــه لاطلاقه سراح الاسرى الانجليز الذين كانوا فى ناحيته ورد عليه المرابط المغربى فى 16 سبتمبر 1630 بأنه فعل ذلك حتى يفعل الملك نفس الشيء مــع الاسرى المسلمين حتى لا يبقى أسير مسلم من أى قطر من اقطار الاسلام فى يــد الانجليز ، وأنه سيستمر على هذا العهد طالما أوفى الانجليز بهــذا العهد من جــانبــهــم (40) .

وفى نفس الوقت ــ كما ذكرنا ــ حرصت بريطانيا على أن تكون لها علاقات طيبة مع سلاطين السعديين حكام مراكش ، فحين اصبح ابــو

---

(39) اطلق عليه الانجليز فى خطاباتهم عدة أسماء مثل مرابط سوس (The Morabout of Sous) **وولي ماسة** (The Saint of Massa) **ومرابط الساحل** (The Morabout of Sahel)
وفى عام 1630 استطاع ابو حسون أن يبسط نفوذه على الجنوب المغربي كله ، وقد مات فى 1659 ، وخلفه فى مناطق نفوذه ابنه محمد ، وانتهى أمره فى عام 1670 على يد السلطان الرشيد بن الشريف .

(40) انظر : صورة خطاب المرابط علي بن محمد :
Public Record Office — State papers, Foreign Royal Letters Vol. II No. 46

يزيد الوليد بن زيدان — صاحب السلطة فى مراكش (1630 — 1635) بعد مقتل اخيه عبد الملك ابي مروان — سعى شارل الاول لعقد معاهدة معه . وفعلا وقع الطرفان فى 16 نوفمبر 1631 معاهدة نصت على ضمان حرية التجارة للتجار البريطانيين ، وفك أسرى الرعايا البريطانيين فى مراكش ، وآسفى ، وسلا وغيرها من املاك السلطان ، وان تعطى التسهيلات الضرورية للسفن البريطانية التي تفد لموانيه على على ان يتمتع المغاربة بنفس هذه الحقوق (41) .

وحين تولى الامر فى مراكش محمد بن زيدان (1635 — 1652) ارسل شارل الاول مندوبا عنه هو ادموند باردشو (Edmund Bradshaw) بخطاب للسلطان الجديد مهنئا باستقرار الامور له — ويدعوه للعمل على استمرار ما كان بين أسلافه وملوك بريطانيا العظمى من علاقات الود والمحبة . وقد رحب السلطان المغربى مولاى محمد الشيخ الصغير بمندوب الملك ، ورد على خطابه بخطاب مؤرخ فى (2 محرم 1047 هـ — 27 مايو 1637) ابدى فيه ترحيبه باستمرار علاقات الود مع بريطانيا العظمى وبذل التيسيرات المطلوبة للرعايا البريطانيين الذين يرتادون الموانيء المغربية (42) .

وانتهى الامر بعقد معاهدة بين الطرفين فى 20 سبتمبر 1637 (43) وفى هذه المعاهدة تقرر :

1 — أن تسود المحبة بين البلدين ، وأن تعتبر الاخطاء التي قد تكون قد وقعت كأنها لم تكن .

(41) انظر نصوص هذه الاتفاقية فى :
Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States — XII fol. 221-222

(42) انظر خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير :
Oxford, Bodleian Library — Ms. Arsh. Seld. A-7 26 Fol. 6.

(43) انظر نصوص المعاهدة :
Melbourne Hall (Derby Shire) — Coke papers — liasse 42

2 ــ يسمح لرعايا البلدين بمباشرة نشاطهم التجارى فى بلاد الطرف الآخر دون اية عوائق .

3 ــ يباشر كل طرف شعائر عقائده الدينية فى بلاد الطرف الآخر دون اي اعتراض او ايذاء .

4 ــ اذا جنحت اية سفينة تابعة لاي من الطرفين فى ميناء الطرف الآخر يحتفظ بكافة حقوق اصحاب السفينة ، كما تقدم لهم كل معاونة ممكنة .

5 ــ يجب الا تقوم اية علاقات بين مملكة بريطانيا واعداء السلطان المغربى مثل هؤلاء الذين فى سنتا كروز ، وماسة وغيرهم من الثوار الخارجين على السلطان ، ويخبر ملك بريطانيا رعاياه بعدم التعامل مع هؤلاء الخارجين .

6 ــ اذا وقعت اية اخطاء او اضرار لاتباع اى من الطرفين فان ذلك لا يؤدى لانهاء هذا السلام بينهما بل تعطى فرصة لاصلاح الخطأ وازالة الضرر .

وبعد توقيع المعاهدة مباشرة ارسل مولاى محمد الشيخ الاصغر روبرت بلاك (Robert Blake) (44) بأمر لسلطات الرباط لاطلاق سراح جميع من فى سوقها أو فى حوزتهم من اسرى الانجليز ــ كما ارسل بلاك ايضا الى لندن ليرافق القائد جؤدر بن عبد الله (45) الذى ارسله السلطان المغربى كسفير عنه لبريطانيا (46) .

---

(44) كان روبرت بلاك (Robert Blake) تاجرا بريطانيا فى المغرب ، لكن السلطان محمد الشيخ اقنعه بترك التجارة ليدخل فى خدمته ، وقد لعب دورا هاما فى العلاقات بين بريطانيا والمغرب فى هذه الفترة

(45) أخذ (جؤدر) أسيرا فى سن الثامنة من عمره ، وحين شب عن الطوق كانت خدماته البارزة مع السلطان أحمد المنصور ــ وقد أصبح مستشاره المقرب وموضع ثقته ومنح لقب (القائد) ، وكان على رأس الجيش المظفر الذي أرسل لفتح السودان فى (1590)

(46) Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. II No. 68

وكانت العلاقة بين محمد الشيخ الصغير والاتراك بالجزائر وتونس قد تدهورت حتى أن السلطان المغربى فكر فى شن حرب على الاتراك فى هذه الجهات ، ولذا كانت بين اهداف بعثة (جؤدر) و (بلاك) بحث امكانيات اشتراك بريطانيا فى هذه الحملة ضد الاتراك . ففى خطاب مؤرخ 5 نوفمبر 1637 يذكر مولاى محمد الشيخ لشارل الاول أنه يجب ان نتعاون فى شن الحرب ضد السلطات الحاكمة فى كل من تونس والجزائر بسبب تصرفاتها البغيضة والا انسانية ولما كانت الجزر التى تحكمها مشهودا لها بقوتها البحرية التى لا تغلب — فلقد ارسلت خدامى موضع ثقتى وسفرائى لمعرفة اذا كنتم ترون بحكمتكم أن تعاونونى بقواتكم البحرية لمؤازرة قوتنا البرية (47) .

ولدينا وصف كامل ودقيق لزيارة القائد جؤدر بن عبد الله ، وروبرت بلاك لانجلترا (48) .

فقد أبحرا الى انجلترا على ظهر السفينة البريطانية ليوبارد (Leopard) ووصلا الى كنت (Kent) فى اكتوبر عام 1637 — ومن هناك على ظهر الخيول الى (كانتيربيرى) (Cantirbury) ومنها الى جرافسند (Grave Send) وقد ارسل الى هذه البلدة الاخيرة مدير المراسم البريطانى جون فينيت (John Finnet) ليرافقهما الى لندن — ودعى اثنى عشر من اعضاء المجلس المخصوص وآخرون للترحيب بهما .

وأبدى الملك شارل الاول سروره واستعداده لاستقبالهما فى قصره ، ودعى الخاصة وكبار رجال الدولة لحضور هذه المقابلة ، وخصصت فرقة عسكرية من 400 شخص لاداء التحية لهما وهما فى طريقهما لمقابلة الملك .

وفى 21 مايو 1638 انتهت زيارة بلاك ، والكابتن جؤدر لانجلترا فغادرها على ظهر سفينة بريطانية بقيادة الكابتن جورج كارتيرينت

(47) انظر نص خطب السلطان محمد الشيخ الصغير :
Public Record Office — State papers. Foreign Royal Letters Vol. II No. 71

(48) British Museum, Printed Books. Press Mark 1436, 1-2

(George Carterent)

وكانت صحبتهما فى رحلة العودة هذه ثلاث سفن حربيـــة تحت قيادة الكابتن وليم جير (William Gere) لتساند هذه السفـــن الحربيـــة السلطان المغربى فى حربه ضد الخارجين على حكمه (49) .

وقد عين شارل الاول جيلزبنن (Giles Penn) ممثـــلا لـــه فى سلا ، على أن يرعى ايضا اما بنفسه او عن طريق من يكلفه نيابة عنه — شؤون البريطانيين فى فاس (50) .

واصدر الملـــك شـــارل بعد فتـــرة قصيـــرة امـــرا بـــأن يحـــل روبرت بلاك (Robert Blake) مكان (جيلزبـــنن) كمنـــدوب عن الملـــك البريطانى فى سلا وفاس لكن السلطان مولاى محمد الشيخ ارسل للملك شارل الاول يرجوه العدول عن هذا اذ أن له ثقة لا حد لها فـــى (بلاك) ، ولذا يفضل ان يكون فى لندن كممثل للسلطان المغـــربى فى انجلتـــرا (51) وبالطبع مما يدعو للتساؤل أن يعين مولاى محمد الشيخ الصغير بـــلاك كسفير له فى انجلترا — لكن لعل التفسير لذلك هو أن مولاى محمد الشيخ كان فى حاجة ماسة الى الاسلحة لمحاربـــة أعدائـــه فى خـــارج البـــلاد

---

(49) كتب بلاك مذكرات وافية عن رحلة العودة هذه ، والاحداث التي تمت منذ غادر انجلترا وذلك تحت عنوان : « صورة أمينة لمذكراتي خلال فترة وكالتي عن ملك المغرب » .
« A true Copy of my Journal during the tymes of My agency to the King of Morocco ».

انظـــر :

Public Record Office — State papers, Foreign Barbary States XIIII.

كذلـــك انظـــر اخبـــار هـــذه الرحلـــة مـــن وجهـــة نظـــر الكابتـــن جورج كارتيرينت (Sir George Carterent)

وقد نشرت تحت عنوان :

« The Barbary Voyage of 1638, now first printed from the Original manuscript of Sir George Carterent — 1929 »

(50) انظر قرار التعيين الصادر من الملك شارل الاول لجيلز :

Public Record Office — State papers. Domestic. Charles I (1637 — 1638)

(51) انظر قرار تعيين روبرت بلاك :

Melbourne Hall (Derby Shire). Coke papers. liasse 42.

وانظر خطاب محمد الشيخ للملك شارل الاول بهذا الخصوص :

Public Record Office — State papers, Royal Letters II No. 69

وداخلها ؛ فقد تعددت القوات المتنافسة حتى اصبحت البلاد اشبه ماتكون ببلاد الاندلس أيام ملوك الطوائف ؛ وكان يرى ان وجود بلاك فى لندن كفيل بتيسير حصوله على حاجته من الاسلحة — ومما يرجح هذا الاستنتاج أن مولاى محمد الشيخ ارسل فى نوفمبر 1638 القائد محمد بن عسكر الى انجلترا ليوضح للملك شارل الاول الدواعى التى تستلزم التعجيل بارسال الاسلحة المطلوبة ، كما أن هذا المبعوث كان مكلفا بمهمة اخرى ، فقد كان بعض التجار الانجليز قد نقضوا شروط المعاهدة المعقودة بين السلطان المغربى وشارل الاول اذ ثبت أنهم كانوا يتاجرون فى الاسلحة مع بعض الثائرين الخارجين على السلطان خاصة فى (سانتاكروز) والموانى المجاورة ، ولذا كلف محمد بن عسكر ببحث هذا الامر الخطير مع الملك شارل الاول (52) .

وقد ترتب على بعثة القائد محمد بن عسكر تأكيد تمسك كل طرف من الطرفين بشروط المعاهدة المعقودة بينهما ، ووعد شارل الاول ببذل الجهد لاجابة طلب السلطان من الاسلحة ، واكد انه اصدر الامر لتدبير هذه الاسلحة لكن المبعوث المغربى كان مضطرا للعودة فورا ، ونفى شارل الاول تهمة قيام أى من رعاياه ببيع الاسلحة للثائرين ضد السلطان واوضح انه اصدر تعليمات مشددة بهذا الشأن ، وبدوره اشتكى من ان بعض التجار الانجليز يحضرون بالسلع للموانىء المغربية ويتحملون فى ذلك المشاق والنفقات لكن لا يجدون اقبالا على سلعهم كالمعتاد ؛ كما انهم لا يلقون فى هذه الموانىء المعاملة الودية اللائقة (53) .

ويبدو أن المواضيع مثار الشكوى ظلت قائمة كما هى حتى ان روبرت بلاك فى تقرير له بتاريخ 5 سبتمبر سنة 1641 نجده ينصح

---

(52) انظر خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير الى شارل الاول في هذا الشان :
Oxford Boldeian library — Ms. Arch. Seld A. 726 Fol. 16 (Anc. Selden Ms. 3210)

(53) انظر رد شارل الاول على خطاب مولاي محمد الشيخ الصغير :
موجود فى نفس المحفظة السابقة (fol. 14)

البريطانيين بالاستيلاء على قلعة سلا حسما لهذه المتاعب وذكر ان هذا سيحقق عدة اهداف : (54)

1 — فهو سيكفل الامن للتجار البريطانيين حيث ان قراصنة سلا تعودوا على مهاجمة السفن والاستيلاء على ما فيها من بضائع ومسافرين

2 — كما سيمد هذا الميناء السفن الانجليزية بحاجتها من مؤن وغيرها فى رحلاتها فى المحيط الاطلسى .

3 — وسيصبح هذا الميناء المنفذ الرئيسى لكل تجارة المغرب .

4 — وستتحكم بريطانيا عن طريقه فى كل مناجم التصدير لان سلا هى المكان حيث يصدر معظم ما يستخرج من تصدير من المناجم القريبة .

5 — والاستيلاء على هذا الميناء سيوفر لبريطانيا من الملح ما يسد حاجة كل امبراطوريتها .

سابعا — الفترة الممتدة من 1642 الى 1660 :

تمثل هذه الفترة فى انجلترا فترة حروب واضطرابات داخلية — وقد حاول روبرت بلاك فيها ان يحتفظ لبريطانيا باحتكارها لتجارة المغرب — لكن السياسة البريطانية المتذبذبة اغضبت كلا من حكام (مراكش) ، والسلطات المناوئة للحكام كالدلائيين الذين كانوا اصحاب النفوذ على كثير من الموانى الهامة فى المغرب .

وقد كرر مولاى محمد الشيخ شكواه لان التجار البريطانيين كانوا مازالوا مستمرين فى عدم الالتزام بالاتفاقات السابقة التى تحرم بيع الاسلحة للثوار فى سانتاكروز وغيرها من الموانىء التى يعتصم فيها الخارجون على سلطة حكام مراكش .

(54) انظر تقرير بلاك (R. Blake)
House of Lords papers — liasse 63

وقد دلت الاحداث التالية على أن علاقات الصداقة بين البلدين لم تعد قائمة ، ولعل الحادث الذى تعرضت له احدى السفن الانجليزية التى كانت فى عام 1646 فى طريقها الى جزر كانارى دليل على ذلك — فقد القت بها عاصفة بالقرب من اسفى ، فأمر مولاى محمد الصغير باعتقال رجالها البالغ عددهم 27 رجلا ووضعهم فى السجن — هذا كما نشطت حركة القرصنة ، فقد حدث فى ديسمبر عام 1651 أن سفينة بريطانية فى طريقها الى اسبانيا هوجمت بواسطة القراصنة السلاويين واخذ جميع ركابها أسرى وبيعوا كرقيق ، وادى تكرار مثل هذه الاحداث الى اضطراب التجارة بين بريطانيا والثغور المغربية .

وبسبب هذا الموقف كلف مجلس الدولة البريطانى فى 15 مايو 1653 أحد اعضائه هو روبرت بلاك بورن (R. Blackborne) بالاتصال بالتاجر روبرت داون (R. Downe) الذى كان بسلا ليبذل اقصى جهده لاطلاق سراح الاسرى الانجليز بسلا .

وفعلا نجح داون فى اطلاق سراح اثنين وعشرين أسيرا — بينما كان تسعة آخرون لايزالون فى ايدي المرابط عبد الله الدلائي الذى رفض ان يطلق سراحهم بأى ثمن — ولجأت انجلترا الى تدعيم اسطولها فى البحر المتوسط ، وطلبت من امير البحر بلاك (Blake) أن يجوب بأسطوله على موانىء البحر المتوسط لكى تسترد انجلترا هيبتها فى هذه الثغور ، ولوضع حد لعمليات القرصنة التى تتعرض لها السفن الانجليزية فى هذا البحر . ونجح بلاك فى عام 1655 فى توقيع معاهدة صداقة مع السلطات الجزائرية ، ولما رفضت السلطات التونسية الامتثال لشروط مماثلة هاجم ميناء تونس ثم اتجه الى سلا هو ومساعده ادوارد مونتاكى (Edward Montagu) (55) .

وبعد مفاوضات طويلة قبلت السلطات فى سلا ان تطلق سراح الاسرى الانجليز على شرط أن يدفع بلاك فدية كاملة عنهم ، لكن رفض

(55) ادوارد مونتاكي (Edward Montagu) عينه كرومويل مساعدا لامير البحر (بلاك) فى قيادة الاسطول الذي وجه ضد اسبانيا فى 1656 .

بــلاك ذلك وعرض أن يقدم هدايا عينية لانه اعتبــر مبــدأ الفدية مهينــا لحكومته ، واخيرا تعثرت المفاوضات بين الطرفين بسبب اصرار الامير عبد الله الدلائى على عدم تسليم طفلين من ابوين انجليزيين ولدا فى سلا ، واضطر بلاك لترك ثلاث سفن من اسطوله للاستمرار فى محاصرة سلا ، بينما غادرت باقى السفن البريطانية المياه المغربية . هذا عــلى أن الحــرب ضد الاسبان التى أعلنتها انجلترا فى علم 1656 جعلت الانجليــز يدركون اكثر اهمية وجود نقط تحت أيديهم فى المناطق الاستراتيجية الهامــة على البحر المتوسط ــ وكانت انظارهم مسلطة على (تطوان) بالذات ، ولــذا طلب كروموبل (Cromwell) من بــلاك ومونطاكى التفاوض مــع سلطات تطوان لهذا الهدف .

وكانت السلطة فى تطوان ــ بعد وفاة العياشى فى يد عبد الكريــم النقسيس الذى كان يحكمها من قبل المرابط عبد الله الدلائى (56) .

ويشير تقرير كتبه الكابتن باديلى (Badiley) الى انه حين لجأ بلاك ومونتاكى الى تطوان فى يونيو 1656 لطلب المــؤن التى كانــت سفــن الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط فى حاجة اليها ــ رحبت بهمــا سلطات تطوان ، بل عرضت عليهما تعيين قنصل لبريطانيا فى الثغر لضمان استمرار الاتصال والتفاهم بين الطرفين (57) .

لكن حين طلب من الشركة الانجليزية صاحبة الامتياز للاتجار مــع الثغور المغربية المعروفة باسم (Barbary Company) ــ الموافقة على تعيين مندوب فى هذا الثغر المغربى ــ رفضت بذلك بحجة أن حركة التجارة فى ذلك الوقت فى الثغور المغربية لم تكن تشجع على تعيين قنصل فى تطوان ، لكن أخذت الحكومة البريطانية بنصيحة باديلــى ، فصــدر فى 10 فبراير

---

(56) كان باديلي (Badiley) قائدا لاحدى السفن البحرية فى الاسطول الذي وجه ضد اسبانيا سنة 1656 ، وقد برز فى هذه الحرب .

(57) انظر تقرير باديلي (R. Badiley) المؤرخ 29 ديسمبر 1656 فى :
Public Record Office — State papers — Domestic. Interregnum — Vol. CLIII No. 107

1657 قرار بتعيين نثانوئيل لوك (Nathaniel Luke) قنصلا لانجلترا فى الثغور المغربية على أن يقيم فى تطوان (58) .

ونجح هذا القنصل بمساعدة بلاك والكابتان جون ستوكس (John Stokes) (59) . فى الوصول الى اتفاق فى 19 اغسطس 1657 مع حاكم تطوان كممثل لمحمد الحاج الدلائى — ويتضمن هذا الاتفاق : (60)

1 — يتناسى الطرفان الاخطاء والمظالم السابقة ، ولرعايا كل منهما الحق فى الحضور لموانىء الطرف الآخر بكل حرية .

2 — لرعايا انجلترا فى المناطق التى تحت نفوذ الدلائيين — حرية مزاولة طقوسهم الدينية دون التعرض لهم .

3 — يطلق سراح الاسرى الانجليز الذين فى أيدى الدلائيين .

4 — من حق الانجليز الموجودين فى البلاد التابعة للدلائيين أن يغادروها فى اى وقت شاءوا .

5 — اذا حدث أن جنحت سفينة تابعة لاى من الطرفين فى ميناء للطرف الآخر — يعامل ركابها كأصدقاء وتسلم لهم اية امتعة يمكن انقاذها من شحنة السفينة .

6 — تقدم المؤونة والتيسيرات الكاملة لسفن كل من الطرفين التى تلجأ لموانى الطرف الآخر .

---

(58) كان نثانوئيل لوك (Nathaniel Luke) عالما باحوال المغرب فقد كان من قبل — تاجرا هناك — انظر :
Public Record Office — State papers Domestic — Interregnum Council of State — Vol. LXXVII PP. 695.696.

(59) أصبح جون ستوكس (John Stokes) قائدا للاسطول البريطاني فى البحر المتوسط بعد بلاك .

(60) انظر نص المعاهدة فى :
Public Record Office — State papers — Foreign Treaty papers I.

7 ــ اذا حدث اى خطأ او ظلم لرعايـــا اى من الطرفين لا يؤدى هذا لنقض الصلح المعقود بين الطرفين ، لكـــن تعطى فرصـــة لتحقيـــق الـــعـــدالـــــة .

وهكذا استأنف التجار البريطانيون نشاطهم مـــع الثغور المغربية ، وظل ميناء تطوان يلعب دورا هاما بالنسبة لنشاط الانجليز حتى استعيض عنه بميناء (طنجة) الذى وضع الانجليز أيديهم عليه عام 1661 فانتقـــل النشاط البريطانى خاصة الى هذا الثغر الذى يتمـــيز بموقع استراتيجى فريد فى مدخل البحر المتوسط الغربى (61) .

هكذا كانت لانجلترا علاقات هامة وقوية مع المغرب فى هذه الفترة من القرنين السادس عشر والسابع عشر ــ وكما ذكرنا اضطرت انجلترا لترتبط بعلاقات مع أكثر من سلطة لتحقيـــق مصالحها فى المغرب بموقعه الممتاز وبسواحله الهامة الممتدة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

الربـــاط **شوقي عطا الله الجمل**

---

(61) استولى البرتغال على طنجة عام 1464 وحكموها ما يزيد على قرنين من الزمان ، لكن قدمتها كاترين دوبورا كانس شقيقة ملك البرتغال فى عام 1661 كمهر لزوجهـا شارل الثاني ملك انجلترا ــ وقد استرد المولى اسماعيل طنجة من انجلترا عام 1684 ــ لكن استولت انجلترا بعد ذلك على جبل طارق فى مدخل البحر المتوســط على الجانــب الاوربي فى عام 1704 .
انظر : لا ندوروم : تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة نيكولا زيادة ــ بيروت 1963) ص 80 .

قصة

بطل الشطرنج

للقصصي الامريكي ر.ب. وايت
ترجمة : عبد المجيد ابن جلون

حينما دخل الرجل وهو يحمل آلة غريبة رفع معظمنا انظارهم عن الشراب لأننا لم نر مثل هذه الآلة الغريبة من قبل ، وقد وضع الرجل تلك الآلة فوق المشرب بالقرب من مصبات الجعة ، فشغلت حيزا كبيرا من المكان وبدا من الواضح على وجه الساقي أنه تضايق بها وبضخامتها وبشاعتها .

ــ اعطني كأسين من الويسكي بالماء

واستمر الســـاقى فى مباشرة مـــزج الشراب الذى كان بين يديه ، ولكن بدا عليه أنه يعالج هذا الطلب فى نفسه مستغربا ، فسأله بعد برهة قائلا :

ــ تعنى كأسا مضاعفا ؟

فقال الـــرجــــــــل :

ــ كلا ، كأسين منفصلين من فضلك

قال ذلك وهو يحملق فى وجه الرجل بنظرة ليست عدائيـــــة تماما ، ولكنها خالية من الود ، وقد قضى الساقى عـــدة سنوات خلف حاجز المشرب فاكتسب بذلك قدرة صادقة على التمييز بين الناس وسبر أغوارهم ، ومهما يكن من أمر فانه لم يستطع أن يفهم هذا الرجل ، وبدا عليه من الاكيد أنـــه ضاق ذرعـــا بالآلة ، والتقط الساقى سيجارة موقدة كانت موضوعة فى اهمـــال على طرف الحاسبة وشد منها نفسا ثم أعادها الى مكانها فى تأمـــل ، ثم صب كأسين من الويسكى واعد كأسين من الماء ثم دفع بذلك كله نحو الرجل والناس ينظرون ، ذلك أنه اذا حدث شىء صغير غير عادى فى الحان فانه سرعان ما يستولى على مشاعر الرواد الجالسين فى صف امام حاجز المشرب .

ولم يبد على الرجل ما يـدل على أنه شعـر بأنـه محـط الانظار ، وانما وضع على المشرب ورقة نقـد من فئـة خمسة دولارات وشرب كأسا من الويسكى اتبعه بالماء ثم رفع الكأس الآخر وفتح منذا صغيرا فى الآلة وصب فيه الويسكى واتبعـه بـالمـاء .

وتقطبت اسارير الساقى وهو يراقبه ، ثـم قـال بصوت معتدل : ليس فيما فعلته أية تسلية ، يضاف الى ذلك ، ان زميلك يشغل حيزا من المكان أكثر مما يلزم ، فلماذا لا تأخذه وتضعه على تلك الدكـة بالقرب من البـاب ليفسح لنـا المجال هنـا ، فلن يمسه احد بسوء .

اجابـة الرجل مبتسمـا :

كان عليك أن تراه بعد ظهر اليوم ، فقد كان ما قـام بـه مدهشا ، ذلك أن اليوم هو اليوم الثالث فى مبـاراة الشطرنج ، فتصور ، لقد قضى ثلاثة ايام فى عملية تفكيـر متواصل ، وفى مواجهة اقطاب الشطرنج فى البلاد ، وقد حاز قصب السبـق فى الساعات الاولى من المباراة ، واستغل عقله استغلالا براقـا انتهى بوضع شاه خصمه تحت الحصار ، وفجأة أسر الفرس ثم

عزل الوزير فانتهى كل شىء ، فهل تعرف كم كسب من مـــال خلال الايام الثلاثة التى قضاها فى لعب الشطرنج ؟

قـــال الساقـــى :

ـ كم كسب من مال ؟

قال الرجـــــل :

ـ خمســة آلاف دولار ، والآن اصبـــح فى حاجــة الـــى التسلية والراحة .

قال الساقى وهو يجفف المشرب بفوطة كانت فى يده : خذه الى مكان آخر يشبع فيه حاجته الى الراحـــة والتسليـــة ، فان عندى من المتاعب ما يكفى .

فهز الرجل رأسه وقال وهو يبتسم مشيرا الى الكـــؤوس الفـــارغـــــة :

ـ كلا ، فان المكان يروقنا ، كرر الطلب من فضلك

وهز الساقى رأسه فى بطء ، وبدا عليه التضايق ، ومع ذلك أمره فى عناد قائلا :

ـ انقله بعيدا عنى قلت لـــك ، فاننى لن اغـــرف الشـــراب لبلهوانات من حديد .

فتدخلت الآلة مصححة وقالت :

ـ بهلوانات ، هكذا يقال لا بلهوانات .

كان يوجد على مبعدة اقدام من الحاجز رجـــل كان يشرب الكأس الثالث ، وبدا عليه أنه اصبح على استعداد للمشاركة فى هذا الحديث الذى كان يستمع اليه بكامل الانتباه منذ البدايـــة ، وكان رجلا فى منتصف العمر ، وقد شد ربطة عنقه الى أسفل ، وفتح ياقة قميصه ليستشعر الراحة ، وهو على وشـــك تجـــرع ثمالة كأسه الثالث ، فدفعه ذلك الى أن يأخذ جانب المفترى عليه العطشان، فقال للساقى :

ـ اذا كانت الآلة تريد أن تشرب فاعطهـــا كأســـا ودعنـــا من المماحكـــة .

فالتفت صاحب الآلة الى هذا الصديق الجديد وهو يرفع له يده الى صدغه فى وقار ويحييه تحية الزمالة والامتنان ، ثم لاحظ أنه كما لو كان يوجه التقريع الى الساقى :

ــ انك تعرف حالة الانسان حينما يصاب باجهاد عقلى وكيف يصبح فى حاجة الى كأس من الشراب يفرج عنه

فأجاب الصديق ·

ــ اعرف ذلك بالتأكيد ، وهى حالة طبيعية جدا .

وسرت حركة فى أركان الحان ، واصبح يبدو على بعض الرواد أنهم يأخذون جانب الساقى ، وعلى آخرين ، انهم يأخذون جانب صاحب الآلة ، ثم وقف رجل كئيب طويل القامة كان يجلس الى جانبى وتكلم :

ــ الى بكأس من الشراب يا بيل ورفقا بالليمون

فنطقت الآلة قائلة :

ــ انهم لا يستعملون الليمون فى مثل هذه الامكنة .

فصاح الساقى وهو يدق الحاجز بيده :

ــ هذا يكفى ، هلا أبعدت عنى هذا الشىء او أخرجته من هنا ؟ قلت لك اننى على غير استعداد لهذا العبث ، فان على أن اسير شؤون الحان ، لا أن أقف لاستمع الى هذا « العقل

الميكانيكى » ، أو ما شئت أن تدعوه ، فالى الجحيم به

فتجاهل الرجل هذا الانذار النهائى ، وتوجه بالحديث الى صديقه الذى كان قد شرب ما تبقى فى كأسه ، وهو يقول فى تودد :

ــ ان هذا لا يعنى أنه أصبح متهالكا بعد ثلاثة أيام قضاها فى لعب الشطرنج ، فهل تعرف ان هناك سببا آخــر يدعوه الى طلب الشراب .

قال الصديق : كلا ، ما هو هذا السبب الآخر ؟

اجاب الرجل : لانه كان يغش فى اللعب

وعند سماع ذلك قهقهت الآلــة فى سخرية ومــالت احدى ذراعيها الى الانخفاض ، وتوهج الضوء فى احدى فتحاتها .

وهنا عبس الصديق ، وبدا عايه أنه اصيب فى كرامته ، كما لو كان قد وضع ثقته فى غير محلها فقال :

ــ لا يوجد من يستطيع أن يغش فى لعب الشطرنج ، هــذا مستحيل ، كل شيء مكشوف وموضوع فوق الرقعة فى الشطرنج ، فان من طبيعة لعبة الشطرنج أن يكون فيه الغش من المستحيل

أجـــاب الرجـــل :

ـــ هذا ما اعتدت أن أعتقده ، ولكن هناك طريقة الغش فيه

قال الساقـــــى :

ان هذا لا يثير لدى أى استغراب ، فمنذ اللحظة الاولى التى وقع فيها نظرى على هذه الخزعبلة : أخذتها مأخذ الانذال

قال الـــرجـــــل :

كأســـان ، ومـــاء

فحملق الساقى فى العقل الميكانيكى وقـــال : لا أستطيع أن أقدم لك الشراب ، وما أدرانى أنه لم يفقد الرشد بعد ؟

وأجاب الرجـــــل :

ـــ هذا أمر بسيط ، ألق عليه سؤالا

وتجمع الرواد وحملقوا فى المرآة ، فلقد أصبحنا غارقين الى الاذقان فى موضوع العقل الميكانيكى ، ووقفنا منتظرين ، وكان الدور الآن دور الساقى فقال :

ـــ ألقى عليه سؤالا ؟ مثل ماذا ؟

ـ أى سؤال شئت ، لا فرق ، اطلب منه مثلا أن يضرب رقما ضخما فى رقم آخر ضخم ، اننا لا نضرب الارقام فى بعض حينما نكون فى حالة فقدان الرشد ، أليس كذلك ؟

واهتزت الآلة اهتزازا خفيفا كما لو كانت تتخذ استعدادات داخلية ، فقال الساقى فى حقد :

ـ اضرب عشرة آلاف وثمانمئة واثنين وستين فى تسعة وتسعين .

وكان من الملحوظ أنه زج برقم تسعة مرتين فى العملية ليزيدها تعقيدا فارتجبت الآلة ، وبصق أحد أنابيبها ، وغيرت يد وضعيتها فى خفة .

وجاء الرد من الآلة :

مليون وخمسة وسبعون ألفا وثلاثمئة وثمانية وثلاثون .

لم يتحرك كأس من مكانه على اثر ذلك ، وانما انصرف الناس يحملقون فى المرآة ، وانصرف آخرون الى تأمل الوجوه ، وآخرون الى تأمل الرجل وآلته .

وأخيرا استخرج شاب ذو عقلية حسابية ورقة وقلما ، ثم انتبذ زاوية وانهمك عـدة دقائق فى عملية حسابية ، ثـم خرج وصاح : ان الجواب صحيح ، وليس من المستطاع اتهام الآلـة بأنهـا فاقـدة الرشـد .

وعند ذاك أتجه الناس بانظارهم الى الساقى الذى بدأ يملأ فى امتعاض الكؤوس التى رفض أن يملأهـا من قبل ، فتـناول شرابه وصب شراب الآلـة فى جوفهـا ، وتضاءلت انوارهـا وسقط لها ذراع .

وظل الحان ساهما برواده كما لو كان قد تحول الى سفينة تمخر عباب بحر هادىء وديع ، ويبـدو أن كل واحد منـا كان منصرفا الى محاولة هضم ما رأى وسمـع عن طريق الشراب ، ولكن عملية اعادة ملء الكؤوس فترت كثيرا .

وكان الرجل الذى أرخى ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه قـد صفى حسابه ، ثم وقف على اثر ذلك وسعى نحو الرجل ليقـف بيـنه وبين الآلة ، ثم وضع ذراعا على كتف الرجل واخرى على الآلـة وقـال :

ــ هيا بنـا نخرج من هذا المكان لنبحث عن مكان آخـر احسن منـه .

فاضاءت الآلة قليلا وبدا عليه أنها أخذت تفقد الرشد .

قـــال الرجــــــل :

ــ حسنا ، هذا يناسبنى جدا ، ان سيارتى فى الخارج .

وسدد الرجل حسابه ، واضاف اليه معروفا ، وتأبط الآلة فى هدوء وسعى مع رفيق الليلة نحو باب الحان ثم خرج الى الشارع .

وقف الساقى يحملق ثم واصل العمل وهو يقول فى سخرية : سيارته توجد فى الخارج اذن ؟ أليس هذا جميلا !

وهنا قام شخص كان يجلس الى حاجز المشرب على مقربة من الباب ، وغادر مقعده لينحى أستار النافذة ويطل منها ، وظل يراقب قليــــلا ما يجرى فى الشارع ثم عــــاد الى مكانه وتوجه بالحديث الى الساقى قائلا :

ــ انه اجمل مما تظن ، ان سيارته من نوع « الكاديلاك » واكن احدس : من من بين الثلاثة ــ حينما ركبوا ــ تولى القيادة ؟

صحراء، ياشفة التأريخ

نذير العظمة

صحراء ياشفة تشدو وتبتسم ... ان الليالى على عاداتها ظلم
غنى النجوم التى لم تبد طلعتها ... فسوف يطلعها من قلبنا النغم
غنى الرمال ففى كثبانها شرف ... وفى مروءاتها من رحمنا رحم
ومن بطولاتها حمراء ساقية ... تلهف الروح فى اجوائها نسم
صحراء ياشفة التاريخ أنت لنا ... حرف تخلد من تسطيره القلم
انا حلفنا لساحات الفدى ابدا ... ايان تضطرم الساحات نضطرم
حتى يكبر فجر فى مآذنها ... وينطق النقش فى الجدران والرسم

فكـــم تطـّــع من شرفاتهـــا بطـــل		ملثـــم ، واكتست بالاخضر القمـــم
وكـــم تقيـــأ فى واحاتهـــا ظمـــىء		وكم تحطـــم من ضربـــاتها صنـــم
يـــا شعلة لهب التوحيـــد واقدهـــا		تحيـــا على ضوئها الاخلاق والقيم
ان الرمـــال التى غذتـــك كم سكبت		دمعـــا تفـــتـــح فى حبـــاته الحلـــم
ضم الجناح عليها الوحى فانفجرت		سخيـــة الخصب فى وجدانها ديـــم
تشكل الكـــون من هـــدى وعافيـــة		فتشبع الارض من نـــور وتغتـــنم
وترضع الحب من انساننـــا امـــلا		بالخلـــق والوعى والايمان يلتحـــم
صحراء ياشفـــة التاريخ أنت لنـــا		جـــرح يغنـــى واشراق لـــه حمـــم
ماذا يحـــد الاولى فى فجرك اتحدوا		ماذا يضير الاولى فى حبك اتهمـــوا
يا منبـــع الشعر والالهام يـــا شفقا		اعطى واغنى فما يجدى الذى كتموا
هـــذى مغاربنـــا ضمت مشارقنـــا		ووحـــد القلب منها الشوق والالـــم
تقحمت رصـــد الجولان فانفتـــحت		اســـراره وتعـــرى الغاصب الأثـــم
كم كان من قبل فى سينـــاء أحجيـــة		سيـــان ان قفـــل الابطال او هجموا
وهم الخطوط التى عزت على دمنـــا		صارت اذا خطفتـــها الروح تنهـــزم
انا تركنـــا من استـــشهادنا لهبـــا		ازرى باحصائهم واستوحش الرقـــم

صـار العبـور لنـا جسرا وقنطرة ... مـذ عبدتـه باجسـاد انـا همـم
فى كل حبـة رمـل شاهـد لسـن ... وجه الثريـا لـه اسطـورة وفـم
صحراء أنـت لنـا صدر وخاصرة ... ومهجـة وجنـاح كيفمـا رسمـوا
لا ينكر اللـون والاشكال مهجتنـا ... ان نعبر انبض فى اشكالهم يجموا
ولا يجـوز على اسمائنـا حـدث ... مادام يسطع من اصدائهـا القـدم
صحراء رسمك مرهـون بجوهرنـا ... كالقلب بالنبـض لا بالشكل ينـتظم
مازال رفـك رف الوحى رايتـنـا ... اذا تفـرد فى غـرب انـا سـنـم
ماذا يقول الاولى فى رملك اختباوا ... نعامة وانبـرت من جريهـا القـدم
هذى الشهادات فى امدائنـا طلعت ... فجرا تهـاوت على اقدامـه الظلـم
وانت انـت لدى الاجيـال ملحمـة ... كأنهـا يقظـة للـضـوء او حـرم
الارض تشهـد ان الترب تربتـنـا ... وأن بـارئهـا مـا بيـنـنا حكـم
مصائـر وحدتنـا فى صحائفـهـا ... دم يسيل شذى والشمس تبـتسم
صحراء ان هـت الفرسان كان لهـا ... وهج تسـاقط من اشعاعه الخـدم
مواكب يحـرس الاحرار موكبهـا ... وصحـوة كل نـوم بعدهـا تهـم
يـا مشتهى لهـب فى القلب كل دم ... على جبيـنك من جيـل الفدى عنم

لـه على الدهـر والاحكام شعشعة — لنورهـا نحـن والايـام تحتكـم
وللشـهـادات واحـات مـغـردة — وللبطـولات جـرح مشـرق ودم
حدائـق الموت فى ارواحنـا عبـق — سكب سكبـنـاه والاجسام تتـحطم
ظاى على الرمـل رفـات مكرمـة — يعلـو على الدهر من راياتها علـم
ظلى كمـا انـت للاجيـال ملهمـة — ظلى كمـا انت للابطـال معتصـم
كتـائب الفجـر والتحرير رائـدة — تفـدى الذين على ساحاتك اخترموا
صحراء انـك فى وجداننـا حـرم — صحراء انـك فى اشواقنـا ضـرم
وسـورة انـت من قرآننـا جلـل — لا يكذب الحرف لا تستعجم الكلـم
وانت صورة حلـم عـز مشرقـه — وعـز مغـربـه وعـزت النظـم
وانت انـت لنـا بيضـاء ناصعـة — من قبـل ان تولـد الرايات والامم
اليك عقبـة مـازال الجـواد بـه — يعـدو ، ومازالت الاشواق تحتدم
يشك فى النجم من رايـاته ألـقـا — وتصهل الخيـل فى يمنـاه واالجـم
الشمس يا ابن زيـاد انت تطلعهـا — وتجبـه العتـم فى الجلى وتصطم
وتكتب الحرف من تاريخنـا سورا — تـدق كل فصـول الـذل تلتـهـم

الربـاط — **نذيـر العظمة**

المغرب
في كتب الجغرافيين القدماء(*)

عبدالقادر زمامة

يصل الحديث بنا عن المغرب في كتب الجغرافيين القدماء . الى عصر الموسوعات الكبرى لنتحدث عما كتبه بعض الموسوعيين العرب عن المغرب ..

وقد كتب مؤلف موسوعة صبح الاعشى فصولا هامة عن المغرب وجغرافيته ، وتاريخه ، وبعض معالمه الحضارية ، ونظمه الادارية ، والسياسية ، على عهد بني مرين ، وكان مؤلف هذه الموسوعة يملك مصادر مفيدة ، مغربية ، ومشرقية ، سبقت عهده ، او عاصرته . ومن أهم المصادر :

(*) انظر العدد الثامن من مجلة (الثقافة المغربية) وانظر العدد التاسع عشر من مجلة (البحث العلمي) .

تاريخ العبر لابن خلدون . ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري . وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمـــري ايضا . وكتاب روض القرطاس للمؤرخ ابن ابى زرع الفاسي . ونزهة المشتــــاق للشريف الادريسي . وكتاب الجغرافية لابن سعيد الاندلسي . وكتــــاب الروض المعطار للحميري السبتي . وكتاب تقويم البلدان لابى الفداء ...

والى جانب هذه المصادر هناك مصادر عامة وخاصة اخرى استفى منها القلقشندي معلوماته الواسعة . منها المعروف عند الدارسين ومنها المحجوب عنهم الى الآن .. !

واول ما نلمسه فى المعلومات التى جاءت فى هذه الموسوعة عن المغرب هو تلك الدقة . وذلك الضبط اللذان استعملهما المؤلـــف فى دراســـة الناحيتين : الجغرافية ، والتاريخية ، مع تتبع الاحداث والتطورات الى عصره ، او على الصحيح الى العصر الذي وقفت فيه مصادره التي يعتمد عليها ، ويستقي معلوماته منها .. !

واخذت عاصمة بني مرين ، فاس من صبح الاعشى فصلا طويــــلا تناول الجغرافية والتاريخ . كما تناول فاس القديمة ، وفاس الجديدة ، التي جعلها بنو مرين عاصمة الدولة ومقر حكامها .

والقلقشندى يقسم فاس الجديدة الى ثلاثة اقسام متميزة : المدينة البيضاء ، ومدينة حمص ، وربض النصارى .. !

والاولى هي التي بناها يعقوب ابن عبد الحق ...

والثانية هي التي يعرف محلها ــ على حد قوله ــ بالملاح بناها ولده أبو سعيد ، الى جانب المدينة البيضاء .

والثالثة ربض النصارى وهى المتخذة لسكنى النصارى من الفرنــج الذين كانوا مرتزقة فى الجيش المريني ...

وتفصيل هذه المعلومات عن فاس الجديدة بهذه الصورة نجده عند المؤرخ الجغرافي ابن فضل الله العمري فى كتاب مسالك الابصار وقد نقلها القلقشندي عنه ، ويلاحظ ان المصادر المغربية المكتوبة فى عصر بني مرين لا تتوفر على هذه المعلومات بهذا التفصيل ـ فيما نعلم ـ .

ويظهر ان ابن فضل الله العمري استقاها من اصدقائه المغاربة والاندلسيين ، الذين كانوا متصلين بدولة بنى مرين ، ويعرفون عن عاصمتها الشيء الكثير .. ! وقد حدثوه عنها ايام رحلاتهم فى المشرق واتصالهم به . ونعرف من هؤلاء الاصدقاء جماعة ليس الحديث منصرفا الان الى ذكر اسمائهم ورحلاتهم .. !

والناحية الاقتصادية التى جعلت هذه المدينة تزدهر اقتصاديا ، فسرها المؤلف بأن موقعها جاء فى نقطة متوسطة بين مراكش فى الجنوب وسبتة في الشمال وتلمسان فى الشرق . زيادة على اتصالها بالصحراء عن طريق سجلماسة .

ويتحدث عن مدينة سبتة وموقعها وتاريخها ، والاحداث التي مرت بها ، منذ الفتح الاسلامي الى عهد دولة بني الاحمر ، وهذا الحديث يبين دقة معلومات المؤلف وتسلسلها عبر التاريخ .

كما يتحدث عن مدينة مراكش وتاريخها ، وبعض مآثر الموحدين بها الا ان أهم شيء يفيدنا به هو هذا النص القصير المفيد : « وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين طوله مئة وعشرة أذرع وعلى بابه ساعات مرتفعة فى الهواء خمسين ذراعا . كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مئة درهم تتحرك لنزولها اجراس تسمع على بعد ، تسمى عندهم بالمجانة .... !!! (1) »

---

(1) صبح الاعشى ج 5 ص 162 .

فاذا صح هذا — ولا مانع من صحته — فان ساعة جامع الكتبيين بمراكش على عهد الموحدين تكون اقدم من الساعات الثلاث المشهورة . وهي :

— ساعة ابى عنان بمدرسته بفاس التي تحدث عنها الجزنائي (2)

— وساعة ابى حمو بمسجد تلمسان التي تحدث عنها يحيى ابن خلدون (3)

— وساعة الغنى بالله فى غرناطة التي تحدث عنها (4) ابن الخطيب فى الجزء المخطوط من (نفاضة الجراب) .

ويتحدث المؤلف عن سجلماسة ، واسواقها ، وتاريخها الطويل الحافل ، المسلسل بالاحداث منذ قامت بها دولة الخوارج الصفرية . كما يتحدث عن أسفي ، وسلا ، وسوس ، وقصر عبد الكريم ، وطنجة ، ودرعة ، واغمات ، وتادلا ، وازمور ، والمزمة (الحسيمة) وبادس .

ويسمي إلجبال المغربية هكذا :

— جبل درن ، ويعني به ما يشمل الاطلس الكبير والمتوسط .

— جبل جزولة ، ويعني به الاطلس الصغير .

واما جبال الريف وما حولها فيسميها جبل غمارة . . . !

ويتحدث عن أنهار المغرب الا أنه لا يذكر الا نهر ملوية ، ونهر سوس، ونهر سجلماسة ، ونهر فاس الذي يصب فى نهر سبو . . . !

---

(2) جنى زهرة الآس ص 53 .
(3) فجعة الرواد . ط الجزائر .
(4) الخزانة العامة رقم 256 ك .

والناحية الاقتصادية فى المغرب يعرفها جيدا ويتحدث عنها باسهاب: الحاصلات ، والفلات ، والاشجار ، والفواكه ، والاسواق ، والاسعار ، والعملات الرائجة ، والصناعات الشهيرة ، والقوافل التجارية التي تمر بالمغرب وتقطع اقاليمه من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الفرب وبالعكس .. !

ويأتي القسم التاريخي مشحونا بأخبار الادارسة ، ومغراوة ، وبني يفرن ، والعبيديين ، والامويين ، ويعتمد فى ذلك على ما كتبه ابن ابي زرع فى روض القرطاس . وما كتبه ابن خلدون فى العبر مع تصرف فى الترتيب والتبويب وهضم لكل ما راى وما سمع . واهتمام بأشياء ، واهمال لاخرى .. !

واخبار المرابطين يلخصها عن القرطاس . ويذكر حركة ابن ياسين فى الصحراء باقتضاب وكأنه لم ير ما كتبه البكري عن هذه الحركة الواسعة فى الصحراء قبل ان يزحف المرابطون الى ناحية الشمال ... !

واخبار الموحدين يلخصها عن العبر تلخيصا مفيدا الا انه كاد يهمل **النواحي الحضارية من تاريخ دولة الموحدين ، ولا ياتي الا باشياء قليلة** كاشارته للساعة التي كانت ازاء مسجد الكتبيين بمراكش .. !

ويفصل تاريخ بني مرين تفصيلا وينقل جله عن ابن خلدون وبعضه عن ابن فضل الله العمرى الذى أمده بمادة حضارية وجغرافية بالغة النهاية فى الاهمية والدقة .. !

وحيث ان ابن فضل الله العمري سجل فى كتابه :

« التعريف بالمصطلح الشريف »

النظم الادارية والسياسية التي عاصرها ، ومنها أنظمة دولة بني مرين فى المغرب . فان القلقشندي عقد عدة فصول للحديث عن هذه النظم فى الجند والجندية ، والازياء الخاصة برجال الدولة . وطبقاتهم من

امراء ووزراء وكتاب وقضاة وعلمـاء وولاة . والمرتبـات والعطايـا . والوظائف ، والضرائب ، والجبايات ، والرايات ، والشارات الخاصة .. !

وهكذا يصف القلقشندي مجالس الحكم ، ونظام عرض القضايـا والشكايات والمشاورات والقرارات الهامة فى أيام الحرب وايام السلم.!

والنظام اليومي العادي الذي يقضيه سفرا وحضرا رجال هذه الدولة يعرف المؤلف عنه الشيء الكثير ، لذلك نجده يجمع الاشباه والنظائـر ويقارن ويتأمل الموافقات والمفارقات بين ما هو هنا فى المغرب وما هو هناك فى المشرق .. !

وحيث ان عصر ابي الحسن المريني ، نال من قلم ابن فضـل الله العمري مكانة خاصة ، وجمع معلومات واسعة حوله فى كتابيه (مسالك الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) .

فان القلقشندي اضفى على هذا العصر حلة من الاكبار والعظمة تبعا لابن فضل الله العمري ، وغيره من المؤرخين والرحالين ... !

ونحن على يقين ـ بعد بحث دقيق ـ ان ابن فضل الله العمري لم يزر المغرب ولم يسبق له ان وطئت قدماه ترابه ، رغم ان بعض الباحثين المعاصرين يبدو له ان ابن فضل الله العمـري زار شمـال افريقيـة والاندلس ... !!! (5) .

ولعل الذي جعل هذا الباحث الفاضل يبدو له هذا ، هو انه استكثر عليه وهو مشرقي ان يعرف كل هذه المعلومات عن المغـرب وبهـذه الدقة .. ! دون ان يشاهده .. !

وهنا ينبغي ان نشير فقط الى اتصال الرحالة ابي اسحاق ابراهيـم ابن الحاج النميري الذي كان على صلة وثيقة بفاس وبني مرين وكتـب

(5) انظر محاضرة الاستاذ عبد الله عنان المنشورة بمجلة تطوان ع 3 ـ 4 (1958 م ـ 1959)

رحلات ضاع بعضها وبقي الآخر ... بابن فضل الله العمري فى المشرق ايام رحلته لقضاء فريضة الحج مع رفقة من الاندلسيين والمغاربة فيهم خالد بن عيسى البلوي مؤلف رحلة (تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق).

وقد كان هذا الاتصال من حسن حظ العمري حيث استفاد من الاخبار والمعلومات ما جعله يدقق فى تسجيل معلوماته عن المغرب والاندلس على عهد بني مرين وبني الاحمر ...

وابن فضل الله العمري هو الذي سجل هذا الاتصال بينه وبين هذه الرفقة من المغاربة والاندلسيين التي كان المع افرادها هو ابو اسحق النميري ... ؟ الرحالة الاديب المطلع ... ! وكان هذا الاتصال العلمي بمدينة القاهرة ... ! سنة 737 هـ وقد اثنى ابن فضل الله على نبوغ ابي اسحق النميري وتبحره وذكائه وهو ما يزال فى ريعان الشباب (6) .

وهكذا نستطيع ان نفسر عمق الابحاث والمعلومات التي جاءت فى موسوعة صبح الاعشي . وموسوعة مسالك الابصار بأنها معلومات لها سند متصل بالمغاربة والاندلسيين الذين كانوا يقومون بعدة رحلات الى المشرق ويتصلون اتصالا وثيقا باعلامه .. !

فـــاس **عبد القادر زمامة**

---

(6) انظر مخطوطة المسالك باريس 2327 / 214 ب وانظر الاحاطة ج 1 ص 350 .

ياصحرائي . . .

عبدالوهاب ابن المنصور

- ايتهـا الفاتنـة الحبيبـة ، الغاليـة العزيـزة
يا حلم الطفولة ، وأمل الصبا ، وفتنة الشباب
يا وردة تفتقت عن نضرتها الأكمام ، ونفحة سارت بعطرها الأنسام
ربيت على هواك، وعشت على ذكراك ، أفيريدون مني اليوم أن انساك؟
- ايتهـا الفادة الرعبوب ، البضـة الطـروب
قسمـا بنـون ، والقلـم وما يسطـرون
بليلـك الفاسـق ، ونخلـك الباسـق
بحبات رمالك الذهبية ، وعراجين تمارك السكرية ، بسحر جمالك ، وعزة رجالك ، لنعيدنك ياصحرائي الى أبيك ، ونجمعن شملك بذويك، ونسفعن بنواصي غاصبيك ومضطهديـك
- ايتهـا الصحـراء الحبيبـة
يا مهوى القلوب ، وقرة العيون ، وثلج الصدور
انا أهواك ، واذوب شوقـا الى رؤيـاك
أحبك كما أحب فاس ، واعشقك كما أعشق مراكش ، وأهيم بك كما اهيم بسبتـة وتطـوان
كذلك ارضعتني امي ، وعلمني ابي ، ولقنني معلمي
- قد ينزعون النور من بصري ، والبسمة من شفتـي ، ولكنهـم لن يستطيعوا أن ينزعوا حبك من قلبـي
- يا حبيبتـي ، يا صحرائـي .

الربـاط		عبد الوهاب ابن المنصور

ملامح الشعوب في أدب الرحلات

جميلة البورقادية

مقـــدمـــــــــــة :

يعتبر أدب الرحلات مادة خصبة للكشف عن صور البلدان والشعوب الاجنبية ، اذ هو المعين الذي يستتى منه اهل اية أمة معلوماتهم عن الامم الاخــــــرى .

ومن المعلوم ان هذه الصور ــ حقيقة كانت أو مزورة ــ تنعكس فى قصص الكتاب ومسرحيات المؤلفين . وتتعدى ذلك فتغزو ادمغة الساسة والمفكرين . ولاجل ذلك عمد الاستاذ (جان ماري كاري)
الى ما كتبه الرحالون من الادباء الفرنسيين عن مصر ، وجعله موضوعــــا لدراسة مستفيضة ، تحدث فيها عن الصور التي رسمها هؤلاء الرحالـــة

واختلافها وتعددها حسب ميول الكتاب وتكوينهم الثقافي ، كما اوضح ما كأن لهم من تأثير في الانتاج الادبي لغيرهم من معاصريهم ، وممن كتبوا عن مصر بالــــذات .

واذا كان للرحالين الفضل الاكبر في تكوين آراء عن الاقطار التــــي زاروها بتصوير ما شاهدوه ، فلا يغيبن عن الاذهان ، ان مشاهداتهم كثيرا ما تكيف حسب ميولهم واهوائهم ، وحسب احوالهم النفسية والاجتماعية .

فهذه ((مدام دوستايل)) التي هاجــــرت الى ألمانيا هربا من طغيان ((نابليون)) وتحكمه وكبته الآراء الحرة ، كانت ترمي من هجرتها الى التمتع بحرية حرمتها في بلدها فرنســـــا . ولذا جـــاءت آراؤها عن ألمانيا متسمة بالمثالية التي كانت تصبو اليها ، ورغم ان كتابتها هاته لا تخلو من مبالغة فقد استطاعت ان تؤثر بآرائها في جيل من معاصريها كتابا وشعراء حتى ق 19 م ، وتراءت لنا ألمانيا من خلال انتاجهم بلدا يرتع أهله في جو من الحرية المطلقة . وقد كانت نظرة ((دوستايل)) محدودة لانها لم تتصل في ألمانيا بغير رجال الادب الارستقراطييــــن المقيميــــن بمقاطعة ((ساكس)) وبعض الفلاسفة في ((برلين)) .

وشوقي نفسه لم ير في إسبانيا الا بعض المدن التي زارها زيـــارة عابرة ، ولم يكتب الا عن اسبانيا المسلمة ومآثرها ، فكان بذلك يعيـــش بثقافته وميوله في الماضي ، مهملا تصوير البلاد وحاضر اهلها .

وهذه الصورة كثيرا ما غلبت على انتاج الكتاب العرب ورحالتهـم ، فلم يروا من اسبانيا الا جانبها الاسلامي ، وظلوا يبكون فيهـــا الفردوس المفقود الذي طرد منه أجدادهم .

ملامح الشعب المصري في الادب الفرنسي :

في العصر الوسيط ظهر المسلمون في ملاحم ومسرحيات الادب الفرنسي في صورة وثنيين ذوي خلق سيء ، ينهزمون بسهولة امام ابطـال المسيحية فيرتدون عن دينهم .

أما فى عصر النهضة ، فقد غير الادب الفرنسي وجهه شطر الادب اليوناني واللاتيني يستلهمه ويحاكيه .

ثم رجع اليه الاهتمام بالشرق مرة اخرى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من خلال صور جديدة ، فما هي هذه الصور الجديدة للشرقي فى أدب الرحلات على الخصوص اثناء هذه الفترة ؟

انه ذلك الجميل الطلعة ، الخصب الخيال ، العاقل ، الحميد الصفات، يمتزج طموحه بالغرور ، المهذب الخلق الطيب العشرة ، الكريم الضيافة، الميال الى الكسل ، المتسامح غير المتعصب ، المؤمن بالخرافات ، الخاضع لسلطة الحكام الطغاة المستبدين ، المحترم لحرية الآخرين فى العقيدة .

وواضح ان العناصر النفسية والاجتماعية لعبت دورا مهما فى تكوين هذه العقيدة وصبغتها بصبغتها ، ثم ساعدت على رواجها ،.وقد كان اضفاء كثير من الصفات المحمودة على رجال الشرق نتيجة ما لقيه الرحالة الفرنسيون من كرم الضيافة وحسن الاستقبال .

وكثيرا ما أطالوا فى وصف ظلم الحكام وسوء استعمالهم لسلطاتهم . فجعلوا ذلك وسيلة لمهاجمة سلوك حكامهم تحت ستار مستعار من الشرق ونظام الحكم فيه ، كما شنوا حملة شعواء على العقائد السائدة ، ضاربين امثلة من الشرق فى التسامح وحرية الاعتقاد ، ثم انهم لم ينسوا أن يصوروا الطاعة الذليلة للشعوب الشرقية التي لا يند عنها صوت باحتجاج او معارضة .

وفى القرن التاسع عشر دخلت مصر الى الادب الفرنسي ، فعني الكتاب الفرنسيون برسم صورة لها فى أدبهم ، واتسعت دائرة وصفهم لشعوب تلك البلاد وعادات أهلها وتقاليدهم ، واعتنوا ايضا بوصف مناظرها الطبيعية وآثارها التاريخية ، وما يسودها من نظم ، ويشهد المؤرخون ان رحالة القرن 19 انفردوا بميزات التحري والاستقصاء والدقة فى الوصف،

ولذلك كان لما كتبوه عن البلاد الشرقية قيمة تاريخية وعلمية كبرى ، رغم ان هذه الصور لا تخلو من مخلفات العصور السابقة من آراء خاطئة أو مبالغ فيهـــــا .

لهذا كان على الباحث فى هذا المضمار أن يفحص تلك الاخبـــار ، ويبين وجه الخطأ والصواب فيها .

ملامح الشعب الفرنسي فى رحلة احد الرحالين المغاربة :

اقبل المغاربة بدورهم على أدب الرحلات وأخذوا يتنافســـون فى الاجادة فيه خصوصا فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، أي عندمـــا ازدهرت الآداب بفضل تشجيع المرينيين الذين كانوا يولون أخبار الماضي واحوال البلاد الاجنبية اهتماما خاصا ، والفضل فى تسجيل أخبار رحلة ابن بطوطة ، يرجع الى ابى عنان المريني .

لذا كانت قائمة الرحلات فى خزانات المغرب لا تكاد تحصى ، وهـــي قائمة تضم ثروة تاريخية جغرافية ، علمية ادبية ، لمختلف بلاد المعمور .

ربما يتساءل عن الاسباب الداعية لاقبال المغاربة على الاسفـــار ؟ فنجد الجواب عند الاستاذ محمد الفاسي فى مقدمته للرحلة السفاريـــة (الاكسير فى فكاك الاسير ، لمحمد بن عثمان المكناسي) التي هـــي من تعليقـــه وتحقيقه .

اذ يرجع ذلك الى عدة اسباب هي :

— بعد المغاربة عن الديار المقدسة التي يحنـــون اليهـــا فى كـــل وقـــت وحيـــن .
— ولوعهـــم بالسياحـــة وارتيـــاد الآفـــاق .
— ارســـال السفـــراء من قبـــل الملـــوك .

— التغرب من أجل طلب العلم ، او بغية التعرف على كبار العلمـــاء .

— مرافقة الكتاب للملوك ولرجال الدولـــة فى اسفـــار رسميـــة .

وبناء على هذه الاسباب جعل الاستاذ محمد الفاسي الرحلات حسب غاياتها انواعا عدة :

رحلات حجازية ـ رحلات دراسية ـ رحلات سياحية ـ رحـــلات رسمية ـ رحلات أثرية ـ رحلات اكتشافية ـ رحلات زيارية ـ رحـــلات سياسية ـ ورحلات علمية ـ ورحلات مقامية ـ اى تـــروى فى شكـــل مقامات ـ رحلات دليلية ـ ورحلات خيالية ـ ورحلات فهرسية ـ ورحلات عامة جمعت كثيرا من الاغراض السابقة كرحلة ابن بطوطة .

ورحلات سفارية ومعناها قيام المرتحل بسفارة لبلده لدى دولـــة اجنبيه ، وتكون من انشاء السفير نفسه احيانا ان كان من رجال العلـــم والادب ، وقد برز المغاربة فى هذا النوع ، والفوافيه كثيرا ابتداء من ايام السعديين .

والبحث فيما كتبه الرحالون العرب والمغاربة خصوصا عن البلاد الاوربية يتطلب الصفحات الطويلة ، لذلك اخترت صورا من رحلة سفارية لأديب مغربي يدعى الحاج ادريس ابن الوزير محمد بن ادريس العمراوي الفاسي ، قام بها اواخر القرن 19 مبعوثا من طرف المولى عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبداللهبناسماعيل العلوي ، وذلـــك سنـــة 1878 م سماها « تحفة الملك العزيز بمملكة باريس » مطبوعة ، وتوجد بالخزانـــة العامة تحت رقم (23440) ، وفى تضاعيف هذه الرحلة نجد صورا كثيرة وطريفة للشعب الفرنسي آنذاك حاكما ومحكوما .

فلنستمع اليه وهو يتحدث عن الفرنسيين من حيث طباعهم ، ومن حيث نهضتهم الفكرية ، واهتمامهم بكل ما جد فى عالم الثقافـــة ، فيقـــول : (لا يكلون من الكلام ولو جلسوا ما جلسوا ... اكثروا السؤال عن العلوم والكتب ... عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم ، واللغات ، أي لغة كانت

وعن كتب التاريخ والسير والحكم والادب ، وكتب الحكايات ، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتبا عديدة من كتب الاسلام الى اللغة الفرنساوية مثل كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة . وكتاب الامثال للسمعاني والقاموس ، وكتاب روض القرطاس ، وكتاب الف ليلة وليلة ، ويشترون من كتب المسلمين الكتب الرفيعة ، ويتغالون فى ثمنها ، ويشترطون جودة الخط وصحة الضبط . ولهذا الترجمان الذي جاءنا من عند عظيمهم معرفة بكثير من علوم المسلمين ، ويكتب بالخط المشرقي كتابة جيدة ، ويحفظ أشعارا عربية ونوادر أدبية ، ويستحضر الآيات والاحاديث والقصص ، وتواريخ الامم الماضية ، وملوك العرب والعجم زيادة على ما يحفظ من الالسن ، فانه كما يعرف اللسان العربي يعرف اللسان الفارسي والتركي ، ويعرف جميع السنة النصارى ، وقد كان ينشر أشعارا ادبية ونوادر مستظرفة) . ان هذا النص على بساطته يعطينا صورة واضحة عن الحياة الفكرية فى اواخر القرن التاسع عشر بفرنسا ، ويشرح لنا مدى الصلات الحقيقية بين أدبنا وعلومنا ، والأدب والعلوم عند الاوربيين خصوصا الفرنسيين منهم . وقد ساد هذا التيار أروبا باكملها .

وهذه صورة أخرى للحياة الاجتماعية فى ((باريز)) وهي وان بولغ فيها بعض الشيء تحمل صورتين ، صورة لعقلية كاتب مغربي آنئذ ، وصورة أخرى للطريقة التي تعيش عليها العائلة الفرنسية . ((ويكفي فى تقبيح سيرتهم وخبث سريرتهم ، غلبة النساء عليهم وجريهن مطلقات الاعنة فى ميادين الفجور والفواحش ، من غير ان يقدر احد على منعهن مما يردنه من ذلك ولا تعنيفهن ، وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم فى اتباع مرادهن اشهر من تذكر . ويقولون ان لهذه المدينة زيادة فى ذلك (يقصد باريس) حتى انهم يقولون فى أمثالهم : ((باريز جنة النساء ، وجهنم الخيل)) والمرأة هي رئيسة البيت ، والرجل تابع لها ، حتى ان من دخل عندهم بيت احد ، فأدبه ان يقدم السلام على المرأة قبل زوجها ، وهي التي تقابل الضيوف ، وتكلمهم وترحب بهم ، سواء كانوا رجالا او نساء ، والرجل ساع فى طاعتها ممتثل امرها ، متأدب معها بأحسن الآداب ، لا يخالفها فى شيء ، ومن كان بخلاف ذلك ، عدوه من أوباش الناس وسفهائهم ، مع

قلة العفة فيهن » ويسير على هذا النحو موضحا موت الغيرة فـــي نفس الرجل الفرنسي وتهاونه فى الحفاظ على كرامته . (ص 45 ـ 46)

ثم يعطينا صورة عن شكل العيش فى البيوت ، فيقول : « وفراشهم خفيف فلا يجعلون الا فراشا واحدا للواحد فى كل بيت وما عدا ذلك فانما هي كراسي و (كنابيات) متصافة مع حيطان البيت لا تصلح الا للجلوس » (ص 31). ثم يتحدث عن اوقات وجباتهم اليومية فنجدها تغاير اذ ذاك ما هم عليه اليوم فيقول : (وعادتهم فى الاكل ان ياكلوا مرتين فى اليـــوم الاولى فى الساعة العاشرة او الحادية عشرة من النهار ، وهي اكلة خفيفة انما يشربون فيها الشكلاط بالحليب اوالحليب مع السكر او مع الاتـــاي وياكلون معه الخبز والبيض والزبد او الجبن » الخ . (ص 32)

ويواصل الحديث عن وجبة العشاء التي تقـــدم فى 6 او 7 مســـاء وكيفية تقديمهـــا .

وفى معرض الحديث عن الصحافة بباريس يقول (ص 5 7) : (ان لهم صحفا سماها بالكوازيط) تنقل كل اخبار المملكة وما يروج خارجها . ثم يتعرض لاهتمام الراي العام الفرنسي اذ ذاك بالصحافة .

ان صورا كهذه يقدمها بين يدينا صاحب الرحلة لتدل دلالة واضحة على مدى اهمية كتب الرحلات فى مختلف تصويـــر الحيـــاة الفكريـــة والاجتماعية بل نستطيع من خلالها ان نتعرف على حقيقة حياة الشعوب . غير انه لا بد من ان يكون رائدنا فى هذا النـــوع من البحـــوث الدقـــة والتمحيـــــص .

الربـــاط — حبيبة البورقاديـة

(يتبـــع)

قصة :

الأخطبوط

أحمد عبد السلام البقالي

حين عــاد صديقي حسن العمري من رحلته السندبادية الى منطقة الخليج العربي ، كنت أول من ذهب لتهنئته في بيته فقد كان دائما يحمل لي هدية ليست ككل الهدايا ، كان يحمل لي معه قصة من مغامراته العجيبة التي لا تحدث الا له ولولا غرابــة شخصيته اقات انها من صنع خياله .

ولم يكن من عادته أن يشوقني الى ما سيحكيه لي ، ورغم ذلك كانت حكاياته تشدني اليه الساعات الطوال .. اما وقد لمح

لى هذه المرة بغرابة حكايته ، فقد جلست اليـــه أتبادل التحيات مستعجلا دخوله فى الموضوع الذى بدا يحوم حوله ، حتى قال :

« وأخيــرا استطعت الخروج من جزيــرة « مرغــم » . الجزيرة الضائعة فى المحيط الهندى فى مكان مــا بمدخل الخليج العــربى .

لم يكن بالجزيرة مطــار ، والمعديـــة الوحيدة التى تصــل الجزيرة بالشاطىء الاسيوى كانت تقــوم برحلـــة واحــدة كل أسبـــــوع .

ومما استطعت ان اعرفه عن جزيرة مرغم ، اثنـــاء اقامتى الاجبارية بها ، هى انها الجزيرة العربية التى لا بترول فيها . ومع ذلك فأهلها يتحدثون عن شاب استطاع ان يكدس ثروة طاول بها ثروات آل زعبوط وغيرهم من حكام التكوين السريــع . هــذا الشاب الذى كان الجميع يخاطبونه بطويل العمر ، اللقــب الذى لا يعطى الا املوك وأمراء الجزيرة الكبرى كان مجرد موظف بقسم التصاريح بالجزيرة ، ويظهر أنه استغل منصبه لبسط نفوذه على كل مخلوق بالجزيرة لدرجة أن أهلها كانوا يطلقون عليه ســرا ، اسم الاخطبوط .. وما كان ليخطر ببالى انه سيكــون لى معــه شأن ، وأى شأن ...

فى داخل الخمسة أيام التى قضيتها سائحا بالجزيرة تعلمت لبس الحطة والعقال ووضع ساق على ســاق فى مقهى العزاب ، ومص النرجيلة بالتبغ المعسل ، وارتشاف الشاى الاسود لابطال مفعول المعسل ! !

وكان يجلس الى جانبى ، ويرافقنى فى شطحاتى هذه رجل خفيف الظل ، حلو المعشر من ملازمى الموانىء (ذوى السمعة المشبوهة) اسمه الحاج عبد الله .

وفى آخــر يوم لى بالجزيرة ، وانــا على مقعدى بالمقهى أحسست حولى بحركة غير عاديــة ارجعتنى من جزيرة احــلام يقظتى ، فالتفت لأرى صاحب المقهى العجوز يفســح الطريق ، بحماس معدى ، لرجل قصير سمين ، مستدير الوجه والجسد ، ضيق العينين مفرطح الانف ، يتقدمه الخــدم والحشم ، وتحيط بــه الحاشية . . .

وصفق القهوجى وأمر بتبديل الكراسى والموائــد ، وفرش زرابى الترحيب والتكريم ، وهو يدور بالرجل ، الذى ظننته أمير الجزيرة ، دوران ذكر الحمام بأنثاه مرددا الدعوات بطول العمر ، وعين الحسود فيها عود ـ وما الى ذلك ـ

وجلس الرجل المكور ، محاولا أن ينفض عن مظهره كل ما يوحى بالتواضع . . . فوضع المعلم القهوجى امامه نرجيلته الخاصة ، بعناية وهو يصيح بالولد الواقف الى جانبه زاجرا دون داع غير اظهار التفانى فى الخدمة .

وامتص الرجل المكثف من النرجيلة فبقبق ماؤها داخل الزجاج المذهب ، وامتزج بالدخان الذى أخذ طريقه الى أنفه وعينيه فأغمضهما فى نشوة عارمة ، وأرسل من منخريه نافورتين من الدخان الابيض . .

وبعد ذلك فقط التفت حواليه لينظر الى من بلغت به الصفاقة او الجهل مبلغ تحدى وجوده والاصرار على البقاء فى مكانه . . .

فى هذه اللحظة رآنى وأنا لاه عنه بامتصاص نرجيلتى الرخيصة ، فمال الى مرافقه الجالس على يمينه وهمس له شيئا ، وعيناه على . . بل على يدى التى تمسك الشيشة ، ثابتة لا تتحرك . .

ونظرت اليه ثم الى يدى فلم أر ما يثير الاهتمام غير خاتمى الجامعى ، فقررت تجاهله . .

ولكنى لم استطع تجاهل نرفزة رفيقى المرساوى الذى كان يتحرك قلقا فى مجلسه لا يدرى هل يقوم أم يبقى محتميا بى . .

ورأيت الرجل المرافق لطويل العمر يقوم ويسوى طرحته وعقاله ويتوجه نحوى حتى وقف امامى مباشـرة فحجب عنـى الظل ! ورفعت عن نرجيلتى رأسى المثقل لانظر الى وجهه . . وخيل لى أن له اربعة حواجب . . فقد كان شارباه مقصوصان على شكل حواجبه الكثة .

واكتفى الرجل بأن اخرج من كمه يدا أشار لى بها الى سيده المستدير ، الذى كان منهمكا فى انتظارى دون أن يشك لحظة فى تلبيتى العاجلة لدعوته وقال :

ــ شرف ! (وهو يعنى : قم !)

واحسست بغمرة رفيقى تغوص فى ضلوعى بعنف صامت ... فزحزحت النرجيلة عن فمى ونفثت مخزون دخانى ، وقلت للرجل دون أن أنظر اليه :

ــ قل لصاحبك : أنا مرتاح حيث أنا . . . وشكرا على دعوته !

وأحسست بغمرة رفيقى آتية لتخترق أحشائى فانحنيت لتلافيها متظاهرا بالتقاط شىء ، وبقيت كذلك أنصت الى الغمرة

الصلبة تتكسر على ظهر الكرسى الخشبى ، وصرخة أام مكتومة . . . ثم اعتدلت فى جاستى لاعيد على الرسول جوابى الذى لـم يسمع مثله فى حياته فعاد به الى سيده .

وما كاد الرجل الكروى يستوعبه حتى وقف ، وبدأت عينه اليسرى تطرف بسرعة ، وأنفه الافطس يرتعش . . . وسمعته يقول ، وانا أرمقه من طرف خفى :

ــ انزعوا رخصته !

فهمس له المرافق :

ــ اجنبى يا طويل العمر !

وأصيب الجل المكور بهستيريا الاوامر ، وكلما أراد رفيقه الذهاب للتنفيذ أمسك بذراعه بقوة واستوقفـــه ليفكر فى ويـــلات اضافية . . وفى النهاية لمعت عيناه الدقيقتين فأحنى رأس خادمه ليهمس فى اذنه بشىء . . بفكرة جديدة أدرك أنها واسطة العقد ، فاستغنى بها عن غيرها . . وانصرف .

وحين اختلى بى رفيقى المرساوى اقام الدنيـــا واقعدها فى وجهـــى . .

فقلت مهونا عليه :

ــ ولا يهمك يا عم عبد الله ــ انا بكرة رايــح . . وييــقى الراجل زى ما نقول فى بلدنا : ماسك الحبل !

ــ واالله ما راح ييقى ماسك الحبــل الا محسوبك . . (يعنى هــو)

وأخذ يندب حظه العاثــر على التعرف انى من دون جميــع المسافرين . .

* * *

وفى صباح الغد كانت المفاجأة . .

وادركت حقيقة ما كان يعنيه رفيقى الحاج عبد الله .

خرجت من غرفتى بالفندق حاملا حقيبــتى وتوجهت نحــو الميناء القريب من الفندق لأركب المعديــة ، واتــرك الجزيــرة الضالة ، وامبراطورها الكروى .

وفوجئت ، وأنا أمد يدى بالفلوس لأشترى تذكرة المعدية ، بطويل العمر نفسه يطل على من نافذة التذاكر ويبتسم فى سرور صبيانى وعيناه تلمعان فى سعادة لا حد لها . .

ونظرت اليه وهو يشجعنى لأتقدم . . وأدخلت ذراعى حتى لا يضطر هو الى مد ذراعه لاستلام الاوراق المالية ، فاذا بوجهه يتغير ويتنمر والباب تنطبق فجأة على ساعدى بشدة . . فصرخت من الألم ، وجاهدت لاستخلاص ذراعى من بين فكى النافذة حتى كدت اكسرها وهو وحاشيته داخل الغرفة يضحكون ومعهم بائع التذاكر الاصلى . .

وحين شبعوا ضحكا ، انفتح باب النافذة عن ذراعى المزرق من الاحتقان وانحنى سعادة الرئيس معتذرا :

ـ اسف . . لم تبق لنا تذاكر لمعدية هذا الاسبوع ـ ارجع الينا فى الاسبوع القادم . . آه ؟

واقفل الباب مرة أخرى وهو يهـز رأسـه هزات لا ارادية سريعة ويغيب سواد عينيه كمن يوشك ان يجهـش أو يعطس ، أو يهوى صريعا . . وتراجع الى الخلف وانسجـم فى قهقهـة هيستيرية وهو يستلقى على طاولة خشبية فارغة وسط الغرفة ، وجسمه يهتز بعنف وهو يشخر ويئن ويستعطف فى التذاذ سادى رهيب ما عرف آدمى مثله !

وضربت كفا بكف . . كان الله فى الجزيرة وأهلها ! الرجـل مجنـون !

ونزل على ثقل الصدمة وأنا أرى المعدية ترفع حبالــها لتقلع فارغة الى بر القارة . . بر السلامة والامان الذى لا ادرى هـل سأراه أم لا . .

وحملت حقيبتى وتوجهت نحو الفندق تحت حملقة الحمالين الذين لا يجرؤون على حمل حقيبتى خشية الغاء رخصهم .

ووقفت على باسط مدير الفندق وقرعت الجرس وأنا أمسح عرقى بمنديلى . . . وبينما أنا كذلك اذ خرج لى من مكتب المدير السيد بلحجاج نفسه ، رئيـس مكتب التصاريح يفـرك يديـه ويستقبلنى بابتسامة . . . فاستعذت بالله ، وانحنـيت لاحمـل حقيبتى وأعود من حيث أتيت فاستـوقفنى :

— يـا سيـد !

فوقفت والتفتت ، فقال :

— هل قرعت الجرس ؟

فقلـت :

— نـعـم .

— ولكنك ذاهب . . ألا تقول ماذا تريد ؟

فقــلت :

ــ كنت اريد غرفة .

ــ واكنى أراك ذاهبا . . ألم تعد تريدها ؟

فقــلت :

ــ بــلى . . ولكن . .

ــ ولكن مــاذا ؟

ــ هل عندكم غرفة لى ؟

ففرك يديه وأخذ ينظر فى سجل النزلاء ويقلب صفحاته ويتمتم بكلام غير مفهوم كأنه يبحث عن غرفة فارغة والفندق كله مهجور ! وفى النهاية رفع رأسه عن السجل وابتسم لى وأنا أتأمل وجهــه وأسنانه المتفاوتة وأتساءل ما اذا كانت تلك ابتسامة انسان أم تكشيرة كلب مسعور

وسمعته يقول وكأنه يزف لى خبرا رائعا :

ــ آسف يا سيدى . . الفندق ملآن ! عد الينا بعد أسبوع .

وأقفل السجل ، وعاد الى شخيره واهتزازه وانصرف ليدخل غرفة المدير ، الذى لا شك كان ينتظره هناك ، وهو لا يقوى على حمل نفسه من السخسخة والانتخاء من عنف القهقهة !

وانقفلت الباب السميكة من خلفه وارتفعت من داخل الغرفة قهقهة زاعقة كضحكات الضباع فى الليالى الافريقية . .

وبدأت أنا أهتز وأرتعش خوفا وانفعالا . . فقد بقيت عمليا فى الشارع ولا أحد ، لا أحد بالجزيرة كلها يستطيـــع ايوائى أو اطعامى . . وأحسست بغربة المنبوذ ، ووحشة الجندى التائـــه فى أراضى العدو . . .

وقصدت المقهى ــ وما كاد صاحبها يرانى قادما أجر حقيبتى حتى بدا عليه القلق فأخذ ينظر الى ساعته ، ويستعجل الزبائـــن المستغربين للذهاب . . .

وما كدت أقف على بابه حتى كان نصف الكراسى مرفوعـــا على الموائد ، وهو يقفل الأرتجة . . . وحين وقعت عيناه فى عينى أحنى رأسه خجلا وتمتم :

ــ تصبح على خير . . .

ولم يبق امامى الا الشاطىء فذهبت لأفترش رمله ، وأتوسد حقيبتى حتى الصباح . . .

وما كدت أغمض عينى على صخب تكســـر الامواج الناعمة حتى ترامى الى سمعى نباح وحشى فرفعت رأسى لأرى مصدره

فاذا كلب راعى ألمانى فى حجم سيارة انفولكسفاكن يعدو نحوى مكشر الأنياب . . فنهضت بسرعة تاركا حقيبتى لاعدو فى الاتجاه المعاكس . .

وما كدت أخطو خطوتين حتى وقعت على وجهى والكلب فوقى يلهث ويهر هريرا مسعورا . . وانتظرت ان يغرز اسنانه فى قفاى أو ظهرى ، ولكنه لحسن حظى لم يفعل ، فقد كان مدربا على الطرد دون الافتراس .

وبعد لحظة من الانتظار الاليم تحت رحمة الحيوان المتحفز ، سمعت وقع أقدام ثقيلة وانفجار قهقهة عصبية من حلق غير آدمى . . ورفعت وجهى رغم تحفز الكلب ، لانظر للقادم الجديد ، فاذا هو طويل العمر ، الشيخ بالحجاج بذاته وصفاته فى ملابس حراس الشواطىء ، يحمل على كتفه بندقية ، ويلعب بمقود الكلب ، وينظر الى من فوق وهو يغالب ضحكته العصبية ويمسح دموعه المنهمرة ، وقد بلغ أوج لذة الانتقام من المخلوق الحقير الذى تجرأ على عصيان أمره ، والذى هو للأسف انا !

ووقف لحظة يتنحنح ويبزق ويمسح فمه بظهر يده ، والكلب يرفع رأسه متوقعا أوامره . . وفى النهاية سيطر على فرائضه وصاح :

ـ قـم انـت !

وأعطى الكلب اشارة فنزل عنى وعاد هو يصرخ :

ـ ارفـع يديـك !

فرفعت يدى قائـلا :

ـ انت تعرف أنى لا أحمل سلاحا . .

فـزعـق :

ـ اقفل حنكك ، يقطع لسانك !

فحركت رأسى متنهدا وهو يبحث جيوبى . . وحين لم يعثر على شىء ، صرخ آمرا :

ـ امش قدامى ! يا متسلل !

ـ متسلل ؟ أنا ؟ انت عارف أننى دخلت البلد بطريقة شرعية وجواز سفرى يثبت ذلك .

فأحسست بوكزة شديدة على ظهرى دفعتنى الى الامام :

ـ امـش ساكت !

وفى قسم الشرطة سلمنى مطاع الامـــر الى حارس الليـــل الذى طلب منى افراغ جيوبى أمامه بينما دخل بالحجاج الى غرفة اخرى خرج منها بملابسه المدنية . .

وأدخلنى الحارس العجوز غرفة مظلمة لا أثاث بها ولا نوافذ الا شباكا على الباب .

ووقف بالحجاج ليتفحص اوراقى ومحتويات جيوبى وأنـــا انظر اليه من داخل الزنزانة كان يبدو عليه انه يبحث عن شىء معين ، وحين لم يجده ، توجه نحو صينية بها قلـــة ماء صب فيه كأسا وجاءنى به :

ــ تفضـــــــل !

وكنت فى غاية الظمأ فلم أدر هل أقبـــل الكأس أم أرفضـــه متأكدا فى قرارة نفسى ان وراءه ما وراءه !

واقترب منى الكأس فهاج عطشى وأنسانى الحكمة فمددت يدى لآخذه . وما كدت امسك بـــه حتى امسك بلحجاج برسغى ونزع خاتمى الجامعى من اصبعى بقوة مؤلمة اندلق معها كل مـــا كان بالكأس من ماء ، ووقف ينظر اليهـــا محاولا أن يقـــرأ اسم الجامعة المنتوش حول فصها ثم نظر الى بعينيه القنفذيتين وقال :

ـ جامعة اجنبيـــة !

ولم أجب .. فحرك رأسه مستسخفا تصرفاتى الحمقـــاء ، وقـــال :

ـ هذا كل ما أردت أن أعرف .. كنت اظنه خاتمـــا ثميـــنا تستحق عليه رخصة ما ..

ثم رماه على الارض وبصق وخرج .. ووقفت فى ظلمة الغرفة واعصابى من طول الكبت والتوتر تكاد تحتـــرق ولـــم أملـــك أن انفجرت باكيا وفرائصى كلها ترتعد ..

وسمع الحارس العجوز نحيبى فلان قلبه ، وسمعته يصب من القلة كأس ماء ويأتينى بها ..

ـ اشرب يا ابنى .. اشرب .. لا بد انك مظلوم كأغلب من يأتى بهم طويل العمر .. الله ينكد عيشته ! اشرب

ومد لى الكأس فعببت منها عبـــا حتى انقطعت انفـــاسى ، وطلبت المزيد حتى ارتويت ، وهدأ روعى .

وحكيت قصتى التعسة للحارس الطيب ، فطيب خاطرى ، وجاءنى ببعض الطعام الذى كنت فى حاجة اليه ، وجلس يسامرنى ويؤنسنى حتى أخذنى النوم .

وعرفت منه أشياء كثيرة عن الجزيـــرة وصاحب التصاريح بلحجاج او الرخصاتي ، كما كان يسميه .. والذي تفاقم أمره حتى أصبح يخاف بطشه الجميع ، ولم يجرؤ أحـــد على الوشاية بـــه للامير الذي أصبح الجميع يعتقد انه متواطيء معه ، والا لمـــا سكت عن مظالمه !

وحين سألت الحارس عما سيكون من أمري ، قـــال لي ان بلحجاج يخشى التطرف مع الاجانب حتى لا تصل الشكاوى به من الخارج .. وانه سيأمر باطـــلاق سراحي في الغالب غـــدا فقلت في نفسي : « هذه اول نقطة ضعف ! »

وحين سألـــت الحارس عن سبـــب تفاقـــم سلطة بلحجاج وامتدادها الى الميناء والفنـــدق والبوليـــس ويعلـــم الله مـــاذا غـــيرهـــا ، قـــال :

ــ قبح الله الانجليز ! فهم الذين تركـــوا لنـــا « موضـــة » الرخصة والتصريح .. وكل واحد من الناس يحتاج الى رخصة ما حتى شراء دراجة .. وهذا هو سر جبروت بلحجاج وتفاقـــم سلطتـــــه !

ثـــم أضاف :

— ورغم أنه لم يبق بالجزيرة انجليزى واحد فهو يصر على استعمال اللغة الانجليزية فى معاملاته مـع المواطنين للتعميـة عليهم واشعارهم بالنقص .

وحين سألت مستنكرا :

— ولماذا لا يشكوه أحد للأمير ؟ !

ضحك الحارس العجوز حتى بـان مكان ضرسه المخلوع ، وقـال :

— كيف يمكن أن يشتكوا وهم داخـل السجن ؟ . رخـص الزيارة وارسال البريد ممنوعة !

وتدرج الحديث بنا الى الامير فسألت بحذر :

— هل يمكن أن يكون عالما بأمر بلحجاج ؟

فهز الرجل كتفيه ، ونظر حواليه . . وعرفت منه أن الامير رجل طيب القلب يحب المرح ويطرب للغناء والشعر . . .

فقلت فى نفسى هذه طريق يمكن الوصول اليه منها . .

* * *

وكما قال الحارس ، وجدت نفسى فى انصباح التالى طيقا ولكن دون مأوى ولا وسيلة لمغادرة الجزيرة الجهنمية . .

وتذكرت ما قالـــه لى الحارس الشيخ من أن الامير ينـــزل للشاطىء للتريض كل صباح على حصـــان فقصدت الشـــاطىء وكتبت على الرمل الندى هذه الابيات :

أمـــيـــر دولـــة مـــرغـــم / دم للـــعـــروبـــة واسلـــم
النجـــم ام أنـــت أعلـــى / والبحـــر أم انت اكـــرم
لـــدى ســـــر اذا مـــــا / عرفتـــه صرت أعظـــم !

وما كدت أتم الكتابة حتى سمعت ركض جواد خلفى فالتفتت فاذا الامير على حصان أسود يلمع واذا به يوقف الحصان ويدور حول الابيات حتى لا يمحوها ثم يقف يقرأها بالتذاذ كبير ويلتفت الـــى :

ــ هل أنت صاحب الابيـــات ؟

فانحنيت بأدب :

ــ نعم يا مولاى . . وهل أفهم أن سموكم أمير دولة مرغم ؟

فترجل عن الحصان ومد يده مرحبا بى :

ـ أصبت .. فما هو هذا اسر الذى اذا عرفته صرت اعظم ؟

وتخوفت من أن يكون أحد أتباع باحجاج بعثه اى ليستقرىء طويتى فترددت ...

وأعدت النظر الى وجه ارجل فاذا اوصاف حارس السجن العجوز ينطبق على كثير من ملامحه فقلت :

ـ السر يا مولاى يتصل بصلاح دولتك وسعادة شعبك

وتأكدت من هويته حينئذ لأن ابتسامة اطرب لسماع كلمة دولة تطلق على جزيرته الميكروسكوبية اختفت وحل محلها اهتمام الحاكم الذى يريد صلاح دولته وسعادة شعبه ...

قلت : « اذا امنتنى قلت لك »

فقال مندهشا ومبتسما وكأنه يقول لى : هل تظن أننا همج متوحشون :

ـ عليك الأمان .. فقل ما شئت .

قلت : « الناس يـــا مولاى يقولون انكم متواطئـــون مـــع بلحجاج ! »

ونظرت الى وجهه اتوقع الغضب او الانفعال ، فرأيته يهز اكتافه ويســـأل :

ــ بلحجاج ؟ ومن هو بلحجاج ؟

فتنهدت مرتاحا لسؤاله ، وفتحت الكتاب بمناقب طويل العمر مدير مكتب منح التصاريح او منع التصاريح . .

وبدأ وجه الامير يكفهر ، فاختصرت اللائحة حتى لا أتسبب فى اعدامه ، وانتقلت الى الحديث عن وضعى ، ووسيلة التحاقى بالقارة . . ولم يبد من سمو الامير أنه كان يستـــمع الى حديثى عن وضعى فقد كان يضرب بسوطه على يده فيتراجع حصانـــه وهو مستغرق فى التفكير . . ثم التفت الى وقال :

ــ تعـــال معى . .

وأشار الى مرافق له يقف بعيدا ليحمل حقيبتى ، وبدأ :

ــ أولا ، بصفتى المسؤول الاول على كل مـــا يقـــع داخل جزيرتى ، يجب أن اعتذر لك عما ــ

فقاطعته قائـــلا :

ــ معاذ الله يا سمو الامير . ! معاذ الله . !
فأصـــــــر :

ــ أبدا . ! لقد اصابتك المحن على يد أحد موظفى ، وقـــد نزلت علينا ضيفا للسياحة والاستمتاع ! لذلك أدعوك لنزول ضيفا على حتى ترى بعينيك تصحيح الوضع . .

فتمتمت شاكرا كرمه . . فقاطعنى :

ــ هذا أقل ما يجب . .

وفى تلك الليـــلة تفتحت ذاكرتى ومواهبى الشعرية لدرجـــة أطربت الامير وحاشيته ، وشعرت بسعادة لا حد لها للانفراج المفاجىء الذى طرأ على حالتى . . وكان جو الجزيرة الرقيـــق ، ونسيمها العليل ، ونغم البحر الناعم تتـــكسر أمواجـــه الصغيرة على أقدام القصر يوحى بالوجود فى عالم سحرى سحيق . .

وأحسست بالامير يقف الى جانـــبى وأنـــا أتأمـــل البحـــر فاعتدلت احتراما فبادرنى :

ــ مازلت أفكر فى أمثل طريق أعاقب به بلحجاج . . فقد أرسلت من يأتينى بمعلومات عن مكتبه وشخصه وحساباته البنكية وغيرها

فانكشف لى اكثر مما كنت أتوقـــع . . وكان هذا اللعين سوســـة تنخر بجد وعنف فى جذور الدولة لتقوضها فى اقرب وقت

فلم أتمالك أن أقول :

ــ أعوذ بالله ! حفظ الله مولاى !

فقاطعنى بحـــزم :

ــ العدل اساس الملك . . فاذا انتشر الظلم انهارت الدولة . .

وصمت قليلا ثم أشار الى بكأسه :

ــ قل لى . . أنت الذى عانيت المحنـــة بنفســـك ، يمكن أن تقترح على حلا واقعيا . .

وكنت أتوقع السؤال فلم أفاجأ ، وقلت :

ــ اذا سمح مولاى ، وانتم سيد العارفين ، فرايى أن يلغى مكتب التصاريح الغاءا نهائيا ! وحتى يدرك الشعب عمـــق هذه الخطوة الثورية يمكن أن يأمر صاحب السمو بنفسه بالغـــائه فى حفـــلة كبـــيرة !

وقبل أن يبدى الامير اعتراضاته المعقولة استدركت :

ــ ويستبدل بمكتب آخر تكون مهمتـــه الاجابة عن طـلب الرخص الضرورية جدا بالبريد على أن يحدد وقت الاجابة حسب أهمية المشروع أو الرخصة المطلوبة . . فاذا مر الموعد المحدد للاجابة ولم يتوصل المواطن برسالة من المكتب عد ذلك ترخيصا قانونيا واذنا له ببدء عمله

ونظرت الى وجـــه الامير فقرأت فيـــه الاعجاب بالفكـــرة والحماس لها . . ولم يلبث أن ضرب على كتفى بكفه قائلا :

ــ برافو ! برافو يا حسن ! هكذا يكـــون التفكير الادارى السليم . . سنضع بذلك المسؤوليـــة على عاتـــق الموظفين لا فى ايديهـــــم !

فقلـــــت :

ــ وخصوصا اذا استعملنا الاذاعة والتلفزيـــون والجرائد لشرح هذا للمواطنين وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم . .

وحرك رأسه موافقا :

ــ تذكر هذا لأسجله . . تماما . . تماما

فاستبد بى الحماس لروح الشباب التى أخذتنى فى الأمير فقلت :

ــ اما اذا اراد مولاى امساك صمام الأمان فى يديه ، فما عليه الا أن ينشىء مكتبا للشكايات يترأسه هو بنفسه ، ولا يستخدم فيه الا الشباب الذين لم يتخرجوا بعد من كلياتهم . . فاذا قضى على مصدر الشكاوى تحققت السعادة والاستقرار للدولة . .

فرفع الامير كأسه تحية لى قائلا :

ــ غدا عيدنا الوطنى . . نحن نؤرخ لجزيرتنا بيوم ميلادها . . يوم خروجها بانفجار بركانى فى عمق المحيط . . وقد مر على ذلك أقل من اربعمائة عام . .

وافترقنا . .

وفى الغد ، وقف الامير فى أبهى حلله على منصة الخطابة فى ميدان الجزيرة الكبير المزين والمزدحم بسكانها . وما وقف حتى ضجت الساحة بالتصفيق والهتاف يقاطعه الصفير الحاد والهتاف المعادى . . واشتبك رجال الامن مع طائفة من الشباب . . فافتتح

الامير خطابه ، وساد هدوء نسبى . . ولم يطـل فى المقدمات ، بل دخل حالا الى صلب الموضوع فأعلن عن الغاء مكتب الرخص اشارة لبدء عهد جديد .

وما أدركت الجماهير معنى كلماتـه حتى ضجت الساحة بهتافات حماسية حقيقية هذه المرة انضـم الى المشاركة فيهـا الشباب الساخط ورجال الامن الذين كانوا يطاردونهم .

وطلب الامير لحظة صمت الجماهير ثم ضغط على زر أمامه فسمع انفجار كبير على الشاطىء المقابـل . . والتفـت الناس ليروا مكتب التصاريح ينهار عن آخره ليصبح كومة احجار على الارض .

وكأن ذلك كان ايذانا للجمهور بالانطلاق فى سبـاق غريب فتوجهوا جميعا بغريزة قطيعية نحو المبنى المنهـار ليتـأكدوا بأيديهم من حقيقة ما رأت عيونهم . .

وما كادت طلائعهم تصل حتى بدأوا يلتقطون حجارة المبنى ويلقون بها فى البحر كأنما يخافون قيامه من حطامه من جديد . .

وهاجم الجماهير منصة الامير رغم مقاومة الحرس فحملوه على أكتافهم هاتفين بحياته وهو يلوح بيديه بعلامة النصر

وفى ذاك المساء ألقى القبض على بلحجاج وأعوانه وسماسرته وقدموا للمحاكمة . . وحضر المحاكمة جمهــور غفيــر من الذين منعت عنهم التصاريح او ألغيت رخصهم يتشفون فى الديكتاتور المجنون حتى اضطر حرس المحكمة الى وضعه فى قفص حديدى خوفا عليه من الاختطاف او الاغتيال . .

واصدرت المحكمة حكمها عليه بسجن شهــر عن كل ملــف عرقله ، وكل رخصة عطلها ، فتراكم له من ذلك ما يزيد عن الثلاثين سنة مع الاشغال الشاقة لتعويض حقوق ضحايا تلاعبه

وصادرت المحكمة امواله ، ووزعتهــا على سجنائــه الذين حرموا من العمل والحرية سنوات طويلة

* * *

وحين ودعنى الامير على متن مركبه الخاص اينــقلنــى الى الساحل التارى ربت على كتفى وقال ، وعلى وجهــه ابتــسامته النــبيــلــة :

ـ عد الينـــا . . لن تحتاج الى رخصة بعد اليوم . .

فــقــلــت :

ـ سأعتبر هذه دعوة رسمية من سموكم . . وسأعود بحول اللــــه . .

وانطلق المركب ينزلق على مياه المحيط الباورية . . والتفتت الى الجزيرة فخيل الى أنها تتنفس الصعداء . .

الربـــاط **احمد عبد السلام البقـــالى**

مكانة العربية بين اللغات العالمية

د. علي القاسمي

من المسببات الرئيسية لمشكلة التفاهم الدولي عدم وجود لغة مشتركة واحدة . وقد يبدو في هذا القول الشيء الكثير من المبالغة ، الا اننا اذا امعنا النظر في طبيعة اللغة لالفينا « ان كل لغة . . . تنمي طرائق اتصال خاصة بها . وطرائق الاتصال هذه تخلق حاجات خاصة ، وارجاعا متميزة ، وتقود الى تطوير انماط معينة من التفكير » (1)، وادركنا ان وجود لغة مشتركة يعني قيام حضارة عالمية واحدة ، واتجاه فكري موحد ، فتنتفي والحالة هذه مقومات الصراع الدولي ، وبالتالي يسود السلام .

ولكن كرتنا الارضية تزخر بلغات متباينة تشكل عقبات كأداء في سبيل تحقيق التفاهم الدولي والتعايش السلمي . فهنالك اكثر من 3٫500 لغة في العالم . وهذه اللغات في تكاثر مستمر اذ لاحظ فقهاء اللغة ان في مقابل

كل لغة تندثر تولد لغتان او لغة ونصف على الاقل . وهذا يعني ان عدد اللغات الحالي سيتضاعف مرتين بعد حوالي الفي عام . ويدعو هذا الوضع الى ايجاد الحلول المناسبة والتغلب على المشكل ، خاصة وان العلاقات الدولية قد تطورت فى الاونة الاخيرة بشكل يستلزم معه وجود وسيلة تفاهم مشتركة . ومما ساعد على هذا التطور ازدياد وسائل المواصلات وتنوعها وارتفاع سرعتها ، وانخفاض اثمانها واجورها . فالمسافة التى كنا نقطعها على الجمل او الفرس بستة اشهر اصبحنا نقطعها بالطائرة بست ساعات فقط ، وصارت طائرات الكونكورد تعبر المحيط الاطلسى بثلاث ساعات . وسيسير اول قطار تحت بحر المانش الذى يفصل بين فرنسا وانكلترا بعد ست سنوات ، وستستغرق الرحلة بالقطار من بروكسل الى لندن 3 ساعات و 25 دقيقة فقط . وسيحقق هذا النفق ازديادا كبيرا فى عدد المسافرين الذين يعبرون المانش ، اذ من المتوقع ان يتضاعف عددهم بين عامي 1980 و 1990 بحيث يقدر عدد الذين يمرون عبر النفق خلال سنة 1990 فقط بين 24 و 30 مليون مسافر وحوالى 4 ملايين سيارة . اضافة الى ما بين 75 و 98 مليون مسافر سيقطعون المانش جوا خلال تلك السنة (2) . منذ خمسين عاما نادرا ما كان الرجل يترك بلاده ويقصد بلادا اخرى للسياحة او التجارة ، وكان بامكانه عند عودته ان يسطر حكايات سندبادية يقصها على اهله وجيرانه . اما اليوم فقد اصبح الرجل الذى لم يزر بلادا اخرى او الذى لا يخطط لرحلة الى الخارج نادر الوجود . فقد انتعشت السياحة فى عصرنا انتعاشا لا مثيل له من قبل لدرجة ان عدد السياح الذين دخلوا اسبانيا وحدها عام 1970 بلغ اكثر من 22ر5 مليون .

وازدادت الاتصالات الهاتفية والبرقية بين ارجاء العالم . ولعل فى تكاثر الشركات الخاصة بالمواصلات اللاسلكية والهاتفية واتساع عملياتها دليلا على اهمية الاتصالات بين اجزاء العالم المختلفة . ففى عام 1972 بلغت موازنة شركة التلفون والتلغراف العالمية (اى ، تى ، تى) ثمانية الاف وستمائة مليون دولار ، وهذا يفوق الدخل القومى لدول كثيرة من بينها البرتغال والكويت ، كما بلغ عدد موظفى هذه الشركة وعمالها 428ر000 منهم 200ر000 فى اوربا ، وهذا العدد يفوق عدد سكان مدينة

كبيرة او دولة صغيرة . ولعب المذياع والتلفاز والتلستار دورا فعالا فى تقريب اجزاء العالم بعضها من البعض الاخر .

ولقد تشابكت المصالح الدولية فى هذا القرن كثيرا فتضخم نتيجة لذلك عدد المنظمات الدولية والاقليمية حتى بلغت اكثر من (1500) منظمة لها ما يقرب من 30 الف فرع محلى فى ارجاء العالم المختلفة . وهذه المنظمات ولا ريب بحاجة الى وسيلة تفاهم مشتركة لتيسير اتصالاتها ، وعقد مؤتمراتها ، واتخاذ قراراتها .

اما التجارة الدولية فقد تطورت تطورا هائلا فى هذا القرن ، واصبح من الخرافة القول بالاكتفاء الذاتى ولم يعد بامكان امة من الامم ان تعيش بمعزل عن المحيط الدولى ، بل اضحت الصادرات والواردات شريان الحياة فى كل دولة ، ففى خلال الثلاثين سنة الماضية تضاعفت قيمتها 15 مرة . وغدت المراسلات التجارية تفوق بكميتها المراسلات الودية كلها . وهذا يتطلب وجود لغة مشتركة يفهمها البائع والمشترى ويستخدمها المصدر والمستورد لتيسير المعاملات وانجازها .

ولا تقتصر اهمية اللغات المشتركة على السياحة والتجارة والتعاون الدولى فحسب بل تمتد ايضا الى البحث العلمى . فقد اصبح من المستحيل على العلماء ان يواصلوا ابحاثهم مالم يتقنوا عددا من اللغات الاجنبية ، حتى قال احدهم — « لقد اصبح من الواجب علينا ان نتمكن من قراءة عشرة او عشرين لغة اجنبية قبل ان نبدا بأى بحث علمى ، او نحلم بأية مساهمة حقيقية فى التطور التقني » (3) .

صحيح ان الترجمة تحقق بعض التفاهم المنشود ، ولكنها عملية بطيئة وغير دقيقة لا يمكن اتخاذها حلا ناجعا لمشكلة الاتصال الناجز فى العصر الحاضر . ويكفى ان نذكر ان بناية الامم المتحدة فى نيويورك تضم اكثر من 550 مترجما كانوا يتعاملون مع خمس لغات فقط ومع ذلك فهنالك وثائق هامة ما زالت تنتظر دورها فى الترجمة منذ اكثر من عشر سنوات . فالترجمة اذن ليست الحل المناسب لمشكلة التفاهم والاتصال

الدوليين . ونحن لا نتوقع ان يصطحب كل سائح مترجما معه . فما هو الحل البديل يا ترى ؟

يكاد يتفق الجميع على ان الحل لمشكلة التفاهم الدولى يمكن ان ينبنى على ايجاد لغة عالمية مشتركة . ولكن المفكرين يختلفون فى هوية تلك اللغة وطبيعتها . ويمكننا تقسيم مقترحاتهم على ثلاث مجموعات :

اولا — اختراع لغة اصطناعية تقوم بدور وسيلة اتصال مشتركة بين الشعوب .

ثانيا — تيسير احدى اللغات الطبيعية بحيث يستطيع الجميع تعلمها بجهد اقل ووقت اقصر .

ثالثا — اتخاذ لغة طبيعية او اكثر لغة عالمية وتعميم تدريسها فى جميع انحاء المعمورة .

وسنعرض ذلك بايجاز .

انواع اللغات المشتركة

1 — اللغات الاصطناعية :

كانت مشكلة ايجاد لغة تفاهم مشتركة تشغل بال الفلاسفة والمفكرين منذ اوائل القرن السابع عشر الميلادى . وكان من بين الفلاسفة الذين اقترحوا ابتكار لغة فلسفية يفهمها الناس حيثما وجدوا الفيلسوف الانكليزى فرانسس بيكون والفيلسوف الفرنسى ديكارت . وكانت اللغات الفلسفية المقترحة تقوم اما على اسس صوتية (بما فى ذلك الموسيقى) او على رموز مرئية (بما فى ذلك الرموز العددية) ، بحيث تصنف جميع الاشياء التى يحتاجها الانسان او يرغب فى التحدث عنها طبقا للنظام الصوتى او المرئى المقترح . ولكن صعوبة العمل بتلك المقترحات وحاجة تحقيقها الى جهد فكرى كبير ادتا الى موت تلك المقترحات وعدم ظهور اية لغة فلسفية الى حيز الوجود (4) . ولهذا ظهر اتجاه جديد يدعو الى وضع

لغة اصطناعية يسيرة فى اصواتها ، سهلة فى قواعدها ، محدودة فى مفرداتها ، بحيث يستطيع جميع الناس تعلمها . وتسابق المهتمون باللغات والعلاقات الدولية الى وضع اللغات الاصطناعية التى اخذت تزداد باطراد . فبين عامي 1800 و 1850 ظهر اربع منها فقط ، وبين عامي 1850 و 1900 اضيفت أربعون لغة أخرى . واستمر ظهور هذه اللغات فى القرن العشرين حتى بلغ عدد المشاريع اللغوية اليوم اكثر من خمسمائة مشروع (5) . ولكل واحدة من هذه اللغات الاصطناعية اسم مثل اردیانا ، اداميتيك ، اوربا ، باتسكريت ، سيرمو ، آو ، اسكا ، الخ . ولعل الاسبرنتو هى اكثر اللغات الاصطناعية شهرة وانتشارا .

وضع الاسبرنتو الدكتور زامنهوف البولندى ، ونشر اول كتاب عن اصولها سنة 1887 . وايدها اللغوى مكس موللر والمفكر تولستوى . وبعد الحرب العالمية الاولى حازت على تأييد عصبة الامم ، واتحاد البرق الدولى (1925) ، واتحاد الهاتف الدولى (1927) . ولكن نجم الاسبرنتو اخذ فى الافول بعد الحرب العالمية الثانية اذ لم ترحب منظمة الامم المتحدة بها ، ومع ذلك فقد استأنف الاسبرانتيون نشاطهم حيث عقدوا مؤتمرهم السنوى الـ 35 فى باريس وحضره 2500 مندوبا يمثلون 34 قطرا ، ولكنهم لم يدعوا فى ذلك المؤتمر بأكثر من مليون ونصف المليون من الناس الذين يقال انهم قادرون على استعمال الاسبرنتو . وفتر الحماس لتعلم هذه اللغات الاصطناعية . والقى علم اللغة الحديث الضوء على طبيعة هذه اللغات ، فاصبح بامكاننا الان ان نعلن بأن الاسبرنتو وغيرها من اللغات الاصطناعية لا يمكن ان تنجح كلغة تفاهم عالمية وذلك للاسباب الآتية :

(1) تعتمد معظم هذه اللغات الاصطناعية على اللاتينية او اللغات الاوربية وتتخذ منها مصدرا اساسيا لمعظم مفرداتها ، وقواعدها المبسطة ، واصواتها الميسرة ، ولهذا فان السهولة المزعومة لهذه اللغات تقتصر على ناطقى اللغات الاوربية ، اما الناطقون ببقية اللغات — وهم يكونون اغلبية سكان المعمورة — فلا يجدون فيها تلك السهولة المزعومة لانها تختلف عن اللغات التى اعتادوا على نطقها واستعمالها .

(2) تفترض اللغات الاصطناعية ان الاصوات التى تستعملها تنطق بالكيفية ذاتها فى جميع انحاء العالم . فى حين ان علم الفونولوجيا الحديث يدلنا على ان اصواتها تتأثر باصوات اللغة الام لمن يستعملها . فلو اخذنا الحرف (ر) الفينا ان نطقه يختلف طبقا لهوية المتكلم . فالفرنسي والاسباني والبريطانى والامريكى ينطقون الــ (ر) بصور متباينة . كما يتغير نطقه عندما يتصل بحرفين كما فى حالة (birdo) التى استعملتها الاسبرنتو اصلا من الانكليزية لتدل على (الطير) .

(3) يدعى انصار اللغات الاصطناعية ان الكثير من سوء الفهم فى العلاقات الدولية يحدث نتيجة لعدم دقة الترجمة من لغة الى اخرى ، وهم يعنون ضمنا ان اللغات الاصطناعية ستجنبنا الصعوبات التى تنتج من الترجمة . ولكن الا تثير الترجمة من اللغات الطبيعية الى اللغات الاصطناعية او بالعكس صعوبات مماثلة ؟

(4) تعتمد اللغات الاصطناعية على ملامح الكلام الاولية او ما نسميه فى علم اللغة بالفونيمات القطعية (اى الاصوات الساكنة والاصوات اللينة) ، وتغفل الفونيمات غير القطعية مثل النبر والتنغيم والفواصل اللفظية . ولكننا اصبحنا اليوم ، ندرك ان اختلال الفونيمات غير القطعية قد يؤدى الى تغير المعنى وحجبه عن السامع تماما . فعبارة (محمد نال الجائزة) لها معنى مغاير تماما لعبارة (محمد نال الجائزة ؟) او عبارة (محمد نال الجائزة !) فالاولى خبرية والثانية استفهامية والثالثة تعجبية على الرغم من ان هذه العبارات الثلاث تستخدم الفونيمات القطعية ذاتها . وكذلك يتغير معنى عبارة (قال سليمان الحكيم محمد يساعدكم .) باختلاف ملامح الكلام الثانوية (النبر والتنغيم والفواصل اللفظية) ، فقد تعنى :

(قال سليمان الحكيم ، محمد يساعدكم)

كما قد تعنى —

(قال سليمان ، الحكيم محمد يساعدكم) .

وتدل ابحاث علم اللغة الحديث على ان ملامح الكلام الثانوية تختلف من لغة الى اخرى ، وليست هى بالقضايا الغريزية لجميع البشر . ولهذا فان الملامح الثانوية للغات الاصطناعية ستتغير من منطقة الى اخرى ، وسيواجه الناطقون بها صعوبة فهم بعضهم بعضا . وهكذا قد تستطيع اللغات الاصطناعية ان تؤدى مهمتها بوصفها وسيلة اتصال مشتركة فى المراسلات فقط ، اما اذا اريد لها ان تكون اداة تفاهم محكية ايضا ، فيجب عليها ان تقنن القواعد الخاصة بجميع ملامح الكلام الثانوية ، وفى هذه الحالة تبلغ صعوبتها صعوبة اللغات الطبيعية ، وتنتفى عنها صفة السهولة التى تزعمها .

(5) ومن ناحية اخرى تشير الابحاث المتعلقة بما يسمى بـ « نظرية الاتصال » Communication Theory ان التكرار اللفظى والمعنوى او « الحشو » كما يسميه البلاغيون ، يؤثر فى عملية الاتصال والتفاهم ويسهم فيها . فاذا الغينا الحشو من اي نظام اتصال فاننا قد نحقق اقصى درجات الاتقان والسرعة فى الاداء من الناحية النظرية ، ولكن هذا النظام يمسى عسيرا فى التطبيق العملى ، لان ضياع احد عناصر الرسالة قد يؤدى الى القضاء على الرسالة برمتها . ولنضرب مثلا على ذلك فى العبارة الآتية :

« ان ثلاثة مهندسين جزائريين قد وصلوا امس . »

ففى هذه العبارة توجد عناصر مكررة يمكن الاستغناء عنها بغير الاساءة الى المعنى من الناحية النظرية . فما دمنا قد ذكرنا العدد « ثلاثة » فلا حاجة الى اضافة علامة الجمع (ين) الى كلمتي (مهندس) و (جزائرى) او اضافة علامة الجمع (وا) الى الفعل (وصل) لاننا نستطيع الاستغناء عن علامات الجمع هذه ما دامت كلمة (ثلاثة) تدل على الجمع . ولكن اللغات الطبيعية تستخدم التكرار اللفظى والمعنوى للتأكد من ايصال الرسالة سليمة الى الطرف الآخر .

وما دامت اللغات الاصطناعية تتحاشى الحشو توخيا للسهولة والبساطة فان سلامة الاتصال قد تبلغ درجة الخطر (6) . وهكذا يصعب استخدام اللغات الاصطناعية فى الحياة العملية .

(6) ان اللغات الاصطناعية تخلو من التشويق او « عنصر الاثارة » ، كما يسميه علماء النفس التربوى . لان هذه اللغات الاصطناعية لا تمثل حضارة معينة ولم تستخدم كأداة تعبير فى ادب معين من الاداب العالمية . وان توخيها للسهولة واقتصارها على عدد محدود من المفردات لا يؤهلها للتعبير الادبى والتنوع الاسلوبى . ونحن نعرف ان الكثيـــر من النـــاس يقبلون على تعلم اللغات الاجنبية رغبة منهم فى الاستمتاع بقراءة الاداب الاجنبية بلغاتها الاصلية والاطلاع على الحضارات الانسانية الكبرى .

2 ـــ اللغات الميسرة او شبه الاصطناعية :

فى عام 1903 وفى غمرة البحث عن وسيلة تفاهم عالميـــة مشتركة برزت حركة تدعو الى احساء اللغة اللاتيـــنية وتيسيرها عن طريـــق التخلص من تصرفاتها النحوية المعقـــدة . وفى عام 1930 اتـــم المفكران البريطانيان اوكدن وريتشاردز Ogden et Richards مشروعهما الموسوم بـــ « الانكليزيـــة الاساسيـــة » فى محـــاولة لتقـــديم لـــغـــة مشتركة يسهل على الناس تعلمها . وقد وصف ريتشاردز مشروعه بأنه لغة فلسفيـــة مقتبســـة من الانكليزيـــة (7) . وتقتصر مفردات هـــذه اللغة على 850 كلمة من بينها 18 فعلا فقط ، وكان المؤلفان يأملان بان تستطيع هذه المفردات المحدودة التعبير عن اوسع المعانى .

ان الملاحظات التى اوردناها عن اللغات الاصطناعية من حيث عدم قدرتها على القيام بدور وسيلة التفاهم المشتركة المتوخاة تنطبـــق ايضا على لغة اوكدن وريتشاردز الميسرة . على ذلك فان الـــ 850 كلمة التى وردت فى مشـــروع (الانكليـــزية الاســـاسيـــة) لا تكـــفـــى لاجـــراء الاتصالات المناسبة . ولهذا فان المؤلفين سرعان ما اضافا ملحقا بمئات المفردات التى وصفاها بأنها كلمات عالمية لا يحتاج تعلمها الى جهد مطلقا مثل السكاير والبيرة والراديو وغيرها . ولكن ظهر فيما بعد ان هـــذه المفردات « العالمية » ليست عالمية فى حقيقة الامر ، فهى وان كانت تتشابه تهجئتها فى بعض اللغات التى تكتب بحروف لاتينية ، فانها تختلف فى طريقة تلفظها من لغة الى اخرى ، اضافة الى ان لها فى اللغات الاخرى مرادفات تتغاير تماما فى التهجئة والنطق .

ومن ناحية اخرى حاول اوكدن وريتشاردز تجنب المفردات الصعبة عن طريق استعمال مقابلات تفسيرية تستخدم كلمات بسيطة تقع ضمن الـ 850 كلمة التى اختاراها . فبدلا من استعمال كلمة (دبابة) استعملا عبارة (آلة ثقيلة تتحرك على عجلات ولها بندقية كبيرة) ، وبدلا من كلمة (enter) استعملا (Come in) واستعاضا عن (Selfish) بعبارة (without thought of others) وعن (to tolerate a thing) (to let a thing go without protest)

ويلاحظ ان العبارات التى اختاراها هى اصعب بكثير من المفردات « الصعبة » التى حاولا تجنبها . وعندى ان هذه الصعوبة ناتجة عن اغفالهما للفرق بين المعنى المعجمى والمعنى البنيوى . فالكلمات المستعملة فى عباراتهما المقترحة هى سهلة فى حد ذاتها ولكن المعنى الكلى الذى ينتج من دخول تلك الكلمات فى علاقات بنيوية فيما بينها هو اصعب بكثير مما توخيا . ونحن نعرف ان السهولة فى بعض اجزاء نظام الاتصال ليست سهولة حقيقة اذا كانت تؤدى الى تعقيدات او صعوبات فى اجزاء اخرى من ذلك النظام .

3 — اللغات الطبيعية :

اذن فاللغات الاصطناعية واللغات الميسرة ليست مؤهلة للقيام بدور لغة التفاهم المشتركة للاسباب التى ذكرنا . ولا مندوحة من الاعتماد على اللغات الطبيعية . وبحثنا هذا محاولة لتحديد العوامل التى تساعد على انتشار لغة من اللغات فى العالم ثم الاشارة الى اللغات الكبرى التى تحتل الصدارة فى عملية الاتصال الدولى . فلقد وجدنا ان الترتيب الذى اقترحه معظم الذين تطرقوا للموضوع لا ينسجم وواقع الحال ، فقد عمل هؤلاء على ترتيب اللغات من حيث اهميتها على ضوء عدد الناطقين بها ، وهكذا وضعوا اللغة الصينية على راس القائمة التى تظهر فيها ايضا اليابانية وبعض لغات شبه القارة الهندية . ومن هنا يتبين خطل المعيار الكمى الذى اتخذوه اساسا لترتيبهم لان هذه اللغات آنفة الذكر لا يمكن وصفها بالعالمية . اما دراستنا هذه فتقوم على استعراض تاريخ اللغات العالمية قديما وحديثا واستنباط الاسس التى قام عليها انتشارها . ولقد وجدنا

ان اللغات التى تبوات عرش اللغة العالمية حتى اوائل هذا القرن هى اربعة :

(1) الاغريقية التى انتشرت ابان عظمة اليونان .

(2) اللاتينية التى غدت لغة اوربا المشتركة ابان العصور الوسطى .

(3) العربية التى اصبحت لغة عالمية ايام ازدهار الحضارة الاسلامية

(4) الفرنسية التى صارت لغة عالمية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

اما فى القرن الحالى فهناك عدد من اللغات الكبرى التى حققت انتشارا واسعا من بينها الانكليزية والاسبانية والفرنسية والعربية والروسية والالمانية . ويمكن اجمال العوامل التى ساعدت على انتشار هذه اللغات فيما يأتى :

عوامل انتشار اللغة

(1) العوامل التاريخية : —

نعنى بالعوامل التاريخية هنا الفتوحات والغزو والاستيطان والاستعمار التى يمكن اعتبارها عوامل مباشرة فى نشر اللغة فى بادىء الامر . ولقد حققت اللغات الكبرى قديما وحديثا انتشارها من حيث الاساس بهذه الطرائق . فعندما دحر الاسكندر الاكبر الغرب والشرق حمل مع معدات جيشه عناصر الحضارة الاغريقية واصبحت اللغة الاغريقية وسيلة تفاهم مشتركة ،وبها دون العهد الجديد وتعلمها المفكرون اجمع ، فحتى قادة الفكر الرومانى من امثال شيشرو وقيصر وسينيكا كانوا يجيدونها اضافة الى لغتهم القومية (8) . وارتبط انتشار اللغة العربية بالفتوحات الاسلامية ، فقد حمل المجاهدون معهم قرآنا عربيا ودعوا الشعوب التى اعتنقت الاسلام الى تعلمه والسير على نهجه . وتمتد جذور انتشار اللغة الفرنسية الى ارتفاع قوة فرنسا العسكرية المتمثلة

فى الغزو النورماندى لانكلترا ، وكذلك الى فتوحات نابليون فيما بعد ، والى عمليات الاستعمار والاستيطان التى مارستها فرنسا فى العالـــم الجديد وافريقيا وآسيا . ويعود انتشار الاسبانية فى امريكا اللاتينية الى حركة الاستكشافات الجغرافية التي قادتها البرتغال واسبانيـا والتـي رافقتها أو تبعها عمليات غزو واستيطان . وحققت الانكليزية انتـشارها الواسع فى امريكا الشمالية واستراليا والهند وافريقيا وغيرها من البقاع عن طريق الاستيطان والاستعمار ايضا .

(2) العوامـــل السكانيـــة :

ان عدد الناطقين بلغة من اللغات ذو علاقة وثقى ولا ريب بتطورها وانتشارها ، فنحن لا نتوقع من لغة لا يتجاوز عدد ابنـائها البضعـة آلاف ان تسود العالم . واذا امعنا النظـر فى اللغـات التي حققـت انتشارا واسعا الفينا انها الى جانب مقومات قوتها الاخرى تمتاز بكثرة ابنائها الاصليين وان ارتفاع نجمها يتناسب طرديا مع الزيادة فى عددهم . ولعل المقارنة بين الانكليزية والفرنسية من حيث عدد الناطقين بهما توضح التقدم الذى احرزته كل منهما فى فترات متباينة من التاريخ . فالزيادة فى عدد السكان تتفق والانتشار الذي تمتعت به كل منهمـا .

حوالى سنة	عـدد النـاطقين بالمليون	
	الانكليـزية	الفرنسية
1100	1ز5	8
1500	5	12
1700	9	20
1800	15	28
1900	123	52
1950	250	80
1970	3000	90

ولكن كثرة الناطقين باللغة لا تضمن انتشارها ما لم تتوفر بقية العوامل الاخرى التى سنذكرها . فضخامة عدد السكان فى كل من الصين واليابان لم يحقق انتشار لغتيهما . ولقد داب كثير من الذين تطرقوا الى اللغات العالمية على اتخاذ المعيار الكمى اساسا لترتيب اهميتها ، وهذا خطأ فادح ولا شك .

ولا تقتصر العوامل السكانية فى نظرنا على عدد الناطقين باللغة فحسب بل تمتد ايضا الى حركتهم وتنقلهم فى العالم وقدرتهم على ذلك . فانزواء السكان فى ديارهم يقلل من فرص انتشار لغتهم وحضارتهم والعكس صحيح . وحركة السكان وتنقلهم لا يعنيان بالضرورة انهما نتيجة ميل طبيعى لصيق بهم او جزء من تقاليدهم ، بل قد يكون للظروف الجغرافية الطبيعية والعوامل السياسية الداخلية والخارجية اثر فى ذلك . فلو قارنا بين الصينيين والامريكيين فى اواسط هذا القرن لوجدنا ان الظروف المعيشية والسياسية داخلية وخارجية لم تمكن الصينيين من السياحة والسفر الى الخارج ، بينما كانت تلك الظروف مواتية للامريكيين . والهجرة عامل آخر من العوامل السكانية التى تؤثر تأثيرا بالغا فى انتشار اللغة . فالهجرات السامية من شبه جزيرة العرب قبل الاسلام الى منطقة الهلال الخصيب (الشام والعراق) يسرت كثيرا انتشار اللغة العربية هناك بعد الفتوحات الاسلامية وساعدت على بقائها . فسكان تلك المناطق وجدوا من السهولة بمكان تعلم العربية لغة الدين الجديد ولغة الدولة بسبب قربها من لغاتهم الاصلية ، لان العربية تنتمى الى العائلة اللغوية التى انجبت تلك اللغات . وهذا مما يفسر لنا — فى رايى — سبب انتشار العربية فى الهلال الخصيب فى حين انها لم تحقق الانتشار الواسع ذاته ولم تستطع البقاء فى مناطق اخرى كايران على الرغم من رسوخ الاسلام هناك (9) .

(3) العوامل الجغرافية :

لا ترتكز اهمية اللغة بوصفها وسيلة تفاهم عالمية مشتركة على عدد الناطقين بها فحسب بل على المكان الذى يقطنون فيه

كذلك . ويمكن النظر الى المكان هذا من زاويتين ، اولا هما توزيعه الجغرافى والثانية موقعه الاستراتيجى . ونعنى بالتوزيع الجغرافى تواجد الناطقين فى اماكن متعددة فى الكرة الارضية .

ولعل مقارنة اخرى بين الصينية والانكليزية تساعد على توضيح هذه المسألة ايضا . فعلى الرغم من ان عدد نفوس الناطقين بالصينية يقرب من ثلاثة اضعاف الناطقين بالانكليزية ، فان الصينيين محصورون فى زاوية واحدة من العالم فى حين ان الناطقين بالانكليزية موزعون فى جميع ارجاء المعمورة — فى اوربا (المملكة المتحدة) ، وفى امريكا (الولايات المتحدة وكندا) ، وفى افريقيا (اتحاد جنوب افريقيا وروديسيا) ، وفى استراليا . والتوزيع الجغرافى على هذا النحو يساعد على اتصال ابناء اللغة بغيرهم من الشعوب . ومن ناحية اخرى فان لاستراتيجية الموقع اثرا فى ازدياد اهمية اللغة . فالموقع الاستراتيجى الذى يحتله العالم العربى بوصفه ملتقى القارات الثلاث اوربا واسيا وافريقيا ، والمهيمن على خطوط المواصلات الجوية ، وطرق التجارة البحرية ، يعد من العوامل التى تساعد على عالمية اللغة العربية . ولعل الموقع الاستراتيجى الذى تحتله المانيا والنمسا فى اوربا يلقى بعض الضوء على اهتمام الاوربيين باللغة الالمانية . فهاتان الدولتان تقعان فى وسط القارة الاوربية ولهما حدود مشتركة مع العديد من بلدانها .

(4) العوامل الاقتصادية :

لقد لوحظ ان للعلاقات الاقتصادية الدولية اثرا فى تشجيع استعمال لغات معينة واتخاذها وسائل تفاهم مشتركة . وتشتمل العلاقات الاقتصادية الدولية على الهجرة الدولية للسكان (اى انتقال الاشخاص عبر الحدود السياسية من بلد لاخر بقصد العمل او السياحة) ، والتجارة الخارجية (اى انتقال السلع والخدمات من اراضى دولة الى اراضى دولة اخرى) ، وحركة الرساميل الدولية (اى انتقال رؤوس الاموال عبر الحدود القومية) (10) . ومن نافلة القول ان اللغة تنتقل مع الاشخاص والسلع والخدمات ورؤوس الاموال . ولكن استعمال الآخرين للغة يتوقف الى

حد بعيد على القوة الاقتصادية التى يتمتع بها ابناؤها ، وهذا يفسر لنا مثلا سبب اقبال ابناء الدول النامية على تعلم لغة اوربية ما للتفاهم مع ابناء الجالية الاوربية المقيمة فى تلك الدولة النامية ، فى وقت لا يعمد الاوربيون الى تعلم لغات العمال الاجانب الذين يعملون فى المصانع الاوربية مهما كثر عددهم . فالجالية الاوربية فى الدولة النامية غالبا ما تتمتع بقوة اقتصادية ، كأن تدير شركة تجارية او انشائية ، وهى تستخدم العمال الذين يجيدون لغتها ، تلك اللغة التى تستعملها الشركة فى جميع مراسلاتها مع مقرها الرئيسى فى اوربا . اما العمال الذين يذهبون من الدول النامية الى اوربا للعمل فى مصانعها فهم مضطرون ايضا الى تعلم لغة رب العمل والبلد الذى يعيشون فيه .

ونشاط الامة التجارى يساعد على ان تكون لغتها لغة التعامل المشتركة ، يستعملها بحارتها الذين ينقلون السلع الى موانىء العالم ، ويستعملها مداولوها الذين يشرفون على عمليات التسويق فى مراسلاتهم ، وكذلك يستعملها التجار الاجانب الذين يرغبون فى استيراد تلك السلع . ويعزو روث تحول العالم من اللاتينية والفرنسية الى الانكليزية فى هذا القرن الى التغير الذى طرا على اتجاهات العصر وروحه . ففى الوقت الذى كان العالم يهتم فيه بالفكر والفن والدين والفلسفة والادب كانت اللاتينية ثم الفرنسية هما لغتا التفاهم المشترك ، اما فى العصر الحاضر فقد انصب اهتمام العالم على التكنولوجيا والتجارة ، والانكليز والامريكان هم فى مقدمة شعوب العالم فى هذين المضمارين ، فلا غرو ان تحتل لغتهما الصدارة بين اللغات العالمية (11) .

وتشتمل العوامل الاقتصادية كذلك على المساعدات الفنية والمعونات الاقتصادية التى تقدمها الامة للدول الاخرى . ولنضرب مثلا على ذلك فى المصارف (الابناك او البنوك) العربية التى تقدم مساعدات مالية ومعونات اقتصادية للدول الاسلامية والافريقية مثل البنك العربى للمساعدات الافريقية ومقره القاهرة ، والبنك الاسلامى ومقره جدة . وصندوق التنمية الكويتى (الذى لم يعد مقتصرا على تقديم القروض للدول العربية فحسب بل اصبح يقدم مساعداته البالغة ثلاثة آلاف مليون

دولار لغيرها من الدول ايضا) ومقره الكويت . فاذا كانت هذه المصارف تستخدم اللغة العربية فى كافة معاملاتها فلا يبقى للدول التى تروم الاستفادة من خدماتها الا ان تستخدم العربية ايضا فى مراسلاتها معها مما يشجع تلك الدول على تعليم العربية فى مدارسها لاعداد الموظفين القادرين على استخدامها .

(5) العوامل السياسية :

ان نفوذ الامة السياسى فى الاوساط الدولية والقوة العسكرية التى تتمتع بها تجعلان بقية الدول تخطب ودها املا فى الحصول على مساندتها المعنوية ومساعدتها المادية . ويزودنا التاريخ بأمثلة لا حصر لها تعزز هذا الراى . فاللغة الفرنسية حققت اولى انتصاراتها حينما تجلت قوة فرنسا سياسيا وعسكريا فى الغزو النورماندى لانكلترا عام 1066 ، فانتشرت الفرنسية فى انكلترا واصبحت اللغة الرسمية . وفى القرن العشرين ادى سقوط فرنسا سياسيا وعسكريا فى فيتنام بعد معركة ديان بيان فو الشهيرة التي وقعت فى مارس عام 1954 الى انحسار اللغة الفرنسية من تلك الديار حيث اخذت الانكليزية تحل محلها بتعاظم النفوذ الامريكى هناك . ولعل التقلبات التى شهدتها مكانة اللغة الالمانية مثل آخر على ما لنفوذ الامة السياسى من اثر فعال فى نشر لسانها . فعندما تصاعدت اهمية المانيا ابان الحربين العالميتين فى هذا القرن حققت لغتها انتصارات ملحوظة ولكنها سرعان ما فقدت مواقعها اللغوية كلما خسرت الحرب .

وقد تضطر بعض الدول الى اختيار احدى اللغات العالمية لتكون لغة اتصال داخلى وذلك لعدم وجود لغة مشتركة بين السكان . ففى نيجريا مثلا توجد ثلاث لغات قومية رئيسية حسب المناطق او القبائل وهى الهوسا واليورتا والاكبو ، فأتخذ من الانكليزية لغة مشتركة . وتم اختيار الانكليزية بسبب النفوذ السياسى الذى تتمتع به بريطانيا فى تلك البلاد . (12) واحيانا توجد لغتان رئيستان فى بلد ما ، ولكن المنافسة بينهما تؤدى الى اتخاذ لغة خارجية لغة رسمية كحل وسط . فالتنافس الحاد بين

التاميلية والسنغهالية فى سيلان سيؤدى ولا شك الى استمرار اللغة الانكليزية هناك بوصفها لغة مشتركة لبعض الوقت . وفى حالات اخرى نجد منافسة شديدة بين عدد من اللغات الخارجية لتحظى بمكانة اللغة الرسمية فى بلد من البلدان . ففى الصومال (حيث تتكلم الاغلبية اللغة الصومالية وتتكلم الاقليات الرحنوينية والشمينية) كانت المنافسة على اشدها بين الانكليزية والعربية والايطالية . ففى شمال البلاد تستخدم العربية لغة للتعليم فى المدارس الابتدائية فقط ، أما فى المدارس المتوسطة والثانوية فان الانكليزية هي لغة التعليم وما العربية الا مجرد موضوع فى المنهج . وفى جنوب البلاد تستعمل الايطالية لغة للتعليم فى الصفوف المتقدمة من المدارس الابتدائية وفى المدارس المتوسطة . اما فى المرحلة الثانوية فيختلف الحال من مدرسة الى اخرى ، فبعضها يستعمل الانكليزية يبقى على الايطالية وقسم ثالث يستبدلها بالعربية . وما ذكرناه عن لغة التعليم يشبه الى حد كبير ما يجرى فى القضاء والمؤسسات الرسمية الاخرى . فعندما تقع حادثة سير مثلا يتم الاستجواب بالصومالية اما التقرير فيكتب بالانكليزية فى الشمال وبالايطالية فى الجنوب (13) .

وقد بذلت الحكومة البريطانية مساعي سياسية متواصلة فى العقد الاخير وفى مطلع العقد الحالى لاقناع جمهورية الصومال باتخاذ الانكليزية لغة للتعليم فى مختلف المراحل الدراسية وكافة المناطق . وانتدبت الاستاذ برايد Pride احد المتخصصين فى اللسنيات (علم اللغة) لدراسة الوضع اللغوى فى الصومال واعداد تقرير عنه بغية حمل حكومة الصومال على اعادة النظر فى السياسة اللغوية المتبعة فى النظام التربوى . وقد لاحظ برايد ان العربية تستمد مكانتها من الاسلام الذى يدين به الصوماليون ، وتعتمد الايطالية على كونها لغة المعاملات التجارية والبيع والشراء ، اما الانكليزية فانها تستمد اهميتها من حيث كونها اللغة التى يستخدمها غالبا موظفو الامم المتحدة واعضاء الوفود فى المؤتمرات . كما لاحظ ان هناك تنافسا حادا ومؤلما — على حد قوله — بين الانكليزية والعربية فيما يختص بتطوير نظام كتابى للغة الصومالية ، فهناك من يرشح الخط العربى وهناك من يدعم الحروف اللاتينية للاضطلاع بهذه

المهمة . ولا شك ان الاستاذ برايد لم يتوان عن نصح الحكومة الصومالية بتفضيل الانكليزية والخط اللاتيني وتعميمها في البلاد . وفي حين اننا نتفق مع الاستاذ برايد على ضرورة اعادة النظر في السياسة التربوية،ونتفق معه كذلك على المقدمات التي اعتمدها ، فاننا نختلف معه في النتائج التي توصل اليها ، لانها ارتكزت الى العامل السياسي فقط واغفلت رغبة السكان انفسهم . فالانكليزية والايطالية فرضتهما صنوف من الاستعمار والاستغلال الاوربيين لهذا البلد الافريقي ، اما العربية فتمثل تمسك المواطنين بدينهم واعتزازهم بماضيهم (اذ ان الصوماليين هم احفاد العرب الذين هاجروا الى تلك الارض الافريقية في القرن السابع الميلادي وما بعده) (14) ، ورغبتهم في تطوير التعاون بينهم وبين ابناء البلاد العربية والاسلامية . ولعل ما يؤيد قولنا هذا هو ما تبلورت عنه ارادة الصوماليين في عمل سياسي حاسم اذ انضمت جمهورية الصومال مؤخرا الى جامعة الدول العربية ، وهذا سيضع حدا في المستقبل القريب للتنافس اللغوي الدائر هناك ويبوىء العربية مكانتها الطبيعية .

ومن ناحية اخرى فان العامل السياسي يظهر مفعوله جليا في عملية اختيار لغة مشتركة لمؤتمر من المؤتمرات الدولية او منظمة من المنظمات العالمية او الاقليمية . فان نفوذ الدولة السياسي في ذلك المؤتمر او تلك المنظمة قد يرجح كفة لغتها ، كما ان اللغة قد تفضل على غيرها اذا ازداد عدد الدول الناطقة بها والمشتركة فيهما . فقبل دخول بريطانيا في السوق الاوربية المشتركة كانت الفرنسية هي اللغة الرسمية فيها لما لفرنسا من دور فعال في انشاء السوق وتطويرها ، ولكن دخول بريطانيا في السوق فتح صفحة جديدة من التنافس اللغوي . واختيار منظمة الامم المتحدة الاسبانية والعربية لغات رسمية فيها ناتج عن عدد الاعضاء الناطقين بهاتين اللغتين . فهناك عشرون دولة تنطق بالاسبانية ومثلها بالعربية . ويظهر هذا العامل واضحا في اختيار العربية لغة رسمية في منظمة الوحدة الافريقية ومؤتمرات عدم الانحياز ورابطة العالم الاسلامي .

وكما ان نفوذ الدولة السياسي في العالم يؤدي الى انتشار لغتها ، فان انتشار لغة الدولة يؤدي الى زيادة نفوذها السياسي . فاللغة تكون

بمثابة حصان طروادة تعبر بواسطته الحدود القومية المحصنة . ولعل هذا ما عناه الرئيس الفرنسى الراحل جورج بومبيدو حين وصف اللغة الانكليزية بأنها « لغة امريكا فى نظر العالم اجمع » . فقد كان يشير الى ان استخدام الانكليزية فى المنظمات الاوربية سيسهل على امريكا التدخل فى شؤونها فى حين تسعى فرنسا الى خلق اوربا مستقلة عن الولايات المتحدة الامريكية .

وما قيل عن السياسة واللغة ينطبق ايضا على الاقتصاد واللغة . فانتشار لغة الدولة عامل يساعد على ترويج تجارتها وتسويق سلعها . وفى هذا يقول موريس ادلمان — « ان الحكومة الفرنسية لا يهمها ان تقرا « السيد » فى تشاد بقدر ما يهمها ان يتعلم مهندسو المستقبل فى افريقيا السوداء من الكتب الفرنسية كيف يقودون سيارة او ماكنة فرنسية ثم يشترونها » (16) .

(6) العوامل العقائدية :

لعل العوامل العقائدية من اقوى عوامل انتشار اللغة . ونعنى بالعوامل العقائدية هنا ان تكون اللغة لغة « رسمية » لعقيدة دينية او عقيدة سياسية ، اى ان جل ما كتب عن تلك العقيدة دون بهذه اللغة . ولهذا يقبل معتنقوها على تعلم هذه اللغة للالمام باصول عقيدتهم . كما ان اللغة فى هذه الحالة تكون رابطة اخرى بين المؤمنين بتلك العقيدة .

ان اكثر من ستمئة مليون مسلم فى العالم ، ممن ينتمون الى قوميات متعددة وينطقون بألسنة متباينة ، يؤدون صلواتهم الخمس يوميا باللغة العربية التى انزل بها القرآن الكريم . وبذلك اصبحت العربية لغة مشتركة تجمع شمل المسلمين اضافة الى الايمان الذى وحد بين قلوبهم . ولهذا السبب حرم الكثير من فقهاء المسلمين ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الاخرى ، لا لانه انزل نصا باللسان العربى فحسب ، بل لانهم يرمون من وراء ذلك حث المسلمين على تعلم اللغة العربية لتكون لهم لغة مشتركة تزيد من اواصر الاخوة بينهم ، وتيسر تعاونهم فى شتى المجالات . ولقد ادركت ذلك المغزى حكومة الباكستان ، اذ اعلن مولانا كوثر نيازى ،

الوزير الاتحادى للاعلام والاذاعة والحج والاوقاف ، فى الخامس عشر من شباط 1974 ان فروع المركز الوطنى الباكستانى فى ارجاء البلاد ستفتح صفوفا لتعليم اللغة العربية ابتداء من اول اذار . وقال ان بعض هذه الصفوف ستكون مسائية لتوفر فرصة تعلم العربية للاهالى الذين يعملون نهارا . ولقد اوضح الهدف من افتتاح هذه الصفوف بقوله « انه ينسجم وسياسة الحكومة التى ترى فى العربية — لغة الرسول محمد (ص) — عاملا مساعدا على توثيق علاقات الباكستان بالدول الاسلامية » (17) .

ومن الامثلة على انتشار لغة ما لانها تمثل عقيدة سياسية اقبال كثير من الشيوعيين فى العالم على تعلم اللغة الروسية .

(7) العوامل الحضارية :

يرى الدكتور لوى دولو فى كتابه « العلاقات الثقافية الدولية » ان اللغة عامل رئيسى فى العلاقات الحضارية ، فالتوسع الثقافى هو توسع لغوى قبل كل شىء . ويؤكد ان الشعاع الفنى والموسيقى والعلمى لا ينتقل الا بواسطة الاثير اللغوى . ويخلص من ذلك الى القول ان معرفة اللغة الاجنبية تسمح بالتأثر الحضارى والثقافى (18) . ولكنا نود هنا ان نمسك بالحبل من نهايته الاخرى ونفترض ان الازدهار الحضارى هو الذى يؤدى الى التوسع اللغوى . فاذا ازدادت معطيات الامة الحضارية ونمت اقبلت الامم الاخرى على تعلم لغتها للانتفاع من تلك المعطيات ونقلها . وما الاقبال على تعلم لغات اجنبية دون غيرها الا مفاضلة ضمنية بين الحضارات الكبرى .

وللنمو الحضارى مظاهر كثيرة تقرر مكانة اللغة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(ا) عدد الكتب التى تدون سنويا باللغة وعدد ما يصدر منها الى الخارج :— فنمو حركة التأليف والنشر وما يرافقها من توزيع واسع للكتاب مقياس لا يخطىء فى تقدم الامة الحضارى ورقيها الفكرى والثقافى ، كما انه فى الوقت ذاته مقياس لاهمية اللغة التى يتم بها التأليف ومكانتها

فى العالم . فعندما تحظى لغة ما بانتشار واسع فى العالم يتجه الكثيرون من غير ابنائها الى نشر ابحاثهم بهـا ، لا لان بعضهم تلقى تعليمه بتلك اللغة فحسب ؛ بل لان معظمهم يرمى من وراء ذلك الى تحقيق مكاسب معنوية ومادية عن طريق انتشار مؤلفاتهم ورواجها . والجدول الآتـى يبين لنا عدد الكتب التى دونت باللغات الكبرى خلال عام 1970 :

اللغـة	عـدد الكتـب
الانكليزية	130ر955 +
الروسية	74ر197
الالمـانية	61ر344
الفرنسية	28ر440
الاسبانية	25ر899
العربيـة	3ر719

اللغات التى دونت بها الكتب سنة 1970

+ من بينها 30ر933 رسالة جامعية فى الولايات المتحدة الامريكية

(ب) عدد الكتب التى تترجم منها واليها :ـ والترجمة عامل آخر من عوامل عالمية اللغة . اذ ان الامم تقبل على ترجمة النـتاج الفكرى والحضارى الذى ينشر باللغة العالمية . ومن ناحية اخرى فان اللغـة العالمية تسعى الى تحقيق ما يمكن تسميته بالاكتفاء الذاتى ، اذ يحاول ابناؤها ترجمة خير ما ينشر فى اللغات الاخرى اليها فى الحال . وهذا يعنى ان من يستعمل تلك اللغة يستطيع بسهولة الاطلاع على ما ينشر باللغات الاخرى من غير حاجة الى معرفتها . وقد لعبت الترجمة من اقدم العصور دورا بارزا فى الثراء الحضارى والتطور العلمى . ويرينا الجدول الآتـى الانتاج السنوى للكتب المترجمة حوالى عام 1969 :

القطر	عدد الكتب المترجمة
الاتحاد السوفياتى	3ر851
المـــانيــا	3ر541
اسبانيــا	2ر733
الولايات المتحدة	2ر055
بريطانيــا	801
البلاد العربية	227
الانتاج العالمى	38ر164

انتـــاج الكتب المترجمة عام 1969

(ج) عدد الصحف والمجلات التى تصدر بها — والصحافة مظهر آخر من مظاهر التطور الحضارى ومقياس لمكانة اللغـــة . فانتعاش الصحافة يؤدى الى ارتفاع اهمية اللغـــة ونشرها . وغالبـــا مـــا تحظى الصحف والمجلات الممتازة بانتشار على نطاق عالمى ، وقد تصدر بعض الصحف والمجلات طبعات محلية واخرى عالمية لكل عدد من اعدادها . والجدول الآتى يبين لنا عدد الصحف فى الاقطار الكبرى وعدد النسخ المسحوبة من كل صحيفـــة :

القطـــر	عـــدد الصحف	النسخ المسحوبة بالالـــف
الولايات المتحدة	1ر773	62ر108
المـــانيـــا	1ر113	27ر309
الاتحاد السوفيتى	639	81ر633
بريطانيـــا	106	26ر700
فـــرنســـا	106	11ر956
اسبـــانيـــا	116	3ر450
البلاد العربية	81	1ر326

الصحافة حـــوالى عــــام 1970

(د) عدد الافلام الناطقة بتلك اللغة وما يصدر منها الى الخارج : ــ والسينما من الوسائل الفعالة فى نشر اللغة فى العالم . والافلام الجيـــدة مظهر من مظاهر النشاط الثقافى للامة . وتقبل الدول الاخرى على استيراد هذه الافلام التى تقوم حتما بالتعريف باللغة التى تنطق بها . وقد تترجـــم هذه الافلام الى اللغة المحلية عند استيرادها ترجمة صوتية حيث تعـــد المحـــادثـــة باللغـــة المحليـــة او تـــتـــرجـــم ترجـــمـــة كتابية ، حيث تظهر الترجمة مدونة فى اسفل الصورة مع احتفاظ الصوت باللغة الاصلية . كما ان بعض شركات الانتاج السينمائى تنـــتج افلامـــا ناطقة باللغات العالمية لتيسير تصديرها ، وهذا مـــا تنـــتهجه شركات الافلام الايطالية التى تنتج افلاما بالانكليزية او الفرنسية . ويعطينا الجدول الآتى فكرة عن بعض مواطن انتاج الافلام الطويلة :

القطـــر	السنة	عدد الافلام
الولايات المتحدة	1967	215
الاتحاد السوفيتى	1970	218
المـــانيـــا	1970	149
فـــرنســـا	1970	138
بريطـــانيـــا	1968	88
البلاد العربية	1968	70

الانتاج السنوى للافلام الطويلة

(هـ) عدد الجامعات التى تدرس بها ، وعدد الطلاب التى يأمونها : ان التقدم الحضارى يتوقف على التعليم العالى وينعكس عليه . فكثـــرة الجامعات ورقى مستواها العلمى واصالة الابحاث التى تقـــوم بهـــا من شأنه ان يرفع مكانة الامة حضاريا ، وان يجذب اليها اعدادا غفيرة من طلبة العلم من جميع انحاء العالم ، يأمونها سنويا لينهـــلوا من علومهـــا

ويرتووا من معارفها . وعلى هؤلاء الطلاب ان يتعلموا اللغة التي تدرس بها تلك الجامعات قبل رحيلهم اليها وبعده . وعند عودتهم الى بلادهم يقومون بنشر تلك اللغة شاءوا ام ابوا . فهم يستخدمون المصادر والكتب المدونة بها فى مهنهم ، ويفضلون مشاهدة الافلام الناطقة بها ، ويشجعون ابناءهم على اختيارها من بين اللغات وتعلمها . وتتنافس جامعات الدول الكبرى على اجتذاب الطلاب الاجانب وتقدم لهم كافة التسهيلات الممكنة ، وتخصص دوائر خاصة بهم لمساعدتهم وتمشية امورهم وتقديم المنح والزمالات لهم ، بل اقدم الاتحاد السوفيتى على انشاء جامعة بأكملها من اجل الطلبة الاجانب ، حيث يتلقى جميع طلبتها زمالات واعانات مالية ، تلك هى جامعة لومومبا لصداقة الشعوب . وتنعكس عالمية اللغة على عدد الطلبة الاجانب فى جامعات الامة . ففى عام 1931 حينما كانت للغة الفرنسية بعض الافضلية على الانكليزية بلغ عدد الطلبة الاجانب فى الجامعات الفرنسية 17٫261 ، اما فى الجامعات الامريكية فكان عددهم حينذاك 6٫850 ، وفى الجامعات البريطانية 5000 . ولكن هذه النسب اصابها تغير ملحوظ بعد ربع قرن فقط عندما انقلب الوضع اللغوى واصابت اللغة الانكليزية حظا اكبر من الانتشار ، ففى عام 1956 بلغ عدد الطلاب الاجانب فى الجامعات الامريكية 40٫000 وفى الجامعات البريطانية 10٫000 ، اما فى الجامعات الفرنسية فقد كان عددهم 16٫000 طالب (19) .

(و) عدد البحوث العلمية الاصيلة التي تنشر بها : لا مبالغة اذا اطلقنا على القرن العشرين اسم (عصر العلم والتكنولوجيا) ، فقد اصبح العلم يؤثر فى رفاهية الشعوب ، وصار الاطلاع على نتائج البحوث العلمية والاستفادة منها عاملا حاسما فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية . وهكذا فان اللغة التى تنشر بها ابحاث علمية اصيلة تحظى باقبال الشعوب على تعلمها . وحتى علماء الدول الكبرى يقبلون على تعلم اللغات الاخرى التى تنشر بها ابحاث علمية كثيرة . وهذا ما يفسر لنا اقبال طلاب العلوم فى الجامعات الامريكية على تعلم الالمانية والروسية فى حين يميل طلاب الاداب فى تلك الجامعات الى تعلم الفرنسية والاسبانية . وقد يفضل بعض العلماء نشر نتائج بحوثهم بلغة غير لغتهم القومية املا

فى تحقيق انتشار اوسع لها . وهذا ما يحدث فى المؤتمرات العلمية ذات الطابـــع الدولى .

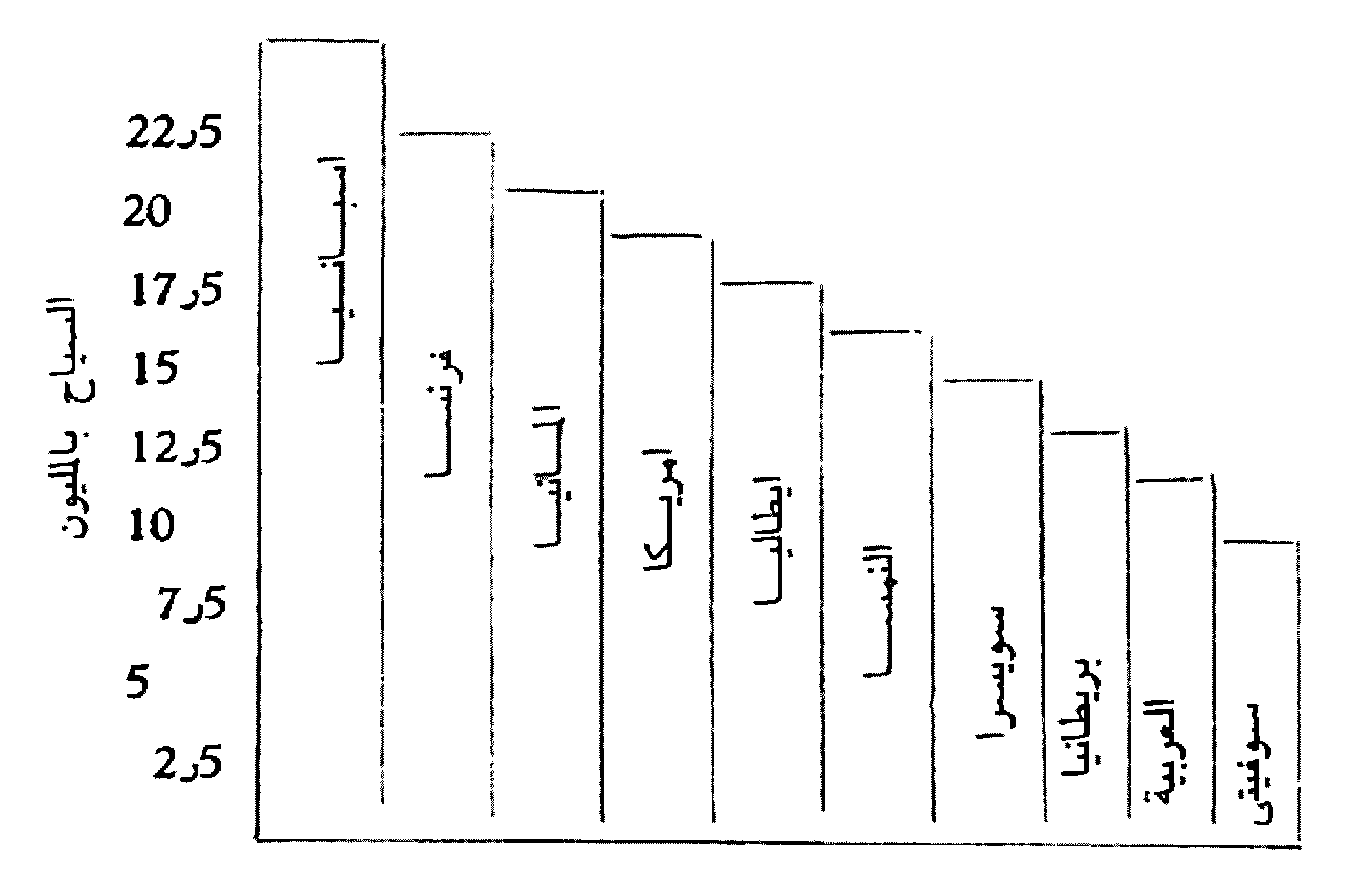
(ز) مكانة ادب اللغـــة بين الاداب العالميـــة : كان من الاهـــداف الرئيسية لتعلم اللغات الاجنبية قبل القرن العشرين الاستمتـــاع بقراءة الادب الاجنبى ، ولهذا فان طرائق تعليم اللغات الاجنبـــية كانت تؤكـــد مهارتي القراءة والترجمة ، على حســاب مهارتي التحدث باللغة وكتابتها ، اى تفضيل فهم ما هو مدون باللغة الاجنبية على التعبير بها . وما زال التراث الادبى للامة يقوم بدور هام فى نشر لغتها والتبشير بها فى العالم . ولقد لوحظ ان من بين الـــ 58 كاتبا التى تحظى مؤلفاتهم بالترجمة اكثر من غيرها ، 16 انكليزيا و 12 فرنسيا و 9 روس و 7 امريكان و 7 المان .

(ح) مساهمة الدولة فى المباريات الرياضية : اصبحـــت المباريات الاولمبية والدورات الرياضية الاقليمية والدولية تستغل الى حد بعيد فى الدعاية السياسية . فاحراز الدولة بطولات عديدة وتفوقها على غيرها فى دورة رياضية يؤخذ دليلا على عظمتها ، ويوجه انظار العالم اليها ، ومن ثم يؤدى بصورة غير مباشرة الى اقبال الناس على تعلم لغتها .

(8) العوامـــل السياحيـــة :

ان تحسن شروط العمل ، وتطور وســائـــل المواصلات ادت الى تمكن اعداد غفيرة من الناس الى التمتع باجازة يمضونها خارج بلادهم . وليس المقصود من الاجازة الراحة والاستجمام فحسب بل الاطلاع على المعالم الحضارية لبلاد اخرى كذلك . وهكذا اصبحت البلاد التى تتمتع بامكانات سياحية افضل تجتذب عددا اكبر من السياح . ويحتاج السائح الى التفاهم مع اهل البلاد التى يزورها بلغتهـــم ، ومن هنـــا فان الناس يقبلون على تعلم اللغة التى يحتاجونها فى المستقبل . ويرينا الشكل البيانى الآتى الاقطار التى تجتذب اكبر عدد من السياح طبقا لاحصاء 1970 :

الدول السياحية عام 1970



ومن العوامل التى تمت بصلة الى العوامل السياحية الهجرة . فالذين ينوون الهجرة يقبلون على تعلم لغة البلاد التى يرومون الهجرة اليها . ولعل هذا العامل كان من العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة الانكليزية فى النصف الاول من هذا القرن اذ ان البلاد التى كانت تشجع الهجرة اليها وتستقبل المهاجرين اكثر من غيرها هى الولايات المتحدة الامريكية وكندا واستراليا وكلها دول ناطقة بالانكليزية .

(9) العوامل اللغوية :

يزعم بعض الباحثين ان طبيعة اللغة ومميزاتها هى العامل الاساسى فى انتشارها ، وان اللغة الميسرة فى اصواتها وبنيتها تحظى باقبال شعوب العالم على تعلمها واستعمالها . ويرى الاستاذ بلاومن Ploughman

ان خصائص اللغة الانكليزية هى التى مكنتها من بز اللغات المنافسة لها فى القرن العشرين . ويقارن الانكليزية مع الفرنسية فيعزو « الفضائل » الآتيـــة الى الانكليزية :ـــ

(أ) انعدام التمييز بين المذكر والمؤنث ما عـــدا بين الرجـــال والنساء فى حين تذهب الفرنسية الى تذكير او تأنيـــث جميع المخلوقات والاشياء على السواء .

(ب) عدم وجود اكثر من صيغة واحدة للمخاطب سواء اكان هذا صديقا حميما ام غريبا تلتقى به لاول مرة ، اذ تخاطبه بكلمـــة (you) فى حين توجد بالفرنسية صيغتان هما (tu) و (vous) حسب صلة المتكلم بالمخاطب وحسب مكانة الاخير الاجتماعية .

(جـ) انعدام التبعية ، اى عدم وجود توافق بين الاسم ونعتـــه فى الافراد والجمع والتذكير والتأنيث . وتكاد الانكليزية تنفرد فى هذه الخصيصة من بين اللغات الجرمانية واللاتينيـــة .

(د) للانكليزية حصيلة غنية من المفردات ، تقرب من نصف مليـــون كلمـــة .

ولكن مثل هذه الآراء تفتقر الى الادلة الموضوعية المستمدة من علـــم اللغـــة الحديث . ونحـــن نعتقـــد ان طبـــيعـــة اللغـــة المنطوقـــة لا صلة لها بانتشار اللغة او الخصال التى قد تعزى لها . اذ يتفق اللغويون اليوم على عدم وجود تفاضل بين اللغات من حيث بنيتها واصواتها ، بـــل ينظرون اليها نظرة متساوية من حيث قدرتهـــا على التعبير عن جميـــع الخبرات الحسية ، وقابليتها على التطور ، ولا يقرون بوجود لغات صعبة واخرى سهلة بشكل مطلق . وعلى الرغم من تباين اللغات فى بنـــيتهـــا الصوتية وتراكيبها النحوية ، فان « مزايا » اية لغة تعادلها « مساوئها » (20) واثبت علم اللغة الحديث ان بنـــيـــة اللغـــات التى تسمـــى بـــ « البدائية » لا تقل تعقيدا عن بنية اللغات الحضاريـــة الكبـــرى (21) . ولهذا فان التفاضل بين اللغات لا يقع فى نطاق وظيفة اللغوى او مهمته .

ولنعد مرة اخرى الى ما يزعمه انصار اللغة الانكليزية من ان سهولتها تيسر لها الانتشار وانها تخلو من تعقيدات اللغة الفرنسية وصعوباتها ، فنقول انهم نسوا او تناسوا ان « صعوبات » اللغة الفرنسية تلك لم تمنعها من الانتشار ولم تقعدها عن تبوء مكانة اللغة العالمية الاولى لفترة طويلة امتدت حتى الثلث الاول من هذا القرن . ومن ناحية اخرى ، فانهم سلطوا الاضواء على ما يمكن ان يعد حسنات فى اللغة الانكليزية وحجبوها عن مواطن « الصعوبة » فيها . يقول ادورد سابير Sapir ، احد مؤسسي علم اللغة الحديث فى امريكا :

« حقيقة ان من يتعلم اللغة الانكليزية لا يواجه فى البداية كثيرا من الصيغ الصرفية التى يجب عليه حفظها ، وهذا يعطيه الشعور بعدم صعوبة هذه اللغة ، ولكنه سرعان ما يكتشف بكل مرارة ان ذلك مجرد وهم . . . ان سهولة الانكليزية فى جانبها الشكلى هى سهولة زائفة او صعوبة مقنعة . . وللطالب الاجنبى الحق اذا شعر بأن سهولة الانكليزية الظاهرية انما يدفع ثمنها الباهظ من جراء غموضها المحير » (22) .

ولكن يمكننا ان نقر بوجود « صعوبة » نسبية فى تعلم اللغات الاجنبية مردها تاثير اللغة القومية السلبى على اتقان اللغة الاجنبية . فكلما كانت الفروق بين اللغتين كبيرة ازدادت صعوبة تعلم اللغة الاجنبية ، وكلما كانت اوجه الشبه متعددة ، تضاءلت تلك الصعوبة . فالصينية — فى هذا المفهوم — اسهل بالنسبة للفيتناميين والتايلنديين منها للانكليز الذين يجدون الالمانية اسهل من الصينية للقرابة القائمة بين الانكليزية والالمانية (23) . ومن ناحية اخرى فان اللغات تتفاوت من حيث انظمتها الكتابية فهنالك انظمة كتابية تتصف بالسهولة والدقة واخرى بالصعوبة والنقص . لان الكتابة ليست اللغة ذاتها وانما تصوير لاصوات اللغة او مقاطعها . وهنالك تصوير جيد وآخر سيء . ومن الطريف ان خط اللغة الانكليزية هو من اسوء الخطوط فى العالم ، وكان استاذنا الدكتور ارجبولد هل يقول ان الخط الانكليزي هو اسوء خط فى العالم بعد الخط الصينى . ومع ذلك فان صعوبة خط الانكليزية لم يمنعها من الانتشار ، مما يدل على ان انتشار اللغة لا يمت بصلة وثيقة الى العوامل اللغوية .

ومن الشائع المعروف ان الخط العربى حاليا لا تتوفـر له مقومات السهولة والتساوق والكمال التى يجب ان تتصف بها كل الانظمة الرمزية الجيدة ، وذلك لخلوه من الشكل (الحركات) ، ولتعـدد صـور الحرف الواحد ، ولعدم مطاوعته لمتطلبات الطباعة الحديثة . فعلى الرغم من ان الابجدية العربية تتألف من 29 حرفا فقط ، فان صور هذه الحروف تبلغ بضعة مئات . وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لاختزال اشكال الحروف العربية ، فان عيون صندوق الجمع اليدوى فى المطابع لا تقـل عن 217 عينا فى النمط الالمانى وعن 310 عينا فى النمط المصرى ، وهذا عدد كبير جدا اذ ما قورن بمطابع الخط اللاتينى . وتبرز المشكلة حقـا فى الطباعة المعيارية حيث تتألف لوحة المفاتيـح من 90 مفتاحـا فقط فى الطباعـة الرصاصية و 120 مفتاحا فى الطباعة الضوئية . وهكذا اصبحت مسألة اختصار عدد اشكال الحروف العربية الى العدد الملائم للطباعة الحديثة من اجل تيسير النشر والاقتصاد فى الوقت اللازم له ، وتخفيض تكاليفه . ولكن صعوبات الخط العربى فى طريقها الى التضاؤل بفضـل الجهـود الحميدة التى تبذلها مجامع اللغة العربية وبعض الباحثين المهتـمين وفى مقدمتهم اللغوى المغربى المعروف الاستاذ احمد الاخضر غزال (24) .

(10) العامل الارادى :

قد تتوفر عوامل انتشار اللغة التى اسلفنا او معظمها للغـة من اللغات ، ومع ذلك شانها لا تحرز تقدما ملموسا . ونحن نعـزو ذلك الى ما نصطلح على تسميته بـ « العامل الارادى » ، ونعنى بـه مدى رغبة الامة فى نشر لغتها ، والجهود التى تبذلها ، والوسائل التى تعتمدها فى تحقيق رغبتها . وليست الامم على درجة واحدة من حيث الاعتزاز بلغاتها القومية والاندفاع فى نشرها . ولنضرب مثلا على ذلك فى المانيا واليابان ؛ فقد خسرت هاتان الدولتان الحرب العالمية الثانية معا ، واصابهما خراب ودمار عظيمان ، ولكنهما سرعان ما حققتا نهضة اقتصادية وتكنولوجية هائلة ، واصبحتا فى مقدمة الدول الصناعية والتجارية خلال فترة وجيزة بعد الحرب الكونية . ولكنهما اتخذتا موقفين متباينين تماما حيال نشـر لغتيهما . فقد قررت اليابان ان تتخذ من الانكليزية لغة اتصال تتعامل بها

مع العالم الخارجى ، فقامت بنشرها فى مدارسها ، وحسنت طرائق تعليمها ، وشجعت مواطنيها على تعلمها حتى اصبحت غالبية اليابانيين قادرة على استعمالها . ولم تحاول اليابان نشر اللغة اليابانية او تشجيع تدريسها فى الخارج ولا حتى فى تلك البلدان التى تتكلم لغات تنتمى الى العائلة اللغوية ذاتها . اما المانيا فانها ابدت حماسا بالغا لنشر اللغة الالمانية ، وبذلت جهودا ضخمة ، وانفقت اموالا طائلة فى مجال تعليم الالمانية بوصفها لغة اجنبية ، وبالتالى نشرها فى العالم . وما حل عام 1975 حتى كانت حكومة المانيا الغربية قد اسست 250 معهدا من معاهد غوته لتعليم اللغة الالمانية فى 45 بلدا اجنبيا ، وتقدم هذه المعاهد احدث الطرائق السمعية والبصرية ، ومزودة بما تحتاجه من المعدات والمختبرات والاجهزة والافلام اللازمة لتعليم اللغة الاجنبية . ومنذ ذلك التاريخ وعدد هذه المعاهد فى ارتفاع مستمر .

وفى الولايات المتحدة الامريكية تتظافر جهود عدة مؤسسات رسمية واهلية فى سبيل نشر اللغة الانكليزية فى البلدان الاخرى . ومن هذه المؤسسات وكالة المعلومات الامريكية USIS ووكالة الانماء الدولية AID ومؤسسة فولبرايت ، ووزارة الدفاع ، ومؤسسة فورد ، ووزارة الخارجية ، ومؤسسة روكفلر ، واذاعة صوت امريكا ، وغيرها . وتقوم هذه المؤسسات بانشاء معاهد تعليم الانكليزية فى جميع ارجاء العالم ، واعداد المعلمين ، وتطوير المناهج ، ونشر الكتب والدوريات ، وانتاج الافلام والوسائل المعينة الاخرى ، وابتعاث الطلاب ، وانتداب الاساتذة الزائرين ، وما الى ذلك .

وفى فرنسا توجد حوالى خمسين هيئة وجمعية مختلفة تعمل على تطوير اللغة الفرنسية ونشرها فى العالم . وتقوم بتنسيق جهود هذه الجمعيات هيئة عليا تابعة لرئاسة الحكومة وتحت الاشراف الفعلى لرئيس الوزراء (25) .

اما بالنسبة للعربية ، فان العامل الارادى يكاد يكون معدوما لدى ابنائها ، واذا كان موجودا فانهم لم يقوموا بعمل جليل يجسم ارادتهم ،

ويضعها موضع التنفيذ ، والنية الحسنة لا تكفى ولا تنفع ما لم يدعمها العمل الصالح . وقصورنا فى نشر لغة القرآن لا مبرر له . ان بامكان القارىء ان يجوب اية عاصمة اجنبية ليجد السفارات والقنصليات العربية العديدة منثورة فى شوارعها ولكنه لن يعثر على معهد واحد لتعليم العربية ، والانكى من ذلك انك قد تسمع بعض المندوبين العرب يتكلمون بلغة اجنبية ركيكة زاخرة بالاخطاء فى المؤتمرات الدولية ولا يستعملون العربية حتى بعد ان اصبحت لغة رسمية معترف بها فى الامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى . ومن طريف ما يروى فى هذا الخصوص انه عندما قررت منظمة الوحدة الافريقية اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية فيها اسوة بالفرنسية والانكليزية ، قام احد المندوبين العرب ليشكر الاعضاء على جميل صنيعهم ... فتكلم بالفرنسية . ولم تقم المؤسسات التربوية فى البلاد العربية بأى جهد يذكر فى مجال تعليم اللغة العربية للاجانب المقيمين فى العالم العربى ، او بافتتاح دورات صيفية تستقبل الراغبين فى امضاء عطلتهم بتعلم هذه اللغة . ومن ظريف ما يذكر ان جامعة رسمية عربية قامت بافتتاح دورة خاصة بالدبلوماسيين الاجانب لتعليمهم الفرنسية **لا العربية** .

ولكننا يجب ان نشير هنا الى بعض الجهود الكريمة فى هذا المجال ، ونخص بالذكر معهد ابو رقيبة للغات الحية فى تونس الذى يقوم بتعليم العربية للاجانب وتنظيم دورات صيفية تجتذب السياح الاجانب على غرار البرامج الصيفية فى فرنسا وانكلترا واسبانيا وغيرها . وكذلك برنامج تعليم العربية لغير العرب الذى شرعت به جامعة الرياض مؤخرا .

رابعا ــ اللغات الرسمية فى منظمة الامم المتحدة :

اتخذت منظمة الامم المتحدة لدى تاسيسها عام 1845 اللغتين الانكليزية والفرنسية « لغتي عمل » . وفى سنة 1948 اضيفت اليهما اللغة الاسبانية . وفى مارس 1949 رشحت اللغتان الروسية والصينية لغتين رسميتين اضافيتين ، وسرعان ما ظهر ان استعمالهما الفعلى فى المنظمة العالمية يضعهما فى مصاف لغات العمل . وفى اواخر سنة 1973

اقــرت الجمعيــة العامــة للامــم المتحــدة اضافــة اللغــة العربــية الى لغاتها الرسمية . وفيما يأتى نقدم نبذة موجزة عن هذه اللغات :

(1) اللغــة الفرنسيــة :

كانت اللاتينية هى لغة اوربا المشتركة فى العصور الوسطى ، فقد كانت لغة التعليم والفكر والثقافة والمناسبات الرسمية الاخرى . وكانت الى جانبها لغات محلية متعددة يستخدمها الناس فى الاتصالات الاعتيادية فى حياتهم اليومية . ومنذ القرن الثانى عشر اخذت هذه اللغات المحلية تسجل تقدما ملحوظا على حساب اللغة اللاتينية . وما حل القرن السابع عشر حتى امست اللاتينية لغة مكتوبة فقط يندر من يتحدث بها . ولعــل اختراع الطباعة كان من العوامل الرئيسية التى ادت الى القضاء على اللاتينية ، اذ كان هم المؤلفين واصحاب المطابــع ايجــاد اكبــر سوق استهلاكية لمنشوراتهم ، ولما كانت الجماهير الواسعة تجد لغاتها المحلية اسهل فهما من اللاتينية فان المؤلفين واصحاب المطابع فضلــوا اصدار كتبهم باللغات المحلية .

وقد برزت الفرنسية من بين هذه اللغات المحلية وحققت انتــشارا واسعا . ففى القرنيــن الثانى عشر والثالث عشر كانت الفرنسيــة هــي اللغة الرسمية فى انكلترا ، كما انتشرت فى الاراضى المنخفضة والمانيــا وايطاليا ، وبدا من الواضح ان الفرنسية هــي التــي ستخلــف اللاتينيــة باعتبارها لغة عالمية على الرغم من انها جابهت منافســة شديــدة من اللغة الايطالية فى القرن السادس عشر ، ومن اللغة الاسبانية فى القرن السابع عشر . اما القرن الثامن عشر فقد شهد اكبر انتصارات اللــغة الفرنسية حيث غدت تسمى بلغة الملوك .

واخذت الدول الاوربية تفرنس انظمتها التربوية وترى فى تعلــم الفرنسية شرطا للتطور الحضارى المنشــود . وكانت كاتريــن الثــانية امبراطورة روسيا تعلن عن عدم حبها لفرنسا ولكنها كانت تعترف بتفوق فرنسا الحضارى ، واستمرت فى خطة فرنســة امبراطوريتــها وذلــك

باستقدام جيش من المعلمين والفنانين والتقنيين الفرنسيين . وكانت المدارس الفرنسية منتشرة فى انحاء اوربا ، وكانت الصحف الفرنسية تقرأ فى كل مكان منها . وحتى فى ايطاليا كانت الثقافة الفرنسية تحظى بمكانة مرموقة لدرجة ان كازنوفا دبج مذكراته باللغة الفرنسية . وكان عدد الكتب التى تنشر فيها او تترجم منها واليها يفوق ما ينشر باللغات الاخرى . وفى القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين استمر انتشار اللغة الفرنسية عن طريق الاستعمار والاستيطان وخاصة فى افريقيا .

ومن المفيد حقا ان ننعم النظر فى العوامل التى ادت الى ازدياد اهمية اللغة الفرنسية فى العصور الوسطى . لقد كانت فرنسا قبل كل شىء تتمتع بقوة سياسية وعسكرية تجلت فى الغزو النورماندى لانكلترا . وكان الادب الفرنسى يحتل مكانة رفيعة بين الاداب الاوربية . واحتلت جامعة باريس مكانة مرموقة بوصفها افضل جامعات اوربا ، فقد كانت الجامعة الايطالية تعانى تدهورا شديدا ، وكانت جامعتا اكسفورد وكمبرج فى بداية تكوينهما . فكان من الطبيعى ان تجتذب جامعة باريس الطلاب والاساتذة من مختلف انحاء اوربا . واحتل الفن القوطى الفرنسى منزلة رفيعة بين الفنون الاوربية . وكانت فرنسا اغنى البلاد الاوربية من حيث ثرواتها الطبيعية ، واكثرها سكانا كذلك . واخيرا وليس اخرا ، فقد كان للتجارة الفرنسية فى القرن الثالث عشر قوة لا يمكن مقارنتها الا بقوة اليابان وامريكا التجارية فى القرن العشرين (26) .

كل هذه العوامل ادت الى انتشار اللغة الفرنسية فى العالم ، وهى امثلة توضيحية للعوامل التى سردناها فى القسم الثالث من هذا البحث .

(2) اللغة الانكليزية :

قبل حوالى اربعمائة سنة فقط ، وفى زمن شكسبير بالذات ، كانت اللغة الانكليزية لغة ثانوية لا يتكلمها سوى خمسة ملايين نسمة ، حتى قال احد الاساتذة الانكليز يندب حظ لغتهم : « ان اللسان الانكليزى

لا يتعدى حدود جزيرتنا الصغيرة هذه ، بل لا يغطى جميع اجزائها . » (27) . اما اليوم فقد اصبحت اللغة الانكليزية فى مقدمة اللغات العالمية ، ولا يقتصر عدد الذين يتكلمونها بوصفها لغتهم الاولى على الـ 56 مليون نسمة الذين يقطنون فى المملكة المتحدة بل يشمل كذلك 250 مليون نسمة منتشرين فى اجزاء متفرقة من العالم ، كما يستخدمها اكثر من مئة مليون نسمة آخرين ــ على اقل التقديرات ــ بوصفها لغة ثانية لازمة للاتصالات الفعالة ضمن الحدود الوطنية ، او بوصفها لغة اجنبية ضرورية للاتصالات عبر الحدود القومية .

ويمكن تلخيص العوامل التى ساعدت على تحسن مركز الانكليزية ومن ثم انتشارها فيما يأتى :

ا ــ ارتفاع نجم انكلترا بوصفها قوة دولية منذ عهد الملكة اليزابث الاولى .

ب ــ اتحاد انكلترا واسكتلندا سياسيا فى عهد الملك جيمس الاول سنة 1603 .

جـ ــ هجرة الانكليز الى العالم الجديد واستيطانهم فيه .

د ــ تكوين المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا .

هـ ــ وفى العالم الجديد ، ادى سقوط هولندا الجديدة عام 1664 ، وسقوط كويك عام 1759 الى تفوق الانكليزية على اللغتين المنافستين لها ، الهولندية والفرنسية . كما ادى توسع الولايات المتحدة الى القضاء على نفوذ اللغة الاسبانية فى امريكا الشمالية .

و ــ وابان النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين انتشرت الانكليزية عن طريق الاستعمار البريطانى ، والاستيطان ، والتجارة .

ز — وفى القرن العشرين ، حملت الحربين العالميين الاولى والثانية اعدادا غفيرة من الجنود الامريكيين الى انحاء العالم المختلفة وخاصة الى أوربا . كما ساعد نفوذ امريكا وبريطانيا السياسي والاقتصادي على تدعيم مركز الانكليزية فى العالم .

ح — الجهود المركزة والمنظمة التى تبذلها امريكا وبريطانيا فى سبيل نشر اللغة الانكليزية وتعليمها للاجانب باحدث الطرائق واجود المعدات .

(3) اللغة الاسبانية :

لعلكم تدهشون اذا علمتم بأن مؤتمر سان فرنسسكو الذى انعقد عام 1945 للبحث فى امر تأسيس المنظمة العالمية قد اتخذ فى بادىء الامر من الانكليزية والروسية والاسبانية لغات رسمية له . وكان على الوفد الفرنسى ان يبذل جهودا مؤلمة ليحصل على قرار بقبول الفرنسية لغة رابعة فى المؤتمر . ولعلكم تتساءلون عن مصادر قوة اللغة الاسبانية ، فنقول ان الاسبانية هي السائدة فى عشرين دولة فى امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية . ويتكلمها 120 مليون نسمة بوصفها لغة قومية او لغة ثانية . صحيح ان البرازيل التى تغطى مساحتها نصف امريكا الجنوبية تقريبا ، تتكلم البرتغالية ، ولكن يجب الا يغيب عن البال ان البرتغالية والاسبانية مفهومتان احداهما للاخرى . وفى الولايات المتحدة الامريكية جاليات كبيرة ناطقة بالاسبانية وخاصة فى ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيويورك ونيومكسيكو . وتحتل الاسبانية المكانة الاولى بين اللغات الاجنبية التى تدرس فى المدارس الامريكية . ففى برنامج FLES

(اللغات الاجنبية فى المدارس الابتدائية) يبلغ عدد الطلبة المنتظمين فى دروس الاسبانية خمسة اضعاف اولئك المنتظمين فى دروس الفرنسية . ويعود انتشار الاسبانية فى امريكا اصلا الى حركة الاستكشافات والهجرة والاستيطان .

(4) اللغـــة الروسيـــــة :

يستخدم اللغة الروسية بمثابة لغة اولى او رسمية اكثـــر من 200 مليون نسمة يقطنون فى الاتحاد السوفيتى . ولقـــد ادى النفوذ السياسى الذى يتمتع به الاتحاد السوفيتى فى العالم الى اقدام العديـــد من الدول الغربية على تعليم الروسية لطلابها . اضف الى ذلك ان الروسية تدرس فى جميع اقطار ما يسمى بـــ « المعسكر الاشتراكى » بما فيهـــا الصين . كما ان الانجازات العلمية التى حققها الاتحاد السوفيتى فى العشرين سنة الاخيرة وجهت انظار طلاب العلوم والتكنولوجيا الى اللغـــة الروسيـــة بوصفها احد مصادر البحث العلمى . وتسعى حكومة الاتحاد السوفيـــتى الى نشر اللغة الروسية عن طريق اجتذاب الطلاب الاجانب وخاصة من الدول النامية الى الجامعات السوفيتية . وتمنح لهم الزمالات والاعانات المالية والتسهيلات اللازمة . وقد اسست لهذا الفرض جامعة خاصـــة ، كما اسلفنـــا .

(5) اللغـــــة الصيـنـيــة :

اللغة الصينية هى احدى اللغات الرسمية فى منظمة الامم المتحدة ، ويتكلمها اكثر من 850 مليون نسمة ، اى حوالى ربع سكان المعمورة . اضف الى ذلك ان قوة الصين السياسية والاقتصادية فى ارتفاع متزايد . ومع كل هذا فاللغة الصينية لا تتمتع بانتشار واسع وذلك للاسباب الآتية :

ا ـــ تتكون الصينية من لهجات متعددة غير مفهومة بعضها للبعض الاخر . ومن اكبـــر هذه اللهجات المندرينـــية المستعملـــة فى الشمـــال ، والكانتونية المنتشرة فى جنوب الصين .

ب ـــ ان الخط الصينى بالغ التعقيد والصعوبة ، لانه خط شبـــه صورى يستخدم بضع مئات من الرموز يستعصى حفظهـــا على الطالب الاجنبى العادى .

جـ ــ ان اللغــة الصيــنــية لــغــة منغــمــة ، بمــعــنى ان دلالة الكلمة تتغير طبقا للنغمة التى تنطق بها . ولمــا كانت معظم اللغات الكبرى تخلو من هذه الخصيصة اللفظية ، فان النــاطقين بهــا يجدون ولا ريب صعوبة نسبية فى تعلم اللغة الصينــية .

ولكن حكومة الصين تدرك ما للغــة من اهمية قوميــة وعالمية ، فشرعت فى بذل جهود منسقة لحل المشكلات التى تجابه اللغة الصينية . فقررت تحقيق الوحدة اللغوية بتــبنى اللهجة المندرينــية بوصفها اللغة الوطنية للامة الصينية . كما تبــنت الحروف اللاتينــية فى محاولة لتيسير الكتابة الصينية . وقد تساعد هذه الاجراءات على انتشار اللغة الصينية نظرا لازدياد علاقات الصين مع العالم الخارجى .

رابعا ــ مستقبل العربية بوصفها لغة عالمية :

بعد دراسة تاريخ اللغات الميتة منها والحيــة ، وبعد الاطلاع على اسباب رقيــها وانتشارها وانحطاطها واندثارها ، نستطيــع القول بأن العربية قادرة على تبوء المكانة الاولى بين اللغات العالمية فى المستقبل . ويئبنى تكهننا هذا على الحقائق الآتيــة :

1 ــ على خلاف القائلين بأن اللهجات العربية المحكية ستتطور الى لغات منفصلة غير مفهومة بعضها للبعض الآخر على غرار ما حدث للغة اللاتينية فى القرون الوسطى ، نعتقد بأن الوحدة العربية اللغوية آتيــة لا ريب فيها وذلك لان اللهجات العربية ــ من جهة ــ لا يمكنها ان تبتعد كثيرا عن اللغة الفصحى بفضل القرآن الكريم وديــنــنا الحنيف وتراثنــا وحضارتنا التى تستخدم الفصحى اداة للتعبــير والتسجيــل . ومن جهة اخرى فان انتشار المدارس ووسائل الاعلام واتجاه البلاد العربية نحو وحدة سياسية واقتصادية ستقرب اللهجات من الفصحى وتقلل الفوارق بيــنهــا .

2 ــ تحتل الامة العربية موقعا جغرافيا استراتيجيا ، فهي ملتقى القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا ، وتغطى اراضيها مساحة شاسعة تمتد من المحيط الاطلسى غربا الى الخليج العربى شرقا .

3 ـــ ان للامة العربية امكانات اقتصادية هائلة لما تستثمر بكل طاقتها بعد ، فهي تهيمن على نسبة كبيرة من مصادر الطاقة فـى العالـم ، وتمتلك ثروات طبيعية ضخمة ، وتعد مصدرا اساسيا للمـواد الاوليـة اللازمة للصناعة كالحديد والفوسفات والبترول ، ولها امكانات زراعيـة هـائـلـة .

3 ـــ وبفضل موقعها الجغرافى وامكاناتها الاقتصادية وسيطرتها على طرق التجارة العالمية من بحرية وجويـة وبريـة ، فان الامة العربيـة مرشحة للاضطلاع بدور رئيسى فى التجارة الدولية ، ولتكون عنصرا جوهريا فى حجم التبادل التجارى الدولى . اضف الى ذلك ان الامة العربية مؤهلة للاضطلاع بدور سياسى قيادى وخاصة فى العالم الثالث .

4 ـــ وفى حين ينحسر الاستعمار الغـربى وتنسحب معه لغـاته الانكليزية والفرنسية والايطالية وغيرها ، نجد ان هنالك حركة نابعة من الدول الاسلامية ذاتها ترمى الى توطيد علاقاتها ، وزيادة التعاون فيمـا بينها ، وتتجلى بوادر هذا الاتجاه فى مؤتمر القمـة الاسلامى الاول الذى عقد فى الجزائر سنة 1969 ، ومؤتمر وزراء الدول الاسلامية الذى عقد فى الرياض فى شهر ديسمبر 1973 ، وفى مؤتمر القمـة الاسلامى الذى عقد فى لاهور بالباكستان فى تشرين الثانى 1974 ، ومؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذى مهد له ، ومؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذى انعقد فى كوالا لامبور فى العشرين من حزيران 1974 . وقد يؤدى هذا الاتجاه الى نوع من الاتحاد الاسلامى تكون فيه العربية بطبيعة الحال اللغة الرسمية ، فهى لغة القرآن الكريـم واقرب اللغـات الى قلـوب المسلمين . فى حين ان اوربا موحدة لا يمكن ان تتفق تمامـا على لغـة رسميـة واحـدة .

5 ـــ اضافة الى ان اللغة العربية هى احدى اللغـات الرسمية فى الامم المتحدة والمنظمات الدولية التابعة لها مثـل منظمـة اليونسكو ، واليونسيف وغيرها ، فانها تستعمل ايضا فى منظمات اقليمية مهمة مثل منظمة الوحدة الافريقية ورابطة العالم الاسلامى ، وكذلك فى مؤتمرات دول عدم الانحياز ، ومؤتمرات الدول الاسلامية وغيرها .

6 — ان الامة العربية مقبلة على نهضة علمية وادبية يصبح معها الكتاب العربى مصدرا للعلوم والفنون والاداب .

7 — اخذت الامة العربية تؤثر فى الاقتصاد العالمى وخطط التنمية فى البلدان النامية ، وذلك عن طريق استعدادها لتقديم المعونات الاقتصادية والفنية الذى يتجلى فى تأسيس عدد من المصارف المختصة مثل صندوق التنمية العربى فى القاهرة الذى يقدم مساعداته للدول الافريقية ، والبنك الاسلامى فى جدة الذى يسهم فى تقديم المعونات للدول الاسلامية ، وصندوق التنمية الكويتى الذى قرر مؤخرا ان لا تقتصر اعماله على الدول العربية بل تمتد الى جميع الدول الصديقة . اضف الى ذلك المساهمات العربية الكبيرة فى المؤسسات المصرفية العالمية مثل بنك الاعمار الدولى وغيره .

خامسا — ما يجب ان تفعله الامة العربية خدمة للغتها :

واذا كانت قد توفرت للامة العربية اسباب النمو الاقتصادى والتطور السياسى ، وتجمعت للغتها امكانات الانتشار ، فان ذلك لا يضمن وحده انتشار اللسان العربى فى العالم ما لم تكن هناك ارادة قوية لنشره ؛ وما لم تتخذ الامة العربية الاجراءات والخطوات اللازمة لتحقيق ذلك الهدف النبيل . ومن هذه الاجراءات ما يأتى : —

1 — نشر التعليم ومكافحة الامية فى الوطن العربى . فعلينا اولا ان نتعلم لغتنا التى نريد لها الانتشار فى العالم .

2 — تيسير الخط العربى وتطويعه لمتطلبات الطباعة الحديثة . فعلى الرغم من توصل بعض الباحثين الى حلول ناجعة لمشكلة الخط العربى ؛ فان هذه الحلول لم توضع موضع التنفيذ على نطاق واسع .

3 — اتمام عملية تعريب التعليم وخاصة فى المغرب العربى ومصر والعراق . فلا يمكن ان يكون التعريب كاملا ، ولا يمكن للعربية ان تستوفى المصطلحات العلمية ما دامت كثير من المواضيع تدرس باللغات الاجنبية فى معاهدنا العالية وجامعاتنا .

4 — تشجيع التأليف والترجمة والنشر باللغة العربية وحل مشكلة توزيع الكتاب العربى .

5 — تشجيع البحوث الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير العرب ، لان طرائق تعليم اية لغة ومناهجها تختلف طبقا لعلاقة الطالب باللغة من جهة ، ولسنه ومستواه الفكرى من جهة اخرى . فقد تدرس اللغة بوصفها لغة قومية ، او لغة حضارية او لغة اجنبية . والكتب الخاصة بتعليم اللغة الاجنبية للاطفال تغاير تلك الكتب التى يستعملها الراشدون او الكبار . ولهذا يجب توفير المناهج الخاصة بتعليم العربية لغير العرب ، وتيسير امهات الكتب العربية وذلك عن طريق اختصارها ، وتجنب الحوشى من مفرداتها ، وتسهيل تراكيبها ، واصدارها بطبعات انيقة مصورة تشجع الطالب الاجنبى على متابعة قراءتها بالعربية .

6 — تدريس مادة (اللغة العربية لغير العرب) فى جامعات الوطن العربى كافة ، وفتح اقسام متخصصة بذلك .

7 — التوسع فى تخصيص الزمالات الدراسية للطلبة غير العرب ومنحهم المساعدات المالية التى تمكنهم من الدراسة فى الجامعات العربية ، سواء اكانت دراستهم منصبة على الدين الاسلامى واللغة العربية وتعليمها ام مختصة بالعلوم البحتة والتطبيقية . ان مكانة الامة العربية حضاريا وفكريا واقتصاديا تعتمد الى حد ما على عدد الطلبة الاجانب الذين يتلقون تحصيلهم العلمي فى ربوعها .

8 — قيام الجامعات العربية بتنظيم الدورات الصيفية الخاصة بتعليم لغتنا لغير العرب لفترات متفاوتة — لثلاثة اسابيع او لشهر او لستة اسابيع او لشهرين ، لتتلاءم واوقات فراغ المساهمين فيها . وقد تقام هذه الدورات فى المناطق السياحية والمراكز الدينية ، اذ يفضل الكثير من السياح والمصطافين تعلم شيء ما خلال اقامتهم فى البلد السياحى . وليست هناك جامعة عربية تعنى باقامة مثل هذه الدورات بشكل منتظم سوى جامعة تونس ، على ما اعلم ، حيث يقوم معهد ابو رقيبة للغات

الحية بتدريس العربية فى برنامج مكثف امده ستة اسابيع ويبدا فى اوائل تموز من كل عام . وقد شرعت جامعة الرياض مؤخرا بتقديم برنامج سنوى لتعليم العربية لغير العرب المقيمين فى الرياض .

9 — فتح المدارس العربية الاهلية فى الدول غير العربيـــة لتقـــوم باستخدام العربية فى تلقين النشء العلوم المدرسية والثقافة الاسلامية . ان الارض الخصبة لفتح هذه المدارس ليست الدول الاسلامية فقط ، كما يتبادر الى الذهن لاول وهلة ، بل الدول الاوربية والامريكية ايضا حيث يتواجد العمال والمهاجرون العرب باعداد غفيرة ، وان قسما كبيرا منهم يستقر به المقام فى تلك الدول ويحصل ابناؤه على جنسياتها . ففى فرنسا وحدها هناك حوالى مليون ونصف المليون عامل عربى يتجمعون فى المراكز الصناعية . وفى الولايات المتحدة الامريكية وكندا ودول امريكا اللاتيـــنية جاليات عربية كبيرة تتركز فى مدن معروفة . فاذا قامـــت الادارة الثقافيـــة بجامعة الدول العربية بفتح مدارس على مستوى جيـــد وبأجور دراسية مخفضة فانها ولا شك ستجتذب ابناء تلك الجاليات العربية . لان المهاجر العربى يتذمر دائما من صعوبة تلقين اطفاله اللغة العربية واصول الدين الاسلامى الحنيف .

10 — فتح معاهد تعليم اللغة العربية فى كافة بلدان العالم . وليكن لنا فى المعاهد الامريكية والبريطانية والفرنسية والالمانية قدوة حسنة . ان عدد معاهد امريكا لتعليم الانكليزية فى العالم يفـــوق عـــدد سفـــاراتها وقنصلياتها بكثير . ان معهدا لتعليم اللغة العربية يستطيع خدمة الامـــة العربية من ناحية اعلامية افضل من عشر سفارات مجتمعة . ولهذا فان من واجب كل سفارة عربية ان تأخذ على عاتقها انشاء معهد لتعليم اللغة العربية فى احدى مدن الدولة التى تعمل فيها ، وتزوده بمكتبة عربية وافلام اعلامية وجميع المواد المعينة السمعية والبصرية اللازمة لتعليم العربية لغير العـــرب .

11 — حث الدول الاسلامية والصديقة على تدريـــس العربيـــة فى مدارسها وجامعاتها . ويجب ان تكون هذه المسألة مادة لا مناص منها فى

جميع اتفاقياتنا الثقافية مع الدول الاخرى ، وملحقا لجميع اوجه التعاون الاقتصادى والسياسى مع الاقطار الاخرى

12 — الآن وقد صارت العربية احدى اللغات العالمية الرسمية فى منظمة الامم المتحدة واليونسكو ومعظم المنظمات الدولية والاقليمية الاخرى ، ينبغى على وزارات الخارجية فى الدول العربية وعلى مؤسساتنا المالية والتجارية والثقافية ان تكف عن استعمال اللغات الاجنبية وان تبادر الى استعمال العربية فقط فى جميع مراسلاتها مع الخارج . نحن لا نفرض بذلك على المؤسسات الاجنبية ان تكتب لنا بالعربية ، ولكننا ندفعها بشكل غير مباشر الى استخدام من يعرفون العربية . وهكذا فان الطلبة الاجانب الذين يرغبون فى تعلم العربية سوف لا يترددون فى ذلك لانهم سيجدون اعمالا بعد التخرج . بل واكثر من ذلك ، فان المؤسسات الدبلوماسية والاقتصادية فى الدول الاجنبية ستشجع المعاهد التربوية والجامعات على تدريس العربية لاعداد المتخصصين بها .

13 — انشاء كراسى للدراسات الاسلامية والعربية فى جامعات العالم ، والتبرع بما تحتاجه من مكتبات ومخصصات ، وانتداب اساتذة زائرين لها .

14 — اقامة دورات تدريبية فى الجامعات العربية للمدرسين الاجانب الذين يتولون تدريس العربية فى بلدانهم ، لمساعدتهم مهنيا من اجل ان يكون تدريسهم للعربية اكثر فاعلية وانتاجا .

15 — اهداء مجموعات كبيرة من الكتب العربية الى مكتبات جامعات الدول غير العربية ومدارسها .

16 — تشجيع الحج وزيارة الاماكن المقدسة ، والسياحة فى العالم العربى .

على القاسمى

1) Carrol, J.B. and Casagrande, J.B. « The function of language classifications in behavior, « in Maccoby et al. *Readings in Social Psychology* (N.Y. : Holt, Rinehart & Winston, 1958), P. 20.

2) « Manche : le bout du tunnel », L'Express, N° 1159 (30 Septembre, 1973), pp. 26-30.

3) *Burney, Pierre. Les langues internationales.* (Paris : Que Sais-Je, 1966).

4) Encyclopaedia Britannica,

5) Burney, pp. 87-103.

6) Hill Archibald A. « Esperanto au Dubanto »,
The Texas Quarterly, Vol. III, No. 1
1960, pp. 143-149.

7) Richard, I.A. *Basic English and its Uses*
(N.Y. : W.W. Norton & Co., 1943).

8) Routh, *Basic English and the Problem of a World-Language*
(London : Adlard & Son, Ltd), 14 pp.

(9) لقد كانت اللغات السامية منتشرة فى العراق والشام وحتى فى مصر قبل الفتح الاسلامي . انظر مثلا : تاريخ اللغة العربية فى مصر ، للدكتور احمد مختار عمر (القاهرة : وزارة الثقافة ، 1970) .

(10) الدلي ، عبد الغني . موجز في العلاقات الاقتصادية الدولية (الرباط ، 1973) ص1–3.

11) Routh

(12) القاسمي ، علي . « السن الملائمة للبدء فى تعليم اللغات الاجنبية »

13) Pride, J.B. *The Social Meaning of Language* (London : O.U.P. 1970) pp. 38-39.

14) Encyclopoedia Britannica, Vol. 20, « Somaliland ».

15) Macmillan, Matthew. « In Defence of English », ELT xxvII (June 1973), p. 217.

(16) المصدر السابق

(17) جريدة Morning News الباكستانية الصادرة فى 16 / 2 / 1974 العدد 140 المجلد 21 .

18) Dollos, Louis. *Les relations culturelles françaises* (Paris : Que Sais-je ? N° 1142, 1964) p. 24.

19) Burney, pp. 55.

20) Robertson, Stuart and Cassidy, Frederic. « World English ? » in *Perspectives on Language* ed. by John A. Ryeenga & Joseph *Schwartz (N.Y)*.
The Ronald Press Co., 1963, pp. 73-81.

21) Hill, A.A. « A note on primitive languages »,
International Journal of American Linguistics, 18 (1952), pp. 172-177.

22) Sapir, Edward. « Wanted : A world Language », pp. 202.

(23) القاسمي ، علي « افتراضات خاطئة عن طبيعة اللغة » الاقلام (حزيران 1973) ص 2ـ8

(24) انظر ابحاث الاستاذ احمد الاخضر غزال فى هذا الباب ومنها الطريقة المعيارية للطباعة العربية (الرباط : معهد الدراسات والابحاث للتعريب ، 1962) .

(25) احمد الاخضر غزال « اللغة العربية » المحاضرات الثقافية الاسبوعية ، الجزء الاول (الرباط : وزارة الثقافة ، 1969) ص 81 .

26) Burney, p. 11.

27) Richard Mulcaster as quoted in Mathew Macmillan, p. 215.

الفصول

ابو بكر اللمتوني

أين أعراس حبـنا يا حبـيـبى   هــذه طلعــة الربيــع القشيــب
ساحر يصبــغ المنــاظر فى اللمــــــح اذا مس وجههــا بالقضيــب
رافــل كالغــزاة يجتــر أذيـــا   لا من الوشى فاقعــات الخضوب
هو ذا ركبــه الملــون يجـتــا   ز على جــثــة الشتــاء الكئيــب

* * *

وانتشى الكون يا حبيبى وطافت   صــور الحب والصبــا بالقلــوب

وتمطت فى خدرها الغـابة النعـسى وهبت أنفاسها بالطيـوب
والزمـان الكليـل يرقـد كالطفـل على مفـرش الظلال الرحيب

* * *

وازدهى الروض يا حبيبى وآوى زمـر الناس من شباب وشيـب
خرجـوا يذخرون للوحدة العجـفاء زادا من الربيـع الخصيب
من مغـن ، ومن مصيخ ، ومن لا ه ، ومن هاتف ، ومن مستـجيب
وأنـا هائـم أهـدهـد أحـزا نى وأجتر وحدتى يـا حبيـبى
أتمنـى لقـاك فى مطلـع الشمـس وأبكـى نواك عنـد الغروب
من خلال الدموع أرنـو الى أفـق مـدمـى مضـرج مخضوب
تتـوالى ألوانـه ثـم تنسـا ب الى فوهـة الظلام الرهيـب
فأخـاف انطفـاء شعـلة أيـا مى وأخشى جنوحهـا للمغيـب
وأنـا بعد لم أجدك ولـم تـسـعد بلقيـاك مهجتى يـا حبيـبى

* * *

واذا الشط ــ بعد أمس كئيب ــ قـر قيـنا بالسابحات اللطـاف
واستدارت على الاحاديث فى الرمـل جمـوع الصحـاب والألاف
واذا البوق أيقـظ المرقص النـا ئـم فى حمـرة المسـاء الغـاف

مشرئبا كالديك مختلج الصو ت يغنى للراقصات النحاف
واذا نامت البحار وراح الزورق الفرد دامع المجداف
وتولى النهار يسترق الخطو وينجر دامى الاطراف
وتجافت عن عرش بهجتها الشمس بوجه مفزع رجاف
قلت للشمس : « شد ما طفت عن توأم روحى فأشفقى من طوافى
خبرينى من أى أفق تحيى وجهه قبلة الشعاع الدافى ؟
هذه أرضنا تقلب فى يمناك كالكأس فى يد العراف »
لكن الشمس جانبتنى وخلتنى وحيدا فى ظلمة المصطاف
فخشيت امتداد ظلمة ليلى وضياعى فى لجه المتلافى
ولقاك الحبيب ليس سوى حلم مطيف بمهجتى رفاف

* * *

واذا أقبل الخريف وولت بهجة الصيف وازدهار المصيف
وتعرت خمائل الروض والأيك وصارت خرسا بغير حفيف
وتهاوت أوراقها كتهاوى سقط الريش فى ضياع مخيف
واذا الريح طوحت بالعصافير على السفح فى صراع عنيف

دب فى نفـــسى القنـــوط فقـــالت ـــوهى تبكى على الجمال القصيفـــ:
«هكـــذا .. كل هـــدأة للأعاصيـــــــــر وكل التمـــاعـــة للكســـوف »
فخشيــت انطـــواء رحلى ولمـــا أتنفــيـــا فى مجتـــنـــاك الوريـــف
انما أنـــت يا حبــيــبى رجـــاء ولقـــد يخلـــف الرجـــاء ويـــوفى

* * *

واذا أقفـــر الزقـــاق وطاب الســـــــمـــر الحلـــو فى ليـــالى الشتـــاء
واذا قاســـم الألـــيـــف أخـــــاه ظلـــة المـــاء أو جنـــاح الـــرداء
واذا اكتظـــت المسارح بالـــنـــا س وغصت أبوابهـــا فى المســـاء
والخطيبات يـــنـــتظرن على الجمـــــــــر أمـــام الشباك فى استحيـــاء
بين همس الهوى وجهر المذاييـــــــع وريـــح الطباق والكستـــنـــاء
حن قلبى الى الرفيـــق فنـــاديـــــــــت ، فضاع النداء اثـــر النـــداء
ويطـــول المدى وينصرم العـــمـــــــــر وما من صدى ومـــا من لقـــاء
فأخـــاف انطفـــاء شعلـــة أيـــــا مى وأخـــشى جنوحهـــا للمغيـــب
وأنـــا بعد لم أجـــدك ولم تـــنـــــــــعم بلقيـــاك مهجتى يـــا حبيبى

طنجـــة

أبو بكر المتونى

حول آثار
ابن رشيق

عبد العلي الودغيري

١ ـ الشعر

ترك ابن رشيق ، ديوان شعر متفرق في بطون المصادر القديمة ، وقد قام الاستاذ عبد العزيز الميمنى بمجهود طيب ، اداه الى جمع ما استطاع العثور عليه من المتفرقات ، وطبعه مع اشعار ابن شرف في كتيب سماه : (النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين) وقد بلغ ما جمعه هنالك 496 بيت ، اشتملت على 155 مقطوعة وقصيدة . ثم قام بعده الدكتور عبد الرحمان ياغي بتتميم ما بداه الميمني اذ استطاع ان يضيف الى مجموعته مقدارا آخر ، فخرج ديوان ابن رشيق الذي طبعه بدار الثقافة في بيروت ، في 741 بيت تشتمل على 214 مقطوعة وقصيدة . على أن هذه الجهود التى بذلها الرجلان ، لا تدل على اكتمال الديوان ، اذ مقدار ما سلم منه لا يمثل الا جزءا ـ ربما كان ضئيلا ـ من

الاصل ، وذلك لاسباب منها ان اكثر ما تضمنته المجموعة المنشورة ، لم يكن فى الاصل الا ابياتا او مقاطع متنوعة من قصائد طويلة . وقد كان عدد ابيات النونية التي قالها فى رثاء القيروان 122 بيت ، فلم يسلم منها الان غير هذا القدر الذى يقل عن النصف ، وهو 56 بيتا ، ومع ذلك فهى تعد اطول قصيدة فى الديوان ، مع ان طول البحث يمكن ان يخرج اشعارا أخرى لم تقع عليها يد الرجلين ، ومن هذا القبيل بيت ورد فى قراضة الذهب ، من أصل ثلاثة أبيات قالها الشاعر فى الخروج للاستسقاء ، وذكر منها ياغي فى مجموعته بيتين فقط ، وهذا البيت هو قوله :

قد خرجنا بنية الغيث نستسـ ـقى ، وقد أوحشت وجوه البلاد
.... الابيات (1)

ثم ان المجموعة التي استخرجها الرجلان من بطون كتب الادب والتراجم والتواريخ كالذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصري ، ووفيات ابن خلكان ، ومعالم الايمان ، وغيرها ... ومن مؤلفات الشاعر نفسه التي وصلتنا كالعمدة ، والقراضة ، وما تبقى من كتاب الانموذج ، ليست فى الواقع سوى منتخبات واختيارات من ديوان ابن رشيق ، كان صاحبها وكان الادباء والكتاب يوشحون بها صفحات مؤلفاتهم على وجه الاستشهاد ، والتمثيل ، لا على جهة الاحصاء أو الاستقصاء ، فلذلك أتت ولها من الخصائص ما يكون لابيات الشواهد والقطع المبتسرة ، فكل بيت أو مقطوعة منها وردت وهي معزولة عن جو القصيدة الاصلي ، ففقدت ما يكون لها من الارتباط العضوي بما قبلها وما بعدها ، وقد ذكرنا كل هذا لنصل الى نتيجة ، وهي ان كل الاحكام والنتائج التي يمكن ترتيبها او استخلاصها من هذا الشعر الذي بين ايدينا يجب ان تبنى على جانب كبير من الحذر والتحفظ ، وليس بوسع الباحث الذي يريد الاستفادة من الديوان فى ربط نتاج ابن رشيق الشعري بأطوار حياته وافكاره مثلا ، ان يعتمد هذه النصوص الا على سبيل الاستئناس ، ولعل الصعوبة التي

---

(1) الابيات فى قراضة الذهب . ص . 101 ، تحقيق الشاذلي بويحيى ، وقد اغفل المحقق الى التنبيه على هذا ، وقابل بالديوان . ص . 69 .

يلقاها الناقد لشعره ، هي اكثر من أية صعوبة أخرى ، لانه يجد نفسه امام نصوص ناقصة مبتورة .

غير أن هذه التحفظات التى ابديناها ، لا ينبغى ان تصدنا عن ابراز بعض الجوانب والقضايا النقدية التي تطرحها هذه النتف المتبقية ، امام القارىء . وسأقتصر هنا على ثلاث زوايا محددة فى النظر الى هذا الشعر ، هي جانب الاصالة والتقليد ، وجانب المعاصرة ، والجانب الذاتي .

١ ـ بين الاصالة والتقليد :

ان جل الذين بحثوا فى حياة ابن رشيق وشعره ، قد وقفوا هنيهة امام ابيات ومقاطع كثيرة من ديوانه ، وربطوا بينها وبين ما يشابهها فى المعنى او المبنى لدى شعراء المشرق المشهورين كالمتنبي ، والبحتري، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وابن المعتز ، وحكموا على شاعرنا بأنه كان يجري فى فلك هؤلاء ، وأمثالهم ، مقلدا أو سارقا ، والواقع ان اتهام ابن رشيق بالتقليد لكبار الشعراء ليس امرا جديدا ، فقد تعرض فى حياته لامثال هذه التهم ، مما دفعه اولا الى كتابة باب طويل عن السرقات الشعرية فى « العمدة » وقسمها الى أنواع ، ثم بين ما يعد منها سرقة فى نظره ، وما يعد توليدا ، وما يحصل من ذلك عن طريق التوارد والاتفاق ، وألف ثانيا كتابا خاصا فى أمر السرقات والخلق الفني ، وذلك هو (قراضة الذهب) الذي كان السبب فى تاليفه هو الرد على من اتهم بعض شعره بالسرقة وطعن عليه ونازعه فى معناه .

وابن رشيق كشاعر ، كان يعتقد ان السرقة باب (متسع جدا لا يقدر احد من الشعراء ان يدعي السلامة منه) (العمدة . 2 / 280) . بل انه فى القراضة يصل الى حقيقة مهمة ، تسلط بعض النور على طريقة من الطرق العديده التي تلهم الشاعر ، فقد يورد الشاعر لفظا لمعنى فيفتح به لصاحبه معنى سواه ، لولاه لم يبفتح . (القراضة . ص 43) . فكما ان الشاعر تقع اذنه على كلمة شاردة يسمعها فى السوق او الشارع صدفة ، فتثير فيه دوافع الخيال وتحفزه على الخلق والابداع ، فاذا

الكلمة العابرة السوقية ، قصيدة طويلة ذات صور شعرية موحية ، فكذلك المعاني التي يمر بها في قراءاته . وقد يكون هذا الابداع بعد ذلك شيئا مبتكرا رغم انه استوحاه من معنى او لفظ سابق ، وقد يكون ذلك العمل الشعري مجرد توليد وتنويع للمعاني والصور وذلك بالاضافة ، والتذييل ، أو النقص والطي ، والاجمال ، والتركيز . فمن هذا الطريق يتوصل ابن رشيق الى تبرئة كثير من شعره ، وشعر غيره ، مما يمكن اتهامه بالسرقة والتقليد ، على ان راي ابن رشيق اذا كان وجيها ومحترما في مجال التنظير ، فاننا لا نحاسبه على هذا النوع من التقليد بل علينا ان نعده من حسناته ، اذ ليس هناك عمل فني يأتي صدفة ، مائة في المائة ، دون ان يكون مسبوقا باثارة وايحاء ، او الهام ، او حافز ، ولكننا نحاسبه على التقليد الذي يجعلنا نتنقل من شعره الى شعر غيره فلا نحس اثناء ذلك بصعوبة الانتقال ، او بتغيير يطرأ على الجو الشعري ، فالذي يقرأ من قصيدته في رثاء المعز هذا البيت :

فالصوت في صحن ذاك القصر مرتفع والستر من باب ذاك البهو منهتك

لا يلبث ان يتبادر لذهنه بيت البحتري الشهير في قصيدته التي رثى بها المتوكل :

واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل ، استاره وستائره

فالصياح المتعالي في صحن القصر ، والاستار المتهتكة ، صورة مكررة بالفاظها ومعانيها في هذين البيتين ، والغريب في الامر هو ان تكرر هذه الصورة او بعض منها عند ابن شرف القيرواني ، زميل صاحبنا ومعاصره وصديقه ، وذلك حين يقول من قصيدة رثى بها خراب القيروان على يد الاعراب القادمين من صعيد مصر ، وهي على وزن وقافية البحتري:

ترحل عنها قاطنوها فلا ترى سوى سائر او قاطن وهو سائر

تكشفت الاستار عنهم وربما اقيمت ستور دونهم وستائر

(النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف . ص . 98) ولا يحسبن احد ان المشكلة هنا منحصرة فى كلمة (الاستار) ولا فى عبارة (ترحل عنها قاطنوها ! التى عوض بها الشاعر قول البحترى :

تحمل عنه ساكنوه فجاءة

ولكنها تتعدى ذلك الى الجو الشعري كله ،

وفى موضع آخر من الديوان نقرأ لابن رشيق قوله :

فى الناس من لا يرتجى نفعه   الا اذا مس باضرار
كالعود لا يطمع فى طيبه   الا اذا احرق بالنار

(الديوان . ص . 78) فهي نفس طريقة ابي تمام التي يستعملها فى توكيد المعاني عن طريق التمثيل ، كما فى قوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة   طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتغال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

هذا زيادة على ان المعنى عند الشاعرين مكرر ، وان اختلف المقام، وهذه الامثلة كثيرة فى الديوان .

غير ان المشكلة الاساسية التي يطرحها موضوع التقليد فى ديوانه هي اكبر مما تحتملها هذه العجالة ، ذلك ان ادب العرب الاسلامي كله بما فيه افريقيا الشمالية ، ظل فترة طويلة واقعا تحت تأثير « الشرقية » ، وقد كان ابو علي القالي الذي مر بالقيروان فى فترة ما بين 328 و 330 هـ احد الرجال الذين دعموا أسس هذه الشرقية فى الادب الاندلسى والمغربى بما له من تأثير خاص . وقد تزايل عنه حسب ما رواه ابن خير الاشبيلي عدد من كتب الشعر التي قدم بها من بغداد ، واخذت عنه بالقيروان . وقد كان من اسباب هذا التأثير

الشرقي ـ كما هو معروف ـ اعتماد المغاربة على الكتب الشرقيـــة فى تثقيفهم ، والاتصال الوثيق بين الشرق والغرب الاسلاميين ، هذا الاتصال الذي تم عن طريق الرحلات المتبادلة ، فظل عبر العصور يمسك على الامة العربية وحدة عراها ، رغم الانقسامات السياسية والمذهبية .

واذا كانت الاندلس والمغرب ايضا قد عرفا الموشحات والازجال ، والمسمطات والمخمسات ، والمزدوجات ، كما عرفا نوعا من الاستقلال فى الشخصية الادبية ، حين بدأ ادباء الغرب الاسلامي منذ القرن الرابع الهجري ، يحسون بوجوب ابراز هذه الشخصية وقيامها ، فان ابـــن رشيق على كل حال ، لم يكن من الوشاحين والزجالين ، كما لم يهتـــم بالمخمسات والمسمطات والمزدوجات لانها فى نظره لا تتفق الا لذوي الفراغ واصحاب الرخص ، كما يقول فى بـــاب التقــفية والترصيع ، من كتاب العمدة : (وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع ، والامير تميم بن المعز ، ومن ناسب طبعهما من أهل الفراغ ، واصحاب الرخص ،)(182/1)

وهكذا لو أن الباحث اراد ان يطرح على نفسه هذا السؤال : هل كان لابن رشيق مدرسة شعرية خاصة ، فى تونس او المغرب ، كله أو العربية عامة ؟ فانه لا يستطيع ان يجيب عن ذلك بالاثبات ، بل ان ظلالا كثيرة لشخصيات شرقية واندلسية قد عكست الوانهـــا على شعـــره ، وتركت فيه خصائصها ، وقد كان من الشخصيات الاندلسية التي قلدها ابن دراج القسطلي ، كما يحكي عن نفسه فى القراضـــة (ص 53) ولا غرابة فى هذا التأثر او ذاك ، فقد كانت القيروان ـ واقعة بين الشرق والغرب الاسلاميين ، وكان الوسط الذي احتك به ممتلئا بالعلماء والادباء والنقاد المتأثرين بالشرق وعلومه ، كأبى جعفـــر القزاز اللغوى الاديب . وكانت اللغة العربية التي هي وسيلة التعليم فى كل الاقطار الاسلامية ، من اكبر العوامل فى ربط ثقافة المشرق بالمغـــرب ، كما ان اللغـــة الفرنسية المنتشرة اليوم فى شمال افريقية من اكبر العوامل فى ربط ثقافة المتكلمين بها بثقافة الغرب . واذا كان ابن رشيق ماجنا فى شعره كأبي نواس ، ومولدا للمعاني والبديع كأبي تمام ، ومفرما بالتشبيهات ، ووصف الازهـــار والثمـــار والنوريـــات ، كابـــن المعتـــز . فانـــه مـــع

هذا كله كان يحس بشخصيته بشكل قوي ، وذلك منذ تفتقت فيه قريحة الشعر ، وازداد هذا الاحساس بالشخصية الشعرية حين رأى شيخه ابا اسحاق الحصري القيرواني يتكلم فى بعض مجالسه عن نيته فى كتابة مصنف يرتب فيه الشعراء حسب اسنانهم ، فوجه اليه هذين البيتين :

رفقا ابا اسحاق بالعالـــم   حصلت فى اضيق من خاتـــم

لو كان فضل السبق مندوحة   فضل ابليـــس على آدم . . . .

(الديوان ص . 174) . فهو لا يحب أن تذيل باسمه لائحة الشعراء اذ كان اصغرهم ، ثم ليست الشاعرية مشروطة بالسن فى رايه ولعل من اثر الاحساس بالذات ، انه عقد بابا للقدماء والمحدثين فى (العمدة) قال فى اوله متابعا صيحة ابن قتيبة : (كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله ..) 1 / 90 . وهو فى ذلك معجب ومتأثر براى استاذه عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى الذى يقول : (قد تختلف المقامات والازمنة ، والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند اهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ..) العمدة 1 / 93 . فحكمه بالمساواة بين القديم والمحدث لما تقتضيه البيئة المتغيرة ، والظروف الزمانية ، مع حثه ودعوته الى دراسة القديم دراسة عميقة ، وتكرار الدعوة الى ضرورة الثقافة للشاعر، اقول ان رايه هذا لا شك ايضا نابع عن احساسه بشخصيته التي لم تكن دائما مستلبة ، ولا ادل على هذا الاحساس فى جانب آخر ، انه فى كتبه كان دائما يضع نفسه ونماذجه الشعرية بازاء اشعار الفحول القدامى من امثال امرىء القيس ، والمتنبى ، والبحترى . . الخ . وهذا امر سبق الاستاذ عبد الرؤوف مخلوف اناشار اليه فى بحثه حول ابن رشيق ونقد الشعر .

فاذا كان ذلك هو ابن رشيق كما تصوره آراؤه ومؤلفاته ، فلماذا لم يعمل على ابراز هذه الشخصية فى انتاجه الشعري ؟ او بعبارة ، لماذا لم يتخط مرحلة المقلد المحسن الى مرحلة المبدع المبتكر ؟

والحق ان شاعرنا مهما اتهمناه بالقصور والتقليد ، فاننا لو بحثنا في ديوانه ، لوجدنا بعض مناحي التجديد او الابداع باصح تعبير ، ولو حسب النظرة التي ينطلق منها هو في فهم الابداع والابتكار ، فهـو في كتابه العمدة ، حين تعرض لباب المخترع والبديع (ص . 262 / 1 وما بعدها) جعل المخترع ثلاث درجات ، ووضع اسما خاصا لكل درجة ؛ فهناك **المخترع** ، وهناك **التوليد** ، وهناك **البديع** . فالمخترع هو ما لم **يسبق اليه قائله ، ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره ، أو ما يقرب** منه . والتوليد ، خاص بالمعنى ، وهو ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ، وان كان فيه نوع من الاقتداء يتجلى في الجناس بالبيت الاول ، والمقابلة في الثاني ، والاستعارة في الاتيان بالمستطرف الذي لم تجر العادة بمثله ، ويقصد بذلك المحسنات البديعية التي منها المجاز والاستعارة ... الخ .

فاذا فتشنا في ديوانه ، لنقيس شعره بهذه المقاييس التي وضعها بنفسه ، وجدنا فيه نتفا لا بأس بها من هذه الانواع التي ذكرها ، كهذا المعنى الذي نجده في قوله :

من ذا يعالج عني ما اعالجه   من حر شوق اذاب القلب لاعجه

ومن يكن لرسيس الشوق داخله   يكن لفرط الضنى والسقم خارجه

كادت خلاخيل من أهوى تبوح به   سرا ، وغصت بما فيها دمالجه

(الديوان . ص . 47) . فبالاضافة الى ما في الابيات من بديع يتجلى في الجناس بالبيت الاول ، والمقابلة في الثاني ، والاستعارة في الثلث ، هناك هذه الصورة الطريفة التي ولدها الشاعر حين زعم ان الخلاخيل تبوح بسر الحب ، وان الدمالج قد غصت بهوى المحبوب .

ومن ذلك هذه الصورة البديعة التي تبدو من خلالها الثريا :

كأنها ربوة شماء كللها   نور البهار وقد هبت لها ريح

(الديوان . ص . 53) .

وهذه التي يصور فيها البرق لاول مرة بامراة تدعى سليمى ، وقد أشرفت من أعالي القصر المنيف ، وهي تمسك كفها تارة ، وتقبضها اخرى :

ارى بارقا بالابلق الفرد يومض	يذهب ما بين الدجى ويفضض
كان سليمى من اعاليه اشرفت	تمد لنا كفا خضيبا وتقبض
اذا ما توالى نبضه نفض الدجى	له صبغة المسود او كاد ينفض

(الديوان . ص . 97)

وهذا الاستغلال الجديد لصورة متكررة ، فى حياة المثقف العربي القديم الذي اعتاد على الرواية والسند :

اصح واقوى ما سمعناه فى الندى	من الخبر الماثور منذ قديم
احاديث ترويها السيول عن الحيا	عن البحر عن كف الامير تميم

(الديوان . ص . 170)

ومن المواضيع التي لا اعلم من طرقها قبله فى الادب العربي ، وصفه للزرافة بأبيات طويلة ، فى قصيدة مدح بها المعز بن باديس ، الديوان . ص . 17) . ولا اجد بعد هذا ما اصف به هذه الابيات التي قالها متفزلا سوى انها جمعت بين خفة الوزن ، ورقة العبارة وطرافة المعنى :

بين أجفانك سحر	ولاغصانك بدر
جردت عيناك سيفين ، لذا امرك امر	
فعلى خديك من نزف دما العشاق اثر	

ومـــن الكثبـــان شطـــــر	لك ، والاغصـــان شطـــــر
وســـــواء قلـــت : در	ما ارى ، او قلـــت ثغـــر
وبماذا اصـــف الخـصـــ	ـــر ، وما ان لـــك خصـــر
بك شغلـــي واشتغالـــي	ومضـــى زيـــد وعمــــرو

(الديوان . ص . 72) . ولا ما اصف به ايضا هذه الابيات التي قالها كما يبدو وهو على ظهر السفينة التى حملته الى صقلية ، وغيبــت عنه وجه الوطن الى الابد ، سوى انها تمثل مرحلة النضج الشعـــري ، واكتمال الرؤيا لدى الحسن بن رشيق (الديوان . ص . 48) :

ولقد ذكرتك فى السفينة والردى	متوقـــع بتلاطـــم الامـــــواج
والجو يهطل والرياح عواصـــف	والليل مســـود الذوائـــب داج
وعلى السواحل للاعادي غـــارة	يتوقعـــون لغـــارة وهيـــاج
وعلت لاصحاب السفينة ضجـــة	وانا وذكـــرك فى ألذ تنـــاج

والحق اني بدات استشعر هذا النضج فى شاعرية ابن رشيـــق ، منذ ان أصيب بأول نكبة اثر ضياع القيروان وتخريبها ، فرغم انه لم يكن قد توفق فى نونيته التي رثى بها القيروان كل التوفيق بالقياس الى مراثي ابن شرف ، اذ كان هذا اصدق منه تعبيرا ، واكثر شفافية ، أقول . رغم ذلك ، فان بدور النضج والاكتمال بدأت تجد مجالها الخصب فى نفســـه منذ ذلك الحين .

ب ـ الشاعـــر والعصـــر :

ولعله من باب الاصالة لدى الشاعر ، عصريته التي تكشف عنها بعض المقطوعات من ديوانه ، فقد كان ابن رشيق فى كثير منها مؤرخـــا ـ على الاقل ـ لذلك الجانب المترف الذي عاشته الطبقة الحاكمة والتي تفيـــأ

بظلها ، وتنعم بأرزاقها وعطاياها . وكان الامير المعز بن باديس — وقد اتخذه مع زميله ابن شرف شاعره الخاص — يقترح عليه كثيرا من المواضيع للقول فيها ، اما على سبيل الاختبار ، او على سبيل التندر والتفكه ، فقد امره مع صديقه يوما ان يصنع شعرا فى وصف سوق النساء وما يكون فيها من الزغب الناعم ، وفى فترات اخرى كان يدعوه للقول فى اتفه الاغراض وأحقرها ، فمن هنا تدرب صاحبنا على الارتجال والبديهة فى وصف كثير من خصائص البيئة القيروانية ، من الثمار على اشكالها ، كالمشمش والتفاح والاترج ، والباذنجان . . الخ . والحيوانات الآهلة والغريبة ، كالبغال ، والزرافة والحمار ، والفرس ، والاوز .

ومن جانب ثان ، كان العصر فى القيروان مشبعا باللهو والمجون ، لانت فيه طباع الناس ، ورقت الاذواق ، وتساهل رجال الدين والفقهاء ، وتغاضوا عن بعض مظاهر الانحلال ، بل ان الشيخ الكبير فى السن والعلم، لم يكن يجد غضاضة فى ان يقضي سحابة نهاره فى مجالس العلم والتدريس ثم ذبالة ليله بجانب طنبور وغلام . وبعبارة ، يمكن القول أن الشخصية القيروانية فى هذا العصر كانت اشبه ما تكون بالشخصية الحجازية فى العصر الاموي كما صورها كتاب الاغاني لابي الفرج ، من انها شخصية جمعت بين العلم والدين ، وبين الغناء والموسيقى واللهو ، فكان احد كبار علمائهم لا يستنكف من ايقاف الدرس لسماع الغناء .

وقد كان ابن رشيق أمينا فى تصوير هذه البيئة القيروانية ، بمجونها ولهوها ، على اننا لا يجب ان نذهب بعيدا فى التصور ، اذ انه فى الواقع لم يهتم الا بطبقة معينة من المجتمع ، تلك التى انتمى اليها فأحبها واخلص اليها ثم بكاها اخيرا حين افتقد نعيمها .

وهناك قسم آخر من شعره ، ارخ فيه لاحداث مهمة عرفتها تونس مثل خراب القيروان ، وموت المعز ، والهدية التي بعث بها الفاطميون من مصر ، وانقضاض النورمان الروم على شواطىء البلاد ، وحالة الاندلس فى عصره ، الى احداث اخرى صغيرة . على انه لو حاولنا أن نطرح مفهوم المعاصرة ، كمعناة لمشاكل العصر ، ووعى بالتاريخ وقضاياه السياسية

والاجتماعية والفكرية ، وكموقف والتزام ، على شاعر مثل ابن رشيق ، عاش في القرون الوسطى ، فان ذلك سيكون من احدى جنايات النقد حين يقيس الماضي بمقاييس جد معاصرة .

جـ ـ الشاعـــر والذاتيـــة :

والمجموعة الثالثة من اشعار الديوان ، تتناول الجانب الذاتي لابن رشيق ، وتقدم لنا ملامح عن شخصيته من زوايا مختلفة ، فمنها ما يصور لهوه ومجونه ، ومن خلالها يبدو الشاعر مغرقا في حب الغلمان ، والتفنـن في الحديث عن ملاحتهم وجمالهم . وتطغى صورة الغلام في الديـوان حتى تكاد المراة معه تختفي من حياة الشاعر ، وهو في ذلك يبلغ حد الفحش ، والتصريح بالشهوة ، مما لا يحتمل المقام ذكره ، وربما بلغ به التصريح احيانا الى ذكر اسماء معشوقيه كقوله :

اسلمني حب سليمانكـــم الى هوى أيســره القتـــل

(الديوان . ص . 142) . واذا كان المعروف عن هذا النوع من الشعر ، انه يعتمد على المبالغة في تصوير محاسن الغلام الشهوانية ، وابراز مواطن الفتنة به ، فان شاعرنا كان موفقا في ذلك كل التوفيق ، وان كان لم يخرج عن النطاق الذي رسمه من قبل ، شعـراء المجـون الكبار ، كأبي نواس وامثاله ، ومن املح قطعه في هذا الموضوع قوله :

يـا مـن يمـر ولا تمـــ ـــر به القلوب من الفـرق
بعمامـة مـن خـــده أو خده منهـا استـــرق
فكـــأنـــه وكـــانهـــا قمـــر تعمـــم بالشفـــق
فاذا بـــدا واذا انثنـــى واذا شـــدا واذا نطـــق
شغل الخواطـر والجـــوا نح ، والمسامع ، والحـدق

(الديوان . ص . 28 1) . واما الجانب الوجداني العاطفـــي ، فى شعر الغزل فيكاد يختفي من الديوان ، لان الشاعر لم يكن كما يبدو ــ يعاني من عاطفة حب صادق .

ومنها ما يصور مجالس الشراب والخمر والندماء والسقاة ، فيبدو الشاعر من خلالها مغيبا فى كؤوس الخمر لا يصحو ، وان كانت الخمـــرة عنده ليست الا وسيلة من وسائل التلذذ والمتعة ، مثلها مثـــل الغنـــاء والموسيقى ، ولا تكتسي اي بعد آخر ، كأن تكون وسيلة هروب ، او رمزا من الرموز ، ويظهر انه فى مرحلة مجهولة من حياته ، قد اقلع عن تعاطي الخمر وانصرف عن اللهو ، أو على الاقل ــ ذلك ما يوحى به قوله :

نزعـــت عن اللهـــو وعن المدامة   فلا مللا نزعـــت ، ولا سآمـــــة
ولكن خان معشوق واضحـــــى   نديم وهو من عدد الندامــــة
فيا أجفاني اعتنقـــي منامـــــا   ويا قلبي قدمت على السلامـــة

(الديوان . ص . 180) . وربطه فى البيت الاول بين الخمر والهوى ، له من الدلالة ما يوحي بأن الشاعر انما كان يتخذ منهما معا ، وسيلة الى لذته ، وأنسه .

ومنها ما يصور نفسيته وبعض أخلاقه ، ومن خلالها يبدو الشاعـــر كريم الاخلاق واليد ، مسرفا ومبذرا لا ينتهي عن ذلك ، ودودا محبـــا لاخوانه وان تجافوا عنه ، مترفعا عن مقابلة العداوة بمثلها ، بعيدا عـــن النميمة ، رقيق الدين ، مع ايمان بالله لا يحيد ...

وقد كان ابن رشيق مع رقة دينه التي صورتها اشعاره وافصح عنها قـــولـــــه :

انـــي لقيـــت مشـــقـــة   فابعـــث الـــي بشقـــه
كمثل وجهـــك حسنـــــا   ومثـــل دينـــي رقـــة

(الديوان . ص . 131) . لا يفقد الوجه الاخر من شخصيته ، اذ كان مع ذلك اماما فى الادب واللغة والنقد ، وكاتبا من كتاب الديـــوان ، وواحدا من رجالات القصر وحاشية الامير ، وهي وظائف تقضـــي ان لا يجعل من اللهو وكده وغايته ، وان لا تفقده الخمر مروءته واحترامه ، ومن هنا فاننا لا نجد ابن رشيق يستفل حالات سكره والتذاذه للطعن فى الدين او الجهر بالشك والالحاد ، على نحو ما كان يفلت من لسان ابي نـــواس وامثاله ، بل هو فى احدى غلامياته لا ينسى ان يؤكد اسلامه :

كـــذا بلا ذنـــب ولا زلـــة　　　　يقتل هذا الرجـــل المسلـــم

(الديوان . ص . 186) . وما لنا نذهب بعيدا فى الدفاع عن ايمانه العميق ، وهو احد من ينسب اليهم التأليف فى شرح الحديث ، فقـــد ذكروا ان من مؤلفاته ، كتابا فى شرح موطأ مالك ، وآخر فى اختصاره .

ومنها الاشعار التي تمثل الجانب التأملي ، ضمنها خلاصة تجاربـــه وحياته المتقلبة ، والجانب التعليمى الذى يقصد به التوجيه ، كقوله :

اختر لنفســـك من تعـــــادي　　　　كاختيـــارك مـــن تصـــــادق
ان العـــدو اخـــو الصديــــــ　　　　ـــق وان تخالفت الطرائـــق

(الديوان . ص . 130) نحا فيها الشاعر الحكيم ، منحى المتنبي وغيره من الذين جرت الامثال الشعرية على لسانهم ، وبعـــض من هـــذه الاشعار التأملية ما بث فيه شكواه وآلامه ، وبعض قليل منها ضمنه رايه فى الشعر والشعراء يقول من قصيدة :

فهاك من محكمات القول معلمـــة　　　　بالشعر فيك وشر الشعر ساذجه
فان حولك قوما زاد شرهـــــم　　　　فى البرد حتى اصاب الناس فالجه

(الديوان . ص . 48) . فهو ممن يومنون « بالصناعة الشعرية » ولا يقنعون منه بما كان بسيط النسج . واذا كان في العمدة قد دافع في فصول طويلة عن الشعر ، كفن تعبيري ، وأتى بالادلة والشواهد على حاجته وضرورته ، فهو قد نظم ذلك في ارجوزة قصيرة ، فقال :

الشعر شيء حسن | ليس به من حرج
اقل ما فيه ذهـا | ب الهم عن نفس الشجي

... الابيات (الديوان . ص . 50)

ورغم ان هذا الدفاع او ذاك التعريف ، للشعر لا يقدم لنا مفهوما جديدا عما نعهده عند غيره ، فانه على كل حال يصور لنا رؤياه للشعر ، كناقد اولا ، وشاعر ثانيا .

وهناك بعد هذا أغراض تناولها الديوان في ابيات ومقطوعات ، كالعتاب والاخوانيات ، والمدح والهجاء والرثاء ... الخ . وهي كلها لو اردنا – تدخل تحت الاقسام الثلاثة التي ذكرت .

الرباط | **عبد العلي الودغيري**

مختارات "بَابْلُونِيرُودَا"

ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي

— 1 —

لكم تمنـــيت لو كانت ملابـــســـى
حيكت من نسيج ممزق ، من دخـــان ،
كى أظـــل هنـــاك ، غير مرئـــى ،
أشهد كل شىء ، ولكن من بعيـــد ،
أحتفـــظ بطابعى الذاتـــى ، غامضا ؛
مشـــدودا الى ايـــقـــاع الربيـــع .

— 2 —

أعشـــق الحـــب موزعـــا
بين قبـــلات ، وفراش ، وخبـــز ،
الحب الذى قد يكون أبديـــا خالـــدا ،
ويمكـــن أن يصبـــح برقـــا خاطفـــا ،
الحب المقـــدس الذى يقتـــرب ،
والحـــب المقدس الذى يمضـــى .

— 3 —

على بيت الشعـــر أن يكون مفتاحـــا
يفتـــح ألـــف بـــاب ،
وعلى الشاعر أن يخلق مما يقع عليه نظره جديدا .
لماذا تتغنـــون بالوردة أيهـــا الشعـــراء ؟
عليكـــم أن تجعلوها تتفتـــح فى قصائدكـــم .

— 4 —

انى أذكر جيـــدا كيف كنت فى نهاية الخريـــف ،
كنت بقبعـــة شهـــباء ، والقلب مطمئـــن .
وفى عينيـــك يتدافـــع لهيـــب الشفـــق ،
وتتساقط الاوراق فى نهـــر روحـــك .
الـــى الجميـــع ، الى الجميـــع ،
الى كل هؤلاء الذين لا أعرفهـــم ، وكل أولئك

الذيـــن لم يسمعـــوا باسمـــى يومـــا ،
الى الذيـــن يعيشـــون
على ضفـــاف أنهـــارنا الطويـــلة ،
وعلى سفوح البراكين ، وفى ظل النحاس الملتهـــب ،
الى الصيادين والفلاحين ،
الى الهنـــود الزرق ، المقيـــمين
على شواطىء البحيرات ، متألقة كالزجاج ،
الى الاسكافى ، الذى يتساءل الآن ،
وهو يخيط الجلـــد بأيـــد معروقـــة ،
اليك أنت الذى كنت تنتظرنى دون أن تعرف ،
اليكم جميعا أنتمى ، وبكم اعترف ، ولكم أغنى .

— 5 —

الى الـــــوردة ،
الى الوردة الناضجـــة ،
الرشيقـــــة المتفتحـــــة ،
الى مـــا فى قطيفـــتها من عمـــق ،
الىنهـــدهـــا الاحمـــر المتفجـــر .
مـــا أكثـــر مـــا ظنـــوا
اننى تخليـــت عنـــك

ـ نعم ،
لقد ظنوا ذلك ـ
وانني لا أتغنى بك ،
وانك لست مني ،
أيتها الوردة ،
ولا أنا منك ،
وانني أضرب
في أرجاء الدنيا ،
لا أنظر اليك ،
ولم أعد أهتم
الا بالانسان ،
وأزمته ،
لا ، ليس ذاك حق
يا وردتي .

— 6 —

امرأة !
لكم تمنيت لو كنت ابنك أرضع
لبن نهديك ، قبل ما أشرب من نبع عذب ،
لكي أنظر اليك ، وأحس أنك بجانبي ، واحتويك

فى بسمـــة ذهبية ، وصوت شفـــاف .

— 7 —

حررنى من نفسى ، أريد أن أخرج من روحى ،
أنا ذلك الذى يئن ، ذاك الذى يحترق ، ذلك الذى يقاسى .

— 8 —

آه ، يا حزينتى ، ان البسمة تمتد على وجهك كفراشة ،
ومن أجلك يا أختى ، فانى لم أتشح بالسواد .

— 9 —

أحـــب عشـــق البحـــارة ،
الذين يقبلون ثم يذهبـــون ،
يتركـــون وعـــــدا
ولا يعـــــودون أبـــــدا ،
وفى كل مينـــاء امـــرأة تنتظـــر ،
والبحـــارة يقبلـــون ثـــم يذهبـــــون

— 10 —

أنا فى الاحـــــلام طفـــل ضـــائع !

— 11 —

حبـــــى طفـــــل يبكـــــى

القـــاهرة **الطاهر احمد مكى**

علـم النفـس
في مؤسسات العمل

د. فرج عبدالقادر طه

تمهيــــــد :

قبل أن ندخل فى موضوع هذا البحث علينا أن نعرف ما نقصـــده بمؤسسات العمل فى هذا البحث ، حتى يكون حديثنا واضحا منذ البداية. اننا نقصد بمؤسسات العمل كافة المؤسســــات والمصالــح والادارات والهيئات التي تمارس عملا وتقوم بنشاط وتــؤدي واجبات ايا كان نوعها . وعلى هذا يصدق هذا التعريف على المصنع حيث يزاول فيــه العمـــال والموظفون والمديرون نشاطا ويؤدون واجبات ، كما يصدق على المعهد العلمي حيث يقوم أساتذته بواجب التدريس ويقوم طلابه بواجب الحضور ومتابعة الدروس واستذكارها . كما يصدق هذا التعريف على الجيش والمصالح الحكومية والاهلية وغيرها .

اهــداف مؤسســة العمــل :

اذا تساءلنا عن الاهداف التي ينبغي ان تحققها اية مؤسسة عمـل (بالمفهوم الذي سبق ان اصطلحنا عليه) لكانت الاجابة ثلاثة اهـداف اساسية خاصة فى المجتمعات النامية الشبيهة بمجتمعاتنـا العربيـة والافريقية . وهـي :

1 ـ انتاج وافر كميا (بمعنى كثير العدد كبير الحجم) جيد كيفيا (بمعنى ان يكون من النوع الممتاز الذي يلقي استحسانا ويصادف تفضيلا من جانب المجتمع) .

2 ـ راحة نفسية ورضى مهني يعم العاملين بالمؤسسة (بمعنى ان من يعمل بهذه المؤسسة سواء عاملا أو موظفا ، رئيسا أو مرؤوسا يكون سعيدا بعمله فيها ويفضل الاستمرار فيها عن الانتقال الى غيرها ، كمـا يجد فى علاقاته بزملائه وبرؤسائه وبعمله كله متعة وسعادة واحساسـا بالثقة فى مستقبله والاحسان فى عمله دون خشية الفصل التعسفي منه او الاجحاف فى حقه أو امتهان كرامته وانسانيته فى هذه المؤسسة) .

3 ـ سمعة طيبة للمؤسسة بين الجمهور ورضاء عن منتجاتهـا ونشاطها (فلو كانت هذه المؤسسة معهدا علميا فيكون المجتمع راضيا عن مستوى خريجيه ومستوى التعليم واللوائح التي تطبق فيه ، وراضيا عن الاشخاص المسؤولين عن تسييره وادارته ، ولو كانت هذه المؤسسـة مصنعا يكون المجتمع او الجمهور راضيا عن انتاجه ومقتنعـا بأهميتـه وبدوره فى الاقتصاد الوطني وبكفاءة العاملين فيه وتنظيمهم ومستواهـم وسمعتهم) هذا ، ويمكننا ان نضيف أن نجاح اية مؤسسة عمل فى مجتمع نام رهن بكفاءتها فى تحقيق هذه الاهداف الثلاثة السابقة ، بدرجة مرضية.

اسهامات علم النفس فى مؤسسات العمل :

لما كان العمل الانساني يمثل الدعامة الكبرى لاقتصاد اي مجتمع فقد تسابقت مختلف العلوم بالاسهام فى خدمته وترشيده لرفـع كفاءة

مؤسساته ومساعدتها على تحقيق أهدافها على افضل وجه ممكن . ولقد ظل علم النفس غائبا عن القيام بدور فعال فى مؤسسات العمل حتى مطلع هذا القرن نظرا لحداثة النسبية ، بحيث سبقته الى ذلك علوم كثيرة كالميكانيك والهندسة والكيميا والطبيعة والمحاسبة والاقتصاد . لكن من حسن الحظ ان علم النفس ما ان اكتسب شخصية مستقلة ، وحقق كيانا خاصا به مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي حتى أدرك اهمية الاسهام فى مجال العمل بما يستطيع من تطبيق مبادئه ومعلوماته ونظرياته ومنهجه فى البحث لخدمة مؤسسة العمل . ولقد بلغ علم النفس فى هذا حدا جعله يفرد فرعا خاصا من فروعه لتحقيق هذا الغرض بالذات وهو ما يعرف الآن بعلم النفس الصناعي . وهذا الفرع يكاد يدرس فى مرحلة ما قبل الليسانس أو الباكالوريوس فى معظم جامعات العالم ، وعلى الاخص فى كليات الآداب والتجارة والاقتصاد والعلوم الهندسية .

ولما كان المجال يضيق عن تعداد وشرح أوجه اسهامات علم النفس وتطبيقاته فى مؤسسات العمل فاننا سوف نكتفي بالاشارات السريعة الموجزة فقط لبعض هذه الاسهامات وتلك التطبيقات .

اولا : فى التوجيه والاختيار المهني :

يقصد بالتوجيه المهني والاختيار المهني وجهين لعملية واحدة هي وضع الشخص فى العمل الذي يناسب مستوى كفاءته وقدراته واستعداداته وميوله وخصائصه الشخصية جسمية وعقلية ونفسية . فاذا كان التوجيه يعني أن يختار للشخص نوع العمل الذي يناسبه او للطالب نوع الدراسة التي تلائمه فان الاختيار يعني أن نختار من بين المتقدمين لشغل عمل معين أفضلهم صلاحية لهذا العمل أو ان نختار من بين المتقدمين للمعهد العلمي المعين أفضل المناسبين لنوع الدراسة المتخصص فيها هذا المعهد ممن يتقدم له من الطلاب .

ولهذا فان كلا من عمليتي التوجيه المهني والاختيار المهني تقوم على اساس علمي واحد فى شقين احدهما هو أن كل عمل يختلف عن غيره ــ ان

كثيرا أو قليلا — فيما يتطلبه من خصائص نفسية لا بد من توافرها فيمن يشغله حتى ينجح فيه . اما الشق الثاني فهو ان كل فرد — بالمثل — يختلف عن غيره — ان قليلا أو كثيرا — فى مدى توافر هذه الخصائص النفسية (كالذكاء والقدرة اللغوية والقدرة الحسابية والقدرة الميكانيكية والقدرة الفنية والقدرة اليدوية والتآزر الحسي الحركي والمعرفة النظرية والخبرة العملية والميول والصفات الخلقية والشخصية كالامانة والثقة بالنفس واللباقة الاجتماعية والمرح والانطواء والاكتئاب والعدوانية والصحة النفسية ... الخ) .

وعلى هذا يكون واجب الاخصائي النفسي فى مؤسسة العمل هو القيام بما يعرف « بتحليل العمل » لتحديد ما يتطلبه كل عمل من خصائص نفسية مختلفة والقيام بما يعرف « بتحليل الفرد » الذي يراد توجيهه أو اختياره لتحديد خصائصه النفسية . ثم يقوم الاخصائي النفسي بعد ذلك بعملية مطابقة بين متطلبات العمل وخصائص الفرد فيوجه الى العمل أو يختار له الاشخاص الاكثر مناسبة له . ويستعين الاخصائي النفسي فى القيام بدوره هذا بوسائل من أهمها ملاحظة العمل وكيفية ادائه وسؤال المختصين فيه عن متطلباته وظروفه وواجباته ... وتطبيق الاختبارات النفسية المناسبة على الافراد واجراء المقابلات النفسية لهم ... وكلها أمور ينبغي أن تتم بشكل علمي متقن يجيده الاخصائي النفسي عبر دراساته العلمية وتدريباته وخبراته العملية .

وأعرض فيما يلي تجربة واحدة كمثال فقط لبيان فوائد التوجيه والاختيار المهني على أساس علمي سليم :

لاحظت احدى شركات النقل والمواصلات بباريس كثرة عدد حوادث سياراتها مما كان يتسبب عنها فقد الكثير من الارواح واصابة الكثير من المارة والركاب وما يصاحب ذلك كله من خسائر مادية ومعنوية ومن اساءة

(1) دكتور أحمد عزت راجح : علم النفس — الصناعي — القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر — 1965 .

لسمعة الشركة وانحراف العملاء عنها . فاستدعت الشركة أحد علماء النفس ويدعى لاهي Lahy حيث كلفته بدراسة المشكلة ووضع الحلول لها . وبالفعل قام لاهي بتحليل عمل سائق السيارة ، وانتهى منه الى تحديد الخصائص النفسية اللازمة للسائق الناجح مثل القدرة العالية على تركيز الانتباه وسط مشتتات الانتباه المختلفة ومثل التآزر الكبير بين العين واليد والقدم ومثل الاتزان النفسي العالي ومثل الذكاء المتوسط وغير ذلك . واعد الاختبارات والوسائل اللازمة لقياس هذه الخصائص فى الافراد واختيار السائقين بناء عليها فكان من أهم نتائج ذلك ما يلي :

1 ـ انخفض معدل حوادث السائقين بالشركة حتى وصل الى اقل من ربع ما كان عليه قبل التجربة من (2.2 الى 5 .) .

2 ـ انخفضت نسبة الذين كانوا يستبعدون أثناء التدريب لعدم صلاحيتهم حتى وصلت الى حوالي خمس ما كانت عليه قبل التجربة (من 20 ٪ الى 4 ٪) .

3 ـ انخفضت المدة التي كانت تلزم لتدريب السائقين للشركة من خمسة عشر يوما الى عشرة أيام فقط ، مما وفر الكثير من نفقات التدريب على الشركة .

هذا ، وينبغي الا يفهم من ذلك أن عملية الاختيار المهني تركز على اختيار أفضل الاشخاص امتلاكا للقدرات والخصائص النفسية المختلفة ، كأن يختار الأذكى مثلا فى كافة الاحوال ويستبعد من عداه . فالذي يحدث هو اختيار من يمتلك القدرة او الخاصية النفسية بالمستوى المناسب فقط للعمل . فمثلا اذا كان العمل يحتاج لذكاء متوسط اخترنا له أو وجهنا اليه ذا الذكاء المتوسط فقط واستبعدنا ذا الذكاء المرتفع او المنخفض وهكذا . . . ولو حدث عكس ذلك ، فاخترنا الممتاز فى قدرة ما لعمل يتطلب ان تكون هذه القدرة متوسطة لدى الشخص الذي يشغله فانه غالبا سوف يمل هذا العمل ويحتقره حتى لو بدا راضيا عنه فى بداية تعيينه فيه ،

بحيث ينتهي به الامر الى الفشل فيه وتركه نهائيا فى غالب الاحوال سواء برغبته او رغما عنه بالفعل لتكرر فشله فيه ، ولقد قام بل Bill (2) بدراسة على 133 شخصا من مستويات ذكاء مختلفة يعملون فى خمسة اعمال كل منها يختلف فى مستوى الذكاء المناسب له . فكان العمل الاول يتطلب ذكاء مرتفعا جدا ، والثاني يتطلب ذكاء مرتفعا ، والثالث يتطلب ذكاء متوسطا ، والرابع يتطلب ذكاء دون المتوسط بينما كان العمل الخامس يتطلب ذكاء منخفضا . وبعد سنتين ونصف عاد بل الى هؤلاء الاشخاص يحصي من استمر منهم فى عمله فتبين له أن غالبية مرتفعي الذكاء تركوا الاعمال التي تتطلب ذكاء منخفضا وان غالبية منخفضي الذكاء تركوا الاعمال التي تتطلب ذكاء مرتفعا ، بينما استمرت غالبية منخفضي الذكاء فى الاعمال التي تتطلب ذكاء منخفضا واستمرت غالبية مرتفعي الذكاء فى الاعمال التي تتطلب ذكاء مرتفعا . ولا شك فى ان ترك الفرد لعمله يؤدي فى الغالب الى خسارة مادية ومعنوية جسيمة تعود عليه وعلى أسرته ، فى نفس الوقت الذي يؤدي فيه الى خسارة مادية ومعنوية أيضا لمؤسسة العمل حيث يتعطل العمل الذي كان مكلفا به هذا الفرد لحين ان تعين المؤسسة بديلا عنه وتدربه حتى يصل الى مستوى المهارة اللازم لانجاز العمل والقيام بواجباته بكفاءة واقتدار . هذا بالاضافة الى أن وضع الفرد فى العمل الذي يناسبه يعتبر من أهم ما يسبب له السعادة والراحة النفسية فى حياته ليوفق فيه وينجح . ونظرا لاختلاف الاعمال فيما بينها من حيث متطلباتها ، ونظرا لاختلاف الافراد فيما بينهم من حيث الخصائص الشخصية المتطلبة للاعمال ، فان من لا يصلح لعمل قد يكون أول المناسبين لعمل آخر .

ثانيا : فى التاهيل المهني :

التأهيل المهني فى جوهره نوع من التوجيه المهني يختص بالمعوقين وذوي العاهات . فقد يحدث أن يصاب الفرد بعاهة منذ طفولته أو أثناء

---

(2) دكتور السيد محمد خيري : علم النفس الصناعي ـ القاهرة ـ دار النهضة العربية .

عمله او فى الحروب او فى الحوادث او غير ذلك مما تتخلف عنه عاهة او عجز دائم يقعده عن العمل او عن القيام بعمله المعتاد . وواجب التأهيل المهني فى كل هذه الحالات هو مساعدة هذا المعوق على انتقاء عمل آخر يتناسب واستعداداته الحالية ولا يتأثر بحالة عجزه الراهنة ، ثم تدريب المعوق عليه والحاقه به بعد استكمال تدريبه ، ومتابعته بعد ذلك وهو يزاول العمل للتأكد من نجاحه فيه ، ومساعدته على حل ما يجابهه فيه من مشاكل وعقبات .

والتأهيل المهني بهذا يحقق هدفين اساسيين : اولهما المحافظة على تعبئة واستثمار كافة الطاقات البشرية للمجتمع فى عملية الانتاج ، اذ يعيد القدرة على الانتاج لاولئك الذين أصيبوا بأنواع من العجز منعتهم من القدرة عليه او من الاستمرار فى اعمالهم المعتادة . اما الهدف الثاني فهو اعادة الاحساس بالكرامة الانسانية والثقة فى النفس والاهمية الشخصية والفعالية فى المجتمع المعوق عن طريق استعادته لقدرته على العمل والانتاج فيقل بذلك احساسه بالعجز ليحل محله احساس بالقدرة والفعالية وتحقيق الذات ، مما يخفف عنه الكثير من الاحساس بالضعف والهوان . وبهذا يعود المعوق عالة على المجتمع بل يصبح ذا اهمية فيه ، يعيش واسرته من اجر عمله وعائد انتاجه عيشة انسانية كريمة .

هذا ، وكل ما سبق ان ذكرناه عن الاساس العلمي للتوجيه والاختيار المهني (فى البند السابق) يصدق بنفس الكيفية على التأهيل المهني اذ أن التأهيل المهني ليعدو كونه نوعا متخصصا من التوجيه المهني يقوم على نفس أسسه ويحقق نفس اهدافه .

وقد يظن البعض أن المعوقين (ذوي العاهات) لا يصلحون للعمل والانتاج . الا انه ليس أبعد عن الحقيقة من هذا الراي المجحف . فقدرة المعوقين الذين احسن تأهيلهم على العمل والانتاج فيما تأهلوا عليه لا تقل عن مثيلاتها لدى زملائهم من الأسوياء . ذلك أنه فى التأهيل يوجه المعوق الى العمل الذي يتلاءم وبناؤه النفسي وقدراته الذاتية ولا يتأثر بحالة

عجزه الراهنة . وليس هناك عمل يحتاج الى كافة قدرات الفرد الا القليل النادر من الاعمال . لهذا يوجه المعوق الى العمل الذي يحتاج لما بقيت له من قدرات ، والذي لا يتأثر بما حرم منه من امكانيات بسبب العاهة . بل ان الدراسات الميدانية التي قارنت بين مدى اقتدار المعوقين المؤهلين على العمل ومدى اقتدار زملائهم من الأسوياء مالت الى اثبات عدم وجود فرق بينهما ، وفى بعض الدراسات كان الفرق فى صالح ذوي العاهات ، فعلى سبيل المثال فقط قام نوبيس Novis (3) بدراسة على 1008 عاملا من ذوي العاهات فى 63 مؤسسة تبين منها ان كفايتهم الانتاجية كانت فوق المتوسط حسب تقارير أصحاب الاعمال وان نسبة تعرضهم للحوادث كانت قليلة وانهم أكثر انتظاما فى العمل من زملائهم الأسوياء . ومن يزور مؤسسات يعمل بها معوقون مؤهلون يلمس بنفسه قدرتهم على العمل والانتاج والتي قد تزيد احيانا على قدرة زملائهم من الأسوياء ، مما يجعله يخرج بقناعة عميقة بأن التأهيل المهني لا يحسن فقط الى المعوق أو ذوي العاهة بل وايضا الى الانتاج حيث يعبىء كافة الطاقات البشرية فى المجتمع لخدمة الانتاج فلا يستثني منها حتى من اصابته عاهة معوقة .

ثالثا : فى ترشيد الادارة ::

ان الهدف الاساسي من اختيار وتوجيه وتأهيل العاملين على اساس علمي هو ان ننجح فى وضع الشخص فى العمل الذي يناسبه ويتفق وتكوينه النفسي والشخصي الخاص به . وليس ادعى الى نجاح الفرد فى عمله وتوفيقه فيه وارتياحه له من أن يكون هذا العمل مناسبا وتكوينه النفسي وخصائصه الشخصية . الا ان هذا وحده لا يضمن النجاح فى العمل والراحة النفسية فيه . بل ان الامر يحتاج بجانب ذلك الى ادارة رشيدة ترأس العاملين (ونقصد بالعاملين كل من يعمل فى مؤسسة العمل

---

(3) كنيث هاملتون : اسس التاهيل المهني ـ ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسي ـ ـ القاهرة ـ النهضة المصرية ـ 1962 .

من اي مستوى كان موظفا او عاملا ، رئيسا او مرؤوسا ..) وتقودهم وتديرهم بكفاءة ووعي سديدين . فمهما كان العاملون مناسبين لاعمالهم فلن تنجح مؤسسة العمل الا اذا اضيف الى هذا الشرط الاساسي شرط آخر لا يقل اهمية هو وجود ادارة رشيدة على راس المؤسسة . لهذا كم من مؤسسة فاشلة نجحت بعد تغيير القائمين على ادارتها ، وكم من أخرى ناجحة فشلت بعد ان ابعد عنها رؤساؤها الاكفاء ، هذا في حين تظل بقية العاملين في كلتا الحالتين دون تغيير . ويرجع السبب في ذلك الى تغيير نوعية الادارة ومدى كفاءتها ــ فالادارة الرشيدة الواعية ترفع الانتاج في مؤسساتها كما تشيع بين مختلف العاملين في المؤسسة مناخا نفسيا مريحا وترفع الروح المعنوية لهم .

ولقد قام كثير من الباحثين بدراسات تجريبية لاستخلاص افضل الاجواء الادارية للانتاج والراحة النفسية للعاملين . ومن اشهر هذه الدراسات تلك التي قام بها ليفن Liwin وزملاؤه (4) ففي احدى تجاربهم اتوا بثلاث مجموعات من الافراد المتعادلين تقريبا في خصائصهم النفسية ، وجعلوا الادارة في احدى المجموعات ادارة ديكتاتورية (حيث كان الرئيس يفرض على الاعضاء نوع العمل ويقرر الخطط دون اخذ رايهم) واخرى ادارة فوضوية ، وفي الثالثة ادارة ديموقراطية (حيث كان اعضاء الجماعة كلهم يتناقشون ويبدون الراي ويشتركون في وضع الخطط وتقرير نوع العمل) . وكلفوا كلا من المجموعات الثلاث بنفس العمل وأمدوهم بنفس الادوات والخدمات ، ثم اخذوا يلاحظون الفروق بين مستوى الانتاج والروح المعنوية والعلاقات الانسانية داخل كل مجموعة . فتبين لهم ان الانتاج في المجموعة الديموقراطية كان مرتفعا كما وجيدا كيفا ، كما كان يستمر حتى في غياب الرئيس ، وكان الرئيس محبوبا من مجموعته ، كما كان اعضاء المجموعة الديموقراطية هذه يحبون بعضهم وتقل

---

(4) موريس فيتلسي : علم النفس المهني ــ ترجمة الدكتور احمد زكي صالح ــ في ميادين علم النفس ــ اشرف على تاليفه جيلفورد ــ أشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد ــ ــ القاهرة ــ دار المعارف ــ 1956 .

بينهم المشاحنات وترتفع الروح المعنوية لهم ، وكان الامر عكس ذلك تماما فى المجموعة الفوضوية . اما المجموعة الديكتاتورية فعلى الرغم من ان انتاجها كان مرتفعا كما وجيدا كيفا فى مستوى قريب من مستوى المجموعة الديموقراطية الا أن الانتاج كان يتوقف عند غياب الرئيس كان الرئيس مكروها من أعضاء مجموعته وكانت العلاقات الداخلية بين الزملاء سيئة ، والروح المعنوية لهم منخفضة . ولما قام المجربون بتغيير الجو الاداري فى المجموعة الفوضوية الى جو ديموقراطي ارتفع انتاجها وتحسنت العلاقات الانسانية بين أعضائها وارتفعت روحهم المعنوية . ومع ابدال الجو الاداري فى كل مجموعة من المجموعات الثلاث واعادة التجربة تأكدت نفس النتائج من أن الجو الاداري الديموقراطي افضل الاجواء الادارية على الاطلاق لصالح الانتاج ولصالح العلاقات الانسانية والراحة النفسية للافراد فى نفس الوقت . ولهذا فاننا نقر ما جاء فى أحد تقارير الامم المتحدة (1) من أن السبب الاول فى فشل المشروعات التي تقدمها الامم التحدة للدول النامية هو عدم وجود ادارة واعية رشيدة تستطيع أن تدير المشروع وتسيره .

ومن هنا كانت الاهمية البالغة لتدريب المديرين والرؤساء على الاساليب النفسية العلمية السليمة لادارة العاملين . وفى هذا يساعد علم النفس على ترشيد الادارة وامدادها العلمي النفسي للادارة الناجحة وللعلاقات الانسانية الصحيحة والصحية فى نفس الوقت . أما الاساس العلمي والفني اللازم للادارة فان التعليم النظري والتدريب العملي والدراسة العلمية المنظمة بالمعاهد والجامعات كفيلة بتوفيره .

رابعا : فى الارشاد النفسي :

قد تعترض بعض العاملين فى المؤسسة مشاكل توافقية أو مشاكل نفسية كسوء العلاقة مع الرؤساء او الزملاء أو الضيق بالعمل أو نقص مفاجىء فى القدرة الانتاجية أو تعرض متكرر لحوادث واصابات أثناء العمل او خلافات عادية أو ضيق عام بالحياة أو الفرار النفسي من أي نوع . وعلم النفس يقدم لكل هؤلاء خدماته المعروفة بالارشاد النفسي للمشكلات

التوافقية النفسية الخفيفة ، او خدماته المعروفة بالعلاج النفسي للاضطرابات النفسية الاكثر عمقا وخطورة . وهكذا تعالج هذه المشكلات التوافقية وتلك الاضطرابات النفسية بأساليب الارشاد والعلاج النفسي العلمية ؛ فيستعيد الفرد بذلك قدرته على العمل ويعبىء لصالح الانتاج طاقته التي كانت تبددها المشكلات والاضطرابات النفسية . وتتحسن تبعا لذلك علاقات العامل بزملائه وبرؤسائه ، كما يحس الراحة والسعادة النفسية .

وكمثال ــ فقط ــ للفائدة التي تعود من جراء الارشاد والعلاج النفسي نذكر ان 154 عاملا باحدى شركات السكك الحديدية ممن تكرر وقوعهم فى حوادث كثيرة عولجوا لمدة عام فنقص معدل حوادثهم نتيجة لذلك حتى وصل الى قرابة خمس ما كان عليه قبل علاجهم اذ انخفض هذا المعدل من 208 حادثة قبل العلاج الى 51 حادثة بعد العلاج ، وهو معدل اصبح يقل كثيرا عن معدل حوادث زملائهم من العاملين بنفس الشركة (5) . ولا شك ان هذا كسب كبير يعود على العامل كما يعود على الانتاج فى نفس الوقت .

خامسا : فى دراسة وعلاج مشكلات المؤسسة :

كثيرا ما تظهر مشكلات داخل مؤسسات العمل أو داخل بعض اقسام منها مثل انخفاض فى حجم انتاجها أو تدهور فى مستوى جودة منتجاتها او خدماتها ، او انخفاض الروح المعنوية للعاملين بها ، او سخط بعض العاملين على رؤسائهم او زملائهم او على طريقة العمل ونظمه ، او سوء سمعة المؤسسة بين الجمهور الخارجي ... الخ . وفى كل هذه الحالات يمكن لعلم النفس أن يسهم ، الى جانب اسهامات العلوم الاخرى ــ بدراساته العلمية مستخدما منهجه فى البحث للوقوف على اسباب هذه المشكلات ، وباستخدام نتائج بحثه ومعلوماته فى اقتراح وتطبيق انسب الحلول لها .

---

(5) دكتور يوسف مراد : دراسات فى التكامل النفسي ــ القاهرة ــ مؤسسة الخانجي ــ 1958 .

خـــاتمـــــــــة :

استعرضنا فى هذا المقال امثلة لبعض ما يمكن لعلم النفس أن يقدمه من اسهامات وتطبيقات فى مساعدة مؤسسة العمل بالمجتمع النامـي على تحقيق اهدافها الاساسية الثلاثة والتي رأينا انها تتركز فى الانتاج الوفير الجيد ، والراحة النفسية للعاملين ، والسمعة الطيبـــة للمؤسســـة بين الجمهـــــور .

بل يمكن ان نضيف الى كل ذلك أن كثيرا من المشكلات التي تعاني منها المجتمعات النامية تخف حدتها بتطبيقات علم النفس واسهاماته فى مؤسسات العمل . فعلى سبيل المثال فقط ، نجد أن المشكلة المصطلح على تسميتها « بهجرة العقول » اي هجرة ذوي الكفاءات العالية من بلادهم النامية ـ والتي هي فى امس الحاجة اليهم ليسهموا فى بنائها وترقيتها ـ وهي المشكلة التي تضخمت فى الآونة الاخيرة ، واصبحت تشكو منهـــا مختلف البلاد النامية ، يمكن أن تعالج بوضوح هؤلاء الاشخاص فى الاعمال التي تناسبهم وبادارتهم وبرئاستهم بكيفية رشيدة ، وبتهيئة مناخ نفســي مريح فى عملهم ، وبدراسة وعلاج مشكلاتهم بكيفية علمية . فهذا كلـــه سوف يعمل ولا شك على التقليل من هجرتهم وعلى بقائهم فى بلادهم ركيزة لبنائها ودفعا لتطورها المنشود اقتصاديا واجتماعيا .

ولما كانت البلاد النامية عموما تشكو من فوضى العمـــل ونقـــص الانتاج ، فهي اذن فى أمس الحاجة الى استخدام الاساليب العلمية التـــي تكثر من استخدامها البلاد المتقدمة ، ومنها أساليب علم النفس فى ترشيد العمل والانتاج وفى رسم السياسة المثلى لتوظيف الطاقات البشرية فى البناء الاقتصادي والاجتماعي ، والله الموفق .

الرباط — **فرج عبد القادر طـه**

ابن سيده المرسي

3

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريو كابانيلاس رودريكس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

في بـــلاط دانــيــة

يصمت ما في متناولنا ، لحد الآن ، من مصادر عن ابن سيده ، ازاء التاريخ الذي غادر فيه مدينة مرسية ليتوجه الى دانيـــة ، والبواعـــث الحقيقية التي حملته على ذلك ، ويكتفي الحميدي بالاشارة الى انقطاع ابن سيده الى امير دانية ابي الجيش مجاهد بن عبد الله العامـــري ، وعـــن الحميدي تناقل هذه الاشارة بعض المترجمين فيما بعد من امثال الضبي وياقوت والقفطي والصفدي ، ويعتبر ابن خاقان ، من بين مترجمـــي ابن سيده ، اكثرهم تفصيلا في ايراد الخبر على هذا النحو : ((وكان منقطعا الى الموفق صاحب دانية ، وبها ادرك امانيه ، فآثر تجرده للعلم وفراغـــه ، وتفرده بتلك الاراغة (1))) .

(1) انظر ، ابن خاقان : مطمح الانفس ، طبعة القسطنطينية ، (1302 هـ / 1884 م) ص60 الحميدي ، جلوة المقتبس ، طبعة ابن تاويت الطنجي ، القاهرة (1953 م) ص 293

ويبدو لنا انه من الممكن ـ من خلال ما وصلنا من اخبار عنه في دانية ـ تحديد تاريخ وفوده عليها بالتقريب فيما بين 1037 م ـ 1040 م وقد اشرف على الثلاثين من عمره . والذي لا شك فيه أن اقامته بدانية بدات قبل 436 هـ / 45 ـ 1044 م ، وهي السنة التي توفي فيها ولي نعمته مجاهد العامري وبالاحرى قبل سنة 1053 م ، وهي السنة التي توفى فيها ابو عمرو بن سعيد الذي تلمذ عليه ابن سيدة كما رأينا فى الفصل السابق.

ولسنا نستبعد أن يكون من بين البواعث الرئيسية التي حملته على ترك بلده والهجرة بمحض ارادته ، الى دانية ، باعث الرغبة فى الاستجارة برعاية امير ، تتاح له فى كنفه فرصة التاليف والتصنيف والظفر فى الآن عينه ببحبوحة العيش وذيوع الصيت .

مجاهد العامري :

فى دانية ، المدينة الواقعة فى الشمال الشرقي من اقليم القنت Alicante الحالي ، ظهرت احدى ممالك الطوائف الاولى على يد الامير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله بن يوسف العامري الموفق وأصله مسيحي ، كان مولى من موالي المنصور ابن أبي عامر ، فانتسب كما انتسبوا جميعا ، للعامريين ، وكان مجاهد يتحلى بشجاعة واقدام منقطعي النظير ، وفى خلافة هشام الثاني ولي من قبل العامريين حكم دانية وما حولها ، فلما تفككت أوصال الخلافة الاموية بقرطبة اعلن استبداده بدانية واستقلاله بحكمها حوالي عام 400 هـ / 10 ـ 1009 م ؛ وتلبية لرغبته الشديدة فى الابقاء على الخلافة الاموية فى الاندلس ولو بشكل صوري بايع فى عاصمة امارته أمويا اسمه عبد الله بن الوليد المعيلي ؛ المدني : لكن هذا (أبو عبد الرحمن المنتصر بالله) لم يلبث طويلا حتى خلع .

وفى ظل مجاهد ـ أشهر الفتيان الصقالبة العامريين ، و « الملك الذئب » كما يسميه المؤرخون المسيحيون ـ أصبحت دانية احدى المدن الهامة فى الاندلس لموقعها فى منطقة غنية للغاية ، تدر حقولها محاصيل

موفورة على طول السنة تقريبا ، وفى ذات الوقت لعبت امارة مجاهد التي كانت تتالف من دانية (العاصمة) وجزائر شرق الاندلس (ميورقة ومنورقة ويابسة) دورا هاما باعتبارها قاعدة بحرية فى حوض البحـــر الابيـــض المتوسط ، ومن مصنع السفن بها خرجت قطع من أسطول ضخم يعتبـر اقوى ما عرفه البحر الابيض المتوسط من أساطيل ، وبه كان مجاهـــد يصول ويجول فى سواحل قطلونية ويروفنسا وايطاليا ، وبه قاد حملته المشهورة لفتح سردانية عام 406 هـ / 16 ــ 1015 م بعد أن قد استولى قبل سنة على جزائر البليـــار (2) .

وكان مجاهد ، على جانب عظيم من الثقافة الادبية والعلوم العربية ، وقد عرف عنه حذقة لمعاني القرءان وغريبه وقراءاته ، وتحدث المؤرخون بأنه شغل نفسه بتحصيل ذلك والتعميق فيه طول حياته ، ومن أجل ذلك استدعى الى بلاطه من الشرق ومن مدن الاندلس أشهر القراء وفى طليعتهم أبو عمر الداني ، وكان مجاهد يبالغ فى اكرام وفادتهم ؛ الامر الذي جعل من أهل دانية أكثر أهل الاندلس شغفا بالقراءات القرآنية (3) .

ولعل ما جمعه مجاهد من الكتب والتصانيف فى القراءات وفى غير القراءات من العلوم والفنون لم يتح لغيره من معاصريه جمعه ، ولم يكتف مجاهد بذلك ؛ بل أحاط نفسه بعلماء وشعراء وفدوا عليه من أنحاء شتى ، وكان ، أحيانا ، يأويهم فى قصره الخاص ، وهكذا كانت مجالسه العلمية تشهد مشيخة العلماء ومبرزيهم من أمثال أبي عامر بن شهيد وأحمـــد بن رشيق وابن مقانا الاشبوني وابن عبد البر وثابت بن محمد الجرجاني وهشام

---

(2) انظر عن دانية بدائرة المعارف الاسلاميـــة ، الطبعـة الجديـدة ، 1 ص 114 ــ 115 (مادة دانية) وعن مجاهد ، انظر أيضا ، دائـرة المعـارف الاسلاميـة ، 3 ص 666 (مادة مجاهد) ؛ وينبغي أن يضاف الى ثبت المصادر والمراجع فى هذا الموضوع مثل ما كتبه بالدرجة الاولى أمارى وسفورتا وكوديرا وغيرهم ، كتاب هام نشرته بالعربية المستشرقة الايطالية السيدة كلاياسرني ثركوا ، وهو : « مجاهد العامري قائد الاسطول العربي فى غرب البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجري » (القاهرة 1961) .

(3) ياقوت ، معجم البلـدان ، طبعة القاهـرة (1324 هـ / 1906 م) ج 4 ، ص 28 ، (مادة دانية) وفيما يتعلق بنشاة وتطور علم القراءات وأشهـر القراء ، انظر مقدمـة بلاشير للقرآن ص 102 ــ 35 .

أبن احمد الكناني وغيرهم (4) ، ولم يكن وجود هؤلاء العلماء والشعـــراء في بلاط دانية سببا فقط في ذيوع أمر مجاهد واضفاء البهاء والروعة على مملكته ، بل ان وجودهم كان سببا في انتشار العلم وشيوع الثقافة بشكل لافت بين أهل دانية ، بما فيهم غلمان القصر وجواريه .

وقد بنى مجاهد بتضلعه في العلم وامتلاء خزائن امارته ، أغلب ملوك الطوائف ، وفي الحكاية التالية ما يصور لنا حبه للعلم ومـــدى ما كـــان يبذله في سبيله ، وقد تناقلت هذه الحكاية مختلف المصادر ، ونحن ننقلها كما أوردها الشقندي (5) : « ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لـــم نسمع لها أختا أن أبا غالب اللغوي ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامري ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكسى على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك ابو غالب وقال : كتاب ألفته لينتفع به الناس ، وأخلد فيه همتي ، اجعل في صدره اسم غيري ، وأصرف الفخر له ، لا أفعل ذلك ، فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أنفته وهمته وأضعف له العطاء ، وقال : هو في حل من أن يذكرني فيه ، لا نصده عن غرضه (6) » .

وقد دفع بمجاهد حبه للغة العربية وتمكنه من عروض شعرها الى المشاركة في التأليف ، ويقال بانه أملى كتابا في العروض يدل على قوته فيه(7)

---

(4) عنيت السيدة كلاياسربي بالحديث عن هذه الشخصيات العلمية وذكـر مؤلفاتهـا ؛ انظر كتابها « مجاهد العامري ... » ص 221 – 251 ، وقد تحدثت عن ابن سيدة في ص 226 – 227 معتمدة على بعض المترجمين الذين تحدثنا عنهـم في الفصـل الاول ونفيد منهم في هذه الدراسة .

(5) رسالة في فضل الاندلس ، الترجمة الاسبانية لغرسية غومس (مدريـد – غرناطـة ، 1934) ص 49 ، وعن المصادر الاخرى التي تقدمت الشقندي أو تاخرت عنه ، انظر ، كلاياسرنيي (مجاهد العامري) ص 220 – الحاشية رقم 1 .

(6) حول تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التياني أبو غالب المرسي المتوفى 436 هـ / 1044 – 45 م انظر ، P. Boigues البحـــث رقـم 98 ، ص 124 – 123 ، « والترجمات » الواردة هناك التي خص بها ابن التياني كلا من ابن بشكوال والضبي وابن خلكان ، وانظر القمري ، النفح ج 2 ، 117 ، وانظر
Cayangos, « The Hist. of the Moh. Dynasties in Spain »
وحسب هؤلاء المؤلفين ان الحادثة كانت حين دخول مجاهد مرسية حيث التقى بابي غالب ، والمعجم المتحدث عنه كان اسمه « الموعب » .

(7) مقدمة محققي « المحكم » ج 1 ص 6 .

ويبدو انه كان يرغب حتى فـي تصنيف معجم كامل ، لكنه لـم يستطع ان يحقق هذه الرغبة لانشغاله بمهام الحكم فاستدعى ابن سيده وكلفه بذلك (8).

ولاشك أن ابن سيده وجد في مجاهد ـ وقد كان يذكره بلقب « الموفق » ـ الصورة المثلى للوفاء والاخلاص والكرم فى الرعاية ، فلقد افسح له مكانا للاقامة فى قصره وشجعه على تاليف أعماله المعجمية واضعا فى تناوله كل ما يحتاجه لانجاز عمله على نحو ما سنرى حين الحديث عن مؤلفاته .

ومثل هذه الرعاية التي نعم بها ابن سيده في كنف مجاهد ، وقد كان هو الذي استدعاه الى حضرته ، تدلنا على ان شهرة ابن سيده ، يومئذ كانت قد طارت كل مطار فى الاندلس وأن انتاجه فى حقلي اللغة والادب كان مما يتسابق اليه ، وها هو ذا ياقوت يحدثنا عن ذلك ملما فى حديثه برأي صاعد الطليطلي : « كان مع اتقانه لعلم الادب والعربية متوفرا على علوم الحكمة وألف فيها تاليفات كثيرة ولم يكن فى زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والاشعار وأيام العرب وما يتعلق بعلومها وكان حافظا (9) » .

على اننا نستنتج من مختلف التلميحات الواردة في مقدمة المحكم أن ابن سيده لم يكن ، مع ذلك ، يشعر بكامل الرضى ازاء الاكرام والحظوة التي خصه بها مجاهد فى بلاطه ، فهما فى تقديره لا يتناسبان وما هو جدير به لسمو مكانته العلمية والادبية .

واذا كانت حياة ابن سيده فى قصر مجاهد تبدو أحيانا طافحة بالسعادة ، فانها بعامة ، تتراءى مشوبة بالحزن والحسرة والقنوط لما كانت تعج به بيئة القصر من حسد ونزوات ودسائس تعكر عليه صفوه وهدوءه ؛ ولعل ذلك كان يؤثر فى نفسيته على نحو عميق نظرا لعماه .

---

(8) هكذا يصفه ابن سيدة فى مقدمته للمحكم ، 1 ، ص 8 وسأنقل تلك الفقرة فى أول الفصل الخامس ولا بد من التنبيه حتى يتجنب خلط ممكن الى أن مقدمة محققي المحكم ج 1 (القاهرة ، 1958) ، رقمت من (ص 5 الى 28) أسفل الصفحات ؛ على حين رقمت مقدمة المؤلف (من 1 ـ الى 18) أعلى الصفحات .

(9) ياقوت : ارشاد الاريب ، طبعة مرجليوث ، ص 85 .

اقبـــــــال الدولـــــة :

غير أن هذا الاحساس سيزداد تفاقما عند ابن سيده بوفاة مجاهد سنة 436 هـ / 45 ـ 1044 م وتسلم ابنه اقبال الدولة مقاليد الحكم فى دانية ، وكان اقبال الدولة وهو فى السادسة من عمره قد وقع مع امـــه المسيحية ، اسيرا ، فى يد الألمان حين أوقعت جيوش الائتلاف المسيحي بزعامة بنيدكطو الثامن الهزيمة بمجاهد واستردت جزيرة سردانية ، وبذلك قيض له أن يتلقى تربيته الاولى فى بلاط فردريك ـ فريدكو الثاني ـ ملك المانيا ، ولم يتخلص من الاسر الا بعد سنوات عديدة .

وقد سارع اقبال الدولة بعد اطلاق سراحه باعتناق الاسلام ، ولو أن هذا لم يحمله على التحلي باية صفة من صفات والده ، فلقد كان بخيلا، منغمسا فى الملذات ، مخلدا الى الدعة والكسل ، يستنزف أموال الرعية ليحيا هو مرخي العنان فى بحبوحة النعيم والترفه ؛ وهذا هو السر فى عجزه عن مقاومة صهره أحمد سيف الدولة المقتدر ثاني ملوك بني هـــود بسرقسطة حين اراد أن يوسع رقعة امارته على حساب دانية سنة 1076، فلقد تفرق عنه رعاياه وأسرعوا يسلمون المدينة للامير الظافر الذي ضم امارة دانية لمملكة بني هود بسرقسطة بعد أن خلع اقبال الدولة وساقـــه اسيرا الى سرقسطة حيث كانت وفاته سنة 474 هـ / 82 ـ 1081 م (10)

ويصف ابن سيده فى مقدمته للمحكم الامير اقبال الدولة بانه (مولاي نجيب النجباء وخير البنين الاكرم الاباء ، محي الادب ومقيـــم دولــــة لسان العرب ، فرع من أصل ، ونوع تشكل من جنس وفصل ، لا تنبت البقلة الا الحقلة (11)) .

---

(10) عن هذا الحادث انظر ليفي برفنصال ،
Les « Mémoires » de Abd Allah, dernier roi de Grenade
مجلة الاندلس العدد 4 (1936 ـ 1939) ، 42 ـ 44 ، وعن حكـم اقبال الدولـة ، انظر المصادر التي تحدثت عن والده ، ولبحث R. Chabas اهمية خاصة ، وعنوانه: (مجاهد ابن يوسف ، وعلي ابن مجاهد) ، اسهـم به فى تكريـم كوديرا ونشـر فى الكتاب الذي صدر بالمناسبة ص 434 ـ 411 ، كما ينبغي مراجعة (مجاهد العامري..) للسيدة كلاليارسرني .

(11) طبعة القاهرة ، جزء 1 ، ص 17 .

وفى ارجوزته السالفة الذكر لا نعدم تلميحات لفترة هامة جدا من حياته ، هي تلك الفترة التي امضاها فى بلاط دانية على عهد مجاهد وابنه وخلفه اقبال الدولة ، ففى حرف اللام ، مثلا ، نقرأ أربعة عشر بيتا ينتقد فيها بقساوة بالغة سلوك الملوك على العموم ثم يمدح سيرة علي بن الموفق قبل ان يعتلي عرش دانية :

لكـــن ولـــي امرنـــا علـــــي	فى كـــل مجـــد جـــده علـــي
وفـــق للعـــدل وللرشـــــاد	فهو فتى السؤدد ذي السداد(12)
مضمر الكتم ، اشـم المنكـــب	واضحة غرتـــه كالكوكـــب

وفى اربعة ابيات فقط من حرف الخاء ينوه بانشغال مجاهد بالعلم وما انجزه من تصانيف لديه ، وفى نفس الوقت يشير ، فى تناقض الى ما طرأ على حياته من تغير جذري فى كنف ابنه اقبال الدولة نتيجة لسعايات النماميـــن والحساد :

صبحت خير ملك مجاهـــــدا	وكان فى جمع العلـوم جاهـــدا
ولـم أزل بشغلـــه سميـــــرا	فما أفـــدن عنـــده قطميـــرا
لكنما سليله أبـــو الحســـــن	قد ظلت منه فى ذرى عيش حسن
ان لم يقيض لي هنـــاك حاســـد	اذ كل ذي صدر علي حاقد (13)

وفى فصل الزاي ابيات يمدح فيها ابن سيده من جديد اقبال الدولة ويصفه بالنبل والاخلاص فى رعاية العلماء والشعراء ، الذين (مالهم مـــن بعده من آوي) :

قد بار سوق الفهم الا عند مـــن	فاق الورى،نجل العلى،ابي الحسن
علـــي بن الملـــك الموفـــــق	لولاه سوق أدب لـــم ينفـــق

(12) مجلة المشرق العدد 36 ، ص 185 ـ 186 .
(13) مجلة المشرق العدد 36 ، ص ، 186 .

ياوي الى حضرته أهل السنـــن والحكمة الغراء والذهن الحسن
وحاملـــو لقـــــرءان والاداب في كنف منـــه وفي جنـــــاب
يسقيهـــم وابلـــه وطـلــــه وينشر الدهر عليهـــم ظلـــــه
يكرمهم بالقصـــد والالمـــــام فعل ابيه ، الملـــك الهمــــام
يوسعهم رفعا اذا ما أظمـــاوا ولا يزحيهـــم اذا ما أبطـــاوا
الا بمالـــوف مـــن الحبـــاء كذاك فعـــل الاب بالابنـــاء
مـــا لهـــم مـــن بعده آوي كل الورى عمرو وهم كالواو (14)

وبرغم هذا المديح ، فان ابن سيده ، فيما يبدو ، لم يلبث ان احس من الامير فتورا في المعاملة تكشف له عن عداء الامير له ، ففر بنفسه من القصر ومن امارة دانية ، والحق اننا نجهل كنه الظروف التي دفعت بابـن سيده الى اتخاذ هذا القرار الخطير ؛ وفقط في مقدمة المحكـــم يزاح ، برفق ، الستار الذي يخفي استياءه ازاء جو القصر المشحون بالقلق والكدر.

ويعد الحميدي ، من بين مترجمي ابن سيده ، أول من اشار الى هذه الحادثة ـ وعنه نقل مباشرة او بطريق غير مباشر ، ياقـــوت والضبـــي والقفطي والصفدي ـ ويفترض الحميدي أن نبوة حدثت له في أيام اقبال الدولة (خافه فيها فهرب الى بعض الاعمال المجاورة لاعماله) .

غير انه من المحتمل جدا الا يكون موقف اقبال الدولة من ابن سيده بما فيه من جفاء وازعاج ، صادرا عنه بكيفية شخصية وذاتية ؛ بل ان هذا الموقف جاء نتيجة لتلك المؤامرات التي كان يدبرهـــا في الخفـــاء بعض رجال البلاط ضد ابن سيده ، يحملهم على ذلك حسدهـــم على مكانتـــه المرموقة خلال حكم مجاهد ، وفي رأيي أن في تفسير ابن خاقان لهـــذه

(14) مجلـــة المشـــرق ، العـــدد 36 ، ص 187 ـ 186 .

الحادثة سدادا لا يطالعنا به مصدر آخر (15) : (ولما مات الموفـق رائش جناحه ومثبت غرره وأوضاحه خاف من ابنه اقبال الدولة وأطاف به مكروه

---

(15) يعد الاستاذ محمد رشاد الحمزاوي ، من بين الذين عنوا بالكتابة عن ابن سيده قديما وحديثا ، أول من وفق الى الكشف عن أسباب ودواعي النبوة التي حدثت بين الامير اقبال الدولة وابن سيده ، وقد دعم ذلك بجملة حجج ودلائل يمكن الاطمئنان اليها ما لم يظهر جديد يدحضها ويفندها ، وهو يرى أن النبوة حدثت بسببين ، أولهما يعود الى (مؤمرة دبرت ضد ابن سيده بايعاز من منافسيه ومنازعيه من العلماء بدانية وقد أصبحت حاضرة علم ومعرفة في أيام مجاهد وبعده ((انظر الذخيرة ق1 ج3 ورقة5 و ص8)) برأس الاولين ابن أرقم ويتزعم الآخرين ، حسبما يفهم من كلام الذخيرة أبو الحسن علي ابن سيده ، فلقد ذكر ابن أرقم في دفاعه عن نفسه وشكواه لابن صاحب الاحراس وفي فصل منها : وتفسير ما أجملته وتفصيل ما أبهمته أورده عليك محلول العقـدة منضو البردة ؟ وذلك أن اقبال الدولة أيده الله أمرني بانشاء رسالتين الى مصر فلما علت شرفاتهما وروضت عرصاتهما ورد عليهم منها المقيم المقعد وكاد يهلكهم الحسد (...) وجالوا جولان الذباب بين الازهار مرة يستفتون الفقهاء ومـرة يستشهـدون السفهاء ومرة يقولون هذا يسأل عنه ان كان يقال وربما كان له في مضمار اللغة مجال ويتشورون حديث النساء بعد البعول وهريف الاماء دون الكفيل (...) فاتفق رأيهم واستمر هديهم الى سؤال أبي الحسن ابن سيده فلم يفكر أبو الحسن في العواقب ولم ينظر نظر أهل التجارب فسلم لهم واغتر بمثل وشـي الحيات وانقـاد في زمـام الزخارف والترهـات)) .
ثم يردف الاستاذ الحمزاوي : (ولا شك ان مهاجمة وزيـر من وزراء اقبـال الدولـة المقربين وانتقاد الرسالتين الرسميتين الموجهتين الى المستنصـر بالله الفاطمـي ووزيره اليازوري ، المعبرتين عن رأي الامير ، يعدان داعيين هامين البا جماعـة ابن أرقم علي ابن سيده وأثارا غضب الامير على كاتبنا كما يشهد على ذلك ابن خاقان في مطمح الانفس (ص 60).((واطاف به مكروه بعض من كان حوله للطلب كحيات مساورة)) ويغلب على الظن أن غضب اقبال الدولة كان على قدر أهمية الرسالتين اذ يجب ان نذكر ان نذران علي بن مجاهد كان قد كتبهما حسبما جاء في نصهما ((الذخيرة 107 ص 204) سعيا للمحافظة على عادة قد سنها والده من قبله في ربط علاقات طيبة مع الفاطميين الذين كانوا على مقربة منه في جزيرة صقلية وفي افريقية (تونس) اللتين تولى امرهما الزيريون ، وكان مجاهد يكاتبهم أيضا بعد تحررهم من سلطة الفاطمييـن سعيـا في الاطمئنان على ملكه وتمنيا لحسن الجوار (الذخيرة ورقة 98 وص 186) ، ولا بدلنا أن نلاحظ أيضا أن الرسالتين قد كتبتا على لسان علي بن مجاهد اذ أن عبارتهما منسوبة اليه ، فالطعن فيهما طعن في راسلهما رغم أنه لم يحررهما ، فلعله اعتبر ذلك طعنا في سلطته وتعديا على مهابته فغاظه نقد شيخ أعمى ليس له شان بالسياسة) .
والسبب الثاني (مرتبط بالاول ولعله سابق له وهو يتعلق بقضية سياسيـة بحتـة تتلخص في النزاع الذي كان قائما بين اقبال الدولة وأخيه حسن للاستيلاء على الحكم بعد موت مجاهد) انظر تفصيل القول عن ذلك في بحث الاستاذ الحمزاوي ((تكملة في ترجمة ابن سيده)) ((بحوليات الجامعة التونسية)) العدد الخامس ــ سنة 1968 .
تـونـس — المترجم —

بعض من كان حوله للطلب كحيات مساوره ، ففر الي بعض الاعمال المجاورة وكتب اليه منها مستعطفا) (16) .

على أن ابن سيده بعد أن ظل فترة فى منفاه الاختياري ، ولعله اشتاق الى ما كان ينعم به من رفاهية واكرام فى بلاط دانية ، قرر ان يجرب حظه من جديد مع ولي نعمته القديم عله يعود فيشمله بعطفه ورضاه، ولكي يحقق ذلك كتب قصيدة استعطاف ، وهي تمثل مسلكا اذا كان بعامة يؤتي ثمراته لدى الناس دائما ، فلعله لم يستعمل بهذه الصورة من الوفرة كما هو الشأن أيام ملوك الطوائف سواء فى الاندلس أو المشرق ، والشاعر فى قصيدة الاستعطاف ــ كما نجد ابن سيده من خلال قصيدته هذه وغيره ــ يمدح أميره أو ولي نعمته ، بمختلف ألوان المدح ، مستخدما قوالب من الاستعارات فى تصوير صفات الامير أو ولي النعمة ، الجسمية والخصال الخلقية والفكرية حتى ولو لم يكن ، غالباً ، لهذه الصفات والخصال وجود فى مخيلة الشاعر كما هو واضح بلا شك فى القصيدة التي استعطف بها ابن سيده اقبال الدولة .

وينص المترجمون على ان هذه القصيدة كانت فى الاصل طويلة ؛ ولكنها لم تصلنا كاملة ، فالحميدي ، وهو أول من أشار اليها يورد منها ثلاثة عشر بيتا ، وكذلك يفعل الضبي ، ويجتزىء ياقوت من ذلك العدد بأحد عشر بيتا وابن خاقان بعشرة أبيات والصفدي بثلاثة أبيات ، أما القفطي فلا يورد منها بيتا واحدا ويكتفي بالاشارة اليها (17) .

ونظرا لاهمية هذه القصيدة فى حياة ابن سيده ، لانه بها استطاع ان يعود الى قصر دانية ويظفر من جديد بثقة أميرها اقبال الدولة ، نورد فيما يلي الابيات الثلاثة عشر وهي ما يعرف من القصيدة اليوم :

---

(16) مطمح الانفس ، ص 60 .

(17) انظر ايضا ، المقري ، ج 2 ، ص 258 حيث يورد البيتين الاولين من القصيدة ، أما محققا « المحكم » فلم يثبتا من القصيدة البيت العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وأدخلا بعض التغييرات على ما أثبتنا من أبيات ، (ج 1 ، ص 6 ــ 7) فى حين أوردت السيدة كلاليا سرني (مجاهد العامري ...) ص 270 ــ 271 الابيات الثلاثة عشرة وأشارت الى امكان استبدال كلمة باخرى فيها .

الا هل الى تقبيل راحتك اليمنى	سبيل فان الامن فى ذاك واليمنا
صخيت فهل فى برد ظلك نومـــة	لذي كبد حرى وذي مقلة وسنـــا
ونضو هموم طلحته طياتـــــه	فلا غاربا أبقين منه ولا متنـــــا
هجان ناى أهله عنه وشفـــــه	فراق فامسى لا يحس ولا يهنـــا
فيا ملك الاملاك اني محـــــوم	على الورد لا عنه أذاد ولا أدنـــى
تحيفني دهري واقبلت شاكيـــا	اليك أماذون لعبدك أم يثنـــــى
وان تتأكد فى دمي لك نيـــــة	بسفك فاني لا أحب له حقنـــــا
دم كونته مكرماتـــك والـــــذي	يكون لا عتب عليه أذا أفنـــــى
اذا ما غدا من حر سيفك بـــاردا	فقدما غدا من برد برك لي سخنا
وهل هي الا ساعة ثم بعدهـــــا	ستقرع ما عمرت من ندم سنـــا
ولله دمعي ما أفل استنانـــــه	اذا فى دمي امسى سنانك مستننا
وما لي من دهري حياة الذهـــا	فيعتدها نعمى علي ويمتنـــــا
اذا قتلة أرضتك منا فهاتهـــــا	حبيب الينا ما رضيت به عنا (18)

وفاة ابن سيـــــدة :

لسنا نعرف بالضبط تاريخ عودة ابن سيده الى دانية ، ومع اننـــا نرجح أن فراره من دانية ربما كان خلال سنة 1044 ، اي بعد تولية اقبال الدولة بمدة ليست طويلة ، الا اننا نجهل المدة التي قضاها ابن سيـــده بعيدا عن بلاط دانية ؛ غير أننا نعتقد برغم ذلك أن مدة نفيه لم تطـــل ، ولعلها لم تدم اكثر من سنتين أو نحوهما حسب ما يستشف مما يقولـــه مترجموه عن ذلك ، فاذا صح هذا استطعنا القول بأن ابن سيده قيض له

(18) الحميدي : جذوة المقتبس ، رقم 808 ، ص 293 ، والابيـــات من بحـــر الطويـــل وقافيـــة النـــون .

ان يعيش فى كنف، اقبال الدولة عشرين سنة أخرى ، أي بصورة تقريبية من سنة 1046 الى سنة وفاته 460 هـ / 68 ـ 1067 م (19) .

ومع ان ثمانية مصادر من المصادر الاحدى عشر التي نعتمد عليها ، نصت على سنة وفاة ابن سيده ، فانها اختلفت في تحديد هذه السنة ؛ وهكذا نجد الحميدي ـ وعنه ينقل ابن بشكوال والقفطي ـ يحـــدد تاريخ وفاة ابن سيده بسنة 460 هـ / 68 ـ 1067 م ، فى حين ينص صاعد الطليطلي ، وعليه يعتمد باقي المترجمين بما فيهم من لا يوافقه ؛ على أن وفاة ابن سيده كانت سنة 458 هـ / 66 ـ 1065 م ، ويضيف بأن ابن سيده كان حينئذ قد بلغ ستين سنة أو نحوها ، وشاركه فى هذا أيضـــا ياقوت وابن خلكان والصفدي والسيوطي لكن ابن خلكان ينفرد بتسجيل اليوم والساعة بالتقريب والظروف التي لفظ فيها ابن سيـــده نفســه الاخيرة (20) : (وتوفي بحضرة دانية عشية يوم الاحد لاربع بقين من شهر ربع الآخر ، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره ستون سنة او نحوها، ورأيت على ظهر مجلد من المحكم بخط بعض فضلاء الاندلس أن ابن سيده المذكور كان يوم الجمعةقبل صلاة الصبح صحيحا سويا الى وقت صلاة المغرب ، فدخل المتوضأ ، فأخرج منه وقد سقط لسانه وانقطع كلامه ،

---

(19) ينقل القفطي ، كما اشرنا ، عن الحميدي ، وينص على ان ابن سيده توفى (قريبا من سنة ستين وأربعمائة) ولكنه يضيف فى آخر ترجمته لابن سيده حين يورد نصا لابن بشكوال « فيقول : (وتوفي ـ ابن سيده ـ سنة ثمان وأربعين وأربعمائة (57 ـ 1056) وقال القاضي صاعد : توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة « وقد بلغ ستين سنـــة أو نحوها) ، والراجح أن القفطي أو ناسخ كتابه أخطأ فى نقل سنة وفاة ابن سيدة كما وردت عند الحميدي ، ونقلها عنه ابن بشكوال والقفطي نفسه .

(20) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 « ص 431 ، وج 2 ، ص 273 من ترجمةDe Slane ويوجد نفس هذا النص فى الورقة الاولى من مخطوط « المحكــم » المحفــوظ بدار الكتب المصرية ـ لسنة 51 ـ ، وقد ضاعت الكلمات الاولى منه بخروم فى اعلـــى الورقة المذكورة ، هذا ونلاحظ أن ابن خلكان بدوره يورد الرأي القائـل بوفـــاة ابن سيده سنة 448 هـ / 57 ـ 1056 م ؛ ولعل سرد ذلك الى تأثيــر رأي أو (خطـــا) القفطي كما اشرنا فى التعليق السابق .

فبقي على تلك الحال الى العصر من يوم الاحد المذكور ، ثم توفي ، رحمه الله تعالى ، وقيل : سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، والاول أصح وأشهر(21)

ويقول أبو الفدا : (وفيها (سنة 458 هـ / 1066 م) توفي الحافظ ابو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده المرسي ، وكان اماما في اللغة ، صنف فيها المحكم ، وهو كتاب مشهور ، وله غيره عدة مصنفات ، وكان ضريرا ، وتوفي بدانية من شرق الاندلس وعمره نحو ستين سنة) (22)

على تلك الصورة مضت حياة اللغوي المرسي في بلاط دانية ، وبرغم ما كان يعكر صفوها ، أحيانا ، وعلى نحو ظاهر ، من ضروب الحسد وألوان المكيدة ، مما تعج به أجواء القصور ، فان صاحبها لم ينتخل قط عن الاشتغال بالبحث والنقد والتأليف ، وهذا هو ما تعكسه لنا عبارة ابن خاقان : ((فآثر تجرده للعلم وفراغه (23) وتفرد بتلك الاراغة ، ولا سيما كتابه المسمى بالمحكم فانه أبدع كتاب في اللغة وأحكم)) .

تطوان — حسن الوراكلي

---

(21) اورد القفطي نفس الخبر على صورة موجزة ، ولعله نقله عن ابن خلكان ، انظر : نكت الهميان ص 205 .

(22) تاريخ أبي الفداء ، الطبعة العربية واللاتينية لـ J.G. Chr. Adler ج 3 (هافنيي 1791) ، ص 209 .

(23) مطمح الانفس ، ص 60 ، وللاطلاع على تعليق مختصر حول حياة ومؤلفات ابن سيده، انظر ، بروكلمان ، ج 1 ، ص 376 ، والملحق ج 1 ، ص 542 و ج 3 ص 1216 ؛ وانظر أيضا ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج 2 ، ص 444 (مادة ابن سيده) ويمكن الرجوع كذلك الى كتب اخرى ترجم اصحابها لابن سيده في ايجاز ، ولم نعتمدها في هذه الدراسة لخلوها من جديد نفيد منه ، ومنها على سبيل المثال : مسالك الابصار للعمري ، ولسان الميزان لابن حجر ، والديباج لابن فرحون ومرآة الجنان للتميمي الخ؛ وفي طبعة أبي الفضل ابراهيم لانباه الرواة للقفطي ج 2 (القاهرة 1952) ، ص 225 ثبت بالهامش لكل المصادر التي ترجمت لابن سيده .

أَنْطُونْيُو مَاتشَادُو

(1939/1875)

شاعر وكاتب مسرحى ، ولد باشبيلية ، وتوفى فى مكـان مجهـول بفرنسا . دكتور فى الفلسفة والآداب ، عضو المجمع الملكى للغة . من اكبر شعراء اسبانيا ، امتـاز شعره بالطابـع الاندلسـى الذى جمـع بين الرومنتـيقية ، والبساطة ، والوحشة ، والحرارة الحزينة ، مع التغنى بالطبيعة ، والجمال ، والحب .

اثـر فى الشعر الاسبانى تاثيـرا احدث مدرسة . صدرت عنه كتب ودراسات ، وترجـم انتاجه الى عدة لغات . وبمناسبة مرور مائة سنـة على مولده ، اقامت لـه اكاديمية اللغة بمدريد ، احتفـالا بتاريـخ 16 مـارس المـاضى .

وفيما يلـى ترجمة لمقتطفات من حكمه الشعرية مع مطلـع قصيـدة طويلـة ذائعة الصيـت فى اسبانيا :

(1)

العين التى ترى ،
ليست عينا لأنك تراها ،
هى عين لأنها تراك .

(2)

بين الحياة والحلم ،
هناك شىء ثالث ،
فكر فيه

(3)

جميل بنا أن نعرف أن
الاقداح تصلح للشرب ؛
وليس من الجميل بنا أن نجهل
الظمأ لأى شىء يصلح

(4)

وراء الحياة والحلم
يوجد ما هو أهم :
اليقظة .

(5)

فى وحدتى رأيت أشياء واضحة
وليست حقيقية .

(6)

نصيحتى
ألا تعمل بنصيحتى .

صورة

طفولتى مجموعة ذكريات بهو فى اشبيلية ،
وحقل بهيج نضير بأشجار الليمون .
شبابى عشرون سنة فى قشتالة .
تاريخى بعض أشياء لا أريد أن اذكرها .

ترجمة المناهل

ذيل وتعليق

حول

"قضية" المعتمد بن عباد

القسم الثالث

عبد الرحمن الفاسي

لقد قيل حينما دهمت المنية فرديناند (458 هـ 27 / 1065/12) :
لقد قضى غير مأسوف عليه ، وان ملوك الجزيرة قد تنفسوا الصعداء .

والواقع انه ما كان لهم متنفس طبيعي فى غير هواء العدوة ، يزجيه لساحتهم اولئك الملثمون الصحراويون الأشداء ، فالثابت والمفهوم أن اسرة فرديناند ما كانت لتعدم بين بنيها من ينتصب لزعامة حركة الاسترداد ، والسير بها قدما الى الأمام ، فما كان شعار هذه الحركة حبرا على ورق ، أو مجرد تعبير عن اتجاه فى السياسة مما تختلف فيه المبادىء والأفكار ، وانما قام على عصبية لئيمة فى الجنس والدين ، وعلى اسطورة القديس جيمس ، وهو المسمى عندهم « سنتياجودي كومبوستيلا » ، وكانوا يومنون به هاديا وحاميا ومثيبا ، ولقد اقسم اكثر

من ملك منهم وقائد ، انهم راوا هذا القديس راي العين قبل المعركة ، او تحت نقع الخيل ، وهو يمتطي جوادا أبيض ويلوح بسيف براق ، فكان من تم تهورهم الجامح فى محاربة الاسلام والمسلمين ، وتوحشهم فى اهراق الدماء وتقتيل الأسارى ، وبقر بطون الصبيان والحبالى ، وتحريق الحرث والنسل فى كل حرب او غارة .

وهكذا فبعزم من احتوى واحتضن ، وبحق من ملك ووضع اليد ، قسمت المناطق الاسلامية فى الجزيرة متاعا فى تركة الهالك فرديناند ، ووزعت على الصغير والكبير كما توزع التركات بالقسمة والمخارجة وهاك وهات ، وذلك منتهى ما يصل اليه الضعف والاستضعاف ، فكان من حظ سانشو (1) ــ الوارث الكبير ــ قشتالة مع الاتارة المفروضة على مملكة سرقسطة ، وكانت ((ليون)) و ((اشتوريش)) وجزية طليطلة من قسمة الفونسو الولد الأوسط ، وخرج أصغرهم غرسيا ((بجليقة)) والبرتغال موحدتين ، وبالجزية المفروضة على اشبيلية وبطليوس مقرونتين .

وهذا التصرف الواثق العازم يوحي مثلما اوحى ولا ريب قبلنا للمعتضد عباد ، الذي اكتوى بنار هذه العزمات ، ان الحالة بعد فرديناند ، هي نفس الحالة على عهده ، ولا مبدل لسيد او مسود ، ولا مفر من قضاء مكتوب .

وبذلك لم يسع المعتضد الا ان يوالى دفع الجزية للأمير الصغير مثلما دفعها بالامس للهالك الكبير .

واذا كانت المناورة او المداورة فى الاداء قد ندت من بعض اولئك المسلمين الأقيال فى بعض الفترات والظروف المواتيات ، ولاسيما اثر وفاة فرديناند بالذات ، فان سانشو عندما خلف اباه احتوى على التركة بمواردها وغللها ، وجعل همه القيام على ساق ، لئلا يفلت من

(1) اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، ص 380 ط الرباط ــ دول الطوائف للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص : 375 .

يده دانق ، او ينزع الى التواني جابي اتاوة ، او يحاول ان يتخلص ممـــا في عنقه وعهده دافع جزيــة .

وحتى عندما ذهب الناس فــي اجراء عادتهم من المال اعلن للملأ : (2) (انما كان ذلك المال لفرذلند وهــو ثابت ابدا ، حسناته لا تزول ، وانمـــا نصالحكم على ما يختص بي ، فاضعف له العدد) .

وكان مفهوما ان مسيرةالدنيا في نفس دروب الأمس ، واعادة التاريخ نفسه ان في الجنوب او في الشمال ، بمثل الأحداث ونفس التصرفات ... كل هذا كان خليقا ان يعيد مظاهر السيادة الى نصابها ويحيل ذلــك اللدد الى تطارح ، وتلك المناورة الى الاستخذاء والاستعطاف .

وحقا ، فقــد كانــت فترة ما بعد وفاة فرديناند اشبه بفترة ما بعـــد وفاة والده سانشو الكبير ، وصورة مقدودة عليها ، فحل الخلاف بيـــن الاخوة ، واستحرت بينهم الحروب الاهلية ، وهم اكبرهم سانشو بمملكة ((نبرة)) و ((ارجونة)) ، ولكنه ارتد مهزوما امام عزمة الدفاع ، فانبـــرى ليوحد تحت تاجه مملكتي اخويه الوارثين المذكورين ، ((ليون ، وجليقية)) ثم الانتصاب خلفا لأبيه في تزعم حركة الاسترداد .

ونعرف من سياق آخر في ذيل سابق ان الحرب الداخلية بين الاخــوة قد ادت الى التجاء الفونسو (3) عند صاحب طليطلة ، والى احتماء اخيه الأصغر غارسيا بمملكة اشبيليــة .

وفي اثناء فترة الصراع بين هؤلاء الاخوة التي امتدت من سنة 1067 م الى سنة 1072 م ، عاش الملوك المسلمون الذين جددت في اعناقهم فروض الجزية على الوجه المذكور ، هذه الفترة على طولها وكانهــا لحظــات تعليــق الذبحة بالشفرة التي لا تريح الذبيحة ، فكانوا يحاولــون الوقــوف علـــى

(2) اعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ، ص : 279 ط الرباط .
(3) المناهل العدد : 1 ، ص : 231 ـ اعمال الاعلام جزء الاندلس ص : 381 ط الرباط .

الركب ، ولكنهم انما كانوا يمثلون رقصة النبيح الأخيرة بعب الأنفاس تشبثا بالحياة ، ولا يستطيعون فى الواقع تنفس الصعداء .

وبدا كبيرهم عباد فى اخريات ايامه ، وتحت تاثير عقدة الضعف وكأنه يحاول ان يمارى وهنه ، ويمارس الحيلة النفسية اللاشعورية ليحتفظ بثقة نفسه ويختبر قواه ، وليلقي فى روع الكبار والصغار من الملوك المنافسين الشامتين ، ان ما حدث انما هو حس خفيف ، ليس من شانه ان يغير الأوضاع ، وما الالتزام بدفع الجزية غير تقية ، ودريئة لصد العادية ، وما زال عباد الأمس هو هو بحوله وسطوته ذلك (الذي صاد الطير تحت اجنحة العقبان ، واخذ الفريسة من فم الثعبان) وهو الذي (يختطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر) حسبما يقول الفتح بن خاقان فى القلائد والمطمح ، وهكذا انصرف بوحى عقدته يتابع مخطط الاسرة العبادية فى القضاء على الامارات البربرية فى الجهات الجنوبية ، وكان قد قضى من قبل بالغلبة والقهر على معظمهم في الجهات الغربية ، ففي عام 458 وتحت تاثير الاحساس العابر او الحالم بادبار ذلك الشبح المريع الذي قوض القيم ، وغير دنيا الجزيرة من حال الى حال ، انبرى يقتص لنكبته الماحقة فى اشخاص اولئك الزعماء البرابرة الصغار من بيوت البرازلة (4) بالذات ، ومن آل ابي نور ابن قرة اصحاب ((تاكرنا)) ، وبني عبدون بن خزرون اصحاب كورة ((شذونة)) والدمريين اصحاب كورة ((موررور)) ، وجعل همه الأول تجاه البرازلة اصحاب ((قرمونة)) و ((استجة)) و ((حصن المدور)) ، وكانت بين الطرفين ثارات فى حروب سالفات ، وشاخت بينهم الحرب ، وضاقت احوال اميرهم وآخر رؤسائهم العزيز بن اسحاق ، فحاول ان يكيد المعتضد بعرض تقدم به الى المامون ابن ذي النون صاحب طليطلة ، لما يعلمه من ان المنافسة بينهما فى الزعامة سائرة نحو الريعان ، وذلك انه عمد فاقترح على ابن ذي النون ان

---

(4) البيان المغرب ج 3 ، ص : 267 وما بعدها ــ ذيل البيان المغرب ص : 294 وما بعدها ــ اعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ، ص 271 وما بعدها .

يتنازل له عن (5) قرمونة لقربها من املاكه ، على ان يعطيه عوضا عنها فـــي بلاده الجوفية ، حتى يكون بنجوة من الاعتداءات العبادية ، وتـم التنازل ، واستقـر الأمير البرزالي فى المدور ينتظر تمام الصفقة ، واذا بالمعتضـد ينهد للعمـل فى حينه ولكنه بحكم حالته النفسية وطبيعـة النازلة ، يعرض سيف بطشه ، ويجنح الى اختبار سلاح حيلته ، وختله ، فيداخل المامون ، ويطعمه في المساعدة على تملك قرطبة ، وكان يعلم أربــه فيهـا ، ومنتهـى امانيه فـى ضمهـا .

ونجعت الحيلة ، وتنازل المامون للمعتضد عن قرمونة ، وظل صاحبها العزيز البرزالي يعور فى ((المدور)) الى ان تلاشى ، فكان آخر العهد بـه ، وبمملكـة هؤلاء البرازلة .

وتجرا للثانية ، ففي نفس السنة (458) انطلق فى محاولاتـه يختبـر قوته المستيقظة الثانية ، فارسل على ((مورور)) بلاد الدمريين حملة اثر حملة ، حتى اضطر صاحبها عماد الدولة ابن نوح الدمري أن يخلـع (6) نفسه ، ويجلو عن بلاده للاقامة بمنفاه النهائي باشبيلية .

وبمثل السلاح ، وعلى نفس الصورة ، تقريبا ، وفى نفس السنـة (7) كانت نهاية آخر بني ((خزرون)) الامير محمد بـن خـزرون ، صاحـب ((شذونة)) و ((اركش)) و ((شريش)) .

اما بالنسبة لنهاية بني قرة فقد كان ابو نصر صاحب ((تاكرنا)) زعيمهم يومئذ ، وعمد المعتضد فداخل بعض الخونة بمدينـة ((رنـدة)) قصبـة الاقليم ، واشترى ذممهم بالمال الى ان ثاروا على ابي نصر (8) عام 459 ، فلم يسعه امام هيعة المناداة ببني عبـاد الا ان يلقـي بنفسه مـن شاهـق منتحـرا .

---

(5) البيان المغرب الجزء الثالث ص 283 ، 269 – ذيل البيان المغرب ، ص 312 – ابن خلدون ، ج 4 ، ص 57 – اعمال الاعلام الجزء الثالث الخاص بالاندلس ص 273 .
(6) ذيل البيان المغرب ج 3 ، ص 296 .
(7) انظر ص 294 من ذيل البيان المغرب ج 3 ، حيث يجعل الوقيعة بآخر بنـي خـزرون عام 461 ، وهذا الاختلاف لا يؤثر فيما نحن بصدده .
(8) ابن خلدون ج 4 ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني .

والملاحظ في هذه التحركات ولا سيما بالنسبة للامارات الثلاث الاخيرة انها كانت اشبه بحركة من يستنسر على البغات ، فقد كانت امارات صغيرة ، ولا قبل لها بمثل هذه المصاولات ، وكان امراؤها في بداية تسلمهم زمام الأمر في عواصمهم المذكورة ، وهم بالضبط خلف رؤسائها الذين لقوا مصرعهم قبل سنوات معدودة مختنقين في الحمام الذي اطبقه عليهم عباد ، وهم ضيوفه في حفلة (9) الاعذار ، فالاجهاز عليهم بهذه السرعة وبمثل هذا الاستغلاظ انما هو مظهر لقلقه المتزايد الذي لمحت اليه ، او هو نزوع الى التسلية حسبما توحي بذلك قطعته الشعرية التي قالها في رندة ، وكانه طفل يتغنى بمسرة صبيانية ، وكانما شاءت القدرة الالاهية لهذه الامارات الصغيرة التي ظلت = فيما يبدو = بنجوة من كلفة الجزية النصرانية وصغارها ، أن تاخذ حظها كاملا بواسطة عقدة عباد ، فكانت فيه نهاية امرها .

وليس بالمفاجيء ـ والأمر على ما سمعت ـ ان نرى المعتضد قد عنى في شعره بالتمليح الى عذره في محاربة هذه الفئات ، فيرفع عقيرته في بعض مقطعاته الشعرية بما ينظر اليه من اجر عند الله في محاربة الضلالة (10) وهو في هذا يشير الى بدعة الخارجية الاباضية التي كانت فاشية في قبيل الدمريين والبرازلة .

ومن شعره في ذلك :

عنادي اجرما اوليت فيهم +++ من الفتاكات بكر او عوان

وحسبي في سبيل الله موت +++ يكون ثوابه دار الجنان

وتسلمنا خبطات المعتضد الهوج الى خاتمة المطاف التي انبهرت عندها

---

(9) البيان المغرب لابن عذارى ، الجزء الثالث صحيفة 267 ـ 270 ، 271 ـ 295 ـ ابن خلدون الجزء الرابع ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني ـ أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، الصحيفة 274 ط الرباط .

(10) الحلة السيراء ج 2 ، ص 49 ـ أعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ص 272 ط الرباط

الأنفاس ، وذلك حين استشرف منتفضا انتفاضته الاخيرة نحو (11) مالقة وهي يومئذ على ملك باديس كبير البرابرة،وصاحب (12) ثارات تلك الامارات الصغيرة ، فاستغل عباد فرصة تعصب عرب مالقة على باديس البربري وتشيعهم لعباد العربي ، وانتفخ يحكي صولة أسد الامس ، حتى لكان الشاعر كان ينظر اليه حين قال :

مما يزهدني في ارض أندلس +++ سماع معتضد فيها ومعتمد

القاب مملكة في غير موضعها +++ كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وصدق الشاعر ولكن الأسد استنهر ، وأرسل كتائبه معصبة بابنه أبي القاسم (المعتمد) ، وهبت له رياح فتحها فى غيبة باديس صاحبها ، غير أن حصنها استعصى ، لاستماتة حماته السود المغاربة ، ولتهاون المعتمد كما - يقال - فى الصمود والمنازلة ، فكانت فرصة لباديس الذي خف بتسيير النجدة ، واستطاع ان يشتت الغزاة ، ويلحق بجيش عباد هزيمة نكراء .

فرمى بها طعنة نجلاء اتت على البقية الباقية فى نفسية عباد ، وهي قصة الرائية الشهيرة التي وجه بها المعتمد معتذرا الى والده من ((رندة)) ، وقد كان أوى اليها فى انتظار حلول الصفح ، وذهاب آثار الموجدة ، وفى مطلعها يقول :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ++ ماذا يعيد عليك البث والحذر

وحاول أن يدارى فشله بمكسب الاستيلاء على قرطبة ، التي تعثرت المحاولات العبادية فى الانتزاء عليها غيرما مرة ، وبدا له سهم الحيلة فيها نافذا ، وتاه وهو يستعرض فى مرآى ذاكرته ، كيف واتاه التوفيق فى

---

(11) البيان المغرب الجزء الثالث ، ص 273 - قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 20 ط باريس (ترجمة المعتمد) .

(12) ابن خلدون المجلد الرابع ص 339 ، ط دار الكتاب اللبناني .

اشتراع شبكة حيلته (13) ، منذ قعدت الزمانة والمرض بأبي الوليد ابـــن جهور ، وهالت شيخوخته تلك الفاشيــات التي المــت بالجزيــرة ، فوكل أمر (14) المملكة الى ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، وكان التدبير الفعلــي مــن قبــل لوزيـــر الجهاورة ابن السقاء ، الــذي كــان مدبــر شؤونها ، والضام لاطراف ملكها ، ولكن عبد الملك نــزع الــى الاستبداد ، والضرب علــى يــد الوزيــر صاحــب التدبيــر ، (فـدس المعتضــد الى الوزير ابن السقاء من أغراه بحب الملك ، وأغرى فى نفس الوقت أميــره عبد الملك بعملية الفتك) ونجعت الحيلة وقتل ابن السقـــاء ، وانصــرف (15) عبد الملك الى الطغيان والفسوق والعسف فى الرعية والتكــره الــى النـــاس ، كمـــا عمـــد الـــى تنحيـــة آخيـــه وزاد فاستنـــام غفلـــة منـــه الـــى المعتضـــد والـــى المامـــون ابـــن ذي النـــون ، وكل منهما جعل قرطبة مهوى طموحه وقبلة مداخلاتــه ، وبذلــك جهزهـــا عبد الملك وعرضها فى أحسن حلة وأبهى جلوة ، الــى خطابهـــا الأشـــداء ، وعندها ، انهمك ابن ذي النون فى شراء الضمائر والمداخلة بالأموال ، وانهمك المعتضد فى اصطناع الرجال ، ومداخلـــة العناصر العربيـــة والقـــادة والأعيان ، وتداعت خواطر المعتضد عباد فتذكـر أيضا وعده لابن ذي النون بالمساعدة على مرامه فى قرطبة حسبما قدمناه فتداعت عزمتــه ، والفــى نفسه أمام سباق،انبهرت له أنفاسه،وألح عليه الشعور بالضعف،وهو يرى ابن ذي النون يقوى فيه الطموح المشبوب ، والبرابرة الفرماء شيعة الامــارات الصغيرة المنهارة ، يستعدون للتكتل والمواجهة ، فتسعـــرت هواجســـه ، وأخذت فاجعة ولده أبي القاسم (المعتمد) فى مالقه تنكأ جــراح مصابـــه القديم بولده اسماعيل الذي ختم انفاسه بيده،فأخذ ينهار،وهده ضغط دمه الفوار ، ءاناء الليل وأطراف النهار . وانتابته (16) سورة التطير مـــن كـــل سانح وبارح ، ومن كل ما يتغنى به تسرية عنه فى المجالس ، فأفاء الى المنجمين والناظرين فى الجفريات والى قراء الطوالع لعله يظفر باطلالة على ايامه القادمــــات .

---

(13) البيـــان المغرب ج 3 ص 256 .

(14) الذخيرة لابن بسام قسم أول ، مجلد 2 ص 121 ـ البيان المغرب ج 3 ص 256 .

(15) أعمال الاعلام الجزء الخاص بالاندلس ص 173 وما بعدها .

(16) الحلـــة السيـــراء ج 2 ص 53ـ 54 .

وفي بهرة هواجسه الضارية أصيب بابنته الطاهرة ، وكانت في سن الأزاهير ، مستأثرة بذلك الوشل الضعيف من عواطفه وانسانيته ، وما احسب أن أسد الجزيرة قد اظهر الجزع بقدر ما بدا مفجوعا كما يقصون ، فلم يسعه الا أن يكضم انفاسه حتى لا تشي بما يضطرم في نفسه ويلتهب في خاطره التهاب مشروع السيادة على الجزيرة ، ويتبخر في ناظره تبخر اسطورة هشام ، وعهده له الذى أصبح في خبر كان ، ودمعت عيناه لدخان مشاريعه الملتهبات (وأثقل راسه) كما يقول ابن الابار في الحلة السيراء (زكام حاد) وتحشرجت انفاسه المكظومة بالرغم عنه ، واخيرا أسلمها للهمود ، وقضى لليلة واحدة من فجيعته في البنية التي كانت له آخر سلوة من الحياة .

تلك مظاهر الضعف النفسي وآثارها في جسم المعتضد عباد وفي سيرته .

وبادبار هذا الرجل سنة احدى وستين واربعمائة ، يمكن القول باننا استدبرنا عهدا كان لحكامه ــ بالرغم من سيرهم التي أرسل عليها الامام ابن حزم لعنته ــ نفوس حية استشعرت خزى الدنية في استعلاء النصارى ، وآذاها في اجسامها وفي نفوسها صغار الجزية على نحو ما عرضناه واستشعرناه فيما قصصنا .

وأصبح من الطبيعي بحكم سير الزمان على وفق ما كان ، ان نستقبل بعد وفاة رجل ذلك العهد وزعيمه جيلا جديدا من الرؤساء ، ومن مواطنيهم الذين نشأوا وتربوا تحت ذلك الاستعلاء ، وفي حمئة تلك الدنية ، وتاصلت في نفوسهم السيادة الأجنبية ، ولابستها بالسماع في عهود الطفولة ، وبالمعاناة والممارسة والاحتمال في خضم الحياة ، وذلك كان حال المعتمد في الطفولة ثم في الولاية او القيادة ، حتى اذا القت اليه المملكة زمامها بين زملاء ورعايا من نفس الطينة بالتربية والنشأة والمعاناة ، لم يكن له ولا لهم عاصم من سورة هذا النفوذ النصراني المطبق المستحكم ، غير عاصم الدين ، ولكن هذا كان عندهم في الدرك من الضعف واللين ، بشهادة غيرما واحد من اعلامهم النابهين ، وما زال يرن في آذاننا

صدى كلمات اللعنة التي ارسلها الامام ابن حزم على رؤساء عصره ، وهم سلف المعتمد وقدوة رؤساء زمانه ، ومواطني جيله ، وملئها كلمة شيخ المؤرخين ابن حيان وقد زفر بها آهة طويلة النفس حينما زلزلت ارض الأندلس ، وطارت افئدة اهلها بهول موقعة ((بربشتر)) وبما نزل عندها بالمسلمين من نكبات ، وفى فصل منها يقول عن الامراء بعدما وصفهم بالقاسطين : (ولقد (17) طم العجب لهؤلاء الأمراء ، ان لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء فى ((بربشتر)) الا الفزع الى حفر الخنادق وتعلية الأسوار ، وسد الأركان ، وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم عن السواة من القائهم يومئذ بايديهم اليهم) .

ولقد جاءت ـ وايم الله ـ كلمة ابن حيان حين عبر بالقائهم ايديهم فىايدي اعدائهم معبرة أصح تعبير بهذه الكناية عما انبثق فى نفوس قوم هذا الجيل من استعداد لمسايرة الهيمنة النصرانية التي غزت قابلياتهم ، فكانوا لها خانعين شاعرين وغير شاعرين ، وذلك نحو مما نراه من أثر الغزو الفكري عند ابناء بعض الأقطار التي احتواها الاستعمار فكانوا معه ظالمين .

ويسير علينا أن نستجلى هذا بمسايرته مع جرية بعض الأحداث على هامش سيرة الفونسو والمعتمد بنعباد : وهما زعيما قومهما فى هذا العهد ، وذلك نفس الصنيع الذى جريت عليه فى العهد السابق بالنسبة

(17) البيان المغرب ج 3 ، ص 254 .

للمعتضد وفرديناند (18) .

(18) لم التفت هناك الى نشاط الامارات النصرانية الصغيرة (برشلونة ـ نبرة ـ ارجونة) في الضغط على المسلمين ، ولا الى مكاسبها في ترابهم على عهد فرديناند او قبلـــه مما سجله التاريخ من أوليات الاستردادات النصرانية ، كاحتلال سانشـــو المعروف بالعظيم لحصن « وخشة » ، وحصن « شيرون » ، وكتسلم الكونـــت رامـــون أميـــر برشلونة حصونا ومعاقل من يد المظفر يحيى ابن المقتدر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة وكا ستيلاء « غارسيا » أمير « نبرة » وشقيق فردیناند على مدينة «قلهرة» من مملكة سرقسطة صدر عام 437 الى غيرها من المكاسب الترابية التي صارت الى يد العدو في وقت مبكر لا يتصل بالظروف التـــي تعتبـــر خلفيـــة متصلـــة مباشـــرة بالظروف التي نحن فيها ، هذا بالاضافة الى ما لاحظته فيها من انها مما يعد أرباحا شخصية انجرت اليهم عرضا مع تطور الاحداث ، بينما كانت مكاســـب فرديناند في التراب الاسلامي محسوبة لصالح حركة الاسترداد القومية الدينية ، وحصل عليها طبق مخططه المرحلي الذي استجلى القارىء في الذيل السابق اتجاهه وطبيعتـــه وخطـــوطـــه .

وهكذا فالصنيع الآن مركز على ما يخص الكبيرين أيضا المعتمد والفونســـو ، ولا نلم ببعض الاسماء كالفارس « رودريجوديات » (السيد الكمبيطور) الا عندما يتصل به ما نسوقه من احداث ، وهي الاحداث التي تواكب مخطط « فرديناند » ومعهـــا نستقرىء مظاهر مخلفات الضعف النفسي في سير وأخلاق الملوك ورعاياهم لنصل الى العوامل النفسية التي كانت تعتمل في الظروف المحيطة بقضية المعتمد بن عباد ، وتعتبر خلفيات اساسية لفهم الدواعي التي أدت بكل من الملوك والرعايـــا للانسيـــاق نحو الخطيئة المشتركة في الحاقة التي نزلت بالجزيرة ، وأزعجت أمير المسلمين لعملية الانقـــاذ .

وبذلك سيلاحظ القارىء ان هذا البحث سيتابع الان جرية تلك الاحداث المعينة على هامش سيرة الفونسو السادس والمعتمد بن عباد ، مسايرا مسالك مخطط والده « فرديناند » لتطويق التراب الاسلامي حتى نصل مع الولد والخلف الى نهاية الطوق النصراني ، مثلما صاحبنا والده في بدايته ، وهذا هو الاصل في أنني لم أعرج هنا أيضا على النشاط الجانبي في هذا العهد كنشاط « ريموند » الكبير (الكونت برنجار) صاحب « برشلونة » و « قطلونية » الذي قاتل المسلمين بحماس شديد ، وانتزع منهم أراضي بالضفةاليمنى بنهر « لوبريجات » ، وفرض على بعض رؤسائهم الجزية ، كما لم أكن في حاجة للتعرض لا الى « سانشـــو » الرابـــع ملك « نبـــرة » ، ولا الى سانشو الاول ملك « ارجونة » لان نشاط هؤلاء جميعـــا في الضغـــط على الولايـــات الاسلامية في هذه المرحلة هو أيضا اما محدود ، أو غير حاسم ، وهو على العموم من جنس الذي قبله من حيث انه لم يكن خاضعا لمخطط أو نظام ، ولو أنه انطلق عن مبدأ وعاطفة ، ثم ان حركات هؤلاء الامراء الصغار قد انطـــوت كلهـــا في مخطـــط زعامة حركة الاسترداد ، حيث نجد عمل « فرديناند » وعمل ولده الفونسو عند نهاية المطاف بالاستيلاء على طليطلة ، ومحاصرة « سرقسطة » ، يمثلان على وجه الخريطة الخطوط الرئيسية لعملية التطويق الكاملة التي مثلت الخطر النصراني ، في صورته التامة ووضعيته الكاملة ، وأعني بهذا أنني استعرض بعض الاحداث بعينها لغـــرض استجلاء الغايتين معا ، المشار اليهما ، لا الى قص الرواية التاريخية باكملها كما لا يخفـــى .

ويعترضنا ابو القاسم محمد بن عباد خلفا لوالده بلقب الظافر ، ثم المعتمد على الله ، والقوة النصرانية يومئذ فى حروبها الداخلية التي استحرت بين الاخوة اولاد فرديناند : سانشو ، والفونسو ، وغارسيا ، فاتيح له ان يتنفس حقا عند بداية ملكه فى جو من حرية ، وان ينزع بحركاته الى أصالته العبادية ، فابتدا من حيث انتهى والده فى مشروع قرطبة ليقطف ثمار حيلته التى ذهبت بابن السقاء ، وزيرها الضابط لشؤونها ، الذاب بتدبيره عن حوزتها ، وغدا زمامها بعد هلاكه معقودا بالاستحواذ على ضمائر رجالها ومداخلة واليها ، وبسرية فرسان ترسل فى ساعة من نهار عليها .

ولكن المامون ابن ذي النون كان لايزال منتصبا فى الحلبة على ساق ، وقد طال نفسه واستطال بادبار عباد ، الذي كان ينظر الى الزعامة الأندلسية بعين لا تنام .

فالساحة للمامون وحده كما يتخيل الآن ، فمملكة بطليوس منصرفة الى الحرب القائمة بين الاخوين يحيى وعمر ابنى المظفر الذي توفي فى نفس سنة وفاة المعتضد عباد ، وكانما كان معه على ميعاد .

وسرقسطة فى الطرف الآخر هى هي ، ما زالت كما كانت جزيرة مكتنفة بالامارات النصرانية ، فهي معهم فى حرب لا تدعها لساعة راحة ، او لحظة هناءة ، فاين هي من التفكير فى سيادة او زعامة .

فما لها غير ابن ذي النون ، وقد عرفنا انه امتلك بالامس بلنسية (راجع الذيل الثاني فى (المناهل) العدد : 2 ، ص : 344) ثم انه تخلص بعد موت فرديناند من اصر الجزية القشتالية ، وسيظل على موفور الاباء ، وذلك ما يضمن له الشفوف فى اقطار الجزيرة ويظفره بالاعتبار ، ولن يتوج هذه المؤهلات غير الطلوع فى فلك قرطبة ، وان انفة اهلها من طموس رسم الخلافة واستمساكهم بدعوة الخلفاء ، لمن شانه ان يجعل له منها حين يمتلك زمامها منطلق الزعامة والامتداد .

وهذه النظرة الى قرطبة التي كانت تخامر امانيه ، وتجيش بخاطره فى هذه اللحظات ، هي ولا ريب نفس النظرة التي كان يركزها على عاصمة

الخلافــة جميع من تعلقت آمالهم بالزعامة على ممالك الأندلس كالجهــاورة ، وبني عباد ، ومن قبلهما الادارسة ، واليها ايضا التفتت سياســة الهالــك فرديناند ، فقد نفذ الى ما وراء نظرة هؤلاء المتزعمة ، فجعل همه أن تظل عاصمة الخلافة القديمة بمنجاة من اطماعهم ، لأن فى بقائها صغيرة وضعيفة بحكم وضعيتها وحكامها الجهاورة الضعفاء ، ضمانا لتحقيق سياسة اضعاف ملوك الجزيرة ، والحيلولة دون قيام مملكة موحدة كبرى تعتنه عند اللقاء ، وقد تتطاول الى نفخ الروح فى المعنويات ، ونشر عهود الخلافة الماضيات .

وذلك ما توحى به طبيعة سير الأحــــداث .

وحرك المامون سراياه نحو (19) قرطبة ، فهلع عبد المــلك المفاجاة ، واستغاث باشبيلية ، فسارعت لنجدته بكتيبة اولى ، واردفتها بثانية ، ولــم يسع جيش المامون بعد الاشتباك الا ان ينسحب وجحيم الضغن المستحر على منافسه ابن عباد يزعجه لتبييت اخذ الثار ، وبينما كان عبــد الملــك يستعد لتوديع اجناد اشبيلية الحامية ، اذا به يفاجا باصوات المناداة بابــن عباد ، وبدا له فى الحال أن (حاميها حراميها) كما يقال ، وطــوق الجنـــد الحامى محميته ، وسد منافذها ، واحاط بقصرها ، وتدافعت الدهماء الــى ساحته (تجار) بالبراءة من حكم عبد الملك وسيرته ، وقبض رجال المعتمد على عبد الملك واخوته وجميع أهل بيته وذهبوا فى انتهاك حرمته ، واخفــار ذمته ماشاءت لهم نشوة الظفر ، ومواتاة العقلية القرطبية ، والوعود والهبات المعتضدية السنية .

وتقول القصة ان الشيخ ابا الوليد بن جهور والد عبد الملك كان قد اوى الى مقصورة المسجد ببناته وكرائمه ، فكبسها عليهم لفيف من الجنــد (20) النصارى وجردوهم ونهبوا ما عندهم ، ثم حملوا الشيخ على زاملة وكان عندها مائل الشق ، مفلوح الشدق ، فاردف بمن يمسك به من وراء ، وكــان ذلك آخــر عهد قرطبة به وبمملكة الجهاورة .

(19) البيان المغرب ج 3 ص 257 وما بعدهـــا .

(20) البيان المغرب ج 3 ص 261 – اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ص 175 .

وتلك هي الواقعة التي سماها ابن حيان بالبطشة الكبرى وجعلها عنوان كتابه الذي افرده لها ، وساعود اليها في سياق ملحوظة اخرى .

والمقصود من تسجيل احداثها هنا انما هو الوصول الى خبر الجند النصراني الذي تولى كبس المقصورة على الشيخ ابي الوليد وحريمه،ولا يسع الباحث الا ان يحترس باديء ذي بدء تجاه هذه الظاهرة من صاحب اشبيلية فقد تكونت هذه العصبة مجرد كتيبة من نوع الكتائب التي اعتاد الأندلسيون القدامى ترتيبها في جيوشهم كالصقالبة والخصيان ، والسود الأفارقة ، وقد تكون من نصارى الشمال الذين اتخذوا الارتزاق مهنة في ساحات القتال ، وضربوا برماحهم في نحور اخوانهم في دينهم ، وضد سياسات ملوكهم ، حتى كان فرسانهم النبلاء يعرضون جهد قتالهم وكانهم في سوق نخاسة على قارعة المحجات ، وكيفما كانت وضعية هذه العصابة فهي بالنسبة الى المنطقة الجنوبية تستحق الالتفات ، وذلك لما يلاحظ من ان هذه العصبة هي التي تولت مهمة اساسية في هذه العملية الغادرة ضد الجهاورة الحلفاء ، فالأمر يتجاوز ماكان متعارفا في القديم مما اقدم عليه هذا او ذاك واعتده عليه الناس ، كما يتجاوز ذلك التآلف بين الجنسين الذى كان من خواص البنية الأندلسية وطابع مجتمعاتها ولامراء ، فهو الآن بادرة تعترضنا باخوات لها متواليات وعلى وجه ادخل من هذه في باب ما سماه ابن حيان آنفا بالقاء اليد في اليد ، وذلك تجاوبا مع الاستعداد الناشيء الذي نحاول تبيان مظاهره في هذا المجال .

وفي هذا المقام نتذكر ايضا ما عرضت اليه قبل في ذيل سابق عند سياق تصوير ما آل اليه امر ملوك المسلمين بوجه عام منذ نكبوا بالفتنة الكبرى من استنصارهم واستنجادهم بالأعداء ، وذلك حين لفتت النظر الى محاربة المستعين ابن هود صاحب سرقسطة اخاه المنذر بالكونت رودريجو دياث المعروف بالسيد الكمبيادور ، وبمرتزقة جيشه ، واستعانة اخيه المذكور بسانشو ملك « ارجونة » و « رامون » امير برشلونة ، وهي احداث ترجع بطبيعتها ومظاهرها الى ما نحن فيه الآن .

ومن هذه الاستعدادات التي اصبحت تطالع الباحث في تحركات اشبيلية بالذات ، ما يسوقه المحدثون هنا رواية عن المستشرقين «كوندي»

و ((بيدال)) ، ويتعلق الأمر بقصة تحرك جيوش المامون للانتقام من هزيمته في قرطبة ، وذلك انه انقض على ((مرسية)) و ((اريولة)) وما حواليهما مما كان بيد العامريين حلفاء اشبيلية ، وقد هبت نجدات المعتمد باشراف وزيره الشاعر النابة ابي بكر بن عمار الذي كان يندب للمهمات ، ويوكل اليه الحل والعقد في فواجيء الأحوال ؛ وعند اللقاء على ابواب ((مرسية)) كان جيش المامون معززا كذلك بقوات قشتالية وجليقية ، وتقول القصة حسب احدى روايتيها ـ وهنا تتفق الرواية النصرانية مع الرواية العربية الى النهاية ـ ان ابن عمار عندما لاحظ هذه المكاثرة التي لم يكن لكتائبه طاقة بلقائها ، عمد الى استئجار المدد من الكونت ((ريموند)) صاحب برشلونة ، وقد انجلت المعركة عن هزيمة الاشبيليين هزيمة ما حقه لدرجة ان ابن عمار كان بين الأسرى في هذه الباساء صحبة الرشيد بن المعتمد بن عباد .

والقصة ولو على وجه بدايتها تستجمع دواعي القبول بانسجامها مع سياق الأحداث وطبيعة صراع العاهلين ، وما يخص المامون منها ليس من اول بركاته فسوابقه معروفة منذ اوائل عهد حكمه ، واستعانته بالنصارى في هجومه الأخير على قرطبة ، وان لم تشهر به الرواية العربية كدابها في التغاضي احيانا عن هذه الانحرافات الدينية والقومية ، فان ابن بسام قد افاد بها ملمحا ، وعرفنا بما هنالك تلويحا (21) ، ولكن ما يخص الجانب العبادي منها يعتبر حقا ظاهرة وخروجا باشبيلية عن مهيع المرحوم المعتضد عباد ، مع العلم بان اشبيلية قد كان لها من قبل اتصال بملوك الشمال ، ولكن ليس تحت وطاة الاستعلاء وذلك ما يشير الى ما وصل اليه الاطمئنان النفسي الى هذه العناصر الأجنبية ، في هذا العهد بالذات ، الذي اصبحت فيه الاستعانة بالملوك والأمراء النصارى طابع جميع تحركات حكام الجزيرة حسبما سجل ذلك المؤرخ ابن الكردبوس وهو يتحدث عن حالتهم على عهد الفونسو حين قال : (وضعف بعضهم عن بعض الا بمعونة الروم) .

---

(21) الذخيرة القسم الاول ، المجلد الثاني ص : 126 ، 128 ـ القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 112 .

وعلى كل حال فقد ظل ملوك الطوائف يتناطحون يمينا وشمالا فى هذا العهد وفى جو من الحرية حتى أواخر سنة 1072 .

ففى أكتوبر منها اغتيل سانشو وهو يحاصر اخته اركا (اراكة (22) بسمورة ، وذلك بتدبير منها فيما يقال ، وربما بممالأة اخيه الأوسط الفونسو الذي كان يومئذ منفيا عند المامون ابن ذي النون فى قصره الملكي بطليطلة ، وبهلاك سانشو كانت نهاية الحرب العاصفة بين الاخوة ابناء فرديناند ، ونودي فى اثر ذلك على الفونسو من منفاه ليتوج خلفا لأخيه المغتال ، ثم عمل على استدراج أخيه الاصغر غارسيا لاجيء اشبيلية ، وطوح به الى منفاه ، مدال الملك والقسمة الموروثة ، الى ان لقي حمامه بعد اعوام ، وبذلك خلصت لانفوسو الممالك الثلاث ، وتوجه النبلاء باسم ملك ((قشتالة)) و ((ليون)) و ((جليقية)) ثم انتصب ليخلف والده فرديناند فى تزعم حركة الاسترداد ، وموالاة الخطوات من حيث انتهى والده فى مخططه لتطويق ممالك الاسلام .

والآن وقد سايرنا فى الذيل السابق أحداثا تاريخية معينة فى نطاق تتبع ملامح مخطط فرديناند ، واكتنهنا وسائل تنفيذه القائمة على الغزو النفسي ، واحناء الرؤوس بفرض الجزى ، وضغوط الارهاب ، وعلى المطاولة (وتجنب الكلفة) والتركيز بوجه عام على وسائل التوهين المادية والمعنوية ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال (اخذوها) بلا تكلف حسبما كان صرح به سابقا المستعرب ((ششناند)) لصاحب غرناطة (23) الملك عبد الله .

فمن اليسير علينا اذا جعلنا هذا نصب العين ان نستروح منه خطة الزعيم الجديد فى حرب المسلمين ، القائمة اصالة على ما ذكر ، وكأنها ماثلة فى خريطة للعيان بكل المقاييس والابعاد ، غير أن عنصرين اثنين جاءت بهما تغيرات الزمان ، قد كان لهما اثر فى تيسير مهمة الفونسو ،

---

(22) اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ص : 381 ط الرباط .
(23) كتاب التبيان المطبوع باسم مذكرات الامير عبد الله ص : 73 ، ص 101 ، وانظر المناهل العدد 2 ، ص : 345 .

وسرعة انجازه ، وتوسيع طموحه ، مما حداه الى تغيير بعض طرق الخطة ، وذلك بالنزوع الى الاحتلال والاستقرار والاستغلال المباشر للسكان بعد ماكانت خطة سلفه ـ بحكم البدايات ـ قائمة على الاحتراس باجلاء السكان وتنكب المناطق الآهلة ، خشية المواجهة والانتفاضات (24) .

واول هذين العنصرين :انهيار معنوية السكان بما تسرب الى نفوسهم جيلا بعد جيل من آثار الضعف العسكرى والنفسي الذي اوهن الحكام ، فنشأ فى نفوس هؤلاء الشعبيين وهم يعانون الاستيلاء النصراني مباشرة وبالواسطة ، وبالممارسة وبالموارثة ، ما نشأ عند أولئك الرؤساء من استعداد لقبول الظهور النصراني ومناصرته ، حيث اخنى على جميعهم الياس من تبدل الأحوال ، وركبتهم عقد النقص حالا بعد حال ، واذا هذه الطبقة الشعبية وخصوصا العامة منها يشاركون الطبقة الحاكمة فى الخطيئة ، ونراهم متحركين على مسرح الأحداث كملوكهم سواء بسواء كما سياتي بيانه بعض لحظات .

وثاني العنصرين : ضعف شخصيات الوجوه الجديدة التي واجهها الفونسو فى الرقعة الاسلامية ، وكان لها تاثير فى مجرى الأحداث ، وقيام الظروف التاريخية التي أحاطت بقضية المعتمد بن عباد .

ففيما يخص العنصر الأول المشار اليه قبل هذا الأخير ، يلاحظ ان العامة فى الأندلس قد كانت تتحمل فى مرتزقاتها ومعايشها القسط الأكبر من مفروضات الجزية النصرانية ، وعلى مناكبها كان الملوك يرتبون ضرائب اضافية على كل انتاج وكل غلة ، حتى يستطيعوا مواجهة مطالب الغالب المترادفة ، وكانت فى ضرب المغارم والاتاوات مغرقة ، ولقد تحمل الآباء العبء الفادح الذي مادت له الكواهل والظهور ، وضعفت تحت وطاته النفوس ، وخربت العقول ، وتلقف ذلك العبء بثقله المادي والعنوي ابناؤهم الذين تشربوا الضعف النفسي بالوراثة ، وتسربت اليهم من

---

(24) انظر العدد 2 من « المناهل » ، ص 346 .

شرايين الدم عقدة الضعة ، وتجرعوها كاسا دهاقا على يد الفونسو الذي عرف من سياسة أبيه مدى ما فعلته الجزية في انهاك همم الملوك ، وفي أضعاف النفوس ، فكان من تم تمسكه بهذه السياسة ، ونزوع « سانشو » قبله اليها كما هو معلوم .

وندع الامام ابن حزم يحدثنا من رسالته : « التلخيص في اوجه التخليص » (25) عن انواع الضرائب والمغارم وتاثيرها في نفسية العامة على عهد المعتضد وفرديناند ، وقد كان اخف وطاة من عهد خلفهما الفونسو والمعتمد بن عباد ، وفي ذلك يقول الامام بعدما سجل ان المغارم في القديم ، انما كان يفرضها السلاطين على الارضين : (وأما اليوم فانما هي جزية على رؤس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على احوالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، هذا هو هتك الاستار ونقض شرائع الاسلام) .

والمفهوم أن هذا الدخل الذي كان يواجه الملوك به كما أسلفنا مطالب الجزى والهدايا المرفوعة الى أبواب ملوك النصارى ، قد ارتفع وتضخم ولا سيما في هذا العهد الذي تطور فيه الانعطاف الى ملوكهم من الاستمداد والاستعانة ، الى الاستعداد لتوجيهات الفونسو واللياذ بساحته ، والدوران في فلك مقاصده ، وفي هذا المعنى ، وعن ملوك المسلمين وعن الفونسو وعهده يقول أبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي في منظومته .

وزادهم في الجهل والخذلان * ان ظاهروا عصابة الصلبان (26)

ويوضحه ايضا المؤرخ ابن الكردبوس (27) حين تعرض لحالة ملوك

(25) انظر هذه الرسالة ضمن مجموعة رسائل ابن حزم التي نشرها الاستاذ احسان عباس تحت اسم الرسالة الاولى منها : الرد على ابن النغرلة .
(26) الذخيرة لابن بسام القسم 1 ، مجلد : 2 ص : 401 — 430 .
(27) تاريخ ابن الكرد بوس ط : المعهد المصري بمدريد ص : 57 .

الطوائف على عهد الفونسو السادس ، وذلك حين قال : (وكل واحد منهم ينافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق كي يوجهها الى ((الفنش)) هدية يتقرب بها اليه ، ويحظى بمطالبه لديه ، الى ان ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ، واذعن من بقي منهم خارج الذمة الى اداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الاموال ، لا يخالف أمره أحد ولا يتجاوز له أحد) .

وفي فصل آخر من نص الامام ابن حزم المسجل آنفا يقول في معرض قبول المتشابه : (وهو في غير زماننا هذا باب جديد لا يؤثم صاحبه ، ولا يوجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون اليه في اقواتهم ، ومكاسبهم ، اذ كان الاغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغمورا ، وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه فانما هو باب أغلق عينيك واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه اما ثمرة واما جمرة (28) .

ويا ما كان افصح الامام ابن حزم في هذين المقطعين الأخيرين من هذا النص حين صور ذلك الاستعداد الذي نشأ في نفس ابن الشعب الأندلسي ، وما ترتب عليه من تدهور في اخلاقه حتى قبل ـ كما اشرت في آخر الذيل الأول ـ الدنية في دنياه ودينه ، وطبع الله على قلبه فحرمه من بواعث المحبة ومن مقومات الانسانية ، وذلك هو المنتظر ممن اخنى عليه الياس من تبدل الأحوال ، وممن ركبته العقد ، فاقدم في تصرفه تصرف المغلق العينين ، الضارب باليدين ، والناتج بعد هذا عنده سيان ، ان كانت ثمرة أو جمرة كما قال الامام .

(28) هاتان الجملتان المؤشر تحتهما بخط (وهما محل الشاهد للمعني الذي نريد) قد صادف موقعهما بياضا في النسخة التي اعتمدها الاستاذ احسان عباس عند نشر رسائل ابن حزم التي منها : ((رسالة التلخيص في أوجه التخليص)) وقد اعتمدت في تعمير البياض المذكور بالجملتين المسجلتين هنا على معتمد شيخ مؤرخي الاندلس ، الاستاذ محمد عبد الله عنان (دول الطوائف ، الصحيفة 404) الذي يذكر في التعليق انه نقل النص من اوراق مخطوطة لابن حزم نشرها الاستاذ مجيل آسين بلا ليوس في مجلة الاندلس سنة 1934 ، ص : 35 ـ 37 .

وذلك هو الاستعداد الذي تجشمت عرض منشئة وتطورات مظاهره بالنسبة الى الملوك حتى صار كما لاحظ القارىء ، وكما سيلاحظ حتى النهاية ، نفس استعداد ابن الشعب الذي تهاوت اخلاقه الى الدرك الذي سمعناه .

ويبقى وقد ضرب لنا الامام المثل ، ان نعقبه بامثلة من التاريخ حتى نفتح العين على ما كان لحركة الاسترداد من مكسب فى هذه الاستعدادات، من ابناء الشعب بالذات .

ولنستمع الى المؤرخ ابن الكردبوس وهو يقدم لنا بعض الأمثلة ، وذلك فى معرض استعراضه لتصرفات العامة ومظاهرتهم الحكم النصراني عند دخول القادر يحيى ابن ذي النون الى بلنسية تحت حماية البرهانس قائد الفونسو الذي كان قد تسلم طليطلة ، وعوض عنها القادر بالحماية فى بلنسية ، فابن الكردبوس يحدثنا الآن عن تصرفات ابن الشعب الأندلسي وابن الجيل والظرف الذي يعنينا، وذلك حين يقول : (29)وتعلقت(اى جماعة) بالبرهانس ، لعنه الله ، فكانت تقطع ذكور الرجال ، وفروج النساء ، ورجعوا له من جملة الخدمة والعمال ، وفتنوا فتنة عظيمة فى اديانهم ، وسلبوا جملة ايمانهم) .

وسنظل موقتا فى بلنسية وفى نفس الظروف ومع المؤرخ ابن الكردبوس وهو يفيدنا بما كان لابن الشعب من يد فى نزول (العلم الفادح) ببلنسية ، وفى تمهيد البساط لحكم السيد القمبيطور بعد الذي سمعناه عن تمهيدهم لحماية القائد ((البرهانس)) فيها للقادر ابن ذي النون حسبما يستفاد من هذه النصوص ، وفى ذلك يقول ابن الكردبوس(30) : (وفى هذه المدة انقطع الى ((القمبيطور)) وغيره ، من أشرار المسلمين وأرذالهم ، وفجارهم ، وفسادهم وممن يعمل باعمالهم خلق كثير ، وتسموا بالدوائر ، وكانوا يشنون على

---

(29) تاريخ ابن الكردبوس ، نشر المعهد المصري بمدريد ، تحقيق : الاستاذ احمد العبادي ، ص : 104 .

(30) المصدر السابق ، ص : 103 .

المسلمين الغارات ، ويكشفون الحرمات ، ويقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الاسلام ، ونبذ شريعـة النبي صلى الله عليه وسلم ، الى ان انتهى بيعهم للمسلم الاسير بخبزة ، وقدح خمـر ، ورطل حوت ، ومن لم يفد بنفسه ، قطع لسانه) .

ولعل هذه الأمثلة من (الاستعداد) لاجتراح مثل هذه الكبائـر في بلنسية كفيلة بأن توضح لنا فيما بعد الأسباب التي وطأت البسـاط للفونسو السادس ليقيم في قصر المنية المنصورة على قيد مسافة بسيطـة مـن العاصمة طليطلة ، وبين الغادين والرائحين من سكانها ، ومن زراع حقـول ارباضها ، ولقد أتيح أيضا للسيد الكمبيادور بفضل اقامته في بلنسية متغلبا وحاكما ، وبفضل نفوذه الواسع قبل ذلك في سرقسطة على عهد المقتـدر وخلفه المؤتمن ، حيث كان الحاكـم الفعلـي الحـاذق أن يتغلـب حتى على العواطف ، فاصبح ((السيد)) علـى لسان الناس ، وهـو اللقـب الذي ظل به معروفا في التاريخ حتى اليوم ، ولقد استطاع وهـو صاحب الصولـة والسلطان أن يستغل السذاجة المعروفة في طبقة ابنـاء الشعب عامة من غيـر استثناء ، فاشترى الضمائـر ، وكبس العواطف ، والعامـة في كل زمان ومكان اقرب الى الاستجابة والتقلب ، والى السير وراء كل من ظهر بالجاه والتغلب ، وأي دعوة لتبديل الأحوال أو الأشخاص تريغهم بمجـرد الخيط الواهي مـن غيـر كلفة توثيق العنان ، وان الأبحـاث الاجتماعيـة ، والحديثة منها القائمة على الاحصاء والاستقراء في مختلف الأنحاء ، لتقرر أن الطبقات الشعبية لا تتوفر على فضيلة الصبر ، ولا علـى الرضى بمـا قسـم لها في حاضرها ، ولا تقوى على انتظار ما ياتي بـه الغـد ، أو التانـي ريثمـا تتبدل الأحـوال .

وذلك ما سيوحي لنا بعد ، أن الفونسو السادس قد اخذ يستغله في ابناء شعب طليطلة ، منذ رد القادر الى عرشه فيها عام 473 هـ 1081 م حتى تاريخ استيلائه عليها في المحرم 478، 6 ماي 1086 ، ولا سيما منذ استوى في قصر المنصورة ، (31) واتخـذ منـه مقـر قيادتـه ومنطلـق

(31) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 128 .

بطانته وجنده الى مراتع غاراتهم السياسية والاستنزافية ، وما ان حلت اللحظة الفاصلة حتى أمدته الشعبية الأندلسية بجيش خامس في قلب المدينة حسبما ستراه عبر ما سنستقبله من أحداث ، وسنلتقى مرة أخرى بالمؤرخ ابن الكردبوس وهي فرصة لقاء آخر منتظر مع صديقنا الدكتور عباس الجرارى صاحب البحث فى مجلة الثقافة الجزائرية بعنوان :قضية المعتمد ابن عباد، وبذلك نستدرك ما فاتنا أو فاته من مشاطرتنا الانصات الى افادات ابن الكردبوس حول ماكان من شر أبناء الشعب على بلنسية ، فليكن هذا اللقاء على أرباض طليطلة وفى معرض بسط ما سجلته فى أول هذه الذيول من انه كان يجوز أن يتجه البحث الى التعمق فى فهم الأحداث مع الالتفات الى السوابق منها واللواحق ، فقد تتراءى لنا فيها الى جانب الفوضى والانقسام ، اما نقائص أخرى مما ينسب الى الملوك ، واما نقائص فى رعاياهم ـ كما ترى ـ ، وأما أمراض مجتمعية غير خاصة بملوكه وامرائه ، وانما هي من فصيلة امراض الشعوب الرعايا والملوك .

وفيما يخص العنصر الثاني من العناصر التي سهلت مهمة ((الفونش)) أو الفونسو كما يقول المحدثون ، فذلك ما سأستهل به حديثا تاليا من احاديث هذه الذيول :

الربـاط عبد الرحمن الفاسي

(يتبـع)

في مكتبة المناهل

مع الأدب والأدباء

لعبد الكريم غلاب • 284 ص • 21 × 15 سم •
دار الكتـاب بالدار البيضـاء • 1974

تلقيت بيد الشكر ، منذ أيام ، الهدية الجديدة ، التى اتحفنى بهـا الصديق العزيز الاستاذ عبـد الكريم غلاب ، وهى كتابـه الموسوم بـ (مع الادب والادباء) الذي أخرجته له اخراجا جميـلا ، (دار الكتاب) فى الدار البيضـاء .

وحيث ان هذا الاديب الكبير ، عودنى ، على ان اقرا كل ما يدبجه قلمه برغبة وشوق ، لانه لا يكتب عن هوى ، بل خدمة للفكـر والادب ، لكل هذا ، سارعت بقراءة هذا الكتاب الجديد ، الذى تقاسم موضوعاته بابان ، تناول الاول منهما عددا من الابحاث الخاصة بالادب ، من شعر وقصة ونقد ، وتناول الثانى وهو (فى صحبة الشعراء والكتاب) جوانب من حياة بعض الشعراء فى مشرق الوطن العربى ومغربه !

وفى وقفتى هذه ، سأعطى القارىء ، فكرة عما قدم فى الباب الاول من ابحاث ، لانه حري بمثل هذه الوقفة ، فقـد افدت كثيرا مما جـاء فى هذه الابحاث الدسمة ، لانها قدمت لنا معلومات قيمة عن الشعر والقصة والنقد الادبى ، فى المغرب العربى ، ووفق الاستاذ غلاب توفيقا كبيرا حين اعطى لنا بابحاثه هذه ، صورة واضحة المعالم عن تطور الادب فى ذلـك الجناح العربى المطل على البحر الابيض والمحيط الاطلسى ! ففى بحثه عن (الشعر الحديث فى المغرب) ، الذى استغرق (46) صفحة من الكتاب ، قدم لنا خلاصة جيدة ، عن تطور الشعر فى تلـك الربوع الغوالـى ، اذ تحدث عنه ، منذ بداية النهضة الحديثة فيها ، مستعرضا مراحل هـذا التطور ، شارحا الاساليب ومبينا الاغراض التى عالجها ونظم بها شعراء كل مرحلة من مراحل الحياة الادبية ، ولم ينس ان يقـدم لكل فتـرة من فترات هذا التطور ، بعض النمـاذج الشعريـة ، ابتـداء من شعـر الزعيم الراحل علال الفاسى ، فالمختار السوسى فمحمد القرى وانتهاء بشعراء الشعر الحر امثـال احمـد الجماطى وعبـد الكـريم الطبـال وابن ميمون والخمار ! !

والقارىء لهذا البحث ، يحس ان الاستاذ غلاب قد (مسح الشعر فى المغرب العربى مسحا انتقائيا خلال فترة تربـو على اربعين عامـا ، وجاء بنماذج ليسـت ميسورة لأغلب القـراء) فى المغـرب ولاكثرهم فى المشـــرق ! !

وقد اعجبت ايما اعجاب ، بتلك القصيدة التى اختارها من شعـر الزعيم الراحل المرحوم علال الفاسى ، واعنى بهـا قصيدته التى جعـل عنوانها (عهارة الفكر) ولشدة اعجابى بها لما حوت من مضامين وآراء ، اقترح على الاستاذ غلاب ، وهو الاديب الكبير ، ان تقوم (العلم الثقافى) بطبعها بكراس مستقل وتوزعها على القراء العرب فى كل مكان ! !

أما بحثه عن (تطـور الادب القصصى فى المغرب العربـى) الذى استغرق (20) صفحة من الكتاب ، فقد جاء خلاصة وافية ، استطعنـا بواسطتها ان نلم بالكثير عن تطـور الادب القصصى فى كل من تونـس

والجزائر والمغرب وليبيا ، وان نعرف العوامل والاسباب التى أدت الى تأخر هذا الادب فى بعض هذه الاقطار ، وتقدمه فى بعضها الآخر ! ! وعلمنا منه بعد ذاك (ان الادب القصصى فى المغرب العربى ، يجتاز مرحلة النضج ، واهم ظاهرة للنضج هى ان الكتاب مايزالون يبحثون عن طريقهم لاستكمال تقنية القصة والرواية من حيث الشكل ومايزالون يبحثون عن الموضوعات التى تتصل بنضال شعوبهم من اجل الحياة الافضل لاستكمال تقنية القصة والرواية ، من حيث المضمون !)

ثم حدثنا فى بحثه عن (حركة النقد فى المغرب) عن مفهوم النقد الادبى ، قديما وحديثا وعن نظريات النقد ومقاييسه المختلفة ، وعن وضع النقد فى المغرب ، مشيرا الى موقف الاشفاق على الادب المغربى والخوف عليه من النقد ، ونقل لنا بهذا الخصوص راى الاستاذ عبد المجيد ابن جلون الذى يقول (ان نقد الادب المغربى ، فى ظروفه الحاضرة انما يسىء الى الادب اكثر مما يحسن اليه ، فمن الضرورى أن نترك الادب ينمو ويزدهر دون أن نعرقل مساعيه بالنقد الخ .

واشار كذلك الى ظاهرة الخوف من النقد ، وما يجلبه النقد على الناقد من مشاكل يثيرها ضده ذوو الاعمال المنقودة ، وتلك ظاهرة معروفة عندنا كذلك ! !

ولم ينس بعد ذاك الاشارة ، الى النقاد (الايديولوجيين) فقد ذكر ان هؤلاء (يحاولون فى ميدان النقد ربط الاثر الادبى بوضع الكاتب الاجتماعى ومركزه الطبقى وتأثره بايديولوجية معينة !) وفى رايه ، ان هذا النوع من النقد ، نقد عشوائى لا ينتمى الى الذوقية أو المنهجية (مع ان هذا الاتجاه ، لم يعد يطبع النقد الادبى الحديث حتى فى البلاد الشيوعية ، لان المنهجية العلمية الذوقية ، عادت لتطبع النقد الادبى كنقد يصدر عن النقاد ، لا عن رجال الحكم ! !) .

وقد ختم بحثه هذا برجاء وجهه الى المشرفين على الدراسات الادبية فى الكليات طالبهم فيه (ان يهتموا بتكوين الذوق الادبى الرفيع بوضع النظريات النقدية الجادة امام طلبتهم حتى لا يهيموا بالافكار العائمة ،

بعيدين عن التذوق اولا ، وعن وضع الانتاج امـام الحقائـق الادبيـة والنظريات السليمة ! !) .

وتحدث فى بحثه عن (ازمة الشعر العربى) حديثـا مفصلا ، بين فيه اسباب المعركة القائمة بين القديم والجديد من الشعر ، وبعدما حلل وعلل ، قال متسائلا — لماذا يسد المحدثون آذانهم ، ويفتحون افواههم ، حين يصعد على المنبر شاعر يزن ويقفي ؟ !

— ولماذا يهجو القدماء ، المحدثين — شعرا ونـثـرا — دون ان يحاولوا تفهم هذه القصائد ، او خلق حوار فنى وفهمى معهما ؟ !

وبعد أن ذكر ما بذله الجيل السابق من الشعراء فى اخراج الشعر من وهدته ، وتخليصه من طغيان المحسنات البديعية والجناس اللفظـى وتفاهة المضمون ! ثم قال :

(وجاء عصر التحرر من الاستعمار وقيـادة الشعـوب لنفسهـا ومواجهة تحديات العصر بكل مظاهرهـا الامبريـالية والاستعماريـة والحضارية والفكرية والاجتماعية ، وكان على الادب ان يكون فى الميدان ، غير بعيد عن التحول الذي يتطلبه العصر . وكان على الشعر بالاخـص ان يتطور فى الشكل والاسلوب والموسيقى والمضمون ليثبت ذاته ويؤكد وجوده فى عصر التحول الذى تعيشه الامـة ، شعر الشعراء بضرورة هذه المحاولة ، فكان الشعر الجديد المتحرر من الوزن والقافية !) وقال بعد ذاك (ان التحرر من الوزن والقافية عملية ضخمة جريئـة فى فـن اعتمد ازيد من اربعة عشر قرنا على الوزن والقافية ! !)

وبعد ان بين ما اتصفت بـه قصيدة (الشعر الحـر) من عـدم الموسيقية ، والغموض ، والرمزية ، ختم بحثه القيم هذا بقوله (لا اقصد من وراء اثارة مظاهر الازمة فى الشعر ، الا ان الفت انـتـباه شبـاب المغرب الذين اغرقوا فى تقليد بعض الشعراء المحدثين ، الذين يحاولون ان يكسبوا الشهرة على مطية الاغراب تارة فى التحلل من كل القيم الفنية

فيما ينتجون ، وتارة فى التستر وراء الغموض لاخفاء الفراغ والخواء الذي لم يمكنهم من ابداع أى جديد ! !) .

اما فى بحثه (بين الاقليمية والانسانية) فقد حدثنا عنه قائلا (وفيما يخص الادب العربى وفنونه ، لا احب ان ادرسه موزعا بين الاقطار العربية ، على منهج اقليمية الادب ، فلم اومن باقليمية الادب العربى ، رغم انها كانت محور الدراسة التى قام بها استاذنا المرحوم امين الخولى ، وهو يدرس معنا (الادب المصرى) بكلية الاداب بجامعة القاهرة !) وهو اذ يؤمن بهذا الراى ، له من المبررات التى تسنده فيه ، فهو يعتبر (تشابه المنطق العقلى والفكرى والاجتماعى والخلقى ورواسب الحضارة والتاريخ والدين واللغة والاصول المشتركة للقبائل العربية التى انداحت فى الوطن العربى ولو تغيرت الفروع بالالتحام والتزاوج والتساكن والتعايش ، ثم التاريخ المشترك الذى تعيشه البلاد العربية ، فى ظروف متشابهة) انه يعتبر كل ذلك (عامل وحدة فى الوطن العربى ومن ثم عامل وحدة الادب العربى ، قديمه وحديثه !) .

تلك هي نظرة عجلى ، على اهم الابحاث التى ضمها (الباب الاول) من كتاب الاستاذ غلاب ، درسناها دراسة الراغب فى المعرفة ، فاذا نحن نقف بعد قراءتها ، على تطور الادب فى المغرب العربى ، وان نقرأ نماذج طيبة من نتاج اخواننا فى تلك الربوع الشقيقة ، فى الشعر والقصة والرواية والنقد الادبى ، وهو ما لم يكن بمقدورنا الوقوف عليه لولا قراءتنا هذا الكتاب النافع المفيد ! !

ويطيب لى ، بعد هذه الوقفة القصيرة مع كتاب (مع الادب والادباء) ، أن ابدى ، بعض ما عن لى من ملاحظات وتعليقات ، وفق ما يلي :

أولا :ـ جلب نظرى ، وانا اقرأ هذه الابحاث ، ان الكتاب ، قد خلا من الحديث عن موقف المراة فى المغرب العربى ، لاسيما فى ميدان الشعر والقصة !

ولا اخال استاذنا الكبير ، غير محيط بهذا الموقف ؛ ولذلك اقول ، لعله قد خصص لهذا الموضوع دراسة خاصة سيطلع بها علينا فى القريب ان شاء الله !

ثانيا : — لقد ذكرتنى اشارة الاستاذ غلاب الى محاولة التحرر من الوزن والقافية ، بتلك المحاولات التى جرت فى اوائل هذا القرن ، واعنى بها محاولات التخلص من القافية كخطوة اولى ، وبمقدار ما تحمل القائمون بها من متاعب ، وما دمنا بصدد هذا الحديث ، انقل للقارىء ، راى الشاعر الكبير الزهاوى الذى نشره منذ نصف قرن حول القافية) اذ قال (والسبب الاكبر لتأخر الشعر بالعربية هو القافية ذلك القيد الذى ينوء به الشعر . فاذا حرر الشعر من قيد القافية ، انصرف الشعراء الى المعانى التى يريدونها ، لا الى الالفاظ والى اظهار الشعور الحقيقى الذى تجيش به نفوسهم ، لا الى الشعور الكاذب الذى تضطرهم الى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كون حركة خاصة من الاعراب فى آخر كل بيت ، هذه الضرورة ، هى التى تضطر اكثر الشعراء ، الى استخراج المعانى من القافية فتكون المعانى تبعا لها عوض ان تكون هى تبعا لها !) وعلى هذا الاساس خرج بدعوته للشعر (المرسل) والى تعدد وتنوع القوافى ، فى القصيدة الواحدة ! !

ثالثا :— لقد اثبت الاستاذ فى بحثه عن (ازمة الشعر العربى) الراى القائل بتخلف الشعر عن مسايرة ركب الحضارة والتحولات العصرية ، ومحاربة الاستعمار وما الى ذلك ، وقد تراءى ، لى ، وانا اقرا هذا الراى ، ان اتساءل قائلا :

— هل ان هذه الحضارة ، وهذه التحولات العصرية ، بدات فى الاربعينيات (وهى السنين التى ظهر فيها الشعر الحر) حتى كان (الشعر الحر) نتيجة من نتائجها ؟ ام ان الشعر العمودى لم يكن متخلفا هذا التخلف الذى يتصورنه وهم يجهزون عليه ؟ ! الواقع ان الشعر العمودى لم يكن كما يتولون ، فاننا مازلنا نحفظ تلك القصائد الوطنية والقومية والانسانية ، بل وتلك التى حثت الشعب على النهوض من وهدة الجهل والتخلف والثورة على كل بال وقديم ، واخيرا تلك القصائد الثورية التى

الهبت النفوس وهى تحارب الاستعمار لا فرق فى ان تكون تلك القصائد فى ثورة العشرين او ثورة سوريا او الثورة الجزائرية او الثورة الفلسطينية او غيرها من الثورات فى الوطن العربى الكبير !

اقول هذا لاخرج الى التأكيد بأن وصم الشعر بهذه الوصمة قد تحتاج الى وقفة منصفة ! .

ويطيب لى ما دمنا بصدد الاشارة الى المعركة بين الشعر القديم والحديث ، ان اثبت ما قاله عميد الادب العربى ، الدكتور طه حسين فى هذا الخصوص ، قال (1) (وانا اعلم أن من الشباب طائفة يرون لانفسهم الحق فى ان ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم واوزانه وقوافيه خاصة ، ولست اجادلهم فى هذا الحق ، بل ليس لى ان اجادلهم فيه ، فاوزان الشعر القديم وقوافيه ، لم تتنزل من السماء ، وليس ما يمنع الناس ان ينحرفوا عنها ، انحرافا قليلا او كثيرا ، ولكن للشعر ، قديما كان او حديثا ، أسسا ، يجب أن تراعى ، وخصائص يجب ان تتحقق ، فليس يكفى ان ينشىء الانسان كلاما على اى نحو من انحاء القول ، ثم يزعم انه قد انشأ شعرا حديثا ، وانما يجب ان يحقق فى هذا الكلام ، الذى ينشئه ، اشياء ليس الى التجاوز عنها سبيل . فالشعر يجب ان يبهر النفوس والاذواق ، بما ينشىء فيه الخيال من الصور ، ويجب ان يسحر الاذان والنفوس معا بالالفاظ الجميلة التى تمتاز احيانا بالرصانة ، وتمتاز احيانا بالرقة واللين ، وتمتاز كل حال بالامتزاج مع ما تؤديه من الصور ، لتنشىء هذه الموسيقى الساحرة التى لا تنشأ مع انسجام الالفاظ فحسب ، ولا من التئام الصور فحسب ، وانما تنشأ من هذا الائتلاف العجيب بين الصور انفسها وبينها وبين الالفاظ التى تجلوها بحيث لا يستطيع السمع ان ينبو عنها ، ولا تستطيع النفس ان تمتنع عليها ولا يستطيع الذوق الا ان يذعن لها ، ويطمئن اليها ويجد فيها الراحة والبهجة ما يرضيه ، فاذا استطاع الذين يحبون هذا (الشعر الحديث) ان يقدموا لنا منه ما يمتعنا حقا فمن الحمق ان ننكره ، او نلتوى عنه ، لا لشىء الا لانه لم يلتزم ما كان القدماء يلتزمون من الاوزان والقوافى ! !)

رابعا :ـ وفى بحثه عن (الاقليمية والانسانية) اشار الاستاذ الى المرحوم الاستاذ امين الخولى باعتباره فى مقدمة القائلين باقليميـة الادب وبصدد الاشارة الى هذا الموضوع اقول ، انى قلت ، ما ذهب اليـه استاذنا غلاب ، فى عدم الايمان بالاقليمية ، منذ عام 1947 ، حين نشرت مقالا فى مجلة الاعتدال النجفية ، ارد فيه على ما كتبه احد طلاب المرحوم الخولى ، هو الاستاذ الدكتور مهدى المخزومى ، وختمت مقالى ذاك قائلا (ومهما يكن من شىء فانى ارى ، ان الادب العربى ، قد بدأ يكسر قيود الاقليمية بانتشار الثقافة بين معظم اقطار العروبة ، ودخـول المخترعات الحديثة فيها واستخدامها فى الاتصال المادى والثقافى والروحى ! ولعـل السنين القلائل القادمة ستكشف لنا عن اثر ذلك ، حيث لا يبقى هنـاك ادب عراقى او مصرى او لبنانى او سورى ، انما هناك ادب واحد ليس غير ، هو الادب العربى !) .

وبمناسبة الحديث عن الاقليمية فى الادب اود ان انقل للاخ الاستاذ غلاب ، تلك المحاورة الشعرية الطريفة التى دارت بينى وبين الصديـق الكبير شاعر الاهرام الاستاذ محمد عبد الغنى حسن والباعث على تلـك المحاورة ما يأتى بيانه :

حين اصدرت كتابى المرسوم بـ (دراسات وتراجم عراقية) واهديت نسخة منه الى الاستاذ محمد عبد الغنى ، شاء ان يداعبـنى كعادتـه ، فبعث الى بقصيدة يعاتبنى فيها على تسمية دراستى هذه بـ (العراقية) اذ كان الاجدر ان تسمى (عربية) لان جميع المبحوث عنهم (عـرب) عاشوا فى العراق ، ومما قال فى قصيدته هذه الابيات :

ماذا تقـول اخى ؟ اثمـة فـارق … فى المجـد بين فعالكم وفعالـنا ؟

كنـا على الماضى المبـارك امـة … لـم يدخـل التمزيق فى اوصالنـا

فسهولكـم ممـدودة بسهـولنـا … ورحـالكـم موصولـة برمالـنـا

حتى أتـى المستعمـرون فأمعنـوا … فى البـت بين حبـالكم وحبـالنـا

جعلـوا لـكل جماعـة آدابـهـا … وتوزعـوا المأثـور من اقـوالنـا

وقـــــــال :

ان الذيـــن الى العـــراق نسبـــتهم   هم زين امتـــنـــا وفخـــر رجالنـــا
ان كان انـــبـــتهم عراقـــك انمـــا   هم فى العروبة ملتـــقى آمالـــنـــا
انـــا لتجمعـــنـــا العروبـــة أمـــة   لا فـــرق بين هلالكـــم وهـــلالنـــا

*   *   *

فلما تسلمت منه هذه القصيدة الرائعة ، اجبته بقصيدة من نفـــس الروي والقافية مبينا السبب الذى حملنى على تسميتها بـــ (العراقية) قـــائـــلا فيهـــا :

قـــد جئـــت تسألنى اثمـــة فـــارق   فى المجـــد بين فعالكـــم وفعالنـــا
وعلام تنـــسب للعـــراق فطاحـــلا   هم زين امتـــنا وفخـــر رجالـــنـــا
أو مـــا تراهـــم للعروبة مشعـــلا   وهم منـــار فى طريـــق نضالنـــا ؟
فاسمع اخى منى الجواب معبـــرا   عما قصدت ومعربـــا عن حالنـــا
ما كان تخصيص الدراسة بدعـــة   لتـــوكـــد التمزيـــق فى اوصـــالنـــا
او انهـــا تدعـــو لفـــرقـــة امـــة   كـــلا ولا للـــحـــط من آمـــالـــنـــا
بل انت تدرى انهـــا قـــد خصصت   لدراســـة البـــاقين من افضالنـــا
فلقد احاط الجهل فى مـــا ابدعـــوا   زمنـــا وكـــان الـــداء فى اهمالنـــا
فاذا نسبـــنـــا للعـــراق جماعـــة   لم يخطـــر التفريـــق قط ببـــالنـــا
لكـــنهـــا جاءت تتـــرجم نخـــبـــة   هـــم فى العراق طليعـــة لنضالنـــا
ادب العروبة فى العراق سمـــا بهم   وسموا بـــه فهـــو منـــار فعالنـــا
فاسلم أخى عبـــد الغنـــى فانـــنى   أتعشـــق المأثـــور مـــن اقوالـــنـــا

من ذاك قولك وهو قول رائـــع قــد جـاء يعرب عن رؤى امالنـــا
انـــا لتجمعـــنـــا العروبـــة امـــة لا فـــرق بين هلالكـــم وهـــلالنـــا

* * *

فماذا يقول الاستاذ غلاب بهذا الدفاع ؟ !

وبـــعـــــد :

فتلك هى اهم الملاحظات والتعليقات التى رغبت فى اثبـــاتها ، بعـــد قراءتى للباب الاول ، من كتاب الاستاذ غلاب حفظه الله .

ابعث بها من المشرق العربى ، الى المغرب العربى ، لتنشر فى تلك الربوع الغوالى ، ولست أشك فى أن الصديق العزيز ، سيبتسم ابتسامته الهادئة ، ويقول لمن حوله : هذه بضاعتنا ردت الينا ! !

فشكرا له على هديته الثمينة ، التى لولاها لما تسنى لنا كتابة هذه الكلمة التى نرجو ان تكون مقبولة عنده .

بغـــداد **عبد الرزاق الهلالى**

عندلة

لمحمد الصباغ . 94 ص . صور ملونة . 15 x 22 سم . مطابع دار الكتاب بالدار البيضاء — المغرب . مقدمة المؤلف فبراير 1975

رحلة إلى عالم مسحور

احب المؤلف الطفولة ، فصنع لها جنة وفى هذا يذكرنى بما صنع « والت ديزنى » من بنائه مدينة للاطفال ، فيها مختلف الملاهى ، اعدت للصغار ، وينعم بها الكبار مع ذراريهم ، وكأنما مستهم عصا سحرية ، فعادوا لاولادهم اندادا لا امهات او اباء . اما صاحب « عندلة » فيحملنا الى جنة ابدع واوسع ، نعم اوسع ، لأنها بلا حدود ، وابدع ، لانك تقطف فيها الضوء ، وتمسك بعناقيد النجوم ، وتركب على صهوات الغزلان . . . ثم ان مدينة « والت ديزنى » آلية ، ميكانيكية . اما عالم « عندلة » فيشدنا الى الطبيعة ومفاتنها ، بل يضيف الى ما تزخر به من روائع وبدائع .

ليست دنيا « عندلة » جنة للحواس وحدها ، انها جنة للمشاعر ، الحب فيها هواء ، نتنفسه ، والحب يخالط الحياة ، وهو هنا واسع ، وعميق ، وحميم ، وذكى . اما انه واسع ، فلأن القلب يتسع لكل الطفولة ، طفولة بنى الانسان ، والفرحة بكل ما يبدع الخلاق الاعظم ، من براعم الازهار ، وصغار الافراخ على الارض ، الى بنات الطير فى الجو ، الى صغار المحار فى البحر ، الى الفجر الوليد فى انزلاقه من السماء الى الارض . هنا حب عميق يتمثل فى الاحتفال بمولد « عندلة » : تتبرج الطبيعة لهذه المناسبة . وفى حفل عيد الميلاد ، تنصب مائدة شهية ، تعلوها ، شموع تتضوا ، وتتحلق حولها : « عندلة » كرمز لبنى الانسان ، مع اصدقاء لها من صغار الحيوان ، واقربهم اليها « مواء » قطيطتها ، ويشارك ويشرف الحفل : حمائم ، وفراشات ، ويكون رقص ، وغناء ، وفرح ، ومرح .

اما السلام فى دنيا « عندلة » فرموزه عديدة : منها « مواء » قطيطتها التى تنال الحب والتدليل ، فينسكبان عليها فى سخاء من « عندلة » ، وكانما تهيأ بذلك من طفولتها الباكرة الى عواطف الامومة ، بما فيها من غيرية وايثار ، ويحترم اهل « عندلة » هذه المشاعر الرقيقة الحلوة المتبادلة : ذلك ان « مواء » لا تأكل الا من يد « عندلة » ، و « عندلة » تكثر من تدليل « مواء » ، والاسرة تعزز هذا التجاوب ، فاذا اهدت ، فهديتين متماثلتين للحبيبتين « عندلة » و « مواء » . ارايت الى معايشة الصغار ومسايرتهم فى اخيلتهم الجميلة ، وفى مشاعرهم النبيلة ؟ ومن رموز السلام كذلك ركوب « عندلة » على صهوات الغزلان ، ومصادقتها للحمل الوديع « ارجوان » ، وخلقها لجو من الوئام والمودة بين الذئب والحمل ، والقطيطة والفيران . نعم ، انه عالم اسمى من عالمنا ، فمن القسوة ومن الظلم للصغار ، ان نقدم لهم دنيا الواقع ، على انها صور للبغى والعدوان ، بل الدنيا فى عالم « عندلة » حب ، حب الانسان للانسان وللحيوان وللطبيعة وللحياة وللمعرفة . نعم حتى المعرفة حب ، والعلاقة بها حب ، والحروف الابجدية ، هى كائنات كلها جمال ورقة ، وترتبط بكل ما هو حلو ، ورائع وساحر ، ومحبوب . (الفاء) فجر ، (السين) سراج ، (النون) نغوة ، (الواو) وتر ،

(العين) عنقود ، عندليب . اجمع خصائص هذه المسميات ، تجد بعض معالم العالم المسحور ، الذى ابتدعه المؤلف الانسان الشاعر ، والقصاص الملهم . ومن هذه الكلمات تنطلق وتنـدفق موجات من نـور ، واغاريد ، وموسيقى ، وحلاوة . فالمعرفة تقدم للطفولة بحب ، وتعطى فى جـو فردوسى ، وبلا قهر ، بل فى حنان ، والمعرفة متمثلة فى حروف الهجاء ، تمنـح للصغار قوى السحرة ، فيخلقون من الحروف ، ابـدع واروع ، ما يحبون من آى الجمال . واذا كانت فرشاة الرسام الفنان تنـتج صورا اخاذة ، ناطقة معبرة ، شبيهة بالحياة ، فان الحروف هنا اشياء ملموسة — على لطافة فائقة — يمسك بها الصغار ، باليد ينثرونها او يرشونها ، على هذا النحو او ذاك ، فتخلق كائنـات جميلة حيـة تزخـر بالحياة الحقيقية ، من ورود وازاهير ، وحمائم وعصافير ، وفراشات ونحل : ثم لا ينسى خيال الشاعر المحب للزهور ، حاجتها الى ان تنضح وجوهها بما يزيدها نضارة على نضارة ، وغضارة على غضارة ، فترش عليهـا « عندلـة » ثلاثـة حروف فيكسوها من نثـار النـدى ، لآلىء حيـة وليـدة طـريـة .

وبعد فانى اتساءل : **هل « عندلة » قصة** ؟ انها لكذلك ، ففيها شريحة من تاريخ طفولة : تبدا من ميلاد « عندلة » ، فى جو كله حب وحدب ، وفى احتفال للطبيعة كلها ، فنتابع النمو لنحضر حفلة عيـد ميلاد ، ثـم تكبر « عندلة » ، وتمر بأحداث وتجارب نفسيـة شعورية ، وتعيـش مشاعر « ارجوان » ومخاوفه ، وتحل مشكلاته ، وتكبـر « عندلـة » وتتعلم حروف الهجاء ، ثم تضع اقدامها الصغيرة على عتبات قلعة المجد ، اى المدرسـة ، او بالاحرى « روضة الاطفـال » ، **ام ان « عنـدلة » اسطورة** ؟ ففيها عالم مسحور ، فيه فتيات النجوم ، وخصلات الضوء ، وزوارق الورود ، وعربات من سبائك الجوهر ، وذات عجلات من قوس قزح ، يجرها فجران . وفى هذا العالم اسرة للنوم ، تضىء جنباتها نجوم تشعلها « عندلة » بيدها او تطفئها كما تشاء ، وفى دنيـا « عندلـة » حروف تولد ، وتكبر ، وترقص ، وتغنى . . . ؟ **ام ان « عندلة » قصيدة واغنية معا ؟** يهديهـا المؤلف الشاعر الى جميع الاطفال ، فى كل زمـان ومكان ، والى الطفل الذى فينا ، والى الطفولة ، كحاملة لاسمى رمـوز

الانسانية : البراءة ، والخيال ، والصباحة ، والبساطة ، والطلاقة ، والنقاء .

ان « عندلة » قصة ، واسطورة ، واغنية وقصيدة ومعزوفة ، هي هذا كله ، هى جو رومانسى ما اشد حاجتنا اليه ، هى عالم من الصور الفنية الغيبية ، ومن الاخيلة المنغومة الشجية ، ومن الاثارات السارة . صنع ليسعد به اطفالنا بأكثر من واسطة : اذكياؤهم يقراون فيتعلمون وهم فى نشوة ، ونحن الكبار — نقرا فنعود — لحظات الى طفولة هى بكل تأكيد اسعد من تلك التى اجتزناها ، ونعب عبا من هذه الاخيلة والمشاعر والاحاسيس ، فننقلها الى صغارنا . ونحن نروى ونحكى ، ليحبوا الطبيعة ، والمعرفة ، وليحبوا الآخرين ، فالحياة الحب ، والحب الحياة . وفى « عندلة » جاذبية ارجو ان تشد شبابنا من الجنسين ليعلموا — بارك الله فيهم — ان ادب الجنس ، ليس وحده مصدر السحر والفتون . هنا فى اجواء « عندلة » رومانسية صحية عفة طاهرة ، يتشرب فيها الفتى والفتاة مشاعر انسانية عالية ، مشاعر الابوة والامومة ، يتلقيان بذورها لتنمو فيهما ، وليمارساها مع اخوتهم واخواتهم ومع كل الاطفال ، فما احوجنا نحن بنى الانسان الى التعاطف والتواد والحنان فى كل عمر وفى كل اوان ، هنا اذن جو من الرومانسية عفيف نظيف ، يعد شبابنا لحياة اكثر سعادة ، واكثر تساميا وتعاليا على لذات الحس ، واكثر رقة وطيبة .

وفى « عندلة » ، فى عالمها فردوس ، يمكن ان يفزع اليه ، ويستجم فيه ، كل من آذاه الواقع المرير ، او لطمته الحياة ببعض صدماتها . وفى صحبة « عندلة » ، فى عالمها ، راحة النفس لكل مكدود ، او مجهود . هنا تذوب آلامنا ، وتتجدد فى اجهزتنا النفسية خلايا الحب والطيبة والاقبال على الحياة ، وانى لأقرر هذا عن تجربة واعية ، فقد عشت ما عشت ابا شديد الحنو ، واغتربت طويلا عن احبائى ، وما ازال ، ولكن « عندلة » ، جعلتنى مرة اخرى ، اعيش ابوتى على مستويين ، كأب شديد الشغف بأولاده ، حتى بعد ان كبروا فصار اصغرهم فى الجامعة ، وكجد لطفلة حلوة هى حفيدتى « رباب » ، عشت من خلال

احاديث « عندلة » ، وتجاريبها ، عشت طفولتين « لربــاب » : عامهــا الذى سلخته ، واعواما اتخيلها مستلهما ما حدث « لعندلة » ، متخيــلا حفيدتى تكبر ، فتنثر الحروف بيديها فى الفضاء ، فى هيئة ازاهير وعصافير ، واستمتعت مع « عندلة » ، بروعة الفن من مصدرين ، متكاملين للالهام والابداع اولهما : نبع خلقه ، او فجــره تفجيــرا اديــب ، قصــاص ، شاعر ، ناثر ، اب عاشق . وامة المصدر الآخر ، فأنتــجه فنان رسام موهوب حول عواطفه الشاعرية المشبوبة ، وتوحــده او اندماجه مــع احداث القصة واجوائها واخيلتها ومشاعرها . . . حولها رسوما حية ، تكاد تتواثب امامك ، مرحة ناطقة ، فللاستاذين محمد الصباغ ، وميمون الفرخانى — عن القراء وعن نفسى — ازجى خالص الشكر والعرفان ، وتمنى المزيد من الابداع فى لوحات ترسمها الفرشاة والبيان .

الــربــاط — **د . محمد محمد الزلبانى**



مناهل الأطفال

تستعد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة الانتاج الثقافي) لاصدار ملحق ب ((المناهل)) سيكون خاصا بالاطفال ، بعنوان ((مناهل الاطفال)) مشتملا على قصص مترجمة من الادب الغربي ، وقصص موضوعة ، وقصائد ، واناشيد ، وعلى عرض عام عن نوابغ الاطفال فى العالم ، ودراسات مبسطة عن مسرح الاطفال ، ولعب الاطفال ، وما الى ذلك من المواضيع التي سيستفيد منها الطفل فى عالمه الصغير .

اجتماع اللجنة الوطنية الخاصة بإعداد مهرجان ابن زيدون

برئاسة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، اجتمعت اللجنة الوطنية الخاصة باعداد مهرجان « ابن زيدون » للمرة الثانية .

واطلع أعضاء اللجنة فى هذا الاجتماع الموسع ، على ما توصلت به الوزارة من رسائل المدعوين وما تضمنته من اقتراحات فيما يخص موعد المهرجان ، كما اطلعت كذلك على مجموعة نفيسة من الدراسات والابحاث والقصائد التي تسلمتها الوزارة من بعض المشاركين ؛ بالاضافة الى اطلاعها على طائفة من اللوحات الزيتية ، والاشرطة الموسيقية التي شارك بها أصحابها فى مسابقات هذا المهرجان .

ثم تفرغت اللجنة لدراسة مختلف جوانب الاحتفالات بهذه الذكرى لتتم فى أحسن الظروف .

وفى ضوء هذا الاجتماع ، أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بلاغات فى الموضوع نثبتها فيما يلي :

بلاغ
حول الاحتفال بالذكرى الألفية لابن زيدون

لقد كانت نية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معقودة على اقامة الاحتفال بالذكرى الالفية لابن زيدون ، فى الفترة الواقعة بين 15 ابريل و 15 ماي 1975 ، غير أن الاتصالات التي اجرتها الوزارة مع مختلف الشخصيات الفكرية والادبية من الشرق والغرب ، المدعوة للمشاركة فى الاحتفال ، لم تفض الى الاجماع على اسبوع محدد فى الفترة المقترحة .

وحرصا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، على توفير اكثر ما يمكن من حظوظ النجاح للاحتفال بالذكرى الالفية لابن زيدون .

وحرصا منها على اتاحة الفرصة لمساهمة اخوان لنا فى الوطن العربي في المباريات المعلن عنها من موسيقية وتشكيلية .

ونزولا عند رغبة كثير من الشخصيات العلمية المرموقة الذين رجوا التأخير ليتمكنوا من اعداد ابحاثهم .

استنادا الى كل ذلك ، رات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية من الانسب الاحتفال بهذه الذكرى فى الخامس عشر من اكتوبر المقبل بحول الله .

وتغتنم الوزارة هذه الفرصة للتنويه بما توصلت به من ابحاث جادة ورصينة ، واشعار رقيقة ، الامر الذي يبشر بيقظة عربية تعطي الدليل العلمي على تكريم الاثر الطيب ، والعمل الصالح ، وتذكر الخلف بما أثله السلف من حضارة زاهية ، ومجد رفيع ، وينبىء — فى نفس الوقت — عن الصلات الوثيقة ، والاواصر القوية ، المتمثلة في وحدة الرغائب والارادات الطيبة فى المشرق والمغرب ، لدعم صرح الثقافة العربية ، واغناء التراث الانساني .

بلاغ حول مباراة الفنون التشكيلية

فى نطاق الاستعداد لاحياء الذكرى الالفية للشاعر ابن زيدون وتبعا لما سبق ان اعلنت عنه وزارة الثقافة ، يهيب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين التشكيليين مغاربة وغيرهم من ابناء الوطن العربي أن يتخيلوا صورا تعبر عن شخصية الشاعر ابن زيدون وولادة بنت

المستكفى وملامحها او تترجم جانبا من حياتهما النفسية والعاطفية بعد دراسة عميقة لحياة الشاعرين واوصافهما من خلال الكتب والمرويات .

وقد رصدت الوزارة لذلك جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهـــم .

فعلى الراغبين فى المساهمة الالتزام بما يلي :

— ان يكون طول اللوحة بالنسبة للرسامين من 50 سنتيما فما فوق
— أن لا يكون الانتاج موقعا رسما كان او نحتا أو نقشا .
— ان يرفق برسالة بها بيانات توضيحية عن الانتاج ومذيلة باسم المنتـــج وعنوانـــه .

آخر اجل للقبول ، منتصف غشت المقبل بحول الله ويبعث الانتاج او يسلم الى مصلحة التنشيط الثقافي بوزارة الدولة المكلفـــة بالشؤون الثقافية ، شارع غاندي الرباط .

بلاغ حول المباراة الموسيقية

فى نطاق الاستعداد لاحياء الذكرى الالفية للشاعـــر ابن زيـــدون القرطبي الاندلسي وتبعا لما سبق ان أعلنت عنه وزارة الثقافـــة يهيـــب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بالفنانين الموسيقيين مغاربة وغيرهم من ابناء الوطن العربي ان يقوموا بتلحين احدى القطع المناسبة من شعر ابن زيـــدون .

وقد خصصت لذلك ثلاث جوائز قيمة قدر كل واحدة منها خمسة آلاف درهـــم :

— جائزة لأمثل لحن عربي مبتكر ومستوحى من البيئة الاندلسية

— جائزة لأمثل لحن عصري عربي

— جائزة لأمثل لحن عصري غربي

وستخصص الجوائز لكل لحن جديد خاص بالمناسبة ، متوفر على دقة العزف وحسن الصوت ، متمكن من النوبات ، محسن للتصرف فيها مع سلامة الاداء للشعر العربي .

فعلى الراغبين فى المساهمة ان يبعثوا بانتاجهم مسجلا على شريط تسجيلا جيدا بسرعة 50 ، 7 (19) الى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية : شارع غاندي . الرباط . وآخر اجل لتقديم الانتاج منتصف غشت المقبل بحول الله .

شروط المسابقة الموسيقية

ا — فى حالة اختيار المؤلف المشارك فى المسابقة ، التلحين وفق النمط الموسيقي الاندلسي يجب عليه ان يلتزم بالقوالب الموسيقية الاندلسية التي نلخصها فيما يلي :

ا) قالب الصنعة المبنية على القصيدة

ب) قالب الصنعة المبنية على التوشيح

ج) قالب التخليل

ويشترط ان يكون اللحن مبنيا على اوزان الموسيقى الاندلسية الخمسة وهي :

البسيط — القائم ونصف — البطايحي — الدرج القدام .

وللمؤلف الاختيار فى وضع لحنه وفق الحركتين الموسيقيتين (البطيئة وحركة الانصراف ـ السريعة) مع مراعاة النقرات الزمنية لكل وزن .

2 ـ يتعين على المؤلف الذي سيختار التلحين وفق القوالب الموسيقية العربية الالتزام بالانغام والاوزان الشرقية ، وان يراعي فى عمله الابتكار والتطوير حسب القالب الذي سيختار التلحين فيه .

3 ـ على الملحن الذي يفضل التلحين على النمط الغربي أن يضع فى اعتباره خضوع عمله للطريقة العلمية مع مراعاة ادخال عناصر هرمونية بالاضافة الى توزيع آلي يتمشى والطرق المستعملة فى الموسيقى العالمية .

4 ـ المقطوعات الفنائية يجب ان لا تقل عن خمس دقائق وان لا تتعدى عشر دقائق .

5 ـ ترسل القطع الى مصلحة التعليم الفني مسجلة على شريط بسرعة (50 ، 7) (19) ، اما القطع الموضوعة وفق الاسلوب الغربي فيستحسن ان ترسل مكتوبة وموزعة بالنرطة الموسيقية ، وآخر اجل لقبول القطع المرشحة 15 غشت المقبل بحول الله .

الابحاث والدراسات الخاصة بمهرجان ابن زيدون

توصلت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بمجموعة قيمة من الابحاث والدراسات والقصائد من بعض الشخصيات العلمية والفكرية والادبية المدعوة من طرف الوزارة المذكورة للمشاركة فى الاحتفال بالذكرى الالفية للشاعر « ابن زيدون » .

ونثبت فيما يلي قائمة باسماء هذه الشخصيات مع عناوين انتاجهم :

— الابحاث والدراسات —

الاسم	الموضوع	القطر
د. محمد رضوان الداية	ابن زيدون : محاولة لاعادة النظر فى دراسة شخصيته وشعره	مصر
د. عبد الجليل عبد الرضا الراشد	عصر ابن زيدون دراسة تاريخه	العراق
عبد الرزاق الهلالي	ولادة بين الهيستيريا والشذوذ الجنسي	العراق
وليم الخازن	ابن زيدون فى مقاييس الشعر العربي الجديد	لبنان
عبد العزيز الرفاعي	تلميحات شواهد ابن زيدون فى رسالته الجدية	السعودية
محمد ابن تاويت	نظرة على ابن زيدون فى شعره	المغرب
د. تمام حسان	شاعرية ابن زيدون فى ضوء منهج مستحدث	مصر
محمد مفتاح	قراءة جديدة لغزل ابن زيدون	المغرب
د. احسان عباس	بنو ذكوان وابن زيدون	لبنان
د. نقولا زيادة	الاندلس فى عصر ابن زيدون	لبنان
د. وداد القاضي	بين الجاحظ وابن زيدون	لبنان
البير مطلق	مبنى الرسالة فى نثر ابن زيدون وشعره	لبنان
عثمان الكعاك	بين ابن زيدون الاندلسي وبتراركة الايطالي	تونس

الاســـــم	المـوضـــــوع	القطـــر
د. محمد عبد المنعم خفاجي	محنة ابن زيدون كما يصورها شعره	مصـــر
عبد الهـادي التـازي	ابن زيـدون اسيـرا وسفيـرا	المغـرب
د. محسن جمـال الديـن	صورة ابن زيدون فى الادب العربي الحديـث	العـراق
وواعدنا كل من المستشرقين الكبيرين شـارل بيـلا بموضـوع :	الرسالة الهزلية من ابي عثمـان الى أبـي الوليـد	فرنسـا
و د. فلهلم هونرباخ بموضوع:	شخصية ولادة وشعر ابن زيـدون	المانيـا

— القصـائـد —

الاســـم	المـوضـــوع	القـطـــر
محمد احمـد المحجـوب	الفـردوس المفقـود	السـودان
صـالـح جـودت	ابـن زيـدون	مصـــر
عاتكـة الخزرجـي	فى تحيـة ابن زيـدون	العـراق
عزيـزة هـارون	ابـن زيـدون	سوريـا
عبـد اللـه الخليلـي	ذكـرى ابن زيـدون	سلطنة عمـان
سعيـد خلـف الخروصـي	ذكـرى ابن زيـدون	سلطنة عمـان
سليمـان خلف الخروصـي	ذكـرى ابن زيـدون	سلطنة عمـان
عبـد الكريـم الطبـال	بكائيـات قرطبـة	المغـرب
نذيـر العظمـة	ابن زيـدون ومرايـا الزمـن	سوريـا
صالـح الأشقـر	فى ظـلال ابن زيـدون	سوريـا
حسـن الطريبـق	اغنيـة الذكـرى	المغـرب
محمد بهجـة الأثـري	ذكرى ابن زيدون فى « عكـاظ »	العـراق

من بريد ابن زيدون
مقتطفات من رسائل المدعوين

كان للدعوة ـ التي دبجها الوزير الاديب الحاج امحمد ابا حنيني الى الشعراء والكتاب يدعوهم فيها للاسهام فى الذكرى الالفية لابن زيدون ـ شديد الوقع وبالغ الاثر ، فجاءت ردودهم معبرة اصدق تعبير عما خالج نفوسهم ، وتمثلت لنا ورودا زاهية ذات الوان واشكال ، فأحببنا ان نقتطف للقراء منها باقة فواحة ، تعج بالعواطف ، فتحملهم كما حملتنا على أجنحة من صادق الود ، وعميق التجاوب والتواصل ، المتجسمين فى حرارة النبرة ودفئها واشراقها ونصاعتها .

ومن خلالها ، ومن خلال ما توصلنا به من بحوث وقصائد نتصور ما يمكن ان تحققه الملتقيات العلمية والادبية من عطاء . ويتجلى ذلك فى القصائد والبحوث التي توصلنا بها أو التي نحن معها على موعد . وان القلم لعاجز عن الشكر والتقدير للكتاب والادباء الاوفياء ، عاجز عن ان يضم فى تحية واحدة نظير باقة حملتها الينا اقلام مشرقة ما فتئت تنير للمغرمين بالثقافة سبيل المعرفة الصحيحة ، والادب الرفيع :

* * *

وبعد ، فقد تلقيت كتابكم الكريم المؤرخ فى 10 / 1 / 75 فاغتبطت بما تضمنه من الاشارة الى اهتمامكم بابراز معالم ادبنا العربي ، ولا سيما الاندلسي منه ، وتجسيد ذلك فيما قررتموه من الاحتفال بادب الشاعر الخالد العظيم ابي الوليد احمد ابن زيدون . ولقد اصبتم فى اختياركم الهدف ، فان ادب ابن زيدون قد ارتفع الى الذروة فى طلاوة البيان وحلاوته ، ورقة الاحاسيس وجمالها ، وعلو النفس وكمالها ، وفى حمله

نفحات الفردوس المفقود ، وتذكيره الخلف بما أثله السلف الصالح من حضارة زاهية ومجد رفيع فى ذلك الصقع الاوربي الذي صيروه جزءا من المغرب متمما لوجوده .

بهجة الاثري
العراق

* * *

واني اذ اعرب لمعاليكم عن امتناني لهذه الدعوة ، واستعدادي لتلبيتها ، شأن كل دعواتكم الكريمة لي ، ليخامرني اليقين بأن المهرجان المزمع اقامته للشاعر الكبير بعناية الاديب الكبير سيكون نسيج وحده بين المهرجانات الادبية حسن قيادة ، ونفاسة اثر ، وملتقى اقلام شرقية وغربية عز تلاقيها لولا شأن الاديب الداعي ، وشاو الاديب المدعو له : وهكذا يتراءى لي ابن قرطبة العظيم يتململ فى قبره ، وهو يستشعر يدا كريمة تمتد اليه ، فتبعثه من مرقده بعد مئات السنين ، لتلبسه من حلل الخلود اجدها وأزهاها ، ولتكشف عن وجهه الذي كاد غبار القرون المتلاحقة يخفي ما عرف له من سحر وتلألؤ ونضارة .

الشاعر علي الصقلي
المغرب

* * *

واني لاحيي فكرتكم النبيلة فى احياء ذكرى هذا الشاعر الذي طالما ملأ دنيانا وغذى رؤانا بعذوبة نسجه ، ودقة معانيه وسحر صوره ، واهواء قلبه ، وسيرة حبه ، والذي ما زالت الاجيال العربية المتعاقبة تتنسم من شعره عبق الفردوس المفقود .

واني بعد لعظيم الثقة بان مهرجان ابن زيدون سيلقى لدى المتخصصين، عربا ومستشرقين،ما هو جدير به من ترحيب وعناية واقبال،

وان عشاق الآداب العربية حيثما وجدوا سيذكرون عظيم فضلكم فى جمع القلوب والافكار حول هذه الذكرى المجيدة .

امجد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب ـ بفاس

* * *

وان احياء الذكرى الألفية لابن زيدون لمن انفس الذكريات الادبية ، لانها ستظل على المدى رمز شاعر عظيم ، لفت نظر المشرق الى المغرب ، معلنا عن اصالته مؤكدا لعبقريته . وهي ايضا رمز اعتزاز المغرب بماضيه وقد ظلل الاندلس بوارف حدبه ورعايته . لانه كان يعدها امتدادا لكيانه ، يترسمها فى تخليد بيانه ، ويستلهمها فى نسيج بيانه ، ويحتضنها او يحميها بشوكة سلطانه . وان تخليد ذكراه من لدن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية لاستشفاف لهذه المعاني ، واستعادة لتلك الامجاد .

محمد الكتاني
استاذ بكلية الآداب ـ بفاس

* * *

فى يقيني ان احياء هذه الذكرى ، لواحدة من المع العبقريات العربية التي اثرت فى الاحداث والفكر فى المغرب وحملت على مدى العصور الطويلة ذلكم الأريج من الاندلس ، الفردوس المفقود ، وما زالت بالوانها الماتعة للحضارة الانسانية عامة ـ يفعم القلب غبطة ويترعه سكينة روحية غير محدودة ويعطي الدليل الحي على يقظة الوجدان العربي الذي يكرم الاثر الطيب ويفي بالعمل الصالح .

ومن حسن الحظ ان يظفر ابن زيدون بهذا القدر من العناية والاهتمام بباعث من صفاء ارومة الامة العربية التي انبتت هذا العملاق الذي ظل على

مدى عشرة قرون ، وسيبقى الى ما شاء الله ، ينبوعا صادقـــا متدفقـــا بالعاطفة والحنان وموردا صافيا لكل ما يمت الى الفضائـــل العربيـــة من سلائق كريمة وخلال نبيلة .

صبيح الغافقـــي
العراق

* * *

ابارك لكم جميل السعى المحمود ، وجليل العمل المشكور ، من اجل تتويج السنة الألف من مولد بديع زمانه ابى الوليد احمد ابن زيـــدون ، تجليلا لعمر نفح الشعر لاعج الاسرار ، ولفح العواطف بلهيب النار ، ورصع المعاني بلوعة الاشجان ، ورنم الاوزان بحنين الالحان . ففردت معه قرطبة، وتناغت لها اشبيلية ، وتسارعت المجالس فى أرجاء الاندلس كلهـــا الى اقتطاف اطايب بيانه ، وحكايات ايامه ، وسارت بها كل مسار حتى أصبحت انشودة تغردها نسيمات الاشجار ، وتبث لوعتها شذى الازهار ، فينشر عبقها ذكريات من انين ، واصداء رعشات خواطر المحبين ، مشبوبة بآلام الغصن الرطيب ، وقد ابلى الجفاف عوده . فروى ابن زيدون من عصارة قلبه وزناد فكره نبته وغرسه ، حتى اورق مع بني جهور وازهر ، واينق مع بني عباد واثمر ، ومد الله فى عمره الايام والسنين .

فاكرم بها من ذكرى عزيزة ينداح عنها غبار الايام . وكأنى بصاحبها قد دعى لنفسه وهو يمدح بن جهور قائلا :

هنيئا لك العيد الذي بك أصبحـت   تروق الضحى منه وتندى الاصائل

تلقاك بالبشرى وحيـــاك بالمنـــى   فبشراك الف بعد عامـك قابـــل

واكرم بها مأثرة توشح غرر اعمال ذي الرياستين معالي الوزير الاديب، فى احياء امجاد لطالما افتقدت نفسا زكيا يذكي فيها الحيـــاة ، ويهيبهـــا ساعة اجلال كما وهبت خلاصة حياة غالية يضن الزمن بمثلها . فالمناسبة

توجب التقدير البالغ لمجهودكم والثناء العطر على سن هذه السنة الحميدة فى بلادنا .

د. عبد اللطيف السعداني

استاذ بكلية الآداب ـ بفاس

* * *

وانه لا يسعني الا أن اعبر عن اكباري لهذا المسعى الجليل الذي به تخدمون الفكر والادب العربيين وبالتالي الحضارة العربية الاسلامية التي كان ابن زيدون رمزا لصرح من صروحها العملاقة .

البشيـــر بن ســلامـــة

مجلة الفكر ـ تونس

* * *

واني لجد مغتبط بقبول المشاركة ، وبالاستجابة لهــذه الدعــوة الكريمة ، ذلك ان ابن زيدون ، أعطى للكلمة شفوفها ، ومكــن للايقــاع والموسيقى فى الشعر حضورهما ، وخبر الحب بحسه وقلبه ، ونطق بــه فى ولع ودنف ونقاء . . . فهو اذن ، شاعر عظيم ، ولكن للاسف لم يعط له حقه من الدارسين والنقد ، وحتى من المبدعين . ونحن الذين نعتبره قيمة ثقافية وادبية كبيرة ، نكون اول من يجب عليه القيام بأخذ زمام المبادرة . فجزاكم الله خيرا عن احياء ذكرى شاعرنا العظيم .

للشاعر حسن الطريبق

المغرب

* * *

فقد تلقيت دعوتكم الكريمة امس بعيد عودتي من الكويت الشقيـــق واني لأرفع لجنابكم العالي اسمى آيات الامتنان ، وانها لفرصة العمـــر ان نلتقي وأشقاءنا على صعيد المغرب الطهور في ذكرى شاعر من أكابر السلف الصالح فنصل حاضرا بماض وطريفا بتالد .. فمرحى .. مرحى ..

عاتكـــة الخزرجـــي
العـــراق

* * *

وليس من شك في ان لقاء ادبيا وعلميا يقام في المغـــرب ــ وعلى مستوى عظيم ــ لاحياء ذكرى ميلاد شاعر ، لمظهر دال على اهتمام بقطاع الثقافة في بلدنا ، سوف تتلوه لا ريب مظاهر رعاية أخرى من شأنهـــا ان تتيح لهذا القطاع ان ينهض برسالته الطليعية في تنمية المجتمع وتقدمه .

وليس من شك كذلك في ان مثل هذا اللقاء يعقد في مرحلة تاريخية كالتي نجتاز ، سيضاف الى سلسلة اللقاءات التي ما فتىء المغرب بزعامة رائده الحسن العظيم ، يستقطب بها القوى والجهود ، سواء على مستوى العالم العربي او الاسلامي او الافريقي ، وكذلك على المستوى الدولي ، من اجل تحرير الارض والانسان واقرار الحق والعدل . وان الوعي العالمي بابعاد هذه السياسة التي يحق لنا ان نفخر بها هـــو الذي جعل الـــدول والشعوب جميعا تساند المغرب في النضال المشـــروع الذي يخـــوض لتحرير الصحراء ومختلف اراضيه المغتصبة .

الدكتور عباس الجراري
استاذ بكلية الآداب ــ بالرباط

* * *

واذ اعرب عن سروري لتلبية الدعوة ، اتشرف بان اخبركم انـــي ساسهم في المهرجان بتقديم مخطوطة محققة تحقيقا علميا لم تنشر قبل اليوم عنوانها « المختار من اشعار اهل الاندلس » لابن الصيرفي .

هـــلال ناجـــي
رئيس اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين

الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب

توطيدا للروابط العريقة ، والعلاقات الاخوية والثقافية المتينـــة ، التي تربط المغرب بتونس الشقيقه ، نظم بالمغرب اسبوع ثقافي تونسي ، افتتحه بمسرح محمد الخامس بالرباط ، الوزيران الاديبان : وزير الثقافة التونسي السيد محمود المسعدي ، ووزير الدوله المكلــف بالشــؤون الثقافية ، السيد الحاج امحمد أبا حنيني ، فى مساء يوم الجمعة 4 أبريل الماضي . وقد بذلت وزارة الثقافة التونسية مجهودات مشكورة ، لتقديم هذه التظاهرة الثقافية الى الشعب المغربي ، تعديما يدعــم الاواصـــر التاريخية والحضارية المتاصلة بين البلدين الشقيقين ، وعينت للاشراف عليها نخبة من ذوي الكفاءات فى ميادين الاثار ، والموسيقى ، والمسرح والسينما ، والفنون الشعبية ، والتشكيلية .

كما ان وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، عملت على اشاعة هذا البرنامج الثقافي ، فى عدد كبير من المدن المغربية ، وكان محتويا على سهرات موسيقية ، وحفلات مسرحية ، وعروض سينمائية ، ومعارض للفنون التشكيلية والشعبية بالاضافة الى معرض للصحافة .

وحضر حفلة تدشين هذا الاسبـــوع – بمسرح محمد الخامس – بعض اعضاء الحكومة المغربية ، ورجال السلك الديبلوماســي العربــي والاجنبي ، الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحفية والعلميــــة .

وبهذه المناسبة تبادل الوزيران خطبتي الافتتاح

* * *

وفيما يلي نص الخطاب الذي القاه معالي وزيرنا فى الثقافة ،الاستاذ السيد الحاج امحمـد ابا حنينـــي :

خطاب
السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
الأستاذ السيد الحاج محمد اباحنيني
في حفلة افتتاح الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب

بين بلادك ايها الاخ العزيز وبلادي من اواصر الاخاء ووشائج المحبة ما يغني عن تشقيق القول وترصيع الكلام للتأهيل بك والترحيب ، وحسبي من التعبير والتحبير أن أقول ان مسرتي بحلولك بالمغرب مسرة لا انفرد بها دون غيري من المواطنين المغاربة ، فقد حللت في كنف الاهل والعشيرة وتمهدت رحب الاقرباء والانسباء وتفيأت من ظلال الود والاخاء ما توارثته اجيال وجرت به سنة الاولين والآخرين ، ولم تفد ايها الاخ العزيز على المغرب طلبا لصلة رحم ماسة فحسب ولا جعلت زيارتك مصروفة الى الراحة والاستجمام وانما اتى بك الى هذه الديار بالاضافة الى الارتقاب المتبادل والاشتياق المتقاسم حدث من احداث دابنا المشترك ووكدنا المشاع ، وهذا الحدث الذي تشهده بلادنا باعتزاز وابتهاج أسبوع انتقلت فيه تونس الشقيقة في موكب بليغ وفصيح من مواكبها فحطت الرحال فوق أرض حبيبة درجت على ايثار ضروب البلاغة والفصاحة بوافر التقدير وسابغ الاعجاب ، ولا بدع ان يتلقى المغرب هذا الاسبوع الموقوف على تكريم الثقافة بحفاوة القلب والفكر وحرارة الكلف والشغف بالقديم والجديد من الابداع والابتكار ، ولئن كان لك فضل الاشراف على انفساح ابواب هذا الاسبوع فلك الى ذلك فضل المشاركة لأشقائك المغاربة في الاستمتاع بما يتبرج في نطاق هذه الايام المعدودة من الوان المهارة واصناف الثراء ويتهلل من أفانين الأصالة والطرافة .

ثم انك الى هذا وذاك وفدت على هذه البلاد من قطر اثير وفادة رجل من رجال الدولة الذين تستشرفهم الأبصار ويشار اليهم بالبنان ووفد علينا في شخصك مجتمعين متحدين متآخيين وزير الثقافة الطائر الصيت الشائع الذكر والكاتب الذي ارتقى بآثاره الى مراقي الاعتناء والاهتمام ،

فأي غرابة بعد هذا ان تطبع صفاتك المرموقة ومزاياك المأثورة ثقافة بلادك وهذا الاسبوع الذي يؤوي ويظلل ما تكافلت القرائح على ابداعه وتناصرت المواهب على ابدائه فى رائق الحلل ورائع الأزياء .

ولو وافيتنا ايها الاخ العزيز فى ظروف غير ظروفنا الراهنة لكان فى التذكير بما بين بلدك الزائر وبلدنا المزور من توافق وتعاطف بلاغ السامعين ولحصلت الكفاية بالاقتصار على الالمام بما يفيد الضائف والمضيف من هذه اللقاءات الكاشفة لخصائص الشعوب الفاسحة لآفاق المعرفة الهادية الى التثقيف بما لهذا اللفظ من مدلول مستحدث وأصيل العاملة على تأكيد عرى الاخاء وتوطيد صرح الصفاء ، ولاكنك وردت علينا واشقاؤك المغاربة بقيادة عاهلهم العظيم الحسن الثاني ربيب الكفاح والنضال وسليل الأبوة الأشاوس الأبطال مصرون على بكرة أبيهم على اقتضاء حقوق لهم مهضومة جادون فى المطالبة بتحرير اراض لهم مغصوبة مكلومة وان حلولك بهذا الوطن الذي يؤازر وطنك مطالبه ورغائبه ويناصر باللسان والجنان تصميمه ومضاءه وجهاده وبلاءه لاسترداد حق مشروع واسترجاع سيادة ثابتة لحلول يحمل من المعاني والدلالات ما يشهد بأن علاقات بلدينا الموغلة فى القدم الحديثة حداثة الشباب علاقات لا تتصف بالمتانة والاستحصاد فحسب وانما تتسم بسمة تتجاوز بها حد الامتياز المتعارف الى رحاب التضامن والائتلاف والاتحاد ، واني لأحمد مناسبة هذه الزيارة الميمونة التي تساعد على رفع قواعد المغرب العربي وتأسيس بنيانه بعمل دائب وراي صائب وخطى ثابتة قويمة واخاء يعز نظيره وضريبه بين ألوان الاعزاز وأصناف الاخاء ، واحمد هذه المناسبة حمدا آخر ـ ذلك ان كل ما يتلاقى فى اطار هذا الاسبوع الثقافي من اصالة وطرافة ويتساوق فيه من قديم الابداع وحديث الابتكار ويترافق خلاله من اهتمام بمجد غابر وحرص على مجد حاضر وتطلع الى مجد يشتد الحرص على ابتنائه وكل ما يلوح من هذا العين الناظر الذي يتداوله الاعجاب بما تم وتكامل والأمل ان ينداح ويتسع مجال الثقافة اتساعا

تمتد عائدته وجدواه الى ارحب قاعدة واوفر جمهور ـ كل هذا ـ يفيض المسرة ويشيع الارتياح ويشحذ العزيمة لأننا واياكم جرينا الى غاية واحدة طلقا وتمادت جهودنا وجهودكم نسقا وتشابهت الأماني وتماثلت الأهداف واستقرت الارادات هنا وهناك فى القطرين المتحابين على صعيد لا يتعدد ولا يختلف .

ايها الأخ العزيز

حضرات السيدات والسادة

اذا كانت الثقافة وسيلة من وسائل التقويم وسبيلا مشرعا فسيحا من سبل التلقين والتكوين وعاملا ذا اثر بعيد من عوامل النمو والوقاية للذاتية المستقلة والشخصية التي تكره أن تشتبه وتلتبس وتذوب وتفور فانها أداة فعالة صالحة لتحويل الأغفال والأعطال من الشعوب الى جماهير قادرة على ان تضطلع بما تضطلع به المجتمعات التي تتعشق نباهة الشأن وعلو المكان .

لقد انفقت أيها الأخ الكريم ردحا من حياتك فى الاشراف على التربية والتعليم واعداد الناشئة للمهام التي يلقي حرصنا على مسابقة الزمان وطي المراحل والأشواط بأعبائها واثقالها على الكواهل ، وها أنت اليوم وقد اصبحت وزيرا للثقافة تواصل الانفاق لا تبخل بجهد ولا تضن بوسيلة من وسائل تطوير المجتمع وتأهيله الى ما يؤمن النفع ويمهد للبلاد سبل الارتقاء ، وانه لشرف عظيم ان تتوافر لك هذه الاسباب ويناط بك شأن جليل بعد شأن عظيم .

أعانك الله ووفقك وجعل النجاح ظهيرك ونصيرك وشكر الله لك حفي المقدم والوفادة .

* * *

وقد رد وزير الثقافة التونسي ، على خطاب وزير الثقافة المغربي بخطاب مرتجل ، نثبت فيما يلي ملخصا له :

خطابُ السيد وزير الشؤون الثقافية التونسي
الاستاذ السيد محمود المسعدي

ايهـــا الأخ الكـريـــم .

ايها الملأ الفاضل ، من رجالات المغرب الأقصـــى ، بلد البطولـــة والبسالة والحضارة والأصالة ، السلام عليكم جميعا .

ان الذي استمعت اليه من كلمات الترحيب من الأخ الفاضل ، الذي يضطلع فى هذه الربوع بمسؤولية الاشراف على شؤون الثقافة ، قـــد يعجز اللسان عن وصفه او التعبير عنه .

ان الأسبوع الثقافي التونسي الذي يقام فى هذا القطر الشقيق ، وما لقيناه من كرم يعتبر اقل ما يترقب من بلد كريم ومن اهله الكرمـــاء . واكنني لا اجد فيه رغم ما به من ترحاب وحفاوة حرجا ، لأنني فى بلدي ، وبين اهلي وقومـــي .

حللت بالمغرب آتيا من بلد مغربي آخر ، لأقوم بعمل احسب انه فى خدمة هذا البلد ، قبل ان يكون فى خدمة بلدي ، ذلك اننا مؤمنون جميعا بأن ابعاد كياننا الحضاري والثقافي ، بل ابعاد مصيرنا المشترك ، لا تقف عند حدود رقعة ما من وطننا الكبير ، لا تقف عند حدود البلاد التونسية او بلاد المغرب الأقصى ، او بلاد الجزائر ، ولا عند حدود اي بلد آخر من العالم العربي ، بل مصيرنا مصير مشترك ، وحضارتنا حضارة مشتركة ، وبالتالي فمسؤولياتنا فى العالم العربي مسؤوليات مشتركة .

فنحن نريد ان نعطي دليلا على ان عملنا عمل صالح ، عمل سلام وخير ، بـــل نحـــن لا نـريـــد الا الخيـــر للانسانيـــة ، وكـــل ما نقـــوم بـــه من خدمـــات فى سبيـــل اممنـــا ، انمـــا هـــو فى سبيـــل

حضارة ومدنية سامية نريد أن نحياها من جديد ، ووفاؤنا الى ما آمنا به قرونا طويلة ، وما نزال نؤمن به ، يفرض علينا فى الوقت الحاضر ، أن نخدم الثقافة بمعناها الاصيل ، أن نبعثها من جديد ، لنقيم الدليل للامم الاخرى، على اننا ما نزال قادرين على أن نخلق من جديد ، ونزود الحضارة بما نبتكر ، وبما نبتدع .

لسنا امما عالة على امم اخرى ، تستهلك حضارة الغير ، بل نحن نريد بعد استقلالنا السياسي ، أن نستقل ثقافيا وحضاريا ، حتى نخرج من حالة التبعية للامم المستهلكة ، الامم التي تأخذ عن غيرها وتحيا تحت سيطرة ثقافة وحضارة غيرها . نريد أن نشارك من جديد ، فى بعث الحضارة الانسانية وتقدمها ورقيها ، بذلك فقط نفرض على العالم احترامنا، لاننا نزال نشاهد أن العالم الذي نحن ننكر مسخ حضارته المادية من طغيان المادة على الروح ، ومن طغيان القوة على العدل ، لا نزال نشاهد فى هذا البلد حالة اليمة بقيت فى جانبه كالدمل ، كقضية الصحراء او قضية الأراضي التي اقتطعت من جسد هذا الوطن ، تتصرف فيها دول الاستعمار وحضارته . ذلك اني تأثرت بالغ التأثر ، خاصة عندما اشار الأخ الفاضل الى ناحية من نواحي حياتنا التي نحياها ، وهي ناحية الكفاح والجهاد ، فنحن مؤمنون مسلمون ، وفى القيم الحضارية والقيم الثقافية الجوهرية لحضارتنا معنى الجهاد فعلى الجهاد قام ديننا ـ الجهاد الفكري والروحي ، اي الجهاد الثقافي ، على هذا ، قامت ثقافتنا وديننا وحضارتنا العربية السامية منذ قرون ، ونحن نؤمن بأن أول مظاهر الوفاء لحضارتنا وثقافتنا ، أن نكون مجاهدين طوال حياتنا . وقد اعطى المغرب الاقصى امثلة رائعة عن ايماننا بهذا الواجب المقدس ، واجب الجهاد ، اذ هذا البلد هو الذي تقدس فيه روح المرحوم المغفور له محمد الخامس تغمده الله فى فراديس جنانه ، بما أدى لهذه الامة ولعموم الأمة العربية الاسلامية من جهاد .

ونحن فى المغرب نجد على راسه ، وعلى راس حكومته الجالس على عرشه ، جلالة الملك الحسن الثاني ، الذي تربى على روح البسالة والبطولة والجهاد ، والذي يتمم فى هذه البلاد ، الرسالة التي قام بها المغفور

له والده طوال حياته ، ونحن نحاول بوصفنا مجاهدين مناضلين ، كل فى منصبه ، أن نكون فى مستوى هؤلاء الأبطال الذين خاضوا فى الماضي ، والذين لا يزالون يخوضون مسيرة الحاضر . ذلك أن هذه الامة العربية المسلمة ، وهذه الشعوب التي تحيا فى هذه الرقعة من الارض التي تمتد من المحيط الى الخليج ، ما تزال لها رسالة ، وما يزال عليها واجب عظيم جدا ، هو واجب المقاومة للشرارات التي طفت على العالم ، والتي تحاول أن تفقد الحضارة الانسانية أو تضل بها السبل ، فتنصرف بها عن قيم نحن لا نزال مؤمنين ومدافعين عنها منذ قرون ، الا وهي القيم الروحية المعنوية التي اقمنا عليها حضارتنا وعشنا عليها قرونا .

كل هذا قد أخذته عنا الأمم المتأخرة ، ونحن لا نزال والحمد لله ، أمما حية لها طاقاتها الخلاقة ، فاذا قمنا بمثل هذه التظاهرة الثقافية ، والأسابيع الثقافية ، فانما نقوم بذلك بروح الجهاد والكفاح التي عرفناها فى عهد الاستعمار ، حينما قمنا لتحرير بلداننا ، وعندما كنا صفوفا متراصة وراء أبطال مثل محمد الخامس رحمه الله ، ومثل الحبيب بورقيبة .

اخواني الاعزاء .

هذا ما رايته لائقا بكم ، وبالمغرب الأقصى ، ومنزلته ومكانته السامية فى تاريخنا الحضاري ، وكفاحنا القومي . لهذا ينبغي أن نعطي لهذا الأسبوع الثقافي المتواضع ، الذي أردنا أن نقدم لكم أثناءه بعض عينات من نشاطنا الثقافي ، ولكن هذا النشاط ان كان متواضعا فى مظهره ببلادنا أو ببلادكم ، فان معناه الذي أشرت اليه الآن هو الذي يجعلنا نمتلىء حماسة له ونندفع بروح الجهاد التي عرفناها حينما كنا نصيح : الوطن فوق الكل ، والثقافة والحضارة العربية الاسلامية فوق كل شيء . ونحن كلنا مضحون بمجهوداتنا وبصحتنا وأفكارنا ، فى سبيلها ، عسانا أن نخلق لأبنائنا ، العالم الذي يكون فى مستوى وكرامة الأمة التي تنتسب اليها جميعا هي الأمة العربية والاسلامية . والسلام عليكم ورحمة الله .

الاتفاقية الثقافية بين المغرب وتونس

ضمن الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب ، نظم بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، حفل خصص للتوقيع على الاتفاقية الثقافية ـ بين المغرب وتونس ـ من طرف وزيري الثقافة في تونس والمغرب ، الأستاذين السيدين محمود المسعدي ، والحاج امحمد ابا حنيني .

حضر هذا الحفل الى جانب الوزيرين ، أعضاء البعثة الثقافية التونسية ، وكبار موظفي وزارة الثقافة المغربية .

وسام الكفاية الفكرية
للسيد وزير الثقافة التونسي

بمناسبة الأسبوع الثقافي التونسي ، وتقديرا للمجهودات ، التي بذلها السيد وزير الثقافة التونسي الأستاذ السيد محمود المسعدي في ميدان الثقافة ، وتنويها بأعماله الفكرية ، أنعم عليه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بوسام الكفاية الفكرية .

حفلة تكريم
على شرف الاستاذ السيد أحمد عسة

بمناسبة انعام جلالة الملك الحسن الثاني على الأستاذ احمد عسه ، بوسام الكفاية الفكرية ، تقديرا لكتابه ((المعجزة المغربية)) ، أقام السيد

وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، مأدبة عشاء على شرفه ، حضرها بعض أعضاء الحكومة ، وشخصيات من السلك الديبلوماسي العربي ، الى جانب كثير من المثقفين والأدباء ورجال الفن .

ونثبت فيما يلي ، الخطاب الحافل البليغ الذ ألقاه معاليه فى هـــذا الحفـــل التكريمـــي :

حضرة الأخ الحبيب الأستاذ احمد عسة

حضـــرات الســـادة

داخلك ولا ريب أيها الأخ المفضال كما داخلنا جميعا يوم تفضـــل صاحب الجلالة الحسن الثاني مد الله عمره وتأييده فأولاك طوق الكفاية الفكرية الاحساس بأن اكتفاء العاهل الكريم عند التقليد والانعام بخطـــاب مختصر وجيز اكتفاء مرده لا محالة الى ما أضفى الله على الملك من نفائس الشيم وكرائم الخلائق ، فما كان لصاحب الجلالة الحسن الثاني المفطور على ما اشتهر واستفاض من قصد ولباقة وتواضع ولياقة أن يخاطبـــك ويداه الكريمتان تنوط بعنقك اسمى آيات الاشادة والتنويه خطابا يمتـــد نفســه ويطول ويمتلىء بالثناء على أثر من آثارك طافح بمئاثره ومكارمـــه ، ولئن قصر الحظ يومذاك بعض التقصير ففاتنا من الكلم الجوامع والبيان الناجم المشرق بسبب هاتيك الشمائل والفضائل نصيب غير يسيـــر مما يشوق المسامع ويروق فما فاتتنا متعة تلك اللحظة التي تستثير مثيلاتها فى نفس كل اديب ونفس كل كاتب ونفس كل عالم سلمت طواياه وسرائره واستمرت على الصفاء مرائره شعور الاعتزاز بالمشاطـــرة والمناصفـــة والابتهاء بالمسايرة والمواكبة والمسرة بالاكبار الموقوف على مستحقيـــه المصروف الى الحري القمين من وجوهه .

على اننا واياك أدركنا ما يستكن وراء القول المختصر من مسهب المشاعر وطائلها ويستسر خلف التعبير المجمل من ثري الأحاسيس وجميلها ونفذنا على معبر الالماع والدلالة بالقليل الى معين الود الصحيح والتقدير الصريح الذي لا يحتاج الى مدد من افصاح وسند من تبيان .

حضرة الأخ الأستاذ

يستقبل المغرب أصنافا من الناس يرتادونه زرافات ووحدانا فيكتسي اتصالهم به اشكالا والوانا وقد يطول هذا الاتصال أولا يطول وقد تستحكم اواصره تارة وقد تسترخي أسبابه تارة أخرى الا ان المقام بالمغرب يطبع في نفوس الواردين صورا متفارقة ويشيع بين جوانحهم احاسيس متباينة ، فمنهم من يتعاطف ومنهم من يتجانف ومنهم القرم النهم الذي يداوم الاستملاء ويثابر على الاستبصار ومنهم العزوف السادر الذي يمر فلا يعوج ولا يلوي ، ومنهم من تحزبه آيات التوفيق وتكرثه دلائل الاقلاع والتحليق الا أن منهم الى أولائك وهؤلاء من يذهب به الاعجاب كل مذهب ويثبته الشغف فلا ينثني ولا يرتد الى غير ما تألفه من مستعتب ومستعذب .

وظاهر من هذا التعداد لاصناف الوافدين ان زيارتك الأولى للمغرب غب تكسيره للاغلال وفور استمرائه لنعمة الاستقلال لا يتعذر انتسابها ولا يتستر انتماء الألوان الزاهية للعواطف التي عطفت قصدك وانتحاءك ؟

لقد جئت من بلد شقيق يستحثك ما يستحث الحبيب الظامىء الى لقاء حبيبه ويشوقك ما يشوق الصب الهائم بالبطولات الى معاينة أرض البطولات ومطالعة وجوه الرجال والنساء الذين ضغطوا على مجرى التاريخ

حتى حولوه تحويلا كانت له أبعاده المديدة وآثاره البعيدة ، وحللت على الرحب والسعةبين الاخلاء والأصدقاء والأشقاء فما لبثت ان وقر في قلبكمن هذا البلد ما وقر ، ووالیت بعد ذلك الزيارات واختلفت الى هذه الديـــار مرات بعد مرات وتكشف لك خلال ترددك ومقامك هذا الوطن في أجلـــى مظاهره بعد النظر الفاحص فيما تجرم من أحقاب ماضيه وتتابع من اطوار مسيرته واستحر من جهاد ملوكه وابنائه في كثير من وجوه الأخذ والرد وصح عندك بعد استعراض ضروب كفاحه على امتداد العصـــور وتطاول الأزمان دفاعا عن الشرف الرفيع وحفاظا على الكرامة واسهاما في تمريد صرح الحضارة وتوفير اسباب التكريم للعالمين ، ان شعـــاره الدائـــم المستبين من خلال ما تعاوره من شدة ، ولين مرصع أبلغ وأصدق ترصيع في هذا القول الشامخ الرصين :

قد هون الصبر عندي كل نازلة
ولين العزم حد المركب الخشن

ولم يقتصر همك ودابك على استشفاف ما غبر من إيام هذه البـــلاد واستحضار ما تواتر واستطار من ملاحمهـــا وانما قادك الاستشراف الى اكتناه ما انجبته الأطوار السالفة من اطوار خالفة والى استبار الحاضـــر وتقييمه في وضح ما استنار به الماضي من معالم وامارات واستضاء به من خصائص وسمات ، وكان لاتصالك بتاريخ هذه البلاد قديمه وحديثـه ولوقوفك على ما استجاشها ويستجيشها باستمرار ولشد اهتمامك الى ما هي دائبة عليه من اهتمام جادة فيه من اعمال التطوير والتغيير والوان الاغزار والتكثير لاسباب الرفعة ووسائل المجد ـ كان لهذا كله ـ العاقبة التي تلازمك وتصاحبك كلما رأيت الحياة سارية متدفقة في المطامـــح والرغائب وتبينت ان العزائم موازية لمستوى المقاصد والمطالب والقرائح

والهمم ماضية لا تنخذل ولا تستكين مصممة مصرة لا تهاود ولا تصانع ولا تلين وما تلك العاقبة التي لا تفارقك ولا تجفوك عند كل مشاهدة ورؤية من هذا القبيل الا الاعجاب الذي يدعوك بالحاح الى اعلان المعجزة والافتتان الذي يقتضي منك الوصف والرسم والتسجيل والاثبات واظهار الجمهرة من محبيك وقارئيك على ما يتدافع من مشاعرك ويتزاحم من خواطرك ويتساوق ويتناسق من بنات أفكارك .

وهكذا تتلو المعجزة اختها ويتم التصوير للاعجاب والافتتان ويقع فى ايدي القراء المؤلف الذي توافق القلب والعقل على وضعه وشحن صفحاته الكثيرة بالغزير والمفيد من عصارة النظر الموغل والفكر الثاقب وخلاصة البحث والتنقيب والاستفسار والاستملاء ، وهكذا يتلقى الباحثون والدارسون مجهودا توخى الاستيفاء والاستيعاب والتحقيق والتدقيق واستدهف التعريف بشيء كثير مما لم يكن معروفا وقصد الى تنبيه الضمائر وتوجيه الأنظار الى هذا البلد الأبي المجيد مثلما قصد الى الدلالة على جلاد قديم وجهاد حديث وتجربة تناولت ميادين مختلفة وحالفها النجاح فى العدد العديد من مراحلها وأشواطها .

واني لموقن بأن مؤلفك الذي يوافي القراء بحقائق كانت تنتظر ان يقيض الله من يزيح عنها القناع سينال بما يكفل من انتفاع واستمتاع ما هو اهل له من اقبال واعزاز .

وفى الوقت الذي يخوض فيه هذا الوطن الذي أصبح وطنا لك معركة مصيرية تحل « المعجزة المغربية » وتنتشر بين جماهير القراء وتنتصب برهانا على ان قضية اراضينا المحتلة شمالا وجنوبا ستعالج بما هو مأثور عن الحسن الثاني سليل الأبوة الغطاريف وعن شعب المغرب من ثابت العقيدة وواطد العزيمة .

لقد كانت « المعجزة المغربية » التي صرفت الى ابرازها القيم الثمين من اراداتك وعزمك حرية بأن تثاب وتكافأ بما يكافأ به كل مجهود فكري تضافرت فيه المحبة والأمانة وانطلاقا من التقدير الذي يكنه صاحب الجلالة الحسن الثاني ادام الله رعايته لكل عمل فكري مستجاد فقد أضفى العاهل الكريم على مزاياك الفكرية اعظم تشريف ونوه بانتاجك أجل تنويه.

فهنيئا لك هذا الانعام وشكرا لك على ما اعطيت فأجزلت واسديت فأحسنت وأجملت .

مشاركة وزارة الثقافة في الاحتفال بالسنة الدولية للمرأة

في اطار احتفالات ومهرجانات السنة الدولية للمرأة ، اقامت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معرضا في بهوها ، اشتمل على بعض نماذج من لباس العروس المغربي التقليدي ، بالاضافة الى بعض المعروضات النسوية التي تسجل أنشطتها ، وتطورها في شتى المجالات ، فعرضت بعض الكتب التي قامت بتأليفها نساء مغربيات ، وبعض المجلات النسوية، والاطروحات الجامعية ، ولوحات تعرف بالنشاط النسوي في المغرب ، في ميدان السينما ، والمسرح ، والادارة ، وغيرها من الميادين، كما أقامت حفلا شيقا في قاعتها ، تحت رئاسة وزير الثقافة ، حضره جميع المشاركات والمدعوات من موريطانيا ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا.

وفي هذا الحفل ، استعرضت على خشبة قاعة الوزارة ، نساء عرائس من مختلف المدن المغربية ، وكل واحدة منهن كانت تلبس لباسا

خاصا بمدينتها فى استعراض اخاذ جميل ، وذلك على انغام الموسيقى الأندلسية .

وقد اختتم هذا الحفل بمعرض الرسوم التشكيلية الذي نظم بمسرح محمد الخامس .

جوائز لأحسن عازفة مغربية

اسهاما من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى العام الدولي للمراة ، وتكريما منها للفنانات المغربيات ، قررت الوزارة رصد ثلاث جوائز هامة لأحسن عازفة مغربية سواء كان :

العزف على الطريقة التقليدية المغربية

العزف على الطريقة الشرقية

العزف على الطريقة الغربية

وللمرشحة الحق فى اختيار الآلة الموسيقية التي ترغب فى العزف عليها .

فمن ترغب فى المشاركة فى هذه المسابقة الهامة أن تتصل كتابيا بالعنوان التالي :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة التعليم الفني) .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 14 يونيه 1975 .

وسيجري الاختبار يوم الثلاثاء 24 يونيه 1975 ، وذلك بالمعهد الوطني للموسيقى بالرباط .

محاضرات وزارة الثقافة

نظمت وزارة الثقافة سلسلة من المحاضرات فى مختلف شؤون المعرفة ، قامت بالقائها صفوة من مفكرينا فى قاعة محاضراتها .

افتتح هذه السلسلة ، السيد وزير الشغل والشؤون الاجتماعية ، الاستاذ السيد محمد العربي الخطابي ، بمحاضرة تحت عنوان : « جهود المغرب فى الحقل الدولي لتحرير اراضيه المغتصبة » ، وذلك بتاريخ 21 فبراير 1975 .

كما القيت فى نفس القاعة محاضرتان للأستاذين عبد العزيز بن عبد الله ، بعنوان « ابعاد الحضارة المغربية فى افريقيا والبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، » فى مساء يوم 17 مارس 1975 ، وأخرى للأستاذ السيد عباس الجراري فى موضوع « الشعر المغربي فى مرحلة النهضة » (14 مارس 1975) .

وبمناسبة الاحتفال بالسنة الدولية للمراة نظمت هذه الوزارة محاضرة القاها الدكتور علي عبد الواحد وافي فى نفس القاعة فى موضوع « المرأة فى الاسلام » بتاريخ 13 ربيع الثاني 1395 الموافق 25 أبريل 1975 .

والقى الاستاذ قاسم الزهيري محاضرة بعنوان : « من باندونغ الى اديس أبابا نضال موصول لتصفية الاستعمار » (26 / 5 / 1975) وذلك بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لتأسيس منظمة الوحدة الافريقية .

"روز اليوسف"
تنشر استجواب وزيرنا في الثقافة

خلال الزيارة التي قام بها الى المغرب ، مندوب مجلة «روز اليوسف» السيد عبد الفتاح رزق ، للاطلاع على سير الحركة الثقافية والفكرية فى بلادنا ؛ اجرى استجوابا مع السيد وزير الثقافة الأستاذ السيد الحاج امحمد ابا حنيني ، تناول مختلف الجوانب الثقافية والأدبية فى بلادنا ، والمجهودات المبذولة من طرف وزارة الثقافة المغربية بقصد تعزيز الميدان الثقافي وتشجيع رجالاته .

نشر الاستجواب بمجلة « روز اليوسف » فى عددها 2436 .

معرض الخناجر المغربية القديمة

بعد المعارض التي اقامتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى بهوها للخزف المغربي ، والآلات الموسيقية المغربية ، واللباس المغربي القديم ، اقامت اخيرا معرضا خاصا بنماذج الخناجر المغربية عبر تاريخ المغرب .

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

تحتفل :

بعيد الربيع والشعر

ورد الربيع مرحباً بوروده

وبنور بهجته ونور وروده



بمناسبة فصل الربيع ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية امسية شعرية بقاعتها ، اشتملت على قراءات شعرية من ملف التحرير ، شارك فيها الأساتذة :

— عبد الكريم غلاب .

— مولاي الطيب المريني .

— حبيبة البورقادية .

وكان برنامج الامسية يشتمل على ما يلي :

— السيمفونية (الريفية) لبتهوفن .

— كلمة بالمناسبة للاستاذة حبيبة البورقادية .

— انشاد شعري من دواوين شعرائنا :

— علال الفاسي

— المختـــــار السوســـــي
— محمـــد ابـن ابراهيـــم
— عبد الكريـــم ابن تابـــث
وقد غصت القاعة بجمهور غفير من الادباء والشعراء والمثقفين .



من كل قطر ديوان

ذلك هو الشعار الذي اطلقته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة التنشيط الثقافي) على المعرض الذي نظمته ببهوها ، بمناسبة فصل « الربيـــع » ، حيث اشتمل على مجموعة قيمة من الدواوين ، كل قطر من الأقطار العربية تمثله مجموعة من دواوين شعرائها المرموقين .

وكان لهذا المعرض الشعري صدى استحسان من لـــدن زائريـــه المثقفيـــــن .

كتب مغربية صدرت مؤخراً

- جـــولات فى مغـــرب امـــس ـ قبيل الحمايـــة : عبـــد المجيـــد ابن جلـــون . مكتبة المعارف ـ الرباط . 152 صفحـــة .

- عنـبلـــة . قصـــة طفولـــة .
محمـــد الصبـــاغ .
دار الكتاب ـ الدار البيضاء . 94 صفحة . صور ملونة .

- مجموعة قصص بسمة للاطفال .

9 حلقـــات :

1) نشيد مدرسي . 2) العش . 3) على مائدة الطعام . 4) موناليزا
5) السمكة المسحورة . 6) اصوات . 7) الصياد . 8) عنكبوتة .
9) مخلـــوق .

تاليف : محمـد الصبـاغ .

دار الكتاب ـ اللبناني ـ بيروت 1975 .

- الاميـــر الشاعـــر ابو الربيـــع سليمـــان الموحدي :
عبـــاس الجـــراري .
دار الثقافة ـ الدار البيضاء . 239 صفحة مع فهارس .

- الصـــورة والصـــوت .
خنـــاثـــة بنـــونـــة .
دار النشـــر المغربيـــة ـ الدار البيضاء . 100 صفحـــة .

مناقبُ أهل الصّحراء
في تشييد صرح الدولة المغربيـة الغـرّاء

عنوان كتاب جديد سيصدر للأستاذ عبـد الوهاب ابن المنصـور ، مشتملا على ذكرياته ، وخلاصة مطالعاتـه فى مختلف الكتب التاريخيـة والادبية والسياسية والديبلوماسية والوثائقية فى هذا الموضوع الوطنى ،

الذى يخوض الشعب المغربى بأسره معركته الحاسمة ، من اجل تحرير هذا الجزء الصحراوى المغتصب من وطننا .

وقد جاء الكتاب اضمامة من تاريخ وادب وسياسة وديبلوماسية ، بأسلوب يجذب اليه كل متذوق للأدب ، وكل متطلع الى هذه الآفاق الصحراوية فى مذقب اهلها ، ومحتد أرومتها ، وعراقة اصولها المغربية ، وذلك لاقامة الحجة على من ينكر حق المغرب فى صحرائه من الناقمين الحاسدين ، وابضاح الحجة أمام الحائرين المتشككين ، كما يشير الى ذلك مؤلف الكتاب فى تصديره .

بلاغ حول نتيجة جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق العامة والوثائق المتعلقة بالصحراء المغربية المغتصبة

بناء على البلاغين الصادرين عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، المتعلق أولهما بجائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق العامة ، وثانيهما بالصحراء المغربية المغتصبة ، تسلمت الوزارة كثيرا من المخطوطات والوثائق الواردة من مختلف أنحاء المملكة ، وعينت لها لجنة من المختصين .

وقد تفرغت هذه اللجنة لفحصها ، ودراستها ، وتقييمها ، فتبين لها الاهمية البالغة لكثير من هذه المخطوطات والوثائق ، نظرا لما تكشف عنه من معلومات تاريخية جديدة ، من شأنها أن تفيد الباحثين والدارسين فى مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية .

وبعد ما عقد السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، اجتماعات متعددة مع اللجنة المذكورة للمداولة فى هذا الموضوع ، تقررت النتيجة التالية :

جائزة الحسن الثاني للوثائق المتعلقة بالصحراء المغربية المغتصبة

الجائزة الأولى :

فاز بها السيد البشير لحديم من طرفاية عن ست وثائق .

الجائزة الثانية :

فاز بها السيد عبد المنعم بركاش من الرباط ، عن وثيقتين .

الجائزة الثالثة :

فاز بها السيد احمد العنتري من القصر الكبير ، عن 21 صورة شمسية ، تمثل احتفال سكان الصحراء المغتصبة بعودة المغفور له جلالة محمد الخامس واعلان استقلال المغرب .

جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات العامة

الجائزة الاولى :

فاز السيد عبد المنعم بركاش من الرباط ، عن مجموعة من الوثائق عددها 735 وثيقة .

الجائــزة الثانيــة :

فاز السيد ابن الفاطمي ابن الحاج ، من فاس ، عن 3 مخطوطات .

الجائــزة الثالثــة :

فاز بها السيد محمد بن العربي الدرقاوي من فاس ، عن مجموعة من الرسائــل العلميــة .

الجائــزة الرابعــة :

فاز بها كل من السيدين :

ا ــ محمد كثير من فم الحصن ، عن 33 وثيقة متنوعة .

ب ــ السيد عبد الحق عادلي من الدار البيضاء ، عن مخطوط فى غريــب الحديــث .

كما تقرر منح جوائز تشجيعية لثمانية وستين مرشحا .

وبما ان الوزارةتعتزم اقامة معرض للمخطوطات والوثائق فى الايــام القريبة ، فانها تهيب بأصحابها أن يرجئوا سحب معروضاتهم الى حيــن انتهاء المعرض ، حتى تتم الاستفادة على اوسع نطاق .

ندوة لدراسة الشعر الشعبي بتونس

دعا المركز الثقافي الدولي بالحمامات بتونس الى عقد ندوة لدراسة الشعر الشعبي فى كل من مصر ، وليبيا ، والجزائر ، والمغرب ، وتونس، وذلك بمقر المركز المذكور من 28 يوليوز الى 2 غشت من هذه السنة .

وقررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مشاركة المملكة المغربية فى هذه الندوة ، بايفاد مجموعة من الاختصاصيين للحضور فى اعمالها .

معرض الكتاب العربي بتونس

اقيم بتونس العاصمة معرض الكتاب العربي من 14 ربيع الاول الى 23 منه 1395 / 28 مارس الى 6 ابريل 1975 ، شاركت فيه وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بنماذج من الكتاب المغربي الحديث ، واصدرت بالمناسبة كتيبا اشتمل على قائمة الكتب المغربية التي ساهم بها المغرب فى هذا المعرض .

انعقاد مؤتمر الفنون التشكيلية بدمشق

بدعوة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة للجامعة العربية ، انعقد بدمشق مؤتمر الفنون التشكيلية فى الوطن العربي من 5 الى 14 جمادى الثانية 1395 / 17 الى 26 مايو 1975 .

ودرس المؤتمر اوضاع الفنون التشكيلية فى الوطن العربي ، ومفهوم الأصالة والمعاصرة فيها ، ودورها فى مجالات الحياة الحديثة ، وما تقوم به الدولة من رعاية واعداد ، ونشر للوعي بالفنون فى الماضي والحاضر والمستقبل .

وشاركت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى هذا المؤتمر ، بوفد تالف من السادة :

حسن احمد الصمودي : رئيس مصلحة التعليم الفني رئيسا

المكي مغارة : استاذ بمعهد الفنون الجميلة بتطوان عضوا

سعد ابن سفاج : استاذ بمعهد الفنون الجميلة بتطوان عضوا

انعقاد مؤتمر الفنون المسرحية بدمشق

تعزيزا للعلاقات الثقافية بين المملكة المغربية والجمهورية السورية، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الاسهام فى مهرجان دمشق السادس للفنون المسرحية الذي نظم بعاصمتها من فاتح ماي الى الخامس عشر منه ، بايفاد فرقة مسرحية فى المستوى المطلوب .

المناهل

الفهرس

صفحة		
5	نظم مثلث قطرب وشرحه	عبد الله كنون
19	الثقافة : لغة ، وفكرة ، وتنظيما	محمد العربي الخطابي
37	حماية الاسلام للانساب	د. علي عبد الواحد وافي
51	معطيات الفن الاسلامي في المغرب	عبد العزيز بنعبد الله
72	موقف الأديب والفنان بين الحرية والالتزام	د. تمام حسان
90	كالب وحق السماء ... ! (قصة)	عبد الكريم غلاب
106	النضال في الشعر العربي بالمغرب	د. عباس الجراري
153	هكذا ستتم رحلة ابن زيدون الى المغرب	محمد الصباغ
157	العلاقات الانجليزية المغربية	د. شوقي عطا الله الجمل
188	بطل الشطرنج (قصة)	للقصصي الامريكي ر. ب. وايت ترجمة : عبد المجيد ابن جلون
199	صحراء يا شفة التاريخ (قصيدة)	د. نذير العظمة
203	المغرب في كتب الجغرافيين القدماء	عبد القادر زمامة
210	يا صحرائي ... ! (شعر)	عبد الوهاب ابن المنصور
211	ملامح الشعوب في ادب الرحلات	حبيبة البورقادية
218	الاخطبوط (قصة)	احمد عبد السلام البقالي
245	مكانة العربية بين اللغات العالمية	د. علي القاسمي
288	الفصول (قصيدة)	ابو بكر اللمتوني
292	حول آثار ابن رشيق	عبد العلي الودغيري
307	مختارات بابلو نيرودا (شعر)	ترجمة : د. الطاهر أحمد مكي
312	علم النفس في مؤسسات العمل	د. فرج عبد القادر طه
324	ابن سيده المرسي – 3 –	بقلم المستشرق الاسباني: داريو كابانيلاس رودريكيس ترجمة وتعليق : حسن الوراكلي
337	انطونيو ماتشادو (شعر)	ترجمة : « المناهل »
340	ذيل وتعليق حول قضية المعتمد ابن عباد – القسم الثالث –	عبد الرحمن الفاسي
	في مكتبة المناهل :	
362	1 – مع الأدب والأدباء	عبد الرزاق الهلالي
372	2 – عندلة	د. محمد محمد الزلباني
376	الاعلام الثقافي	المناهل